# موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة

لصاحبها الأستاذ الدكتور
بسيوني محمد الخولي

## المجلد الرابع
## الذات الحضارية للإسلام
## ( الحضارة الإسلامية )

الجزء الرابع

# موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة

## لصاحبها الأستاذ الدكتور
## بسيوني محمد الخولي

المجلد الرابع

الذات الحضارية للإسلام

( الحضارة الإسلامية )

الجزء الرابع

الجيش

## ١١

إشراف

أ / محمد عمر الفاروق

# موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة

## المجلد الرابع : الذات الحضارية للإسلام ( الحضارة الإسلامية )

## الجزء الرابع : الجيش

---

المؤلف: أ.د. بسيونى محمد الخولى

رقم الإيداع: ٩٦٥٧ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977 – 5197 – 24 – 4

الطبعة: الأولى ٢٠٠٨

تصميم الغلاف: فنان تشكيلى / حسام حنيطر

الناشر: أصيلة للتصميم والنشر ( فنان تشكيلى / إبراهيم حنيطر )

٣٢ شارع د. محمد عوض – مكرم عبيد – مدينة نصر – القاهرة

ت : ٢٢٧٤٢٥٠٩ email: henetar@link.net

www.tashkila.net



---

1429 هـ




2008 م



البريد الإليكتروني
ALDORAR_ALZAHERA@YAHOO.COM

# المحتـــــويات

## فهرس الموضوعات

# الجزء الرابع

# الجيـــــش

# تمهيـــــــــد

بالرغم من أن الحضارة كمدرك يعطى دلالة مباشـرة علـى المدنيـة والعمـران والقـيم والرقـى والتطور ، إلا أن لكل هذه المظاهر والأشكال المبهجة المبهرة جانباً آخر ذا طبيعة عنيفـة ، وقد تكون بغيضة تتعلق بالصراع ، الذي يبدأ عادةً بالخلاف الفكري والاخـتلاف النظـري ، وينتهي دائماً – إذا لم يُفضُ مبكراً – بالصراع العضوي ، الذي يعنى عدم قبول وجـود الآخر، والرغبة في إنهاء ذلك الوجود ، ومن النادر أن نجد حضارة لا تحمـل في عناصـرها ومفرداتها هذا الجانب العنيف .

والحضارة ترى في القوة ضرورة ، ليس لاستعمالها للعدوان دائمـاً ، ولكـن للتحـصن بهـا والدفاع عن القيم والمكتسبات والمنجزات التي حققتهـا ، كمـا تـرى في إعـداد تلـك القـوة وترتيبهـا وتنظيمهـا في جيـوش واسـتراتيجيات ضـرباً مـن ضـروب الحـضارة وشـكلاً من أشكالها .

ولم تكن الحـضارة الإسلامية في ذلـك بـدعاً ، فقـد لجـأت لتأسـيس الجـيش ، واعتبـاره مؤسسة تنظيميـة محكمـة لأسباب كـثيرة ، وتجـد هـذه الأسـباب جـذورها في أصـوليات مرجعية ، تستند إليها تلك الحضارة في تأسيس المؤسسة العسكرية .[١]

وقد تطور الجيش في الحضارة الإسلامية تطوراً سريعاً ، واكتسب ذلك التطـور مـن الخـبرة المتراكمة من الفتوحات المتواصلة في كافة الاتجاهات ، ووصل به الأمر إلي أن أصبح أقوى جيش في العالم في عهد الخلفاء والعهد الأموي .

[١] . ينبغي الإشارة إلي أننا قد تناولنا الجيش في هذا الموضع بوصفه مقوماً من مقومات الحضارة الإسلامية ، أما فيما يتعلق بالحرب كفكر واستراتيجية فقد أفردنا لها مجلداً خاصاً ، فيمكن الرجوع إلي : المجلد التاسع ، الحرب في الإسلام ، الجزء الأول ، أصول الحرب في الإسلام .

وتعرض ذلك التطور الذي وصل إلي مداه في عهد بنى أمية إلي انكسار حاد علي أثر الاجتياح المغولي للشرق الإسلامي ، وتدميره للحضارة والخلافة العباسية في بغداد ، حيث انتهى وجود الجيش الإسلامي الموحد ، وحلت محله الجيوش المتعددة للدويلات والأقاليم الإسلامية ، وكان أقواها وأكثرها تنظيماً الجيش المملوكي في مصر والشام .

ثم دخل الجيش الإسلامي طوراً جديداً من القوة والإحكام علي يد الأتراك العثمانيين حيث أسسوا جيشاً قوياً ومنظماً ، ولكنه اتصف بالعنصرية حيث اعتمد علي العنصر التركي فقط، واستهدف تحقيق المجد والمآرب الشخصية لآل عثمان ، فكان من الصعب تسميته بالجيش الإسلامي ، بل كان جيشاً تركياً أو عثمانياً مسلماً .

ومرة أخرى يتعرض الجيش العثماني المسلم لانتكاسة ارتبطت بضعف الدولة العثمانية وأفول نجمها وانفلات الولايات الإسلامية من سيطرتها واحدة تلو الأخرى ، وعاد الجيش مرة أخرى إلي التعدد حيث سعت كل دويلة إسلامية إلي تكوين جيش خاص بها ، وقد أُضعفت هذه الجيوش المتعددة وأنهكت بفعل السيطرة الأوروبية علي الدويلات الإسلامية .

وبعد حصول الدول الإسلامية علي استقلالها عن السيطرة الأوربية ظهرت الجيوش الوطنية التي ارتبطت بالدولة ذات العنصر المعين والإقليم المحدد ، ولم يعد من الممكن الحديث عن الجيش الإسلامي ، أو الحديث عن الجيش كأحد مقومات الحضارة الإسلامية .

في هذا الجزء نتناول بالدراسة والتحليل الجيش كأحد مقومات وعناصر الحضارة الإسلامية. وكيف تطور من فجر الحضارة الإسلامية حتى الآن ، وكيف يمكن تفعيل هذا المقوم ليصبح عنصراً فعالاً في مستقبل الحضارة الإسلامية ، تواصل من خلاله عطاءها الحضاري ، وسوف يتم هذا التناول من خلال الفصول الثمانية التالية :

الفصل الأول : الجيش عنصر من عناصر الحضارة الإسلامية .

الفصل الثاني : تأسيس الجيش منذ فجر الحضارة الإسلامية .

الفصل الثالث : الجيش في عهد التفكك والانهيار [ الجيوش المتعددة ] .

الفصل الرابع : الجيش في عهد الدولة العثمانية

[ الجيش العنصـــري المسلم ] .

الفصل الخامس : الجيش بعد انهيار الدولة العثمانيـــــة

[ الجيوش العنصرية المتعددة ] .

الفصل السادس : الجيش في عهد السيطرة الأوروبية .

الفصل السابع : الجيش فيما بعد الاستقلال

[ الجيوش الوطنية المتعددة ] .

الفصل الثامن : الجيش ومستقبل الحضارة الإسلامية .

# الفصل الأول

# الجيش عنصر من عناصر

# الحضارة الإسلامية

كيف كان الجيش عنصراً أو مقوماً من مقومات الحضارة الإسلامية مثله مثل ما قدمنا من مقومات وعناصر ؟ ! ، مما لا شك فيه أن الجيش يعد أحد المقومات ذات الطبيعة الخاصة ، الطبيعة التي تبدو في الظاهر أنها تناقض القيم والمبادئ والمثل ، ولكنها في الواقع تدعم تلك القيم والمبادئ والمثل ، وخصوصاً إذا كان الواقع يقدس القوة ويحترم من يتحلى بها ، في هذا الفصل نناقش فكرة كون الجيش عنصراً من عناصر الحضارة الإسلامية وذلك من خلال المبحثين التاليين :

**المبحث الأول : الطرح الإسلامي في شرعية تأسيس الجيش .**

**المبحث الثاني : الجيش عنصر من عناصر الحضارة الإسلامية .**

## المبحث الأول

## الطرح الإسلامي في شرعية تأسيس الجيش

في هذه الجزئية نتناول الطرح الإسلامي المتعلق بشرعية تأسيس الجيش ، فالجيش جزء من المجتمع أوكلت إليه مهام محددة مثله في ذلك مثل أي جهاز داخل الدولة ، والجيش في الدولة الإسلامية ليس ابتكاراً إخترعه النظام السياسي ، بل هو كيان ظهر وتأسس بناءً علي أوامر وتوجيهات شرعية ، نظراً لما لهذا الكيان من مهمة في تحقيق غايات ومقاصد تتعلق بالدين الحنيف ، من حيث تثبيته وتقوية أركانه ، ونشره في كافة الأرجاء ، والتفصيل من خلال الآتي :

**أولاً : الجيش يمثل رمز القوة والعنف وأداة إدارة الصراع العضوي في الحضارة :**

يشهد التاريخ الإنساني علي أن الحضارة ليست قيماً ومبادئ ومثلاً فقط ، ولكنها تحوى كذلك إلي جانب الفضائل رموز القوة والعنف ، ولا يعنى ذلك الجانب غير الأخلاقي للقوة والعنف ، فلهذين المدركين وجههما المقبول والمطلوب ، كما لهما وجههما المخيف المرهوب ، وتحتاج الحضارة الإنسانية لهذين الوجهين معاً للقوة والعنف ، والجيش هو رمز القوة والعنف وهو في ذات الوقت أداة لإدارة الصراع العضوي في الحضارة ، وتوضيح ذلك من خلال ما يلي :

❖ **الجيش يمثل رمز القوة والعنف :**

الجيش في العربية يعنى شدة الحركة ودفق النشاط والحيوية ، وفي الاصطلاح يعنى الأفراد الذين أعدوا وهُيّئوا للقيام بأعمال معينة ، تنتهي دائماً بالصراع العضوي مع طرف مقابل ، وعرفت العربية ألفاظاً أخرى تؤدي نفس المعنى مثل الجحفل والخميس ، ولم ترد لفظة

الجيش في القرآن الكريم علي الإطلاق ، وورد في معناها الجند والجنود والجمع ، ومجازاً استعملت القوة لتدل علي الجيش .

والجيش يرمز إلي القوة والعنف والصراع ، وتبدو تلك الرمزية في طبيعة الأعمال التي يقوم بها أفراده ، وفي الوسائل والأدوات المستخدمة ، ثم في هدف تلك الأعمال وغايتها ، وسيتضح ذلك مما يلي :

- طبيعة الأعمال التي يقوم بها الجيش : فالجيش يؤدي أعمالاً عنيفة في التدريب والاستعداد ، ثم بعد ذلك يقوم بممارسات الصراع العضوي بشكل شرعي ورسمي .

- الوسائل والأدوات التي يستخدمها الجيش : فهو يستخدم الوسائل والأدوات العنيفة والقوية والقاهرة ، في الترتيب ، ثم في الهجوم والدفاع ، وفي السيطرة علي الخصم وقهره .

- الأهداف التي يسعي إليها : فالجيش يهدف من خلال إدارة الصراع العضوي إلي قهر إرادة الخصم . وإجباره علي تنفيذ رغبات ومطالب محددة هي هدف الصراع .

### ❖ الجيش أداة إدارة الصراع العضوي :

الجيش بمواصفاته السابقة طبيعة ووسيلة وهدفاً يمثل أداة إدارة الصراع العضوي ، فالوجه الخارجي للحضارة له جانبان : جانب قيمي قائم علي الفضائل والمثل والمبادئ ، وجانب آخر قائم علي العنف والقوة ، الأول يدار بوسائل السلم والحوار والتفاعل والوئام ، والثاني يدار بوسائل العنف والصراع العضوي ، الذي ينتهي بغلبة وسيطرة طرف علي آخر ، والجيش هو أداة إدارة الصراع العضوي .

والحضارات تتدرج في علاقاتها الخارجية من الوئام والتفاعل والحوار إلي العنف والصراع العضوي ، ويعد الجيش هو أداة ذلك الصراع ، ولا يضير الحضارة أو يسيء إليها تملك الجيش رمز القوة والعنف ، ولكن يشينها استخدام القوة في غير موضعها ، أي في البغي والعدوان ، كما لا يُؤخذ علي الحضارة استعدادها وجاهزيتها لإدارة الصراع العضوي ، ولكن تؤاخذ علي تطاولها علي الآخرين وإثارة الفوضى والاضطراب .

## ثانياً : شرعية تأسيس الجيش في الإسلام :

الجيش هو جانب القوة المادية في الحضارة ، ورمز القوة والعنف ، وأداة إدارة الصراع العضوي ، فمن أين يستمد الجيش بوصفه المذكور شرعية وجوده ؟ يبين الشرع الإسلامي أن للجيش مهاماً تتطلب بل وتفرض وجوده فرضاً ، وهذه المهام حددتها مصادر الطرح الإسلامي المحددة في الشريعة الإسلامية ونماذج الممارسة في دولة الرسول والخلفاء الراشدين في خمسة مهام نتناولها في الآتي :

### ❖ الردع والتخويف :

الردع لغة هو الكف والمنع ، واصطلاحاً يعني الكف والامتناع عن الاعتداء خوفاً من عاقبة الرد التي ستكون في نتائجها أقوى وأبلغ أثراً ، ويحتاج الردع إلي قوة مادية ملموسة ، ممثلة في الأفراد والعدد والعتاد ، وقوة معنوية محسوسة ، ممثلة في الشجاعة والإقدام والجلد والمثابرة والصبر والمهارة والحنكة في القتال .

ولفظة الجيش لم ترد في القرآن الكريم ، ووردت بدلاً منها ولكن بنفس معناها لفظتان هما : الجند أو الجنود والجمع ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ

بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾[1] ، وقال تعالى ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[2] ، وقال تعالى ﴿ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴾[3] ، وقال تعالى ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴾[4] ، وقال تعالى ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[5] ، وقال تعالى ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾[6] ، وقال تعالى ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴾[7] ، وقال تعالى ﴿ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴾[8] . وقال تعالى ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[9] ، وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا

---

[1]. سورة البقرة : ٢٤٩ و ٢٥٠ .
[2]. سورة يونس : ٩٠ .
[3]. سورة مريم : ٧٥ .
[4]. سورة طه : ٧٨ .
[5]. سورة النمل : ١٧ و ١٨ .
[6]. سورة النمل : ٣٧ .
[7]. سورة القصص : ٦ .
[8]. سورة القصص : ٨ .
[9]. سورة القصص : ٣٩ و ٤٠ .

﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[1] ، وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[2] ، وقال تعالى ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾[3] ، وقال تعالى ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾[4] ، وقال تعالى ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾[5] ، وقال تعالى ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ﴾[6] ، وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[7] ، وقال تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[8] ، وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[9] ، وقال تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[10] ، وقال تعالى ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾[11] ، وقال تعالى ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[12] .

كذلك جاءت لفظة القوة لتعبر مجازاً عن الجيش ، قال تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[13] ، وقد عبرت

---

[1]. سورة الأحزاب : ٩ .
[2]. سورة الصافات : ١٧٣ .
[3]. سورة ص : ١١ .
[4]. سورة الدخان : ٢٤ .
[5]. سورة الذاريات : ٤٠ .
[6]. سورة البروج : ١٧ و ١٨ .
[7]. سورة آل عمران : ١٥٥ .
[8]. سورة آل عمران : ١٦٦ .
[9]. سورة آل عمران : ١٧٣ .
[10]. سورة الأنفال : ٤١ .
[11]. سورة الشعراء : ٦١ .
[12]. سورة القمر : ٤٥ .
[13]. سورة الأنفال : ٦٠ .

هذه الآية الكريمة أبلغ تعبير عن أهمية الجيش ، وقيمة ما يحتكم عليه من قوة مادية بكافة صورها ، ومعنوية بجميع ضروبها ، فعلّة إعداد قدر ما في الوسع من قوة هي إرهاب العدو ، وقد جاءت لفظة قوة في هذه الآية نكرة ، لتفيد جميع أنواع القوة المادية والمعنوية ، والبادية والخفية، والحاضرة والغائبة ، والإرهاب في هذه الآية يعني تخويف العدو وإرعابه ، حتى يكف ويمتنع ويتراجع عن الاعتداء والتعدي ، لعلمه بعاقبة ذلك .

وللردع جانبان : جانب مادي ملموس ، يتمثل في تلمس القوة المادية والمعنوية ورؤيتها رأي العين ، وجانب معنوي محسوس يترتب علي الجانب المادي ، حيث يستشعر أحد الخصمين قوة خصمه ، فيصيبه الرعب ، وتأخذه الرهبة ، ويقلع عن التفكير في الاعتداء أو المبادأة بالحرب .

واستخدمت فكرة الردع الواردة في هذه الآية بشكل جيد ، حيث صيغت نظرية الردع النووي في العلاقات الدولية المعاصرة ، القائمة علي توازن دقيق للقوة النووية بين الدولتين الأعظم . كان من شأنه أن يردع أياً من القوتين عن الاعتداء علي الأخرى أو مبادأتها بالعدوان .

والسؤال الذي يعنّ لنا في هذا الموضع يدور حول ما إذا كان الاستعداد بالقوة وتجهيز الجيش ينبغي أن يكون بشكل مستديم ، ويمثل وضعاً دائماً وهو ما يعرف " بالجاهزية " أم أنه لا يتم إلا عند نشوب الحرب أو الاستعداد لها ؟ .

إن الاستعداد بالقوة وتجهيز الجيوش أمر ضروري وواجب ، وبصفة خاصة في عالم اليوم الذي لم يعد يحترم إلا القوة ولا يوقر إلا القوى ، والإسلام ينبغي أن يكون محترماً وموقراً ، ومن ثم لزم الاستعداد الدائم ، والتقوّى المستمر ، حتى يَرهبنا الأعداء ومن دونهم ، ولا يفكرون في الاعتداء علينا أو التعدي علي حرماتنا ، ولعل صيغة الأمر في صدر الآية ذات دلالة في هذا السياق " وأعدوا " .

وقد يرد علي ما قدمنا تحفظاً من عدة وجوه : فقد يقول قائل بأن الاستعداد الدائم وتجهيز الجيوش يعنى أن المسلمين ميالون إلي العنف والاستقراء علي غيرهم ، جل همهم الحرب والاستعداد لها ، وعلي هذا القائل نرد بأننا نستعد بامتلاك القوة ، ليس للاعتداء ، ولكن لمنع الاعتداء ، فقوتنا لا تغري أحداً بالاعتداء علينا ، أما نحن فلسنا قوم عدوان أو تعدى ، وتملك القوة لا يعنى الحمق في استعمالها .

وقد يرى آخر بأن الاستعداد والاحتكام علي القوة يدفع بنا في سبيل سباق التسلح ، مما يستنزف الجهد والوقت والمال ، ويؤثر علي خطط وسياسات الإنماء ، ويبدد ثروات ومقدرات الشعوب ، وعلي هذا الرأي نجيب بأن الجيش والاستعداد هو جزء من الإنماء ، لأن حماية مكتسبات الشعوب ، وما حققته من إنجازات ، لا يقل أهمية عن الإنماء ، وقد نختم هذا الرد بسؤال ، ما حالنا إذا أفلحنا في إنماء مجتمعاتنا وحققنا الإنجازات ولم يقدّر لنا الدفاع عن ذلك النماء وحماية تلك المكتسبات ، ثم كيف نصون مقدراتنا من الحضارة والثقافة والقيم والمبادئ ؟ إن ذلك لا يتأتّى إلا بامتلاك القوة ، وسوف يتضح هذا الأمر أكثر بعد قليل .

سؤال آخر قد يطرح نفسه في هذا السياق مفاده : لمن توجه القوة والاستعداد ، وهنا نلجأ إلي نص الآية فهو واضح صريح ، حيث تصرح بأن القوة والاستعداد توجه إلي كل من يناصبنا العداء صريحاً كان أم مستتراً ، فالعدو السافر الذي نعلمه هو هدف القوة والاستعداد ، والعدو المضمر الذي لا يعلمه إلا الله سيكون كذلك هدف هذه القوة حال بروزه من ستره ومحاولته الاعتداء علينا ، إلا أن لهذا السؤال شقاً آخر ، يتعلق بتخصيص من توجه إليهم القوة لتخويفهم وإرهابهم ، هل توجه للجيوش العاملة المعلومة ، أم توجه إلي الجيوش وشعوبها معاً ، وهنا يجب التأكيد علي أن هناك حقيقة لا مراء فيها ، هي أن الإسلام دين الحكمة والرشد والسماحة والعدل ، ويتضح ذلك في رده علي هذا السؤال

، فالآية الكريمة السابقة تشير إلي أن المستهدف من إعداد القوة وتجهيز الجيش هم الأعداء الذين نعلمهم ، وعدو الجيش هو الجيش المقابل ، فهذان هما الخصمان المتصارعان ، أما إذا دخل الشعب إلي حلبة الصراع ، فقد أنضم إلي زمرة الأعداء ، وأصبح معنياً بإعداد القوة ، ووجبت محاربته ، في حين أنه لو لم يدخل الشعب ومن ثم المجتمع إلي حلبة الصراع ، وظل بعيداً ، كانت له حرمته ، ولا يحل ترويعه أو الاعتداء عليه، فالشعب الذي يقف وراء الجيش المعادي أو أي أقوام آخرين هم من " الآخرين الذين لا نعلمهم ولكن الله يعلمهم " ، فلا ينبغي أن نقصدهم بالقتال بل بالإرهاب والتخويف ، أما القتال فخص به الجيش المواجه فقط ، أما إذا تحول هؤلاء إلي مناصبتنا العداء، فقد تحولوا من " الآخرين الذين لا نعلمهم ولكن الله يعلمهم " إلي " أعداء الله وأعدائنا " ووجب قتالهم لأنهم باتوا يكاشفوننا العداء .[1]

❖ المكنة والمهابة :

يتمم ما تقدم أن الجيش رمز المكنة ومثير المهابة . يبعث في نفوس أربابه الأمن والطمأنينة . ويثير في نفوس الأعداء الرهبة والرعب . ومن ثم كان الاهتمام بالجيوش منذ القدم ، لما لها من آثار في قرور أقوام وإقلاق آخرين . والقرآن الكريم أوضح الأهمية التي تعوّل علي مكنة الجيش ومهابته علي أصحابه وأعدائه .

قال تعالى ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[2] . في هذه الآية الكريمة يبين الحق تبارك وتعالى كم كان العرب يعوّلون علي

[1] . سوف نولى ذلك مزيداً من التفصيل والتدقيق في المجلد التاسع . الحرب في الإسلام ، الجزء الأول : أصول الحرب في الإسلام .
[2] . سورة آل عمران : ١٣ .

الكثرة في عدد الجيوش ويعدونها سبباً ووسيلة للظفر والغلبة ، إلا أن الأمر قد اختلف مع المسلمين ، فلم تفد كثرة جيش الكفار ، بالرغم من أن المسلمين كانوا يرونه ضعف عددهم .

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾[1] ، وفي هذه الآية الكريمة حض من الله تعالى علي الاندفاع إلي القتال في حمية ومضاء ، والأمر في " انفروا" يفيد استحضار القوة وعدم التردد والاندفاع دون تفكير ، ثم حدد سبحانه شكل الاستنفار للقوات المحاربة المجهزة للقتال في جماعات أو فرق أو في جمع مؤتلف عظيم ، علي أن يأخذ المؤمنون في كلتا الحالتين حذرهم ، ويتوخون الحيطة ، وهذا فن من فنون القتال وأحد مستلزماته ينبغي أن يتقنه القادة والجنود .

وقال تعالى ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[2] ، كذلك تبين هذه الآية الكريمة أشكالاً أخرى من أشكال النُفرة ، تتراوح بين الخفة والثقل ، حيث يجمع الجيش بين المشاة الرجال والركبان ، والشبان حديثي السن والشيوخ المسنين ، والفقراء والأغنياء ، فالجميع في الجهاد سواء .

وقال تعالى ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾[3] ، تنبه هذه الآية الكريمة إلي مسألة مهمة في تجهيز الجيوش والاستعداد للقتال ثم إدارة المعارك ، وهو عدم الاغترار بالكثرة التي تُلهي وتُنسي قدرة الله ومشيئته ، ففي معركة حنين التي وقعت في السنة الثامنة من الهجرة، كان عدد المسلمين اثني عشر ألف رجل ، وهو عدد

[1] . سورة النساء : ٧١ .
[2] . سورة التوبة : ٤١ .
[3] . سورة التوبة : ٢٥ .

لم يكن قد بلغه جيش للمسلمين قبل ذلك، وعوّل المسلمون علي كثرتهم ، ولكنها لم تجد ، إذ أنستهم أن النصر من عند الله، فأذاقهم الله في أول المعركة مرارة الهزيمة والانكسار ، للتذكر والثوب إلي الله والتوكل عليه ورجاء العون والمدد ، والحاصل أن الكثرة في الجيش كانت مطلوبة ، ولكنها لا ينبغي أن تُلهى عن التوكل علي الله ، فكم هي ماضية نافذة الكثرة المقرونة بتقوى الله والتوكل عليه ! .

وقال تعالى ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1] ، وتوضح هذه الآية الكريمة كذلك كم كانت الجيوش منذ القدم تعتد بالقوة ، وتعوّل علي النجدة والبلاء في الحرب ، فقد كان رد مستشاري بلقيس ملكة سبأ عندما عرضت عليهم أمر سليمان ، بأنهم يملكون القوة والمكنة والهيبة والاستعداد للكر والفر ، ولن يتورعوا إذا اتخذت قرارها بحرب سليمان، ولكن كان للملكة رأي آخر لا يخلو من دهاء ومكر النساء !! .

وقال تعالى﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[2] ، تبين هذه الآية الكريمة أن الكلمة الأخيرة كانت للقوة ، فلم تفد الحيلة التي لجأت إليها بلقيس في إغراء نبي الله سليمان ، وعزم الرسول الكريم علي المضي إلي قوم سبأ بقواته الهائلة ، التي لم يكن لجيش بلقيس قدرة علي مواجهتها ، وهكذا كانت القوة المسخرة في طاعة الله ، حيث رأي سليمان عرش بلقيس مستقراً عنده قبل أن يرتد إليه طرفه !! .

### ❖ تأمين المجتمع داخلياً وإقرار هيبة الدولة :

للجيش دوره كذلك في تأمين المجتمع داخلياً وإقرار هيبة الدولة ، وبالرغم من أن ذلك الدور يجب حصره في أضيق الحدود ، وتوجيه جل اهتمام الجيش إلي مهمته الأساسية في

---

[1] . سورة النمل : ٣٢ و ٣٣ .
[2] . سورة النمل : ٣٧ .

الدفاع ضد أي عدوان خارجي ، إلا أن الجيش يمثل في النهاية خط الدفاع الأخير ، أمام عوامل عدم الاستقرار الداخلي .

وتعتمد الدول قديماً وحديثاً علي قوات خاصة للأمن الداخلي والشرطة ، وهي قوات ذات طبيعة تنظيمية تنفيذية ، تنصرف إلي تنظيم الأمور الإدارية ، وتأمين المرافق ، وتنفيذ أحكام القضاء ، وحفظ الأمن في ربوع الدولة ، إلا أنه قد يحدث أن تخرج بعض شرائح أو فئات أو طوائف المجتمع علي النظام العام ، وتشق عصا الطاعة ، وتخالف الجماعة ، ويكون ذلك الخروج أكبر من إمكانات قوات الأمن الداخلي والشرطة ، وفي هذه الحالات يُستدعى الجيش، ليتولى مهمة السيطرة علي الأوضاع وإقرار الأمن .

واستدعاء الجيش لا يتم إلا إذا تفاقمت الأوضاع بشكل يعرض أمن المجتمع للخطر ، وينذر بوقوع فتنة تعصف بحياة الناس . ويقرر هذا الاستدعاء ولي الأمر بعد مشاورة مجلس الشورى أو الجهات الاستشارية ذات الاختصاص ، ولا ينبغي أن يكون استدعاء الجيش لإقرار الأمن الداخلي أمراً مألوفاً أو معتاداً أو متكرراً .

ولعله من أسوأ الظواهر في الحياة السياسية المعاصرة ، تدخل الجيوش في الحياة السياسية ، حيث يوالى الجيش بعض القوى أو الرموز السياسية ، ويتدخل لصالحها ، فتحدث الانقلابات والانقلابات المضادة ، وتسود الفوضى وعدم الاستقرار حياة المجتمع ، ولذلك لا ينبغي للجيش التدخل في الحياة السياسية تحت أي ظرف من الظروف ، إلا إذا وقع ما يعرّض حياة وأمن المجتمع للخطر علي أن يكون التدخل محايداً ويستهدف إقرار الأمن .

ويعتبر استدعاء الجيش لمواجهة حركات التخريب والإرهاب ، التي تعجز أجهزة الأمن الداخلي عن مواجهتها أمراً ضرورياً وواجباً ، إلا أن الجيش ينبغي أن يغادر قافلاً إلي

مواقعه بانتهاء مهمته ، وينطبق ما تقدم علي حركات التحرر والانفصال التي قد تنتاب بعض أقاليم الدولة.[1]

❖ الدفاع ورد العدوان :

تتمثل المهمة الأساسية للجيش في الدولة الإسلامية في الدفاع ورد العدوان ، ويثار في هذا الصدد سؤال احتدم حوله الجدل منذ زمن طويل ، وهو يتعلق بالجيش تفريعاً وبالحرب رئيساً، مفاد هذا السؤال : هل الجيش الإسلامي يدخل في الحرب للدفاع ورد العدوان فقط، أم له أن يشن الحرب تحت دعوى الدعوة إلي الدين ونشر الإسلام ، وسنحيل في مناقشة هذه المسألة إلي موضع ذي تخصص .[2]

❖ الدفاع عن المسلمين :

من أهداف تأسيس الجيش في الدولة الإسلامية الدفاع عن المسلمين ، وهذا يتفق مع القاعدة الشرعية الخاصة بحق المسلم علي المسلم ، فمن أهم أشكال ذلك الحق هو الدفاع وكف الأذى ، إلا أن مطلب قيام الجيش المسلم بالدفاع عن المسلمين يثير إشكالية معاصرة لابد من مواجهتها وتقديم الطرح الإسلامي بخصوصها ، وهذه الإشكالية تتفرع إلي عدة أسئلة يمكن تناولها فيما يلي :

– هل جيش كل دولة إسلامية هو جيش لكل المسلمين ؟ :

الجزء الأول من الإشكالية المتعلقة بدور الجيش المسلم في الدفاع عن المسلمين يكمن في هذا التساؤل ، وهذا التساؤل يثير معضلة أخرى ، تتعلق بوضعية الدول الإسلامية في الوقت الراهن ، حيث أن هذه الدول بمثابة دول متعددة مستقلة وذات سيادة وليست دولة واحدة ، وكل دولة تملك جيشاً مستقلاً خاصاً بها ، يقوم بمهامه إزاءها ، ولا ينبغي له أن

---

[1] . يمكن الرجوع إلي موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد التاسع : الحرب في الإسلام ، الجزء الأول ، أصول الحرب في الإسلام ، الفصلين الرابع والخامس .

[2] . المرجع السابق ، الجزء الأول ، أصول الحرب في الإسلام ، الباب الأول .

يتجاوز تلك المهام أو يتجاوز حدود الدولة ، إلا بموجب معاهدات ومواثيق خاصة تبرر القيام بذلك .

إذن فقد نشأ عن قيام دول إسلامية مستقلة تأسيس جيوش مستقلة ، وأصبح لكل دولة جيش يدافع عن إقليمها ، ولن يتمكن ذلك الجيش من تجاوز حدود دولته إلي دولة إسلامية أخرى إلا بإذن من الدولتين معاً ، ولو قلنا أن ذلك يخالف الإسلام ، لا ستتبع ما نقول ، أن نطعن في خاصيتى الاستقلال والسيادة التي تتمتع بها كل دولة إسلامية في الوقت الراهن ، ولانتهينا إلي إقرار قاعدة تقضى بضرورة إزالة هاتين الخاصيتين إزاء الرابطة الإسلامية ، التي ينبغي أن تتجاوز الحدود وتحطم الحواجز ، وهذا الطرح قد يصطدم بالواقع ويثير العديد من المشاكل، وربما القلاقل ، ومن ثم فالأقرب إلي التعامل مع الواقع دون تأليب الكوامن ، وتحقيق الحدود الدنيا من الرابطة الإسلامية ، يكمن في إبرام اتفاقيات بين الدول الإسلامية ، بموجبها يمكن لجيوش تلك الدول التعاون فيما بينها .

- إذا وقع اعتداء علي دولة إسلامية هل يجب علي كل الدول مناصرتها :

الجزء الثاني من الإشكالية يبرز في حالة وقوع عدوان علي دولة إسلامية ، هل يجب علي جيوش الدول الإسلامية الأخرى التدخل للدفاع عنها ؟ ، الأصل وفق الشرع أن تهب كافة الدول الإسلامية للدفاع عن الدولة الإسلامية ، ولكن الواقع الراهن المتمثل في انقسام الدول الإسلامية يجعل وضع هذا الأصل موضع التطبيق أمراً لا يخلو من صعوبة ، وعليه فعلاج هذه الإشكالية الفرعية يكمن في إجرائين :

* الأول : أن تطلب الدولة الإسلامية التي وقع عليها العدوان مؤازرة الدول الإسلامية الأخرى .

* الثاني : أن يكون هناك اتفاق مسبق يقضى بالمساندة في حالة وقوع عدوان علي أي من أطراف الاتفاق .

- إذا وقع اعتداء علي المسلمين في دولة إسلامية [ أقليات إسلامية ] :

الجزء الثالث من الإشكالية محور التحليل تثار عندما يتعرض المسلمون المقيمون في دول غير إسلامية لاعتداءات أو تجاوزات من سلطات الدولة التي يقيمون فيها أو من دولة أخرى ؟ فالواقع يشهد تناثر أقليات إسلامية في دول العالم المختلفة ، تتباين أعدادها من دولة إلي أخرى، وهذه الأقليات لا تسلم في بعض الأحيان من الاعتداءات أو التجاوزات من قبل سلطات الدولة التي يعيشون فيها ، أو من قبل دول أخرى ، وإزاء ذلك يعن السؤال : ما هو موقف الدول الإسلامية إزاء هاتين الوضعيتين ، هل تحرك جيوشها للدفاع عن تلك الأقليات وكف الأذى عنها ، أم تلجأ إلي وسائل أخرى ؟ .

حقيقة الأمر أن عالم اليوم يعج بالتطورات والأوضاع والمستجدات الدقيقة والمتداخلة ، ومن شأن أي تصرف غير حكيم أو موقف غير رشيد ، أن يثير المتاعب ، ويجلب علي المسلمين الكثير من التداعيات التي تعوق حركتهم ، وتحد من مقاصدهم وغاياتهم ، وتسئ إليهم في ذلك الواقع المعقد ، ومن ثم فينبغي توخى الحكمة واستصحاب الحذر في كل موقف أو تصرف في عالم اليوم ، وانطلاقاً من ذلك فهذه الإشكالية المتفرعة من أختها الكبرى ، تحتاج إلي معالجة تتدرج في منطلقات متتابعة :

* إن التدخل الانفرادي التلقائي دون مشاورة المعنيين بهذه المسألة وترتيب المعالجات مع اكبر عدد من الدول الإسلامية قد يؤوّل وينبغي ذلك وفق مبادئ القانون الدولي علي أنه تدخل في شئون دولة مستقلة وذات سيادة ، علي اعتبار أن وضع الأقليات الإسلامية في الدول التي يتواجدون فيها هو من قبيل الشئون الداخلية ، وهنا يؤدي ذلك التدخل إلي

إثارة الفتن والقلاقل في النظام الدولي ، ويسئ كذلك إلي الإسلام والمسلمين ، وينعتهم بالهمجية وعدم استيعاب السلوكات الحضارية والتعايش مع المجتمع المتمدّن ! .

* إن الرغبة في اتخاذ الموقف ثم السلوك الرشيد المناسب ، تتطلب البحث في الوضعيتين اللتين تكتنفهما هذه المسألة :

○ الوضعية الأولى : إذا وقع الاعتداء من سلطات الدولة التي تعيش الأقلية المسلمة علي إقليمها ، وهذه الوضعية ستفترض مباشرة قيام خصومة بين الدول الإسلامية وسلطات تلك الدولة ، وهنا لا يحسم الأمر إلا بالتفاوض والاتفاق في شأن هذه المسألة مع سلطات تلك الدولة ، ويتطلب الأمر الإلحاح في ذلك حتى يتم حل المسألة ، وإذا استعصت المسألة علي الحل فينبغي توسيط أطراف أخرى ، والإسراع منذ البداية إلي تقديم العون والمساعدة لتلك الأقليات بطرق غير عسكرية .

○ الوضعية الثانية : إذا وقع الاعتداء من دولة غير الدولة التي تعيش الأقلية المسلمة علي أراضيها ، وهنا أيضاً يجب التفرقة بين حالتين :

□ الحالة الأولى : إذا وقع هذا الاعتداء في سياق صراع بين الدولة المضيفة للأقلية ، ودولة أخرى وجب مباشرة مساندة الدولة المضيفة ، ما لم يكن بين الدولة المعتدية والدول الإسلامية اتفاق أو معاهدة ، وإذا وُجدت الاتفاقية أو المعاهدة كانت مدخلاً للتوسط لدى تلك الدولة لفض النزاع .

□ الحالة الثانية : إذا وقع الاعتداء علي الأقلية المسلمة من دولة أخرى ، وقد سمحت به أو تغاضت عنه الدولة المضيفة ، فينبغي السعي لدى الدولتين لإيقاف الاعتداء بكافة السبل السياسية والعسكرية .

- حالة الحروب الأهلية وحركات التمرد والعصيان :[1] [ إحالة ]

الجزء الرابع من الإشكالية المتعلقة بقيام الجيش المسلم بالدفاع عن المسلمين ، وهي خاصة بالدول التي تعيش علي أرضها أقلية مسلمة ، وتعانى من حرب أهلية ، أو أن الأقلية المسلمة تعلن حالة التمرد والعصيان وتطالب بالاستقلال عن كيان الدولة ، وتتضمن هذه الجزئية من الإشكالية عدة أوضاع : الأول : أن تكون هناك حرب أهلية وتنخرط فيها الأقلية المسلمة ، الثاني : أن تكون هناك حرب أهلية ويُخشى علي الأقلية المسلمة أن تضار من تلك الحرب أو تنجرف إليها ، الثالث : أن تعلن الأقلية المسلمة حالة التمرد والعصيان وتطالب بالاستقلال والانفصال عن كيان الدولة ، ولكل وضع من هذه الأوضاع أحكامه الشرعية والسلوكات المترتبة علي ذلك ، وهذا ما سنتناوله في الموضع المحال إليه .

❖ **نصرة غير المسلمين :**

السبب الأخير من الأسباب التي تنتصب عليها شرعية تأسيس الجيش في الإسلام يتمثل في نصرة غير المسلمين ، وهذا السبب علي قدر يعتد به من الأهمية ، والمنتهى إليه أنه يجوز للجيش المسلم أن ينصر غير المسلمين ويعينهم علي عدوهم وذلك في الحالات التالية :

- إذا كان هناك اتفاق مسبق بين الدولة طالبة العون والدولة الإسلامية ، يقضي بالنصرة والمساندة في الحرب ، وهو ما يعرف باتفاقيات الدفاع المشترك .

- إذا كان المعتدى دولة غير مسلمة ، أما إذا كانت دولة مسلمة فينبغي السعي من أجل وقف العدوان بالطرق السلمية ، وتبصير الدولة المعتدية بما تقترفه من ظلم وبغي في عدوانها ، ومن ثم مناصرة الدولة المعتدى عليها بموجب الاتفاق المشار إليه .

---

[1] . المرجع السابق .

– ألا تكون الدولة طالبة العون والمساندة دولة معتدية بل ترد العدوان ، ويجب التحري في مثل هذه المسائل انطلاقاً من تشابك التطـورات وتداخلهـا ، وتفنن كـل طـرف في الإتيـان بالحجج والبراهين التي تبرئ ذمتــه ، وتلقى باللائمة علي الآخر .

إلا أنه يجوز للجيش المسلم القيام بنصرة غير المسلمين دون أن يكون هناك اتفاق أو معاهدة شريطة أن يكون في الحرب منفعة محققة وصلاح أكيد لأمر من أمور المسلمين ، كأن يكـون الدولـة المعتديـة هـي عـدو مـشترك وفي كـسر شـوكتها مـصلحة للمـسلمين واتقـاءً لـشرها المحتمل .

وتثار في نصرة غير المسلمين بعض التساؤلات : مثلاً : هل في نصرة غير المسلمين إضـعاف لجيش الإسلام وإهدار لموارد بشرية ومادية ؟ أم أن فيه منفعـة تتمثـل في اكتـساب الخـبرة والتدريب وإرهاب عدو الله وعدو المسلمين بإظهار القوة والمكنة ؟ .

مناقشة هاتين الـوجهتين تـستوجب مناقـشة أخـرى لحزمـة مـن الـضوابط تحكـم تغليـب إحداهما علي الأخرى ، أول هذه الضوابط يتمثل في الظروف الاقتصادية والمادية الـتي تمـر بها الدول الإسلامية ، وما تشكله كلفة تسليح الجيوش وإعدادها من أعباء علي كاهل تلك الدول ، ثاني هذه الضوابط يتجسد في الظروف الدولية التي تؤثر إلي حد بعيد في سلوكات وتصرفات الدول في المجتمـع الـدولي وتحكـم حركتهـا ، ثالـث هـذه الـضوابط يتحـدد في ظروف الصراع الذي يُستدعى الجيش الإسلامي للمشاركة فيه ، رابع هذه الـضوابط يـتعين في ضرورة الالتزام بأحكام الشرع الإسلامي الذي تؤسـس عليـه تـصرفات وسـلوكات الـدول الإسلامية في العلاقات الدولية .

## المبحث الثاني

## الجيش عنصر من عناصر الحضارة الإسلامية

ذكرنا سلفاً أن الحضارة تعني بأدوات التعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون ، ولكل حضارة مقوماتها وعناصرها ، وتتباين الحضارات من حيث طبيعة المقومات والعناصر ، وتتوزع مقومات الحضارات علي شقين : الأول الشق الروحي الأخلاقي ، والثاني الشق المادي ، فمن الحضارات ما يركز علي الشق الروحي الأخلاقي ، ومنها ما يركز علي الشق المادي ، ومنها ما يجمع بين الشقين .

ولقد جمعت الحضارة الإسلامية في براعة واقتدار بين الشقين الروحي الأخلاقي والمادي ، وجعلت من المقومات ما هو روحي أخلاقي بشكل خالص ، ولم تجعل مقومات مادية صرفة، بل طعّمت كافة المقومات المادية بالوازع الروحي الأخلاقي ، وكان تركيز الحضارة الإسلامية علي المقوم الأخلاقي الروحي ، والدفع به إلي مقدمة مقوماتها ، متمثلاً في نشر الإسلام والدعوة إليه ، وعقب ذلك جاءت المقومات الأخرى مقرونة بالوازع الروحي الأخلاقي ، وكان تأسيس الجيش هو أحد مقومات الحضارة الإسلامية المقرونة بالوازع الأخلاقي الروحي ، وسوف نتناول في هذه الجزئية الجيش كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية ، وذلك من خلال العناصر الآتية :

### أولاً : الجيش أداة من أدوات التعامل مع عناصر الوجود :

الجيش كمثله من عناصر ومقومات الحضارة ، يعد أداة من أدوات التعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون ، فمنذ الشروع في تأسيسه ، لا تكف هذه المؤسسة ذات المواصفات الخاصة عن التعاطي والتفاعل مع عناصر الوجود البشرية والمادية ، حتى تتمكن من تحقيق أهداف وجودها ، وسنزيد الإجمال إيضاحاً وتفصيلاً فيما يلي :

### ❖ الجيش يتعامل مع إرادة البشر :

التأمل في صلب وقوام عمل الجيش منذ تأسيسه وحتى إنهائه لمهامه التي قام من أجلها ، يوصل إلي حقيقة مؤداها أن تلك المؤسسة تتعامل مع إرادة البشر الوجلة المضطربة ، ثم المشبوبة الجامحة المندفعة ، ثم المتعارضة المتصارعة المتصادمة ، ثم المنتشية بالنصر والظفر في جانب ، المنكسرة الممزقة من الهزيمة والقمع في جانب آخر ، الجيش إذن هو ذلك التنظيم المؤسسي الذي يعمد إلي تطويع وتحوير الإرادات البشرية ، من أجل تغليب إرادة علي أخرى بالطرق القسرية الجبرية ، ويتم ذلك التطويع ثم التغليب من خلال إجرائين كما هو تالي :

– تطويع إرادة أفراده من أجل قبول اللجوء إلي العنف ضد الآخر :

يتمثل الإجراء الأول الذي يقوم به الجيش علي الجانب الذاتي ، حيث يعمد إلي استنفار واستقطاب العنصر البشري ، ثم يمررهم بمرحلة إعداد وتهيئة مادية ومعنوية ، تجعلهم في حالة تحفز وجاهزية للتصادم مع إرادة الآخر وإجبارها علي الإذعان والرضوخ ، ويمكن تحليل هذا الإجراء إلي التدابير والسلوكات التالية :

* الاستنفار والاستقطاب : ويعرف هذا التدبير بالتعبئة وفق المصطلحات العسكرية ، وهو تجميع الأفراد وفق قوانين وأنظمة معينة ، لكي ينخرطون في صفوف الجيش ويصبحون من أفراده .

* التدريب والتهيئة : ويهدف هذا التدبير إلي إعداد العنصر البشري لتحقيق الأهداف التي حددها النظام السياسي عن طريق الجيش ، وهذا التدبير له وجهان : وجه مادي ، وآخر معنوي ، وللوجه المعنوي في الإعداد أهمية لا تضاهى ، إذ يتوقف عليه نجاح العنصر البشري في تحقيق الهدف .

عند هذا الحد وحسب هذا التدبير يكون قد تم تهيئة الجيش لقبول منطق اللجوء إلي العنف ضد الآخر لتحقيق الأهداف المرسومة ، وهنا تبدو الأهمية البالغة لإيمان الجيش بتلك الأهداف ، ومن ثم استماتته في سبيل تحقيقها ، وهنا تبرز الدلالة لانتصار الجيش الإسلامي في كثير من المعارك التي خاضها لفتح البلاد التي دخلها الإسلام رغم قلة عدده وعدته ، في مقابل الجيوش التي واجهها ، إذ كان العامل المعنوي حاسماً في هذه المواجهات ، فلم يكن هناك هدف آخر إلا النصر أو الشهادة ، وكان ذلك هو أمضى سلاح ، وكانت الغاية النهائية نشر الإسلام وبث الدعوة إليه في كل البقاع .

* اللجوء إلي الصراع العضوي من أجل قهر إرادة الآخر :

بعد أن أصبح الجيش مؤهلاً مادياً ومعنوياً ، حيث قبل بمنطق اللجوء إلي العنف في سبيل قهر إرادة الآخر ، يأتي الإجراء الثاني متجسداً في دفع الجيش إلي خوض الصراع العضوي مع الآخر ، من أجل قهره وتطويع إرادته .

واللجوء إلي الصراع العضوي في العلاقات الدولية هو آخر قرار يتخذه القائد السياسي ، وأول قرار يتخذه القائد العسكري ، فالأول قد أنهى كافة محاولات التفاهم الودي ، واغلق كافة منافذ التواصل السلمي . والثاني قد بدأ أول جولات الصراع العضوي والنزال العنيف بين الإرادات المتناطحة .

والآن اتضح كيف أن الجيش قد تعامل مع نوعين من الإرادات البشرية : الأولى : إرادة أفراده التي هيئها وطوعها لقبول منطق اللجوء إلي العنف في مواجهة الآخر ، والثانية : إرادة الآخر التي عمد منذ البداية إلي قهرها وإخضاعها .

- الجيش يتولى تحوير وتطويع عناصر الطبيعة :

الجيش وهو في سبيل تحقيق أهدافه يستنفد كل طاقاته من أجل تذليل وتسخير كافة عناصر الطبيعة التي تصادفه في البر وفي البحر وفي الجو ، فالمسخر المذلل من تلك العناصر يستثمره في أعماله ، والمتصلب الجافي يحاول تحويره وتطويعه ، وإذا أخفق يتلافاه ويتفادى الاصطدام به حتى لا يكون عائقاً ، فكم من عوامل طبيعية أجلّت قيام حروب ، وكم من عوامل أنزلت بالجيوش أقسى وأشد الهزائم . وكم من عوامل حسمت معارك ، وحققت النصر لطرف علي آخر .

أن الجيش من أهم مقومات وعناصر الحضارة تعاملاً وتفاعلاً مع عناصر الوجود وموجودات الكون ، ولذلك فالجيش بوصفه هذا ينبغي أن يكون علي وفاق مع الطبيعة بكافة عناصرها ومفرداتها السهلة الميسرة والصعبة المعسرة .

ويصعب الجزم بأن التقنيات الحديثة المفرطة في التقدم والتطور قد حيدت عناصر الوجود ومفردات الطبيعة ، وأعفت الجيوش الحديثة من التعامل والتفاعل معها ، لكن ما حدث هو التقليل من عنفوان تلك العناصر وتسهيل مهمة الجيش في تفادى آثارها ، فمثلاً لا يمكن بحال لسلاح الجو أي الطيران أن يعمل بكفاءة مع رداءة الطقس وسوء الأحوال الجوية ، وربما في بعض الأحوال لا يمكن أن يعمل علي الإطلاق ، وعلي وتيرته سلاح الصواريخ الذي يعمل بالتوجيه المركزي ، أو حتى التوجيه الذاتي العالي التصويب والدقيق التهديف ، كما أن القوات البرية المكننة مهما بلغت تجهيزاتها لا يمكنها أن تعمل بكفاءة في الأجواء شديدة البرودة والأرض الجليدية .

**ثانياً : الجيش أداة الحضارة للدفاع عن نفسها :**

الحضارة لا تسلم من الأذى والتعدي من الحضارات الأخرى ، والصراع بين الحضارات أمر وارد ، بل قد يكون إحدى الحتميات ، وبصفة خاصة إذا سلمنا بأن جميع الحضارات ليست علي مستوى واحد من المثالية والنموذجية والتمسك بالقيم والالتزام بالمبادئ ، وهذا التفاوت والتباين في المستوى الذي يبلغه البعد القيمي الأخلاقي في الحضارات هو الذي يؤجج نيران الصراع فيما بينها ، فالحضارات المتواجدة والمتعايشة في أزمنة وحقب تاريخية واحدة ، لابد لها أن تتعامل وتتواصل مع بعضها ، وهذا التعامل والتواصل يتطور في منطلقات متتابعة يبدأ بالتعارف ، ثم التحاور الذي يعقبه إما تلاقي ، قد يتطور إلي عناق ، أو جدال يصعّد إلي تنافر، قد يتحول إلي تنافس ، يعقبه صراع ، قد ينتهي بالصدام العضوي .[1]

والجيش في هذه الحالة هو خط الدفاع الأخير عن الحضارة ، إذ يُلجأ إليه لحماية قيم الحضارة ومبادئها ، التي يخشى عليها من جراء ذلك السجال المتتابع المنطلقات ، ولكن العلاقات التي تنشأ بين الحضارات ، والتي تجنح ناحية البعد القيمي المعنوي ، لا تتطور سريعاً في اتجاه الصراع العضوي الذي تحسمه الجيوش ، وربما تظل بمثابة مواقف فكرية خلافية بين الحضارات ولا تتحول أبداً إلي صدام مسلح ، إلا أن السجالات والمطارحات الفكرية بين الحضارات لا تكتسب السخونة والحرارة إلا بفعل التصعيدات السياسية ، التي تنشأ من جراء السياسة وصنع الأحداث ، وترمي في المعتاد إلي تحقيق مآرب سياسية ، لا تدخل في منطق أو حساب الحضارات ، فالحضارات ليست بطبيعتها عدوانية ، أو نهمة للهجوم ومتعطشة للصراع ، حتى أن المادية منها الجامحة الراغبة في السيطرة والهيمنة تحوى بداخلها بنسب متفاوتة من القوة والتأثير بذور العقلانية والرشد ،

---

[1] . لتفصيل أكثر يمكن الرجوع إلي الجزء السابع من هذا المجلد ، الحضارة الإسلامية في المعترك .

التي تمثل الكوابح التي تحد من اندفاع الحضارة نحو الصراع والصدام ، وتجاهد من أجل تغيير المسار نحو الموادعة والوئام .

وعلي عكس ما تقدم فإن مظاهر الحضارة ومنجزاتها المادية أكثر مدعاة للصراع ، وأسرع في استدعاء الجيوش لحسم تلك الصراعات بالوسائل العنيفة ، فالأبعاد المادية في الحضارات بطبيعتها مثار تكالب وتزاحم ، تضعف أمام قوة الدفع الناجمة عن الرغبة في إحرازها وحيازتها كافة الكوابح والمثبطات ، المتولدة من بذور العقلانية والرشد ، والمنبعثة من محور القيم والمبادئ التي تحويها تلك الحضارات .

فالسجالات الفكرية بين الحضارات عادةً ما يُترك الانتصار فيها للعقل والمنطق ، لأن نتائجها من مكاسب أو خسائر لا تدرك بسرعة ، ولا تحسم بشكل قاطع وحاد ، فهناك قضايا فكرية مثار خلاف بين حضارات تظل معلقة لعشرات بل لمئات السنين ، لأن عنصر الحسم فيها هو الزمن ، والحاكم فيها قد يكون المجتمعات أو ربما الإنسانية جمعاء . فتلك القضايا موضع الخلاف لابد أن تُضّمن تجارب بشرية وتوضع علي محك تجربة الواقع والعمل ، ثم يتم تقييم تلك التجارب وعندها يصدر الحكم .

إلا أن هذا السيناريو ليس هو دائماً النموذج أو المثال ، فقد تتعجل بعض الحضارات ، فتصدر هي حكماً متسرعاً لمصلحتها في تلك الخلافات الفكرية ، مما يثير الحضارات الأخرى ، فيحتدم الصراع ويُلجأ إلي العنف لفضه .

إن الحضارات أشد خوفاً علي الإنجازات باعتبارها نتاجات مباشرة وأشكال ونماذج لها ، وإن كان هذا الحكم لا يجب أن يؤخذ علي إطلاقه ، فالحضارات ذات التوجهات المادية هي بالفعل أشد خوفاً وأكثر تحسساً علي الإنجازات والإفرازات الحضارية ، فهي نموذجها ومثالها، وهي كذلك رصيدها الباقي ، أما الحضارات ذات التوجهات الروحية

الأخلاقية ، فهي أكثر اهتماماً بالقيم والمبادئ وأشد تحسساً تجاهها ، فالأولى لا تجد غضاضةً في اللجوء إلي العنف إذا ما تعرضت إنجازاتها الحضارية لأية استفزازات ، في حين لا تتحمس بنفس الدرجة لفض أية خلافات فكرية بالطرق العنيفة ، أما الثانية فهي أشد تحسساً وأكثر استعداداً للجوء إلي القوة إذا تعرضت قيمها ومبادئها لأية إهانة ، في الوقت الذي يكون التحسس أضعف والاستعداد للجوء إلي العنف أقل ، إذا ما تعرضت إنجازاتها المادية الحضارية للمخاطر ، فهي تؤمن بأن الإنجازات المادية قابلة للتعويض ودائمة التولُّد ، أما القيم والمبادئ والأخلاق فإذا أهدرت فلن تقوم لها قائمة .

لقد تعددت الاستعانة بالجيوش للدفاع عن القيم وحمايتها في تاريخ الحضارة الإسلامية بشكل يفوق الدفاع عن الإنجازات المادية ، إلا أن الثابت أن الجيش بوصفه عنصر من عناصر تلك الحضارة قد اعتُمد من قبل المرجعيات الشرعية أداة فعالة وحاسمة في الدفاع عن قيم الحضارة الإسلامية ومنجزاتها المادية .

**ثالثاً : الجيش أداة من أدوات نشر القيم الإنسانية :**

يعد الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين وبنى أمية ، هو الوحيد في التاريخ الإنساني المدوّن الذي قام بنشر الرسالة السماوية ، وبالرغم من ذلك فإن الحقيقة التي لا ينكرها إلا جاحداً لم يستوعب جوهر وروح الدعوة الإسلامية ، ولم يتعمق في التاريخ الإسلامي بشكل كافي ، هي أن الجيش الإسلامي لم ينشر الإسلام بإجبار الناس علي الدخول فيه ، بل بإتاحة فرصة الاختيار أمامهم ، دون إلزام من الحكام والسادة والمتنفذين ، أو ضغوط من الفاتحين أصحاب الدين ، ومما لا شك فيه أن هذه المسألة ذات الشجون تحتاج إلي إيضاح .

ولعل أول وأهم ما ينبغي التركيز عليه والتنبيه إليه هو ضرورة الفصل والتمييز الواضح بين تأسيس الجيش الإسلامي ، وتحديد مهامه في بداية الدعوة ونشأة الدولة ، حيث ألقيت علي الجيش مهام حمل الدعوة وتوصيلها ، وارتبط بذلك تحديد موقع الحرب في علاقات الدولة الإسلامية الناشئة بالعالم الخارجي ، وبين دور الجيش والحرب بالتالي بعد انتشار الإسلام وتثبيت أركان الدولة ، ولهذا الفصل والتمييز أهميته القصوى ، حيث يمكن أن يساهم في حسم الجدل الذي ثار بين دور الجيش ومن ثم الحرب وموقعهما في العلاقات بين الدولة الإسلامية والعالم .

إن وضع الجيش ومن ثم الحرب في موقعهما الصحيح في سياق التطور التاريخي لنشأة الدولة الإسلامية ، وبداية الدعوة والظروف المحلية والإقليمية والعالمية السائدة في تلك الفترة ، كفيل بأن يزيل اللبس حول فكرة الحرب في الإسلام ، ويرس أركان تلك الفكرة ، ويفصح عنها في جلاء كما أرادها الحق سبحانه ، وعمل من أجلها المسلمون .

وسوف نركز اهتمامنا في هذه الجزئية علي عملية تأسيس الجيش الإسلامي ، وتحديد مهامه في بداية الدعوة ونشأة الدولة ، ونضع هذه العملية في سياقها التاريخي وتفاعلاتها مع الظروف والتطورات السائدة في تلك الفترة علي كافة المستويات المحلية والإقليمية والعالمية ، أما دور الجيش ومن ثم الحرب بعد انتشار الإسلام وتثبيت أركان الدولة فسوف نرجئ الحديث عنه إلي جزئية لاحقة .[1]

إن تأسيس الجيش كمؤسسة ذات خصوصية ، والحرب كوضعية استثنائية في حياة الشعوب والمجتمعات ، ينبغي أن ينظر إليها في الإسلام نظرتين مختلفتين : النظرة الأولى : عند نشأة الدولة الإسلامية وبداية الدعوة إلي دين الله ، والنظرة الثانية : بعد انتشار

---

[1] . فيما يتعلق بمشروعية الحرب بعد انتشار الإسلام وتثبيت أركان الدولة يمكن الرجوع إلي : المجلد التاسع ، الحرب في الإسلام ، الجزء الأول ، أصول الحرب في الإسلام ، البابين : الأول والثاني .

الإسلام واستقرار الدولـة الإسلاميـة ، وتوجد بين النظرتين قواسم مشتركة عديدة ، ولكن الاختلافات ترد في الظرف التـاريخي ووضـعية الدولـة الناشـئة ورسـالتها في نـشر الـدعوة وتثبيت أركان الدين ، ونوضح ذلك فيما يلي :

### ❖ بواعث تأسيس الجيش في الدولة الإسلامية :

فور هجرته صلي الله عليه وسلم شرع الرسول الكريم في تأسيس الدولة البسيطة الدقيقـة في عناصرها المادية ، المحكمـة في ترتيباتهـا الـسياسية والإداريـة ، والمتواضـعة في مقـدراتها الاقتصادية ، الفعالَـة في تـشكيلاتها الاجتماعيـة ، القويـة الجبـارة في مكناتهـا وطاقاتهـا العقيدية ، وكان لهذه الدولة [ المدينة ] بالرغم من محدوديتها الجغرافيـة والبـشرية شـأن النمـوذج والمثـال ، الـذي يمكـن أن يـستعمل أداة فعالـة للتحليـل والقيـاس في كـل زمـان ومكان :

– العناصر المادية لدولـة المدينـة الإسـلامية : الدولـة الإسـلامية الوليـدة الناشـئة امتلكـت العناصر المادية للدولة بشكل دقيق ، ولكنه محكم وموزون :

• فإقليم الدولة لم يتجاوز جزءً من مدينة يثرب ، أو بالأحرى حي الأنصار قبـل المؤاخـاة بين الأوس والخزرج ، أما بقية يثرب فهي لليهود المتأصلين فيها .

• وشعب الدولة الإسلامية الأولى جمع أنصار الرسول من المدينة والمهاجرين معه مـن مكـة ، حيث عمد صلى الله عليه وسلم منذ ولوجه طيبة إلـي المؤاخـاة بيـنهم ، فـصار بعـضهم أولياء بعض أخوة متحابين أكثر تراحماً وتعانقاً من الأشقاء ، فهم أبناء الإسلام .

• والحكومة علي رأسها القائد المعلم المشرع الثاني بعد المشرع الإلهي ، حيث وضع أساس أول منهاج إسلامي في التاريخ [ النظام السياسي ] ، وسنأتي عليه بعد قليل .

* العقيدة والرسالة ، فقد ظلل كل ما تقدم من عناصر مادية هالة من النور الإيماني الصادق غمر تلك الماديات ، ومزجها بجو مفعم بالأخلاقيات والقيم أساسها عقيدة التوحيد وقوامها الإسلام الحنيف .

– المنهاج الإسلامي والنموذج الإداري : صاغ الرسول الكريم في شفافية وبساطة المنهاج الإسلامي ، أو بلغتنا العصرية النظام السياسي وقرنه بالنموذج الإداري :

* تحددت أهداف الدولة الإسلامية في : الدعوة إلي دين الله ، وتطبيق شرعه الحنيف ، وإعمار الأرض ، وتصريف شئون الناس ومعالجة أمورهم .

* أما المنهاج الإسلامي [ النظام السياسي ] ، فقد شمل قائد الدولة السياسي والمشرع الثاني بعد الحق تبارك وتعالى ، والمجلس الشورى الذي تكون من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار . والذي أتخذ من المسجد دار الحكم ومقر المجلس الاستشاري أو الشورى ، ثم الحكومة التي اختارها الرسول الكريم بمشاورة الصحابة من أمهر القياديين التنفيذيين من المهاجرين والأنصار .

* وكانت أدوات التنفيذ لهذا المنهاج العظيم هي نسق القيم الذي جاء من عند الله ، وأقره الرسول الكريم وأوضح معانيه وفسر مضامينه ومغازيه ، فكانت هناك الشورى والعدالة والمساواة والحرية والإخاء .. الخ .

وأُلحق بهذا المنهاج نموذج إداري بسيط ولكنه كفء ، حيث تولى تصريف شئون الناس الذين يمثلون شعب هذه الدولة المدينة ، كوكبة من الصحابة بدأوا عملهم الإداري بتعليم الناس أمور دينهم ، ومن هنا اكتسب النموذج الإداري الإسلامي أولى خصائصه التي ظلت تصاحبه حتى الآن ، وهي الخصّية العقيدية للنظام أو الجهاز الإداري الإسلامي ، فالنظام الإداري الإسلامي هو الوحيد في العالم الذي يجعل من الدعوة العقيدية أول مهامه وتبعاته .

- الاقتصاد البسيط القائم علي القناعة والإيثار : حيث أعتمد هذا الاقتصاد منذ نشأته في ظل دولة الرسول علي ما في يد الأنصار من ثروة تقاسموها مع المهاجرين ، الذين تركوا أموالهم في مكة ، ثم نما هذا الاقتصاد المحدود في ظل قيم اقتصادية أساسها القناعة والإيثار والرغبة الصادقة في العمل والإنتاج والتكافل الاجتماعي واحترام ملكية الغير ، وكان ذلك نواة لاقتصاد الدولة الإسلامية التي صنعت الأحداث في العالم خلال العصور الوسطى .

- النظام الاجتماعي القائم علي الإخاء والتكافل : بحكمته تمكن الرسول الكريم من تشكيل النظام الاجتماعي لدولة المدينة معتمداً علي قيمة الإخاء التي خففت من شعور المهاجرين بالأسي والمرارة لتركهم أموالهم وأهليهم في مكة ، وصادفت لدى الأنصار أريحية وإيثاراً من النادر وجودهما ، والتئم المجتمع في وحدة متماسكة مكنته من مواجهة المهمة العظيمة التي تصدى لها في براعة واقتدار . وهي نشر الدعوة الإسلامية .

هذه الدولة بعناصرها التي أوضحناها ليست دولة ساكنة ولدت لتوجد فحسب ، ولكنها دولة ذات مهمة إنسانية ورسالة عالية خالدة مكلفة بأوامر إلهية تقضي بأداء تلك المهمة وتوصيل تلك الرسالة إلي العالمين ، وشرع الرسول الكريم ينطلق في دعوته من دولة المدينة إلي القبائل والقرى العربية المجاورة وعلي رأسها مكة المكرمة ، وكان الرسول في بداية الأمر علي رأس الأركُب المخصصة للدعوة ، وفي مرحلة تالية أخذ يسيّر البعثات تحت إمرة الصحابة .

وكان من المنطقي عندما يتقدم الرسول الكريم الركب أن يكون هو والصحابة المرافقون له آخذين حذرهم مصطحبين أسلحتهم ، فقد لا يسلمون من تحرش القبائل بهم ، ومن هذه النقطة الموضوعية واللحظة التاريخية كان التفكير المبدئي في تأسيس الجيش ، حيث بُدأ في تطوير تسليح هذه الأركُب والبعثات بالعدد والعتاد والخيل أو الإبل لحماية الدعاة عند

الضرورة ، وهكذا بدأ الجيش الإسلامي كمؤسسة ذات خصوصية ، ولكنها في كنف الدولة الداعية بكافة عناصر وجودها وفي مقدمة تلك العناصر شعبها .

لقد بدأ الجيش الإسلامي بسيطاً في تكوينه متواضعاً في تسليحه ، بل إنه كان يعتمد علي المشاة أكثر من اعتماده على الركبان ، نظراً لعدم وجود ركائب ، وكان الفارس يردف الآخر ، أو يتناوب الفرسان الركوب ، وكان الهدف الأساسي من هذا الجيش هو توقي تحرش القبائل العربية التي توجه إليها بعثات الدعوة الإسلامية ، فمعظم تلك القبائل كانت تتصف بقوة المراس والميل إلي العدوانية ، وجلها كان وثنياً لم يعهد الحديث عن التوحيد ، ومن ثم فإن هذه القبائل لم تكن تكتفي برفض الدعوة فقط ، بل كانت تسارع باللجوء إلي القوة والعنف في مواجهة الدعاة .

لقد بات واضحاً أن الدولة الإسلامية الناشئة ينقصها عنصر القوة المادية ، الذي يحمي هذه الدولة ضد التدخلات والاعتداءات الخارجية ، وقد كان الجميع يعلم يقيناً أن أي اهتزاز في أركان وعناصر هذه الدولة ، سيؤدي إلي القضاء علي الدين الجديد وهو في المهد ، ومن ثم كان التفكير الجدي في تطوير الجيش الإسلامي ، الذي ظل يعاني من قلة الإمكانات إلي أن تم فتح مكة ، وعندئذ تيسرت إلي حد ما الإمكانات المادية والبشرية ، ولكن زادت مهمات الجيش وثقلت تبعاته .

اكتسب الجيش الإسلامي خبرة محدودة من خلال مواجهاته مع القبائل العربية ، ولم تكن تلك الخبرة كافية لمواجهة الجيوش ذات الاستعداد الخاص والقوة الفائقة علي غرار جيوش الفرس والروم ، التي كان علي جيش المسلمين أن يتأهب لملاقاتها بعد حين ، ولكن الجيش الإسلامي كان يملك ما هو أهم من القوة المادية وهو قوة الإيمان وصلابة العقيدة ، فلم يكن الجيش الإسلامي جيشاً من المحترفين ممتهني القتال ، بل كان قوامه صحابة الرسول الكريم وحفظة القرآن ورواة الحديث والراسخون في العلم ، وكان لهذا

التركيب البشري في جيش المسلمين تأثيره الذي سيتضح بعد قليل عند تحليل العلاقة بين الجيش والدعوة الإسلامية .

### ❖ العلاقة بين الجيش والدعوة :

من خلال ما بيّنا يثبت أن الجيش الإسلامي لم يكن أبداً وسيلة لاستخدام القوة أو العنف ضد الآخر ، بل كان دعماً للدولة الناشئة وحفظاً لها وللدين الذي تحتضنه وليداً ، وكان في ذات الوقت ذخراً للدعوة وآلية حملها ، ولكنه لم يكن طريقة أو أسلوب تبليغها :

– طبيعة العلاقة بين الدولة والدعوة : الدولة الإسلامية بكافة مكوناتها وعناصرها دولة داعية ، فهي تتولى بث الدعوة ونشرها في ربوع الأرض وتبليغها إلي الناس أجمعين ، وهي في ذات الوقت من خلال كل عنصر من عناصرها تقدم النموذج والمثال ، فهي تدعو بالتبليغ ثم تدعو كذلك بتقديم الأنموذج والمثال .

– الجيش يمثل أداة أو آلية حمل وتوصيل الدعوة : من المسائل التي ينبغي أن تُبيّن ويُكثف عليها الضوء هي أن الجيش الإسلامي كان أداة أو آلية لحمل وتوصيل الدعوة فقط ، وكان دوره يتوقف عند هذا الحد ، فقوام الجيش – كما قدمنا – صحابة الرسول الكريم وحفظة القرآن ورواة الحديث والراسخون في العلم ، وهؤلاء في واقع الأمر هم الدعاة إلي الدين الجديد .

– التبليغ هو أسلوب أو طريقة الدعوة : الجيش كان هو الآلية التي حملت وأوصلت الدعوة من خلال عنصره البشري ، أما طريقة أو أسلوب نشر الدعوة بين الناس فكان يتم عن طريق التبليغ الذي يعنى الإحاطة أو الإخبار أو الإعلام أو الإشعار ، ويلي ذلك عملية التخيير بين الإسلام وقبول الدعوة أو عدم الإسلام ورفض الدعوة ، وكان لكلٍ ما اختار .

## ❖ الجـيش الإسـلامي يواجـه تحـديات وتحرشـات أكـبر قـوتين في ذلـك الوقـت [ الفرس والروم ] :

بعد أن دخلت القبائل العربية إلي الإسلام ، وجدت الدولة الإسلامية نفسها في مواجهـة مباشرة مع قوتين عاتيتين : قوة الفرس وقـوة الـروم ، وكـان علـي الجـيش الإسـلامي أن يتأهب لتلك المواجهة بالاستعداد المـادي والمعنـوي ، ولكنـه بـنفس المنطـق الـذي أعتمـده الرسول الكريم وحدد فيـه علاقـة الجـيش بالـدعوة ، حيـث حـدد لـه دور " **أداة الحمـل والتوصيل** " أما أسلوب وطريقة الدعوة فقد عيّنها في التبليغ والتخيير :

– وجّه الرسول الدعوة إلي رموز الدولتين سلماً :

منذ بدايتها والدعوة الإسلامية تعبر عن حـضارة واعـدة ، تحمـل مـن القـيم مـا لم يعهـده العالم، ولن يعهده إلا فيها ، تجلى ذلك في خطـاب الـدعوة ، حيـث كـان يتـواءم شـكلاً وموضوعاً مع المخاطب ، ويكفينا مطالعة رسالة الرسول العظيم إلي إمبراطور الفرس وكـبير (هرقل) الروم ، ثم إذا أوغلنـا وأجرينـا تحلـيلاً لـمضمون تلـك الرسـالة الواضـح الـسلس ، الدقيق المحكم ، الكامل المعاني ، التام المضامين ، لتبين لنا أن الدعوة الإسلامية صـاحبة الخطاب الحضاري وربة الحوار الفكري ، تخاطب في عزم ومضاء ، وتحاور في ثقة واقتدار ، فهي تملك ما تعطيه ، وثرية بما تسديه للعالمين إلي أبد الآبدين .

ولم يكن رد رموز الـدولتين الكـبيرتين علـي مـستوى الحـدث ، بـل جـاء مفعمـاً بـالتجبر والطغيان الـذي فرضـته القـوة وأمـلاه الوضـع الـراهن آنـذاك ، ولـو أن القائـدين لم يَـدَعا الخطاب يمر عفواً دون تقصٍ وتدقيق :

* فالفرس يجاورون العرب منذ زمن بعيد ، وتربطهم علاقات رسمية واجتماعية مع إمـارة الحيرة ، أهم تجمع سياسي واجتماعي عربـي يجـاور الإمبراطوريـة الفارسـية ، وحـصيلة

علمهم من هذا الارتباط التاريخي والاجتماعي أن العرب لا قبل لهم بمواجهة الفرس ، فكيف إذن سيتم وضع هذا الخطاب بمحتواه الحضاري والديني في سياق هذا الجماع المتراكم من التاريخ والعلاقات الاجتماعية ؟ ! .

لم يكن الفرس وبالذات رؤوس الدولة علي علم دقيق وكافٍ بقبائل العرب التي تنتشر في الصحراء الممتدة إلي الغرب من إمارة الحيرة ، فهي علي حد علمهم قبائل متفرقة أهم مراكزهم استقراراً وأشهرها ذيوعاً هي مكة ويثرب والطائف واليمن ، ويعلمون كذلك أن تلك القبائل في معظمها قبائل وثنية ليس لديها معتقد ديني يخالف ذلك ، ومن ثم فقد كان انبعاث دين جديد من هذه المناطق يخالف ما هي عليه من معتقدات بالأمر المستغرب ، كما لم يجد حماساً كافياً للرد عليه والاهتمام بأمره ، إلا أنه في مرحلة لاحقة بات التفكير في الإسلام والمسلمين أمراً مفروضاً ، وأصبح تدبر أمر الدولة الناشئة لا مناص عنه ، وبمنطق توازن القوى لم يكن ثمة تكافئ بين الدولة الناشئة والإمبراطورية العظمى ، التي شرعت تناوش دولة الإسلام الغضة .

* أما الروم ، فقد كانت علاقتهم بالعرب أكثر محدودية ، فلم يعّمقوا علاقتهم بالقبائل العربية وحواضرها استعلاءً وتيهاً بوضعهم الحضاري المشهود . وانخراطاً في شئون مستعمرات الإمبراطورية التي شملت سوريا ومصر والساحل الأفريقي حتى تونس التي كانت تعرف بأفريقيا الرومانية ، إلا أن الرومان عرفوا عن العرب بعض ما عرفوه عن طريق أصدقائهم في إمارة الغساسنة . وهي أول مركز عربي متقدم يجاور الإمبراطورية الرومانية ، ويمالؤها رغبةً في البقاء ، مثلما كانت تفعل إمارة المناذرة مع الفرس ، وكذا عن طريق قوافل التجار العرب التي كانت تتردد بين سوريا ومكة ، والتي زودت رؤوس الدولة بمعلومات وأخبار أكيدة عن الدين الجديد ، وظروف نشأته ، والمبشّر به ، وصفاته ، وأصله في العرب .

لقد وجد الخطاب الذي وجهه الرسول الكريم إلي هرقل الروم صدى قوياً وتأثيراً ملحوظاً، أكثر مما كان لدى إمبراطور الفرس ، فالأول صاحب ديانة ذات أصل سماوي وصاحب كتاب ، أما الثاني فلم يكن يعرف إلهاً بظهر الغيب ولا رسالةً سماويةً ولا كتاباً منزلاً ، فلم يكن يعرف إلا النار ، وهذه الوضعية خلقت خيطاً رفيعاً قد يكون غير مرئي ، ولا تحسه إلا خوالج النفس ، بين كبير الروم وبين ذلك الدين الجديد المبهم ، ولكنه ينم عن شيء ، وقد ظل هذا الخيط الرفيع يحكم العلاقة بين المسلمين والروم لفترة ، ويحول بينها وبين أن تتطور إلي كراهية وعداوة قاتلة .

و مهما يكن من أمر فإن القوتين الأكبر قد بلغتهما الدعوة الإسلامية من المبعوث رحمةً للعالمين ، وقد أيقن المخاطبان أن لهذا الدين شأنه ولو بعد حين ، وإذا كانا قد انصرفا مؤقتاً عن حسم أمره ، فإنهما لم يهملا التفكير فيه والاستعداد لمواجهته .

### ❖ الدعوة السلمية لم تكن مجدية وممكنة لأنها لا تصل إلي الشعوب :

لقد بات واضحاً أن الدعوة إلي الإسلام بالطريق السلمي ليست ممكنة أو مجدية ، وسبب ذلك أنها لا تصل إلي الشعوب وهي المقصودة بالدعوة وهدف الخطاب ، في هذه الظروف التاريخية كان الجيش الإسلامي ينمو بشكل سريع ويزداد خبرة وتنظيماً ، من خلال المواجهات التي جرت بينه وبين سادة القبائل وكبرائها الذين كانوا يحولون دون وصول الدعوة إلي أفراد تلك القبائل .

كان المجتمع العربي قوامه القبيلة والعصبية ، وكان ترتيب السلطة والسيطرة في هذا المجتمع من الناحية السياسية والاجتماعية ترتيباً صارماً ، فزعماء القبائل يتحكمون في حياة الأفراد بشكل مطلق ، جعل الفرد لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، فكيف والحال كذلك أن تصل الدعوة الإسلامية إلي أفراد ذلك المجتمع ؟ .

أرسل الرسول الكريم البعثات إلي مختلف القبائل والأحياء العربية في كافة أنحاء شبه جزيرة العرب ، وكانت تلك البعثات تصطدم بزعماء القبائل الذين يحولون دون وصول الدعوة إلي أفراد المجتمع ، وكانوا يستعملون في سبيل ذلك أسلوبين :

– الأسلوب الأول : التصدي للدعوة الإسلامية بشكل مباشر من خلال الصراع العضوي ومنعها من الوصول إلي الأفراد .

– الأسلوب الثاني : إرهاب الأفراد وإجبارهم علي رفض الدعوة ، فلم يكن لفرد او حتى لجماعة داخل قبيلة أن تعلن قبولها الإسلام ديناً لها دون موافقة زعيم القبيلة ، الذي يعتبر أباً اجتماعياً وروحياً لأفرادها .

لم يكن أمام المسلمين بُدُ من إزاحة هؤلاء الزعماء حتى تصل الدعوة إلي الأفراد ، وهنا برز دور الجيش الإسلامي الذي تمثلت مهمته في أمرين :

– الأمر الأول : إزاحة زعماء القبائل حتى تصل الدعوة إلي أفراد تلك القبائل ، فكان لابد من مواجهة هؤلاء ، وتخييرهم أولاً بين الإسلام أو إفساح الطريق أمام وصول الدعوة إلي الناس عامة ، فإذا أسلموا تبعهم في ذلك أفراد قبائلهم ، وإذا رفضوا الإسلام طُلب منهم أن يخلّوا بين الدعوة والوصول إلي الناس ، فإذا رفضوا لم يكن هناك بد من قتالهم ، فكان القتال هو آخر ما يلجأ إليه المسلمون بعد استنفاد كافة السبل ، من أجل توصيل الدعوة إلي أفراد ذلك المجتمع بتركيبته المبينة .

– الأمر الثاني : حمل الدعوة إلي أفراد المجتمعات العربية ، حيث ينتهي دور الجيش بوصول الدعوة إلي تلك المجتمعات ، ومن ثم يبدأ أسلوب أو طريقة نشر الدعوة ، وهي بالتبليغ القائم علي الإحاطة والإعلام والإخبار ، ثم التخيير بين الإسلام أو سواه .

هكذا كان دأب الدعوة الإسلامية وديدن المسلمين الأوائل ودور الجيش الإسلامي الذي كان يمثل خط الدفاع الأول وخط الهجوم الأخير عن الدعوة الإسلامية ، وهنا توهم بعض الجهلة ممن تصدوا للتاريخ الإسلامي بسطحية وضحالة ، أن الإسلام كان دين السيف والهجوم والجبر ، دون أن يلموا بطبيعة ذلك المجتمع المعقدة المركبة ، ودون أن يدققوا ويمحصوا عملية انتشار الدعوة الإسلامية في المجتمعات والقبائل العربية ، ودون أن ينقبوا عن دور الجيش الإسلامي في تلك الفتوحات الدعوية بحيدة وموضوعية ، لقد استسهلوا الحكم السريع السطحي ، وملّوا البحث المستفيض ، فكانت أحكامهم طائشة ، واستنتاجاتهم خائبة ، واخذوا الأمور علي عواهنها ، فلم يكونوا في منزلة الباحثين الثقاة والدارسين المجتهدين ! ! .

## ❖ دور الجيش الإسلامي في دعوة شعوب القوتين الأكبر :

أيقن المسلمون أن الدعوة السلمية لم تكن ذات جدوى ، ولن تحقق القصد والغاية ، من رسالة الإسلام المرتكزة علي عالمية التبليغ ، وعمومية الإحاطة والإخبار ، وشمولية الإعلام والإشعار ، وكان اللجوء الاضطراري إلي الجيش خط الدفاع الأول عن الدعوة وخط هجومها الأخير ، وتحدد للجيش دوره الذي رسمه الرسول الكريم وعلي رسمه سار خلفاؤه الراشدون ، وجاء ذلك الدور في منطلقات متتابعة ومتدرجة علي النحو التالي :

– التقاء الجيش بالجيش [ سبق المسلمين إلي الفضائل ] :

قبل أن تشرع الدولة الإسلامية في منازلة القوتين الأكبر [ الفرس والروم ] كانت قد جهزّت جيشاً اكتسب قدراً لا بأس به من الخبرة والدربة ، وحاز قسطاً يعتد به من العدد والعتاد ، ولكنه كان أقل من جيش الفرس أو الروم .

وصاغ المسلمون من خلال صراعهم العضوي مع دولتي الفرس والروم أول المواثيق في تاريخ البشرية الخاصة بتنظيم الحروب ، وتقنين سيرها ، وتقعيد آثارها وإفرازاتها ، وتجسدت أولى تلك التنظيمات وأهمها في أن الجيش لا يلتقي إلا الجيش ، فالمعركة والقتال ليست إلا معركة جيوش ، ولم تكن أبداً معركة شعوب ، ولا تحسم إلا في الميدان وبين المقاتلين .[1]

- هدف القتال هو إزاحة الحكام والسادة [ الهدف الوسيط ] :

لم يكن للمسلمين أي مأرب دنيوي أو مطمح شخصي من الحروب ، بل كان الهدف النهائي هو حمل وتوصيل الدعوة إلي دين الله ، وكان هذا الهدف النهائي يتطلب وجود هدف آخر وسيط يتمثل في إزاحة الحكام والسادة ، الذين يحجبون الدعوة ويمنعونها عن الوصول إلي الشعوب ، والذين طالما قهروا تلك الشعوب واستعبدوها ، فكانت الدعوة سبيلاً للتحرر من نير الاستعباد والإيمان برب العباد .

- الشعوب ليست مقصودة بالقتال [ الفعل القويم ] :

يتمم ما تقدم ويترتب عليه أن الشعوب لم تكن مقصودة أو مستهدفة بالقتال ، بل كان المقصد هو تحريرها . لذلك لم يحدث أن قصد الجيش الإسلامي قتال شعب من الشعوب أو أساء إليه .

- حمل الدعوة وتوصيلها إلي الشعوب [ الهدف النهائي ] :

في نهاية المطاف وبعد أن يتمكن الجيش الإسلامي من قهر الجيش المقابل ، ويقدر له إزاحة الحكام والسادة ، تكون مهمته قد اختتمت بتوصيل الدعوة الإسلامية إلي الشعوب . وتبدأ عملية التبليغ بالإحاطة والإخبار ثم التخيير ، ويترك الأمر للشعوب كي تقرر

[1] . في تفاصيل تنظيم وتقنين الحرب في الإسلام يمكن الرجوع إلي : المجلد التاسع ، الحرب في الإسلام ، الجزء الأول : أصول الحرب في الإسلام .

مصيرها ومستقبلها ، هكذا حمل الجيش الإسلامي القيم والفضائل ، التي بدأها باحترام العهد والميثاق وآدمية الإنسان ، واختتمها بالحرية في اختيار المعتقد ، ولم يحمل السيف ، ويعتاد الهجوم، ويألف الجبر ، كما زعم المرجفون ! .

**رابعاً : مفردات الجيش من فنون الحضارة :**

لا تزال علاقة الجيش بالحضارة ممتدة ، فهو – كما ذكرنا – أحد أهم مقوماتها وعناصرها، وتبدو في هذه الجزئية علاقة جديدة من علاقات الجيش بالحضارة ، مفاد هذه العلاقة أن مفردات الجيش جميعها من فنون وضروب الحضارة ، فالجيش بتنظيمه وتدريبه وتسليحه وإمداده بمستلزماته وخوض المعارك كل ذلك من فنون الحضارة ، وتفصيل ذلك فيما يلي :

❖ **تنظيم الجيش :**

الجيش تنظيم مكون من أحياء فهو كائن حي ، يولد وينمو ويصل إلي عنفوان قوته ، ويتفاعل مع عناصر الوجود وموجودات الكون في سكونه وحركاته ، وينتابه الضعف والوهن وتتضعضع قوته وربما يتفكك ويتلاشى ، كل هذه الأطوار والأغيار التي تنتاب الجيش تجعل من تنظيمه وترتيب مفرداته وتشكيل جزئياته فن حضاري يسجل للأمم والشعوب :

– الاستنفار والتعبئة : لعل أول لبنات تنظيم الجيش هو استدعاء العنصر البشري ، الذي يمثل قوامه ومادته ، وعمليات الاستنفار والتعبئة تختلف إجراءاتها وترتيباتها وقوانينها من مجتمع لآخر ، فثمة مجتمعات تفرض الانخراط في الجيش فرض عين لا مناص عنه ، وثمة مجتمعات تجعل من الخدمة في الجيش أمراً متروكاً للرغبة الشخصية والإرادة الذاتية

، وثمة مجتمعات تترك أمر الانخراط في الجيش للظروف والتطورات ، بل وتجعل لكل ظرف خصوصيته .

ولقد عمد الطرح الإسلامي إلي معالجة هذا الأمر بحكمة ورشد ، فالانخراط في الجيش من حيث المبدأ يعد فرض كفاية ، فكل فرد يعطى بقدر طاقته الجسمانية العضلية أو الذهنية العقلية أو المادية الاقتصادية ، كذلك فيكفي أن تتفرغ جماعة من الأمة للقيام بمهام الجيش، وينصرف الآخرون للضرب في الأرض ، وإعمار المجتمع وإنمائه ، حتى لا تهمل شئون البلاد، ويُفرِط أبناء الأمة في الاهتمام بأمر ويفرّطون في بقية الأمور ، ثم أنه وفق منطق شريعة الإسلام لابد أن تتكاتف أمور المجتمع ، فالإنماء مهم للجيش ويمده بكافة متطلباته ، وقوة الاقتصاد والإدارة والنظام العام أهم دعائم الجيش ومحفزاته علي الظفر والغلبة ، وفي ذات الوقت تكفل للمجتمع استمرار الحياة الطبيعية وفق منهج الله .

– تقسيم الجيش : يقسم الجيش في المعتاد إلي تقسيمات عديدة تستند علي معايير مختلفة . وتتدرج التقسيمات من الأكبر فالأصغر ، حتى تسهل السيطرة علي التحركات وتزداد الفعالية . ويقسم الجيش إلي أجزاء ، تبدأ من الجيش الفرعي : الأول أو الثاني أو الثالث ..الخ ، ثم ينقسم الجيش الفرعي إلي وحدات ، وتنقسم الوحدة إلي فرق ، وتنقسم الفرقة إلي ألوية . وينقسم اللواء إلي كتائب ، وتنقسم الكتيبة إلي سرايا ، وتنقسم السرية إلي فصائل .

كذلك يقسم الجيش إلي عدة أقسام ميدانية حسب ميدان القتال . فالقوات البرية التي تعمل علي الأرض ، والقوات الجوية التي تعمل في الجو مثل الطائرات والصواريخ ، والقوات البحرية التي تعمل في البحر ، وبعض العقائد القتالية تطلق علي هذا التقسيم "

**تقسيم أسلحة** " ، فهناك سلاح الجو وسلاح الصواريخ وسلاح المشاة وسلاح البحرية وهكذا .

– توزيع الجيش : يتم توزيع الجيش علي مناطق إقليم الدولة بشكل يتواءم مع طبيعة كل منطقة ، واحتمالات الخطر التي يمكن أن تتهددها ، ووفق الظروف والتطورات التي تمر بها الدولة فيما يتعلق بالاستقرار الداخلي ، وكذا علاقات الدولة بجيرانها أو بالآخرين ، وثمة أكثر من توزيع حسب معايير ومقاييس معينة ، نذكر منها ما يلي :

* التوزيع الاستراتيجي : حيث يتم توزيع الجيش علي المواقع والأقاليم المختلفة والثغور المتعددة التي تدخل ضمن إقليم الدولة .

* التوزيع التكتيكي – العملياتي : حيث يتم توزيع قوات الجيش المختلفة وقت الحرب ، وفقاً لوضعية الجيش ، إذا كان في ظروف الهجوم أو الدفاع أو الهجوم الدفاعي .. الخ .

### ❖ إدارة الجيش :

يحتاج الجيش إلي جهاز إداري شبيه إلي حد كبير بالجهاز الإداري في الدولة ، ويتولى هذا الجهاز كافة الأمور الخاصة بإدارة شئون الجيش ، وعليه تتوقف كفاءة عمل الجيش في الميدان ونجاحه في مهامه ، وتتمثل أهم مفردات إدارة الجيش في الآتي :

– الخدمات : يعتمد الجيش علي مجموعة من الخدمات التي تعاونه علي القيام بواجباته ، مثل الاتصالات والنقل والخدمات الطبية ، والخدمات الاجتماعية والنفسية والمعنوية ، ويتولى الجهاز الإداري في الجيش توفير هذه الخدمات بشكل منظم وفعال .

– الإمداد والتموين : من أهم العوامل ذات التأثير في فعالية الجيش وكفاءة أدائه ، عمليات الإمداد والتموين أو ما يعرف باللوجستيك ، ويتوقف علي هذه العمليات نقل المؤن

والذخائر وتخزينها وتوزيعها علي الوحدات ثم علي الأفراد ، ولعل تأمين هذه العمليات يعد من أهم العوامل تأثيراً في حركة الجيش وقدرته علي القتال بكفاءة .

– الشئون الإدارية : تتولى الشئون الإدارية في الجيش ترتيبات منح الإجازات والترقيات وإعداد الرواتب والمكافآت والمسائل المالية الأخرى .

❖ **تدريب الجيش :**

كان ولا يزال تدريب الجيوش من أهم وأخطر العمليات التي تؤثر في كفاءتها وقدرتها علي إحراز النصر في ميادين القتال ، ومع تطور الحروب وتعقد الأسلحة المستخدمة في إدارتها زادت أهمية التدريب وزاد تأثيره في أداء الجيوش الحديثة ، ونتناول بعض المسائل المتعلقة بالتدريب فيما يلي :

– الإعداد البدني : يبدأ التدريب في الجيش بإعداد الفرد بدنياً ، وتأهيله لممارسة الأعمال العنيفة ومقومات الصراع العضوي .

– الإعداد المعنوي : كذلك يتوازى مع الإعداد البدني إعداد الفرد معنوياً وتأهيله نفسياً ، بترسيخ إيمانه بالهدف من القتال والغاية التي يتوخى الجميع تحقيقها ، ويعتبر الإعداد المعنوي من أهم المحفزات علي كفاءة المقاتل وتفانيه في تأدية مهامه ، وكم من جيوش أحرزت النصر بفعل العامل المعنوي ، والتاريخ الإسلامي حافل بالأمثلة في هذا السياق ، وللإعداد المعنوي وسائله ومقوماته ، وبات الإعداد المعنوي أحد الحقول المهمة التي تدرس في الأكاديميات العسكرية .

– التدريب علي السلاح : يعقب تأهيل الفرد بدنياً ومعنوياً تدريبه علي السلاح الذي تخصص في حمله واستخدامه ، وكلما ارتفعت جدية التدريب كلما زادت كفاءة المقاتل في استخدام السلاح الذي بحوزته ، وتحتاج الأسلحة الحديثة التي تعتمد عليها الجيوش في

الحروب الراهنة إلي تدريبات ذهنية ومقدرات علمية متفوقة ، وتعتمد كفاءة السلاح علي القدرة علي تشغيله واستخدامه ، وتعرف الأسلحة والحروب الحديثة بالحروب الإلكترونية ، نظراً لما تحويه من تقنيات عالية المستوى .

– المناورة : المناورة هي اختبار لجدية التدريب وجاهزية الجيش واستعداد أفراده لخوض القتال، وهي بمثابة سيناريو أو تصور لمعركة وهمية تختبر فيها الأسلحة المختلفة ، وتنقسم المناورات إلي أقسام عديدة :

* فهناك المناورات التي تتم داخل الجيش ببعض الأسلحة مثل القوات البرية ، أو القوات الجوية أو القوات البحرية ، أو داخل تشكيلات من هذه القوات ، و قد تكون هذه المناورات روتينية .

* وهناك المناورات التي تتم علي مستوى الجيش بالكامل حيث تشارك فيها كافة القوات ، وتكون بمثابة تصور لحرب وهمية يخوضها الجيش بكافة أسلحته ، وقد تكون هذه المناورات دورية ، وقد تكون استثنائية في حالة الاستعداد لخوض حرب ، أو لاستعراض القوة .

* وهناك المناورات التي تتم بالتعاون بين الجيوش المختلفة المتحالفة أو الصديقة ، وهذه المناورات من الأهمية بمكان ، حيث تكتسب الجيوش خبرة واحتكاكاً ، وتستخدم في هذه المناورات غالباً الذخيرة الحية ، وهي بمثابة استعراض للقوة وتعد أحد أساليب الردع .

### ❖ تسليح الجيش :

تسليح الجيش هو من أهم نقاط التماس بين الجيش والحضارة ، فالأسلحة التي يستخدمها الجيش في أي عصر من العصور هي مؤشر مباشر لما وصلت إليه حضارات تلك العصور من تقدم صناعي وتقني ، وفي عصرنا الراهن أصبحت صناعة السلاح أكثر تطوراً ورقياً واحتواءً

للتقنيات رفيعة المستوى من الصناعات المدنية ، وتعمد كافة الجيوش في هذا الزمن إلي اقتناء الأسلحة الحديثة عالية التطور ، ومعلوم أن التفاوت في تقدم الأسلحة وتطورها بين الجيوش يقود إلي رجحان كفة ميزان القوة لمصلحة الجيوش حديثة التسليح ، وثمة بعض المسائل والإشكاليات الخاصة بتسليح الجيش ، نمر عليها في عجالة فيما يلي :

- تطوير التسليح : يحتاج تسليح الجيوش إلي متابعة أرقى أنواع الأسلحة وأكثرها تقدماً ، وتعمد دول كثيرة إلي تزويد جيوشها بهذه الأنواع من الأسلحة ، ولكنها قد تصادف بعض المعوقات مثل ارتفاع ثمن تلك الأسلحة المتطورة بشكل باهظ قد يكون فوق طاقتها ، أو تنظر إليه علي أنه هدر في مواردها الاقتصادية ، إن كثيراً من الأسلحة المتطورة معقدة للغاية بما يصعب علي أفراد الدول المتخلفة علمياً وتقنياً التدرب عليها واستخدامها بكفاءة ، كما أن معظم الدول المصنعة للأسلحة المتطورة تحجب هذه النوعيات من الأسلحة ، وتقصر اقتناءها علي جيوشها وجيوش الدول الحليفة فقط ، ولا تعمد إلا إلي تسريب وبيع الأسلحة الأقل تقدماً ، ولو قدّر وباعت الدول المصنعة للأسلحة المتطورة لبعض الدول نوعيات من هذه الأسلحة ، فهي تحتفظ بالكثير من أسرار استخدامها وقطع الغيار الخاصة بها .

- تنويع مصادر التسليح :فيما بعد الحرب العالمية الثانية طغى انقسام العالم سياسياً وأيديولوجياً بين المعسكر الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفياتي والمعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة علي كافة شئون الحياة ، وقد طال ذلك الانقسام الجيوش وتسليحها ، فانقسمت جيوش العالم من حيث عقائدها القتالية وتسليحها بين الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية والولايات المتحدة والكتلة الغربية ، وكان ذلك يسبب صعوبات بالغة لكثير من الجيوش ، إذ قيدت حرية الحركة ، وتحددت مصادر التسليح بشكل صارم في مصدر وحيد ، أما الاتحاد السوفياتي وكتلته ، أو الولايات المتحدة وكتلتها ، وكان لذلك

مخاطره ومآسيه ، إذ لا يمكن خوض حرب يُعتمد فيها علي مصدر وحيد للإمداد بالسلاح ، فقد تكون العواقب وخيمة إذا توقف ذلك المصدر أو تعثرت الإمدادات لسبب أو لآخر ، فالبديل في هذه الحالة غير مطروح .

إلا أنه منذ بداية العقد الأخير من القرن المنصرم لاحت في الأفق إنفراجات فيما يتعلق بواحدية مصدر تسليح الجيوش . إذ أصبح من الممكن الاعتماد علي أكثر من مصدر لإمدادات السلاح ، ومرد ذلك إلي المرونة التي بدأت تتسم بها مواقف القوى الكبرى إزاء السماح بإمدادات السلاح ، فلم تعد تلك القوى تشترط أن تكون هي المصدر الوحيد ، وإلي التفكك الذي حدث داخل الكتلتين المتصارعتين . حيث بات في مقدور دول أوربا الشرقية وأوربا الغربية تزويد الدول الأخرى بالسلاح دون رقابة صارمة من قبل الاتحاد السوفياتي أو الولايات المتحدة . ولو أن الواقع يعلن أن دول أوربا الشرقية لديها الحرية المطلقة في هذا الخصوص ، لأنها انفلتت تماماً من ارتباطاتها القديمة مع الروس ، في حين أن دول أوربا الغربية لا يمكنها التصرف بنفس القدر من الحرية نظراً لارتباطاتها مع الولايات المتحدة في حلف الناتو. إضافةً إلي مواءمات أخرى ذات طبيعة استراتيجية وذلك باستثناء فرنسا .

وبالرغم من أن إمكانية تنويع مصادر السلاح أصبحت واردة ، إلا أن ثمة معضلات تكتنف هذه الإمكانية ، ومن ذلك أن الجيوش لا يمكنها من الناحية العملية أن تنجح في استخدام أسلحة متنوعة إلا في حدود ، يرتبط بما تقدم أن تصنيع السلاح يقوم علي قاعدة تقنية مهمة هي قاعدة المنظومات ، وهذه القاعدة تعنى تصنيع مجموعة من الأسلحة بينها تعاون وتنسيق ومساندة ، بحيث أن غياب أي عنصر من هذه المجموعة يؤدى إلي خلل في الأداء وانخفاض في الكفاءة وربما توقف كامل ، وهذا يفرض علي الجيش أن يقتني المجموعة أو المنظومة بالكامل ، ومن ثم تقل ولربما تنعدم فائدة إمكانية تنويع مصادر

التسليح ، مثال ذلك منظومات الدفاع الجوي ، ومنظومات الصواريخ ، ومنظومات الرادار والتوجيه ، ومنظومات الاستشعار والتجسس .. الخ .

إلا أنه يمكن تنويع مصادر أسلحة أخرى باستثناء المنظومات ، وكذلك وسائل النقل البري ووسائل الإمرار الجوي والقطع البحرية المختلفة ، ولو أن التناغم بين بعض المنظومات من مصادر مختلفة اصبح الآن ممكناً .

– توفير قطع الغيار : توفير قطع غيار الأسلحة من أهم الإشكاليات التي تواجه الجيوش ، وتبدو خطورة هذه الإشكالية وقت الحرب ، وينبغي علي المخطط الاستراتيجي أن يؤمن مصادر الإمداد بقطع الغيار بشكل أكيد ، وتلجأ بعض الدول إلي تصنيع تلك القطع محلياً بترخيص من دولة المصدر وباستيراد حق المعرفة .

– تامين الإمدادات وقت الحرب : تسعى الجيوش إلي تامين إمدادات الأسلحة والذخائر وقت الحرب ، وذلك يقتضي من الدول توقيع اتفاقيات خاصة بهذا الشأن ، وعادة ما تضّمن مثل هذه الاتفاقيات المعاهدات المنشئة للتحالفات العسكرية أو اتفاقيات الدفاع المشترك .

## ❖ التصنيع العسكري :

كما في التسليح يستفيد الجيش من جماع التقدم ونتاج التقنيات فيما يتعلق بالتصنيع العسكري، الذي يمثل مع توأمه المدني منذ الأزل أرقى أشكال الحضارة ونتاجاتها ، والتصنيع العسكري من أهم عوامل دعم الجيش وترسيخ قدرته وفعاليته ، والطرح الإسلامي في هذا الخصوص يحض علي توفير أكبر قدر ممكن من أسلحة الجيوش الإسلامية عن طريق تصنيعها محلياً لما لذلك من فائدة كبرى ، ولكن هذه الغاية لا تدرك إلا بشق الأنفس ، ولا يسعنا إلا أن نضع أيدينا علي بعض ما يعترض رغبة التصنيع العسكري من مشاق وصعاب :

– ماذا يعني التصنيع العسكري وما الفرق بينه وبين التصنيع الحربي ؟ :

التصنيع العسكري يعني إقامة صناعة تهتم بتصنيع كل مستلزمات الحياة العسكرية ، سواء أكان سلاحاً أو مصنوعات أخرى ترتبط به ، ومن هذا التعريف يتضح أن ثمة فروقاً جوهرية بين التصنيع العسكري والتصنيع الحربي نوردها في :

* التصنيع العسكري أوسع وأكثر شمولاً ، فهو يشمل كل ما يهم الحياة العسكرية ويرتبط بها، حتى ولو لم يدخل مباشرة في شئون الحرب ، في حين أن التصنيع الحربي يتعلق بمستلزمات الحرب ، وما يستعمل في خوضها بشكل مباشر .

* التصنيع العسكري يحتاج إلي تخطيط طويل الأجل ، واستراتيجية أكثر شمولاً وعمومية ، مثل التخطيط لإقامة قاعدة صناعية مدنية ، أما التصنيع الحربي فهو في المعتاد سياسة مؤقتة ترتبط بظروف الحرب سواء أكان استعداداً لها أو خوضها بشكل فعلي .

* التصنيع العسكري يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالصناعة المدنية ، فهو يستفيد من صناعات أخرى عديدة ، كما يمكن تحويل بعض خطوط الإنتاج في التصنيع العسكري إلي الإنتاج المدني ، أما بالنسبة إلي التصنيع الحربي فهو لا يحتاج إلي الصناعات المدنية إلا في أضيق نطاق حيث أن همه هو معدات الحرب بشكل مباشر .

– مستلزمات قيام صناعة عسكرية قوية :

وإذا انتقلنا إلي البحث في مرتكزات وأساسيات إقامة صناعة عسكرية قوية ، فيمكننا تحديد تلك المرتكزات في الآتي :

* تحتاج الصناعة العسكرية إلي بنية تحتية قوية ، فإذا كانت البنية التحتية تمثل ضرورة ملحة بالنسبة إلي الصناعة المدنية بشكل عام فإن البنية التحتية بمفرداتها المترابطة مثل شبكات الطرق الممهدة والمرافق العامة من كهرباء ومياه واتصالات سلكية ولا

سلكية كل ذلك يعد أكثر لزومية وحيوية للصناعة العسكرية ، فذلك خير معين لتلك الصناعة علي التطور والازدهار .

* يضاف إلي ما تقدم أن الصناعة العسكرية تحتاج كذلك إلي قيام صناعة مدنية قوية وما يصاحبها من فكر صناعي ، وجدوى الصناعة المدنية أنها تخلق رجل أعمال ، أو رجل صناعة يمتلك عقلاً ناضجاً وفكراً واسعاً ، يؤمن بأهمية الصناعة المحلية ، ويقدر دورها في الاقتصاد الوطني ، ومن ثم فهو ينقل نفس هذه المواصفات إلي الصناعة العسكرية ، مما يؤهلها للنجاح والتفوق عكس مما لو أقيمت الصناعة العسكرية من فراغ وبدأت الدولة بها دون تبلور وتراكم معارف وأفكار عن الصناعة بشكل عام .

* تحتاج الصناعة العسكرية كذلك إلي صناعة معاونة ومساندة تفي بغرض الصناعة العسكرية من المنتجات الأساسية مثل الصلب والألمنيوم وبعض أنواع اللدائن والمنتجات الوسيطة مثل المحركات والهياكل والإطارات .

* العنصر البشري يمثل عاملاً أساسياً في تطوير الصناعة العسكرية ، والاستثمار في العنصر البشري من خلال التصنيع العسكري يمثل استثماراً أمثلاً ، ويحتاج العنصر البشري إلي عمليات تأهيل وتدريب تصل به إلي مرحلة الاكتفاء الذاتي وعدم الاعتماد علي العمالة المستوردة إلا فيما ندر .

* من مستلزمات الصناعة العسكرية بشكل أساسي توافر مراكز بحثية تتمثل مهمتها في البحث والتطوير المستمرين ، فهذه الصناعة تحتاج إلي بحث دائم عن افضل الأسلحة وأكثرها كفاءة وأقدرها علي المناورة ، كذلك فعمليات التطوير والتحوير للأسلحة التي تم تصنيعها وتجريبها واشتراكها في معارك أو مناورات هي عمليات مهمة وحيوية ، وتحتاج هذه المراكز البحثية إلي عناصر متميزة حتى يتسنى لها القيام بهذه المهمة .

* من أهم مرتكزات إقامة صناعة عسكرية قوية إنشاء جسور قوية للتعامل مع شركات عالمية شهيرة ومشهود لها بالكفاءة في مجال التصنيع العسكري ، ويمكن الحصول علي الخبرة من هذه الشركات ، وكذا ما يعرف بحق المعرفة وقد تبرز مشاكل عديدة فيما يتعلق بمسائل الحصول علي الخبرة وحق المعرفة ومن هذه المشاكل :

○ تمنُّع كثير من الشركات في قبول تزويد الصناعة العسكرية في الدول الأخرى بالخبرة وحق المعرفة تحت دعوى الحفاظ علي الأسرار العسكرية .

○ بعض الشركات تطمع في بيع حق المعرفة بمقابل مادي مُبالغ فيه استغلالاً لظروف الدول الطالبة ورغبتها في تطوير صناعتها .

○ بعض الدول تخشى من نقل حق المعرفة انتشار عمليات تطوير وإحداث السلاح ، مما ينتج عنه إمداد الأطراف المتصارعة بالسلاح ، وإزكاء نيران الصراعات الإقليمية ، وفي هذا الصدد تطالب الدول الكبرى بقصر أسرار تقنيات الأسلحة الحساسة علي دول معينة دون غيرها .

* تحتاج صناعة السلاح إلي ميزانيات ضخمة ومخصصات هائلة للإنفاق علي برامج تصنيع السلاح ، فإذا لم تكن الدولة علي قدر يعتد به من الثراء المادي والاقتصاد القوى قد لا تفلح فيها صناعة السلاح في تحقيق أهدافها .

* صناعة السلاح ليست كمشروع اقتصادي تُنتظر أرباحه ومخولاته فور تشغيله ولكنها عملية ذات مردود متعدد المستويات :

○ فعلي المستوى السياسي تعفى صناعة السلاح الدولة من الاعتماد علي الغير والتبعية السياسية والتأثير علي استقلالية القرار السياسي .

○ وعلي المستوى الاقتصادي تعفى الدولة من الاستيراد مع الاكتفاء ذاتياً علاوة علي تأسيس قاعدة صناعية .

○ وعلي المستوى الأمني والعسكري تعتبر عملية التصنيع العسكري دعماً قوياً لاستراتيجية الأمن والدفاع عن الدول الإسلامية .

○ وعلي المستوى الاجتماعي تعد عملية التصنيع العسكري إحدى ميكانيزمات الحفاظ علي المجتمع وحماية أمنه ومكتسباته .

– أهداف عملية التصنيع العسكري :

تتحدد أهداف عملية التصنيع العسكري في هدفين يمكن تناولهما في :

* الهدف الأول : تسليح الجيش : يعتبر الهدف الأول والأساسي من وراء عملية التصنيع العسكري هو تسليح الجيش ، وثمة وجهان للعلاقة بين التصنيع العسكري وتسليح الجيش، ويمكن توضيح تلك العلاقة من خلال الآتي :

○ القيام بدراسة مسحية متكاملة لكافة احتياجات الجيش من الأسلحة ثم ترتيب الأسلحة بدءاً من الأسهل والأبسط وانتهاءاً بالأسلحة الثقيلة المعقدة ، بعد ذلك يُشرع في ترتيبات إقامة المصانع لإنتاج أنواع الأسلحة الأبسط ثم يتم التطوير بإضافة نوعيات جديدة وهكذا .

○ الشروع في عملية التصنيع حسبما يتم الاتفاق علي تصنيعه مع الشركات صاحبة الخبرة وحق المعرفة ، ثم يتم تزويد الجيش باحتياجاته من هذه الأسلحة ، والشروع في تصنيع نوعيات أخرى .

وتأخذ معظم التجارب بالمسلك الأول حيث يتم دراسة الاحتياجات ، ثـم يُـشرع في عمليـة التصنيع وفقاً لتلك الاحتياجات ، وثمة آراء تأخـذ بالمزاوجـة والتنـسيق بـين المـسلكين ، ويُلاحظ أن التجارب التي تأخذ بالنهج الثاني هي التجارب التي تغّلب الطـابع التجـاري علي هدف التسليح الذاتي .

* الهدف الثاني : التصنيع من أجل البيع : كثير من شركات تصنيع السلاح تـنغمس في صناعة السلاح بهـدف التجـارة ، ومـن ثـم فهـذه الـشركات تعمـد إلـي صـناعة نوعيـات الأسلحة التي تلاقي رواجاً في أسواق السلاح ، وكذا التي تدر ربحاً وفيراً .

– ميزات التصنيع العسكري :

يحقق التصنيع العسكري جملة من الميزات يمكن إجمال أهمها في الآتي :

* الإعفاء من الاعتماد علي مصادر أجنبيـة : ممـا لا شـك فيـه أن كـل قطعـة سـلاح يـتم تصنيعها محلياً تعفى دولتها من الاعتماد علي مصدر أجنبي في توفيرها ، وقد سبق لنا أن أوضحنا في موضع سابق كيف أن عمليات استيراد الـسلاح تـؤدي في بعـض الأحـوال إلـي الحد من استقلالية القرار السياسي .

* ميزة المكانة الدولية : عادة ما تأخذ الدولـة المـصنعة للـسلاح مكانـة مميـزة بـين الـدول الصناعية، ومعلوم أن تصنيع السلاح هو أرقى من التصنيع العادي لتفرد الأول بمواصـفات وتقنيات ذات طبيعة خاصة .

* التعاون وثيق بين قطاع الصناعات العسكرية وقطاع الصناعات المدنية ، وما من شـك في أن كلا منهما يؤثر في الآخر ، فالقطاع العـسكري قـد يحـصل علـي كـثير مـن احتياجاتـه كقطع الغيار والسلع نصف المصنعة من القطاع المدني ، والأخير بدوره يعتمـد علـي القطـاع

العسكري في إمداده بالعديد من المنتجات ، وقد لوحظ أن عملية التطوير المستمرة لقطاع الصناعات العسكرية تؤثر بالتالي علي القطاع المدني بالتطوير والازدهار .

* يساهم قطاع الصناعات العسكرية بقسط لا بأس به في استيعاب عدد كبير من الأيدي العاملة ثم هو يتولى هذه العناصر بالرعاية والتدريب رفيع المستوى ، مما يقود في النهاية إلي الارتقاء بمستوى الأيدي العاملة ، وعليه فإن إحدى ميزات التصنيع العسكري تتمثل في الاستثمار في العنصر البشري .

* من ميزات التصنيع العسكري ما يترتب علي الصناعة العسكرية من تحقيق مردود اقتصادي نتيجة الاكتفاء الذاتي أو تحقيق مدخولات مادية نتيجة عمليات البيع .

## ❖ خوض المعارك : [ إحالة ]

خوض المعارك هو الحرب بشقيها : التخطيط العام أو ما يعرف بالاستراتيجية ، وتحركاتها العملياتية المدنية أو ما يعرف بالتكتيك ، مشروعيتها ، بدايتها ، التخطيط لها ، إدارتها ، ميادينها ، عملياتها ، تنظيمها ، توقفها المؤقت [ الهدنة ] ، الحياد ، التحالف ، محاولات التسوية ، نهاية الحرب ، معاهدة نهاية الحرب ، الاستسلام بالهزيمة ، كل هذه الموضوعات سنتناولها في مصنف مستقل .[1]

فيما سلف استعرضنا مفردات الجيش وفعالياته والتفاعلات التي تتم بداخله وعلاقاته بالحياة العامة في المجتمع ، وما كل ذلك إلا من فنون الحضارة وضروبها ، فالجيش إذن بالرغم من كونه أداة من أدوات إدارة الصراع العضوي بل لعله أهمها ، إلا أنه في ذات الوقت مظهر من مظاهر الحضارة وشكل من أشكالها ، وليس هناك تعارض بين كون الجيش أداة للصراع العضوي وكونه مظهراً من مظاهر الحضارة ، فالجيش وفق الطرح

[1] . يمكن للرجوع إلي المجلد التاسع : الحرب في الإسلام ، الجزء الأول ، أصول الحرب في الإسلام.

الإسلامي وحسب الأفكار الإنسانية القويمة هو أداة لرد العدوان وردعه وحماية الحضارة ، ولو أنتفى الظلم والجور والتعدي في الحياة لما كان هناك ما يدعو لتأسيس الجيوش ، فالخلاصة أن الجيش مظهر من مظاهر الحضارة وعنصر من عناصرها وأداة حمايتها .

**خامساً : الجيش يطوّر الحضارة ويبنى المدنية :**

حتي وسائل وأدوات الصراع العضوي تطولها الحضارة وتتفاعل معها فتأخذ منها وتعطيها ، تأخذ منها الحماية والحفظ ضد العدوان والتعدي وتعطيها التطور والترقي ، لا في سبيل التدمير والإفناء ، ولكن في سبيل الردع وعدم الإقدام علي المغامرة بمقدرات الأمم ، ولنرى سراعى كيف يطوّر الجيش الحضارة ويبنى المدنية ، وذلك من خلال :

❖ **تطوير الجيش لمفرداته تطوير للحضارة :**

كررنا آنفاً أن الجيش يعمد دوماً إلي تطوير مفرداته بما يكفل له ردع الآخرين ويضمن له الغلبة والظفر حال وقوع الصراع العضوي ، وهو في كلتا الحالتين يحافظ علي الحضارة ويطوّر أشكالها ومظاهرها وعناصرها .

وإذا كنا قد أفضنا في أساليب وطرائق الجيش من أجل تطوير وإحداث مفرداته ، فهنا يجب أن نضيف أن الهدف المزدوج الذي يرمى الجيش إلي إحرازه إنما ينبع من رغبة الحضارة وما يتكتل وراءها من مرتكزات نظمية وفكرية في الحفاظ علي الذات بكافة صفاتها وأشكالها والمِلك بجميع صوره ومحتوياته .

كذلك فإن الإرادة الجماعية في شكليها النظامي والاجتماعي ، تتفانى في رضا وعن قناعة في تجنيد المقدرات وتسخير الطاقات ، من أجل تمكين الجيش من تحقيق الهدف المزدوج سابق التبيان ، وهذا يعنى حرص تلك الإرادة علي دعم الحضارة من خلال أحد مقوماتها وهو الجيش .

❖ الجيش يبنى المدنية ويحميها :

الجيش في علاقته بالحضارة هو عنصر بناء وحماية ، يبنى المدنية وينشر العمران ويحافظ عليهما ضد أي تعدٍ أو اعتداء داخلي كان أم خارجي ، ولكن كيف يبنى الجيش المدنية وينشر العمران ؟ يمكن متابعة ذلك من خلال ما يلي :

- إقامة القلاع [ القواعد الحربية ] :

منذ القدم والجيش يعمل علي إقامة القلاع ، وهي عبارة عن أبنية منيعة ، تشيد في أماكن ومواقع استراتيجية معينة لحماية المدن المهمة ، وكانت هذه القلاع تقام وفق فنون معمارية خاصة تضمن لها القوة والمنعة ، وغالباً ما كانت تقام تلك القلاع في مواضع مختارة بدقة في الجبال أو التلال أو الهضاب ، حيث تتخذ كمراصد لمراقبة الأعداء واعتراضهم .

وفي الوقت الراهن يقوم بنفس الدور القواعد العسكرية : البرية والجوية والبحرية ، وهي عبارة عن تجمع لتشكيلات من الجيش في موضع معين ، يتم الانطلاق منها لمهاجمة العدو أو صد هجومه ، ولا يقتصر إقامة القواعد العسكرية في الوقت الراهن علي أراضي الدول صاحبة الجيوش فقط ، بل أصبح من المتعارف عليه أن تقام القواعد العسكرية علي أراضي دولة أخرى بموجب اتفاقيات خاصة أو معاهدة تحالف أو علاقات صداقة .

- إقامة الحصون [ الخطوط والاستحكامات الدفاعية ] :

وعلي غرار ما تقدم اهتمت الجيوش منذ تأسيسها بإقامة الحصون ، وهي مواضع منيعة علي حدود الدولة وفي ثغورها لصد الهجوم أو الانطلاق منها لمهاجمة الأعداء ، ولقد تطورت هذه الحصون في الوقت الراهن ، ولكنها احتفظت بنفس معناها الاصطلاحي

ومحتواها الاستراتيجي ومقصدها العملياتي [ التكتيكي ] ، لتأخذ أشكالاً ونماذج جديدة تتجسد في الخطوط والاستحكامات الدفاعية التي تقيمها الجيوش علي الحدود وفي الثغور .

- المعسكرات [ المدن العسكرية ] :

بمقاييس استراتيجية تتخير القيادات العسكرية في الجيش مواضع معينة لإقامة معسكرات لتجميع القوات وممارسة عمليات التدريب والإعداد والتخطيط ، ويختلف المعسكر عن القاعدة العسكرية في أن الأخيرة نقطة أكثر جاهزية للانطلاق وإنجاز مهام محددة مخططة ومعلومة مسبقاً ، أما المعسكر فهو موضع لمارسة مهام أكثر اتساعاً وشمولاً ، مثل التدريب والتخطيط وتجميع القوات وتوزيعها ، ومن ثم فإن المعسكرات تعمد دوماً إلي إنشاء مرافق ومنشآت لها صفة الاستمرارية ، ومنذ عهود قديمة والمعسكرات تكون نواة لإقامة مدن شهيرة .

- شق الطرق وإقامة الجسور :

تستطيع الجيوش بما يتوافر لديها من عناصر قوة ومقدرات حركة بشرية ومادية من شق الطرق وتعبيدها وإقامة الجسور وتجهيزها ، حتى تتمكن من تأمين حرية الحركة وسرعة الانقضاض والقدرة علي المناورة ، وتلعب الطرق والجسور التي يقيمها الجيش دوراً مهماً فيما بعد في الحياة المدنية .

- إقامة معسكرات الإمداد والتموين علي الطرق [ عمليات اللوجستيك ] :

علي الطرق الطويلة تلجأ الجيوش إلي إقامة معسكرات تستعمل للإمداد والتموين ، وتضمن تأمين تلك الإمدادات للجيوش المتقدمة ، وقد تم تطوير هذه المعسكرات في الوقت الراهن ، وباتت تمثل الضلع الثالث في مثلث " **فن الحرب** " الذي يشمل أضلاع **الاستراتيجية [ التخطيط العام ]** ، والتكتيك **[ التخطيط العملياتي — الميداني ]** ، واللوجستيك [ عمليات الإمداد والتموين ] .

### ❖ وضع نواة التخطيط العمراني للمدن :

في جميع أنحاء العالم يوجد الكثير من المدن الشهيرة التي كانت معسكرات للجيش ، ولا يزال هذا الوضع مشاهداً في الواقع العملي ، ولكن بأسلوب أكثر تطوراً حيث تعمد الجيوش في كثير من الأحيان إلي تخطيط المدن ، ووضع أسسها العمرانية من تجهيزات أساسية ومرافق عامة ، وهي تهدف من وراء ذلك إلي تأهيل بعض المناطق بالسكان لبواعث استراتيجية ، والتفصيل فيما يلي :

- بناء الأساطيل الحربية :

الأساطيل الحربية معروفة منذ القدم وقامت تلك الأساطيل بحسم الكثير من المعارك ، وباتت الآن من العناصر التي لا تقل أهمية عن سلاح الجو وسلاح المشاة ، ولعلها الآن قوام الدعم اللوجستي للجيوش الحديثة ، وتضم الأساطيل الحربية قطعاً عديدة متنوعة الأغراض والمهام وعلي درجة عالية من التطور والضخامة والقوة ، فهناك حاملات الطائرات العملاقة والبوارج والمدمرات والفرقاطات والغواصات وسفن الإمداد والتموين .

- إقامة الموانئ البحرية :

تنشئ الجيوش موانئ بحرية كاملة خاصة بالأساطيل البحرية الحربية ، كما تنشئ مراسي للتزود بالوقود والمؤن ، إضافةً إلي أحواض بناء السفن والقطع الحربية ، وهذه الموانئ تمثل مدناً كاملة .

# الفصل الثاني

# تأسيس الجيش منذ فجر

# الحضارة الإسلامية

إذا كنا قد قدمنا الطرح الإسلامي فيما يتعلق بشرعية تأسيس الجيش ككيان ذى خصوصية ، تتمثل مهمته في حماية الحضارة وحمل القيم وتوصيلها إلي المخاطبين بها ، فسوف نعكف في هذا الفصل علي متابعة تأسيس الجيش الإسلامي في عهد النبوة الزاهر ، ثم تطويره في عهد الخلفاء الراشدين ، ووصوله إلي أقصى قوته في عهد الأمويين ، وتوقفه عند درجة معينة من النضج في عهد العباسيين ، وسنكتشف من خلال المتابعة والتحليل أن الجيش في كل مرحلة من هذه المراحل التاريخية ، قد لعب دوراً معيناً فيما يتعلق بالحضارة الإسلامية ، وكان لنشاطه وتطوره مؤشر ذو دلالة في تلك الحضارة ، ونتابع ذلك من خلال المباحث الأربعة التالية :

**المبحث الأول : تأسيس الجيش في عهد النبوة الزاهرة .**

**المبحث الثاني : الجيش في عهد الخلفاء الراشدين .**

**المبحث الثالث : الجيش الإسلامي في العصر الأموي .**

**المبحث الرابع : الجيش الإسلامي في العصر العباسي .**

## المبحث الأول

## تأسيس الجيش في عهد النبوة الزاهر

كيف تأسس الجيش في الدولة الإسلامية الأولى ؟ كيف تم استنفار واستقطاب العنصر البشري الذي يمثل قوام الجيش ؟ وما علاقة ذلك بفريضة الجهاد ؟ وهل الجهاد فرض عين أم فرض كفاية ؟ وهل كان هناك جيش بالمعنى المتعارف عليه في عهد الرسول الكريم ؟ وماذا كانت علاقة الجيش بالدعوة الإسلامية في عهد الرسول الكريم ؟ وماذا عن دور الجيش في الحضارة الإسلامية في عهد النبوة الزاهر ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها سوف نتناولها في هذه الجزئية من خلال الآتي :

### أولاً : فكرة الأمة المجاهدة في عهد الرسول الكريم :

فكرة الأمة المجاهدة طرح مستنبط من المصادر الشرعية المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ونماذج الممارسة في دولة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين ، ونتصدى لهذه الفكرة في هذا الموضوع بوصفها قد لعبت دوراً مهماً في تقرير وبلورة الجانب الشرعي وحتى التنظيمي فيما يتعلق بالجيش الإسلامي ، ولم تكتف بذلك بل تطرقت إلي شرعية الحرب ، فكانت من أهم الحجج والأسانيد التي أمكن التعويل عليها للبحث في شرعية الحرب في الإسلام ، وسوف نعالج فكرة " **الأمة المجاهدة** " من خلال جملة الأطاريح التالية :

– الدلالات العامة لفكرة " الأمة المجاهدة " :

ولكي نلج إلي لب الفكرة نستفتح بتناول الدلالات العامة ، والتي ترد في أكثر من تعبير، نتناولها في ما يلي :

* إن فكرة الأمة المجاهدة تدل علي أن الأمة الإسلامية تحمل رسالة إنسانية خاصة بها ، تتمثل في التبليغ والدعوة ، وعلي أفرادها جميعاً أن يشاركوا في هذه الرسالة ، كلٍ حسب طاقته وبما تيسر له .

* تقود فكرة الأمة المجاهدة إلي عمومية التفاعل وشمولية الأداء ، وهنا يعنى الجهاد كل أنواع المجاهدة ، التي تعنى استفراغ أو استقصاء الجهد من أجل تقديم النموذج لأعلى درجات الكمال والفضيلة ، وتتمثل تلك الأنواع من المجاهدة في جهاد النفس ، وجهاد الآخرين [ الأعداء ] ، وجهاد عناصر الوجود ، وجهاد أوجه النشاط والحركة في الكون .

* تعد فكرة الأمة المجاهدة من أهم ما يميز الأمة الإسلامية ، ويضفي عليها صفتي التفرد والخصوصية ، فيما يتعلق بمنطلقات الحركة ومساراتها ومقاصدها .

* كذلك للفظة " الأمة " دلالتها المحددة في الإسلام ، فهي تعنى العلاقة الخاصة التي تربط بين من ينتمون إلي الإسلام ، والتي تسمو فوق أية علاقة أخرى حتى ولو كانت علاقة الدم ، ومعلوم أن الإسلام يرتب كافة العلاقات الإنسانية في مرتبة تالية لعلاقة الإسلام ، وينتهي إلي أن الأمة هي مجموع من يدينون بالإسلام بغض الطرف عن أصولهم وأعراقهم . [١]

* تضفي فكرة الأمة المجاهدة علي الحضارة الإسلامية سمة الكفاحية والنضال من أجل العطاء والازدهار ، ونشر نماذجها الحضارية في كافة أنحاء العالم .

* كما تسم الثقافة الإسلامية بدأب التفاعل مع الواقع ودوام الإفراز ، بما يمكنّها من التحوّر والتجدد لتحتوى المتغيرات وتكتنف المستجدات .

---

[١] . من أجل تفصيل أكثر فيما يتعلق بالطرح الإسلامي الخاص بالأمة والدولة يمكن الرجوع إلي : المجلد الأول ، السياسة والحكم في الإسلام، الجزء الثاني : نحو صياغة نظرية سياسية إسلامية معاصرة .

– فكرة الأمة المجاهدة في مصادر الطرح الإسلامي :

تعرض القرآن الكريم الذي يعتبر أهم مصادر الطرح الإسلامي لفكرة " الأمة المجاهدة " ولعله الأساس الذي استُنبطت منه هذه الفكرة ، وأوضح الذكر الحكيم أن هذه الفكرة هي طرح عام وشامل يلازم الأمة ويقترن بسماتها وخصائصها .

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[1] ، لقد نزلت هذه الآية الكريمة في واقعة بذاتها ، فقد أخرج بن جرير وابن حاتم والطبراني في الكبير والبيهقي في سننه ، عن جندب بن عبد الله ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رهطاً وبعث عليهم عبد الله بن جحش ، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جماد الآخر ، فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام ، فأنزل الله تعالى " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه " الآية ، فقال بعضهم : إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر ، فأنزل الله " إن الذين آمنوا والذين هاجروا " الآية ، وبالرغم من خصوصية النزول في هذه الآية إلا أنها تحمل أحكاماً عامة :

* إن تخصيص الذين آمنوا بالتوكيد في صدر الآية ليدل علي أن الإيمان هو أساس كافة الأعمال الصالحة من هجرة وجهاد .. الخ .

* إن جمع الهجرة والجهاد باستخدام حرف العطف " الواو " الذي لا يفيد أفضلية أو ترتيباً أو تعقيباً يجعل الهجرة تستوي مع الجهاد أو أنها نوع منه ، ومن شأن هذا أن يوسّع من دائرة الجهاد بمعنى القتال ، ويدخل في كنفها أعمالاً أخرى منها الهجرة .

---

[1] . سورة البقرة : ٢١٨ .

وقال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1] ، ووفق السياق الذي نزلت فيه هذه الآية الكريمة ، يتضح أن الجهاد قد قصد بـه القتـال ، أما الصبر فقد قصد به الصبر في القتال ، وفي كافة أنواع الجهاد الأخرى ، وبـصفة خاصـة أن أخوات هذه الآية اللاتي سـبقنها واللاتـي أعقبنهـا ، جـئن في شـأن موقعـة أحـد ومـا أصاب المسلمين من قرح وانكـسار ، إذن يمكـن استخلاص مـا مفـاده أن الـصبر نـوع مـن الجهاد .

وقـال تعـالى ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2] ، تحمل هذه الآية مجموعة أحكام خاصة بفكـرة الأ.ـة المجاهـدة ، ويمكن تناول هذه الأحكام فيما يلي :

* إن الجهاد بمعنى القتال هو فرض كفاية ، حتى ولو كـان المسلمون يـدافعون عـدواً قـد اعتدى عليهم ، وأصل ذلك أن الآية قد ذكرت أن القاعدين عن الجهـاد أي القتـال بـإذن من القائد اكتفاءً بغيرهم ، لهم الحسنى بمعنى الثواب والجزاء الحسن .

* إن هناك من المسلمين من هم أصحاب أعذار تمنعهم من القتـال ، وهـؤلاء يـرخص لهـم بالقعود عن القتال ، ولهم أيضاً الحسنى كما نصت الآية صراحة .

* إن هناك من المسلمين من يقعد عن القتال ، ولكنه يجاهد بوسائل أخرى تمكن المقـاتلين من البلاء في القتال ، وتحفظ المجتمع في زمن الحروب والكـروب ، وهـؤلاء ممـن وعـدتهم الآية بالحسنى لقاء جهادهم بدون قتال .

[1] . سورة آل عمران : ١٤٢ .
[2] . سورة النساء : ٩٥ .

* إن المسلمين الذين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم ، ثم بأنفسهم في قتال الأعداء ، قد فضلهم الله درجة علي الأقوام المذكورة أعلاه لجودهم في سبيل الله بالمال والنفس .

* لقد أوضحت الآية الكريمة أن هناك جهاداً بالمال ، إضافةً إلي الجهاد بالنفس الذي هو القتال ، وأن الجهاد بالمال والنفس أفضل أنواع الجهاد لأنه جمع بين أعز وأغلى ما يملك الإنسان .

* إن هناك من المسلمين من يقعدون عن الجهاد بغير إذن القائد أو ولى الأمر ، ولم تجرم الآية الكريمة فعل هؤلاء ولم تصفهم بالإثم ، بل جعلت لهم أجراً ولكنه أقل .

* فاضلت الآية الكريمة بين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم ، وبين القاعدين بدون إذن القائد أو ولى الأمر ، وقضت للمجاهدين أجراً عظيماً ، والمفاضلة هنا تعنى أن هناك تفضيلاً في جنس الأجر ، فالمفضل قد أصاب الأجر العظيم ، والمفضل عليه قد أصاب من الأجر ما هو أقل ، وهذا يعطى دليلاً آخر علي أن القتال فرض كفاية .

وقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] ، حملت هذه الآية الكريمة ثلاثة أوامر للمؤمنين : الأمر الأول هو تقوى الله ولزوم طاعته ، والأمر الثاني هو طلب الوسيلة إلي الله بالعمل الصالح والقربان والنوافل ، والأمر الثالث هو الجهاد في سبيل الله بكافة صوره وأشكاله التي ذكرناها سلفاً والتي سترد فيما بعد .

وقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] ، لقد ورد الجهاد في سبيل الله في هذه الآية ليعنى الجهاد بجميع صوره وأشكاله التي منها القتال .

---

[1]. سورة المائدة : ٣٥ .
[2]. سورة المائدة : ٥٤ .

وقـــال تعـــالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1] ، لقد أوردت الآية الكريمة الجهاد بمعناه الواسع الذي يتجاوز القتال ، ليشمل الجهاد بالنفس والمال والهجرة في سبيل الله .

وقـــال تعـــالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾[2] ، توضح هاتان الآيتان الكريمتان أن الجهاد في سبيل الله لا يقتصر علي القتال فقط ، وإنما يتجاوز ذلك إلي أنواع أخرى من الجهاد مثل الهجرة في سبيل الله بعد الإيمان .

وقال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3] ، في هـذه الآيـة الكريمـة ورد الجهاد ليعنى كافة أنواعه بما فيها قتال الأعداء .

وقـــال تعـــالى ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[4] ، في هـاتين الآيـتين أمـور في الجهاد عظيمة وأحكام قيمـة : ففـي الآيـة الأولى مفاضلة ابتدرت صدر الآيـة باستفهام تقريري جاء حكمه في عجزها ، فالمفاضلة كانت بين الجهاد في سبيل الله بكافة صوره ، وبين القيام بأعمال هي من قبيل أعمال الخير والبر ، متحققة في سقاية الحاج ، وعمارة

[1] . سورة الأنفال : ٧٢ .
[2] . سورة الأنفال : ٧٤ ـ ٧٥ .
[3] . سورة التوبة : ١٦ .
[4] . سورة التوبة : ١٩ ــ ٢٠ .

المسجد الحرام ، والحكم الذي حملته الآية جاء لمصلحة الجهاد حيث رجحت كفته علي تلك الأعمال ، وفي الآية الثانية تفصيل وتأكيد الحكم الذي انتهت به الآية الأولى ، حيث حددت الآية بعض لزوميات الجهاد في تلك الأثناء ، وهي الإيمان بالله والهجرة في سبيله، ثم رصدت شكلين أو صورتين من صور ونماذج الجهاد مُعيّنة إياهما في الجهاد بالأموال والجهاد بالأنفس ، وأعقبت ذلك بالتأكيد علي الحكم في الآية السابقة مع بيان درجة الأفضلية ومستوى الأجر .

وقال تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1] ، تحمل هذه الآية الكريمة موازنة بين أعراض الحياة الزائلة مثل كثرة الأهل والأموال والتجارة والمساكن ، وبين حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله بكل صوره ونماذجه ، ثم تقرر أن من فضلّ العرض الزائل علي الأصيل الباقي فقد فسق عن أمر الله ، وترتب الآية الجهاد في سبيل الله في المرتبة الثالثة بعد حب الله ثم حب الرسول الكريم .

وقال تعالى ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2] ، تذكر هذه الآية الكريمة الجهاد في أشهر صورتيه ، وهما الجهاد بالمال والجهاد بالنفس ، وتحض المؤمنين علي الجهاد في سبيل الله لما فيه من الخير الكثير .

وقال تعالى ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3] ، تبين هذه الآية الكريمة حال المؤمنين بالله واليوم الآخر ، فهم

---

[1] . سورة التوبة : ٢٤ .
[2] . سورة التوبة : ٤١ .
[3] . سورة التوبة : ٤٤ .

ماضون في الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، لا يستأذنون الرسول في القعود أو التخلف ، والله أعلم بهم .

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] ، تحمل هذه الآية الكريمة أمراً من الحق تبارك وتعالى إلي رسوله الكريم بأن يجاهد الكفار والمنافقين ، ويستفرغ في ذلك كل جهده بوسيلتين : الأولى : بإقامة الحجة عليهم ، والثانية : بقتالهم ، وهنا يتضح أن جهاد الرسول الكريم ضد الكفار والمنافقين ، وهو يتسم بالخصوصية والتفرد ، قد جمع بين الجهاد بالحجة والمنطق والعقل ، والجهاد بالصراع العضوي الذي هو القتال ، وترتيب النموذجين من الجهاد ذو دلالة في هذا الموضع .

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] ، تبين هذه الآية الكريمة أن الجهاد علي قدر الطاقة والوسع ، فكل يجاهد بما قُدّر له من المال والجهد العضلي أو الذهني .

وقال تعالى ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾[3] . تركز هذه الآية الكريمة كذلك علي الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾[4] ، وتحمل هذه الآية الكريمة كذلك دلالة علي أشكال الجهاد في

[1] . سورة التوبة : ٧٣ .
[2] . سورة التوبة : ٧٩ .
[3] . سورة التوبة : ٨١ .
[4] . سورة التوبة : ٨٦ .

سبيل الله ، وهي النفس والمـال ، يستنبط ذلك من لفظـة " أولى الطـول " ، الـتي تعنـى أصحاب القدرة علي الجهاد بالنفس والمال .

وقـال تعـالى ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] ، تؤكد هذه الآية الكريمة علي الجهاد بالمال والنفس .

وقـال تعـالى ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] ، قرنت هذه الآية الكريمة الجهـاد بالصبر .

وقـال تعـالى ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[3] ، تحمـل هذه الآية الكريمة أمراً من الخالق سبحانه بالجهاد في سبيله بكل ما أوتى المسلم من طاقـة مادية وجهد جسماني .

وقال تعالى ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾[4] ، تبين هذه الآية نموذجاً آخر للجهاد ، لم يذكر من قبل ، وهو الجهاد بالقرآن ، حيث يـأمر الله سـبحانه وتعـالى رسوله الكريم بأن يجاهد الكافرين بما في القرآن من حجج وبـراهين وعـبر ، حتـى يتـبين لهم أنه الحق من عند ربهم .

[1] . سورة التوبة : ٨٨ .
[2] . سورة النحل : ١١٠ .
[3] . سورة الحج : ٧٨ .
[4] . سورة الفرقان : ٥٢ .

وقال تعالى ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] ، ترشد هذه الآية الكريمة إلي جهاد النفس بمحاربة شهواتها ، وهذا نموذج آخر من نماذج الجهاد في سبيل الله ، وقد يكون من أهم النماذج ومدخلها إلي النماذج الأخرى .

وقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] ، وتشير هذه الآية الكريمة إلي الجهاد بكافة صوره ونماذجه المذكورة .

وقال تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾[3] ، تبين هذه الآية الكريمة أن الله يختبر عباده المؤمنين بالتكاليف الشاقة ، حتى يعلم الذين يجاهدون أنفسهم ويجبرونها علي الطاعة ويصبرون علي ذلك ، وبذا يكون الجهاد في هذه الآية هو جهاد النفس .

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[4] ، تحدد هذه الآية الكريمة أهم صفات المؤمنين بأنهم هم الذين آمنوا بالله ورسوله وتأصل الإيمان ووقر في قلوبهم ، ثم جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وهما أشهر صور الجهاد .

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[5] ، تورد هذه الآية الكريمة الخروج وترك الديار أو الهجرة علي أنه جهاد في سبيل الله .

---

[1] . سورة العنكبوت : ٦ .
[2] . سورة العنكبوت : ٦٩ .
[3] . سورة محمد : ٣١ .
[4] . سورة الحجرات : ١٥ .
[5] . سورة الممتحنة : ١ .

وقـال تعـالى ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1] ، رتبت هذه الآية الكريمة الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس في الدرجة الثالثة بعد الإيمـان بالله ورسوله .

قـال تعـالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[2] ، في هذه الآية الكريمة ورد جهاد الكفار والمنافقين بالحجة والبرهـان علـى أنـه أمر الهي من الله لرسوله .

– مقترح الأمة المقاتلة في مصادر الطرح الإسلامي :

بعد أن عرضنا لما ورد في كتاب الله العزيز حول فكرة " **الأمـة المجاهـدة** " ، نتـصدى في هذه الجزئية لمقترح آخر تداخل مع فكرة " الأمة المجاهدة "،وهو مقترح " **الأمة المقاتلة** " ، وسوف نتابع هذا المقترح في القرآن الكريم ، ثم في سنة الرسول العظيم ، وبعد ذلك نعمد إلي إيضاح العلاقة بين الفكرة الأولى والمقترح الثاني ، وموقع كل منهما في الطرح الإسلامي المعاصر الذي يتعامل مع مستجدات الزمن ومتغيرات العصر .

* مقترح " الأمة المقاتلة " في القرآن الكريم :

كما تابعنا آيات الذكر الحكيم التي وردت بخصوص الجهاد ، نتابع الآيـات الـتي وردت بخصوص القتال ، الذي هو شكل مـن أشـكال الجهـاد ، أو بـالأحرى هـو آخـر درجـات الجهاد وأكثرها عنفاً ، وأداة الصراع العضوي .

قـال تعـالى ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[3] ، لعل هذه الآية الكريمة هي أول آيات الأمر الإلهي المباشر للرسول الكـريم

---

[1] . سورة الصف : ١١ .
[2] . سورة التحريم : ٩ .
[3] . سورة البقرة : ١٩٠ .

وللمسلمين بالقتال ، وقد نزلت في صلح الحديبية ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صُدَّ عن البيت ، ثم صالحه المشركون علي أن يرجع عامه القابل ، فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء ، وخافوا أن لا تفي قريش بذلك ، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم ، وكره أصحابه قتالهم في الشهر الحرام ، فأنزل الله ذلك .

وبالرغم من خصوصية الواقعة التي نزلت بشأنها هذه الآية الكريمة ، إلا أنها قد حملت أكثر من مبدأ عام يرسخ الطرح الإسلامي فيما يتعلق بمسألة القتال ومقترح الأمة المقاتلة ، ونبسط لهذه المبادئ فيما يلي :

○ إن هناك أمراً من الحق تبارك وتعالى بالقتال في " وقاتلوا " ، والأمر من الخالق واجب وفريضة حال تحقق الشروط التي تستلزم تحققه ، وسترد تلك الشروط حالاً .

○ إن القتال ينبغي أن يكون في سبيل الله خالصاً ، لا من أجل عرض من عوارض الحياة أو مأرب شخصي أو مجد ذاتي .

○ إن أول الشروط التي تستوجب قيام المسلمين بقتال المشركين والكافرين ، هو أن يبادر هؤلاء بقتال المسلمين فعلياً أو يتهيئون لذلك . وهنا قال سبحانه " الذين يقاتلونكم " أي الذين يباشرون فعلياً أفعال القتال المعروفة ويدخل في ذلك الاستعداد لها ، ولو قال سبحانه قاتلوا في سبيل الله الكفار والمشركين ، لكان قرار القتال مطلقاً في يد المسلمين دون شروط ، ولكان بإمكانهم مبادرة الكافرين والمشركين بالقتال في أي وقت ولأي سبب من الأسباب ، ولكنه سبحانه قال " الذين يقاتلونكم " وهنا شرط علي المسلمين أن يقاتلوا المشركين والكافرين إذا أقدموا علي القتال .

○ لقد أكد الحق تبارك وتعالى الشرط السابق بأسلوب إنشائي جاء في صيغة النهي ، حيث قال " ولا تعتدوا " أي لا تبدءوا بالقتال تعدياً وجوراً ، ولا تلتمسوا الذرائع والسبل التي تبرر لجوؤكم إلي القتال .

○ ثم أكد رب العزة التأكيد بتأكيد من نوع آخر يخشاه المسلمون ويرجون نقيضه ، وهو بغض الله وكرهه للمعتدى ، فالمسلمون يرجون حب الله ويبتغون إليه الوسيلة ، ومن ثم فهم لا ينبغي لهم أن يعتدوا حتى يفوزوا بذلك الحب ويتقوا كره الرب وبغضه .

وقال تعالى ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾[1] ، تواصل هذه الآية الكريمة وضع المبادئ والأسس التي تنظم مسألة القتال وشرعية اللجوء إليه من قبل المسلمين ، وذلك من خلال ما يلي :

○ إن المسلمين قد انجروا إلي القتال واضطروا إليه لرد العدوان الذي وقع عليهم من قبل المشركين ، وفي هذه الحالة عليهم أن يقتلوا أعداءهم حيث وجدوهم ، وأن يخرجوهم من حيث أخرجوهم وفي ذلك جزاء بالمثل .

○ لقد حاول المشركون أن يفتنوا المسلمين عن دينهم ، بتعذيبهم وإخراجهم من ديارهم، وأحكام العدالة تقضى بالمعاملة بالمثل ، والفتنة في الدين أشد وأكبر من القتل .

○ لقد نهى الله المسلمين عن القتال في الحرم إلا إذا اضطروا إلي ذلك اضطراراً ، وقاتلهم المشركون في الحرم ، في هذه الحالة عليهم أن يقاتلوهم ويقتلوهم في الحرم .

[1] . سورة البقرة : ١٩١ .

وقال تعالى ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] ، تأتي هذه الآية الكريمة لتؤكد علي أن القتال من قبل المسلمين هو لرد العدوان ، فتحمل نوعاً من التواقف ، حيث أن توقف المؤمنين عن القتال متوقف علي انتهاء المشركين عن العدوان .

وقال تعالى ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] ، تبرز هذه الآية الكريمة سبباً من أسباب القتال ، وهو اتقاء الفتنة ، ففي قتال المشركين وكسر شوكتهم الحؤول بينهم وبين السيطرة علي المسلمين وفتنتهم عن دينهم ، ثم تردف هذا السبب بشرط يلغي وقوعه قيام ذلك السبب ، وهو انتهاء الكفار عن العدوان وكذا عن الفتنة ، عندئذ يتوقف المسلمون عن قتالهم ، ثم تؤكد ذلك بأن العدوان لا يكون إلا علي الظالمين ، الذين يظلمون المسلمين بالاعتداء عليهم وفتنتهم عن دينهم .

وقال تعالى ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3] ، تجمل هذه الآية الكريمة جملة الأسباب التي تُلجئ المسلمين إلي القتال ، وهي أن يُعتدى علي حرماتهم ، وهو ما يعنى كل ما يجب المحافظة عليه واحترامه ، وفي هذه الحالة عليهم أن يردوا العدوان ، ويعتدوا علي المعتدى بمثل عدوانه موضوعاً وقوةً وحجماً ، وتوصى هذه الآية المسلمين بألا يبالغوا في الاعتداء ويُزيدوا عن مثله ، وعليهم أن يتقوا الله في ذلك حتى يظل معهم يمدهم بعونه ونصره .

وقال تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[4] ، توضح هذه الآية الكريمة جانباً من

[1] . سورة البقرة : ١٩٢ .
[2] . سورة البقرة : ١٩٣ .
[3] . سورة البقرة : ١٩٤ .
[4] . سورة البقرة : ٢١٦ .

طبيعة النفس البشرية التي تكره القتال ، لأنه مقترن بالموت ، وهي بفطرتها تحب الحياة ، وبالرغم من كراهية المسلم للقتال إلا أن فيه خيراً كثيراً ، فهو رد للعدوان ، وصون للحرمات ، والعيش في عزة ووقار ، أما الشهادة ففيها الجنة والقرب من الله .

وقال تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] ، جاءت هذه الآية الكريمة في واقعة بعينها ، فعن جندب بن عبد الله أن رسول الله صلي الله عليه وسلم أرسل بعثة وعليها عبد الله بن جحش ، فقاتلهم بن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام ، فأنزل الله تعالى " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه " الآية ، فقال بعضهم إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] ، وبالرغم من خصوصية المناسبة التي نزلت فيها الآية الأولى ، إلا أنها تسير في نفس السياق الخاص بأسباب لجؤ المسلمين إلي القتال ، وهي المتمثلة في الصد عن سبيل الله ، والكفر به ، والصد عن المسجد الحرام ، والاعتداء علي أهله وإخراجهم من ديارهم ، وفتنة المسلمين عن دينهم ، لأجل ذلك أباح الله للمسلمين القتال في شهر رجب الحرام وغفر لهم وأثابهم ، لأنهم لم يعتدوا ، بل جاهدوا في سبيل الله لرد العدوان ويرجون رحمة الله .

---

[1] . سورة البقرة : ٢١٧ .
[2] . سورة البقرة : ٢١٨ .

وقال تعالى ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾[1] ، يأتي الأمر من الحق تبارك وتعالى بالقتال في هذه الآية في سياق ما قدمنا من جملة الأسباب التي تُلجئ المسلمين إلي القتال لرد العدوان وصون حرماتهم .

وقال تعالى ﴿ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾[2] . تحمل هذه الآية الكريمة ترغيباً من الحق تبارك وتعالى للمؤمنين بالقتال في سبيله للدفاع عن دينه وحرمات المسلمين ، ويوضح ذلك ويفسره الآية التالية .

حيث قال تعالى ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[3] ، فالقتال في هذه الآية الكريمة لدفع العدوان علي دين الله وحماية المستضعفين من المسلمين الذين كانوا في مكة وفتنوا عن دينهم .

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[4] ، تبين هذه الآية أن المسلمين يقاتلون دفاعاً عن دين الله وصوناً لحرماتهم ، أما الكافرون فإنهم يقاتلون عدواناً وظلماً .

وقال تعالى ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[5] ، نزلت هذه الآية الكريمة في

[1] . سورة البقرة : ٢٤٤ .
[2] . سورة النساء : ٧٤ .
[3] . سورة النساء : ٧٥ .
[4] . سورة النساء : ٧٦ .
[5] . سورة النساء : ٧٧ .

واقعة بعينها ، فقد روى بن عباس ، أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا نبي الله ، كنا في عز ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ، قال : إني أُمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم ، فلما حوّله الله إلي المدينة أمره بالقتال فكفوا ، أي امتنعوا فنزلت هذه الآية الكريمة ، حيث تحضهم علي القتال دفاعاً عن دين الله وصون حرمات المسلمين .

وقال تعالى ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾[1] ، في هذه الآية الكريمة أمران للرسول الكريم : الأول : أن يقاتل في سبيل الله لنصرة دينه ودفاعاً عن المسلمين ، والثاني : أن يحرض المؤمنين علي القتال معه ، وعلة ذلك أوضحتها الآية ، حيث ذكرت أن قتال المسلمين سيخيف الكافرين ويكف بأسهم ويردعهم .

وقال تعالى ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴾[2] ، نزلت هذه الآية في شأن كفار قريش الذين ناصبوا الرسول والمسلمين العداء، وكرروا الاعتداء عليهم رغبة في القضاء علي الدين ، فحذّر الحق تبارك وتعالى المسلمين من أن يتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا ويهاجروا في سبيل الله ، فإذا لم يفعلوا ذلك وأعرضوا وأصّروا علي العدوان والاعتداء عليكم ، فقاتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم أولياء أو أصفياء .

وقال تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا

[1] . سورة النساء : ٨٤ .
[2] . سورة النساء : ٨٩ .

جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾[1] ، نزلت هذه الآية الكريمة في حادثة بعينها ، ولكنها تحمل مبادئ عامة تتعلق بالقتال ، فلقد بيّن الحق تبارك وتعالى شأن القوم الذين يلتجئون إلي قوم بين المسلمين وبينهم ميثاق وعهد ، ولم يبادءوا المسلمين بالقتال، بل طلبوا مسالمتهم فعلى المسلمين أن ينتهوا عن قتالهم ويبادلوهم السلام .

وقال تعالى ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾[2] ، توضح هذه الآية الكريمة شأن قوم آخرين يطلبون أمان قومهم وأمان المسلمين ، ولكنهم قوم سوء وكفر يحاولون الدس للمسلمين والإيقاع بهم ، فإذا لم ينتهوا عن سلوكهم المشين ويكفوا عن التحرش بالمسلمين ، فعلى المسلمين أن يطلبوهم ويقتلوهم في أي مكان وجدوهم فيه .

وقال تعالى ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[3] ، في معرض حديثنا عن القتال عرضنا لهذه الآية الكريمة التي توضح عظم الجرم وجسامة الذنب لمن يقتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض ، فقد شبّهته الآية بمن يقتل الناس جميعاً ، وفي هذا تنبيه إلي ضرورة أن تتحرى الجيوش الدقة وتتحقق من موجبات القتال قبل لجوئها إليه .

---

[1] . سورة للنساء : ٩٠ .
[2] . سورة النساء : ٩١ .
[3] . سورة المائدة : ٣٢ .

وقال تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] ، كذلك تأتى هذه الآية الكريمة لتوضح النهى المطلق من الحق تبارك وتعالى عن قتل النفس إلا بالحق .

وقال تعالى ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2] ، تبدأ هذه الآية الكريمة بحض المسلمين علي قتال المشركين الذين يعتدون عليهم ، ولذلك جاء فعل الأمر " قاتلوهم " وليس " اقتلوهم " ، فالقتال بين طرفين والقتل من طرف واحد ،وبعد الأمر بالقتال الذي جاء في صدر الآية أوضح الحق تبارك وتعالى علة ذلك القتال وسببه في جب الفتنة التي يثيرها المشركون بالإساءة إلي المسلمين وتعذيبهم حتى يرتدوا عن دينهم ، وعندئذ يكون الدين كله لله .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[3] ، تأمر هذه الآية الكريمة الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يحث المؤمنين ويحضهم علي القتال ، والقتال هنا ليس للاعتداء بل دفاع عن الدين واتقاء الفتنة .

وقال تعالى ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4] ، نزلت هذه الآية الكريمة من سورة التوبة في المشركين الذين نقضوا العهد مع رسول الله

---

[1] . سورة الأنعام : ١٥١ .
[2] . سورة الأنفال : ٣٩ .
[3] . سورة الأنفال : ٦٥ .
[4] . سورة التوبة : ٥ .

والمسلمين ، وقد كان نقضهم لعهدهم كفيلاً بأن يبيح للمسلمين قتال المشركين ، إلا أن الأشهر الحُرُم حالت بين المسلمين وبين القتال ، فأرشدت الآية إلي أنه بانقضاء الأشهر الحُرُم علي المسلمين أن يبادروا بقتل المشركين ، ويبحثوا عنهم في كل مكان لأنهم قوم معتدون .

وقال تعالى ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾[1] ، توضح هذه الآية الكريمة في جلاء أن لجوء المسلمين لقتال المشركين لا يأتي إلا مترتباً علي تعديات يقوم بها المشركون ، أولها : نكث العهد ، وثانيها : الطعن في الإسلام ، وإذا كانت هذه هي أسباب قتال المسلمين للمشركين ، فإن هدف ذلك القتال يتمثل في إجبار المشركين علي عدم التعرض للإسلام والطعن فيه .

وقال تعالى ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2] ، تواصل هذه الآية الكريمة التأكيد علي أن قتال الكفار لم يأت اعتداءً وتعدياً ، ولكنه جاء بسبب نكثهم أيمانهم وإخراجهم الرسول من مكة ، ومبادأتهم بالاعتداء علي المسلمين وإيذائهم ، فكان حقيقاً علي المسلمين أن يقاتلوهم ولا يخشوهم .

و قال تعالى ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾[3] ، نزلت هذه الآية الكريمة في خزاعة حلفاء النبي ، حيث أمروا بأن يقاتلوا بني بكر في مكة ، وهم كانوا قد اعتدوا عليهم وآذوا المسلمين .

[1] . سورة التوبة : ١٢ .
[2] . سورة التوبة : ١٣ .
[3] . سورة التوبة : ١٤ .

وقال تعالى ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[1] ، تعد هذه الآية الكريمة هي الوحيدة التي وردت في أمر المسلمين بقتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وهذا القتال ليس هدفاً أو غاية في حد ذاته ، ولكنه دفعاً لعدوان هؤلاء ومكرهم ودسهم للمسلمين ، كما أن القتال لا يستهدف فرض الإسلام عنوة علي أهل الكتاب ، وإنما جاء لتخييرهم بين الإسلام أو الجزية ، والجزية ليست عوضاً عن الإيمان ، ولكنها مقابل تكفل الدولة بحماية الأنفس والأموال والأعراض والعقيدة التي كفلت حريتها ، فالذمي لا يكلف حرباً ، ولا يدفع للدولة زكاة ، فالجزية تجب عنه كل ذلك ، كما أن الآية قد نصت علي ضرورة مقدرة الذمي علي دفع الجزية بما لا يشق عليه فذكرت "عن يد" ، وقد كان الخلفاء ومنهم عمر بن الخطاب يعفى غير القادرين من الذميين من دفع الجزية ، بل إن ابن الخطاب كان يعطى فقراء اليهود من الزكاة ، إذن فقتال أهل الكتاب لم يكن هدفه فرض الإسلام ، ولو كان الأمر كذلك لما خيّرهم بين الإسلام والجزية ، ولما كفل لهم حرية العقيدة ، وحماية تلك العقيدة في كنف دولة الإسلام .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2] ، تحمل هذه الآية الكريمة أمراً من الخالق سبحانه بقتال المشركين كافة ، وفي ذلك معاملة بالمثل أساسها أن المشركين يقاتلون المسلمين كافة ، وهنا يطرح سؤال : هل تعنى هذه الآية أن

[1] . سورة التوبة : ٢٩ .
[2] . سورة التوبة : ٣٦ .

أمة المسلمين جميعها أمة مقاتلة ؟ لقد قامت هذه الآية علي قاعدة المثلية أو المعاملة بالمثل ، فالمناسبة أو الواقعة التي نزلت فيها الآية ارتبطت بوضعية بذاتها ، وهي أن المشركين يقاتلون المسلمين كافة ، فعلي المسلمين أن يقاتلوهم كافة، وإذا انتقلنا إلي الواقع الراهن لأيقنا باستحالة تحقق هذه الصورة من القتال " القتال كافة " ، ومن ثم فمبدأ المثلية التي دعت إليه الآية قائم ومقبول ، ولكن شروط تحققه التي أولها وأهمها أن يبدأ العدو " بالقتال كافة " قد لا تتحقق في الوقت الراهن .

وقال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1] ، لقد كان المسلمون أحرص ما يكونون علي الجهاد في سبيل الله ، وعندما نزلت الآية الكريمة الخاصة " بالقتال كافة " ثم الآية الكريمة ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] ، كان المسلمون إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثة خرجوا فيها، وتركوه بالمدينة في عدد قليل من الناس غير القادرين علي الجهاد ، فنزلت " وما كان المؤمنون لينفروا كافة " الآية " وهذا يعود بنا مرة أخرى إلي السؤال الذي طرحناه أعلاه والخاص بصعوبة تحقق " القتال كافة " الذي جاء في ظروف ذات خصوصية في كل الأحوال، وإذا كانت تلك الصعوبة قد برزت في زمن الرسول الكريم ، واستوجبت نزول الآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها ، فمن باب أولى أن تكون تلك الصعوبة أكثر بروزاً وتأثيراً في الوقت الراهن .

---

[1] . سورة التوبة : ١٢٢ .
[2] . سورة التوبة : ٣٩ .

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ، تحمل هذه الآية الكريمة أمراً من الخالق سبحانه بقتال الكفار الذين يتتبعون المسلمين للإيقاع بهم والاعتداء عليهم .

وقال تعالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[2] ، نزلت هذه الآية الكريمة في رسول الله حال خروجه من مكة مهاجراً إلي المدينة وبرفقته الصديق أبو بكر ، فعن بن عباس قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ، فقال أبو بكر : اخرجوا نبيهم ليهلكن ، فنزلت هذه الآية ، وهي من الآيات الكريمة التي تأذن للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم بشتى السبل ومنها القتال .

وقال تعالى ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾[3] ، نزلت هذه الآية الكريمة في غزوة الأحزاب ، وفي يهود بني قريظة الذين عاونوا الأحزاب ضد المسلمين ، فلم يكن أمام المسلمين من بدٍ إلا قتال هؤلاء فقُتل منهم من قتل وأُسر من أسر .

وقال تعالى ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[4] ، هذه الآية جاءت في حق الأعراب الذين تخلّفوا عن الجهاد مع رسول الله والمسلمين ، وهي اختبار لإيمان هؤلاء وتمحيص لما في قلوبهم ، حيث تدعوهم إلي قتال قوم هم أصحاب شدة وقوة في الحرب تعرضوا للمسلمين ، فصار قتالهم فرضاً لا مناص منه ، ونتيجة هذا القتال لابد أن تنتهي بمقتل هؤلاء أو دخولهم الإسلام .

---

[1] . سورة التوبة : ١٢٣ .
[2] . سورة الحج : ٣٩ .
[3] . سورة الأحزاب : ٢٦ .
[4] . سورة الفتح : ١٦ .

وقال تعالى ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾[1] ، توضح هاتان الآيتان الكريمتان كيف يتعامل المسلمون مع غيرهم ، وترتكز هذه الكيفية علي أساسين : الأساس الأول : من لم يتعرضوا للمسلمين ، ولم يعتدوا عليهم ، ولم يمسوا دينهم ، ولم يخرجوهم من ديارهم ، ولم يناصروا من يعتدي عليهم ، هؤلاء لا جناح علي المسلمين في أن يتعاملون معهم بالرفق واللين ، ويقيمون معهم العلاقات الطيبة ، الأساس الثاني : من تعرضوا للمسلمين واعتدوا عليهم ، وأساءوا إلي دينهم وأخرجوهم من ديارهم، وناصروا من اعتدى عليهم ، هؤلاء لا ينبغي للمسلمين أن يتعاملوا معهم أو يحسنوا إليهم، ويقيموا معهم علاقات طيبة ، إلا إذا اقلعوا عن كل ما يفعلون ، ويأتون بعكسه ، حتى يتثبت المسلمون من صدقهم وحسن نيتهم .

– فكرة "**الأمة المجاهدة** "الأمثل والأبقى والأقدر علي التعامل مع الواقع :

بعد أن استعرضنا مدركي " الأمة المجاهدة " و " الأمة المقاتلة " في القرآن الكريم ، نخلو في هذه الجزئية إلي المقارنة بين المدركين واستخلاص : أيهما الأمثل والأبقى والأقدر علي التعامل مع الواقع المعاصر ، وذلك من خلال الآتي :

* من خلال العرض المتقدم تبيّن أن الجهاد أكثر اتساعاً وشمولاً لنماذج وصور عديدة من العمل في سبيل الله ، يبدأ بمجاهدة النفس ، والجهاد في سبيل تلبية متطلبات الأسرة والأهل ، والجهاد بالقرآن وإقامة الحجة ، والجهاد في سبيل تأمين متطلبات الجيش المقاتل ، وحفظ كيان الجبهة الداخلية والمجتمع ، والجهاد بالمال ، وفي ذلك يروى أن

[1] . سورة الممتحنة : ٨-٩ .

رجلاً أقبل علي نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبايعك علي الهجرة والجهاد ، أبتغى الأجر من الله تعالى فقال : " هل لك من والديك أحد حي ؟ قال : نعم ، بل كلاهما ، قال : " فتبغي الأجر من الله تعالى " ؟ قال : نعم ، قال : " فارجع إلي والديك فأحسن صحبتهما " ، وكان الرسول يقول عقب عودته من البعثات : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلي الجهاد الأكبر " ، أي رجعنا من القتال الذي هو شكل واحد من أشكال الجهاد إلي جهاد الحياة الذي هو كل أشكال الجهاد في سبيل الله .

في حين أن القتال هو شكل واحد ، يتمثل في إدارة الصراع العضوي ، ويعد هو آخر درجة من درجات الجهاد وهو الجهاد بالنفس .

* إن الجهاد بكافة صوره مطلوب في كل الأوقات والأحيان ، فالأمة الإسلامية بطبيعتها أمة مجاهدة ، تجاهد في سبيل تقديم الأنموذج والمثال في كل أمور الحياة ، وهذه أجلّ وأسمى صور وأساليب الدعوة إلي الله بإعلاء دينه وترقية شرعه .

أما القتال فله وقت محدد وهو حالة الحرب أو الصراع العضوي ، وإن كان للقتال أهميته التي لا يمكن التغافل عنها ، إلا أنه يظل استثناءً علي المعتاد .

* الجهاد في شموله وعموميته يدعم موقف المقاتلين عندما يتم اللجوء إلي القتال ، فهو الذي يشكل الأرضية الصلبة والخلفية المتينة للجيوش المحاربة ، وبدونه لا يقدّر لتلك الجيوش تحقيق أهدافها في الدفاع عن الحمى وصيانة الحرمات .

* الجهاد يعنى التقوّى ، ويفيد الاستعداد الدائم ، ويوفر جانباً كبيراً من الردع والتخويف ، وينتهي بإقامة جيش قوى ، ويساهم كل ذلك في صياغة ما ندعو إليه من فكرة " الردع الشامل "[1] ، التي تبدأ بالجهاد وتنتهي بالقتال .

[1] . لتفصيل أكثر حول نظريتنا في الردع الإسلامي الشامل التي تبدأ بالجهاد وتنتهي بالقتال أرجع إلي المجلد التاسع ، الحرب في الإسلام ، الجزء الثاني : الحرب المعاصرة .

* الجهاد هو خط الدفاع الأول عن الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية ، فهو الفعل الدائم والحركة الدائبة من أجل تقديم الأنموذج والمثال في الحضارة والثقافة ، أما القتال فهو خط الهجوم الأخير ، ولا يُلجأ إليه إلا في حالة تهديد الذات الحضارية للإسلام ، أو التعدي علي منطقه الثقافي الخاص ، والأول دائماً وأبداً يقوي الأخير .

* الجهاد محبب للنفس ، يتلاقى مع طبائع النفس البشرية حول الرغبة في العطاء والاجتهاد وينسجم مع الإرادة الإنسانية في الوئام والتفاهم والسلام ، أما القتال فهو كريه إلي النفس ثقيل عليها ، ومن ثم فهو يمثل الاستثناء ، أما الجهاد فيمثل الاعتياد .

* ينبغي التفرقة الواضحة بين الجهاد والقتال في الطرح الإسلامي ، وهذه التفرقة ينبغي أن تكون واضحة لدى أبناء الإسلام ، حتى يقدّر لهم الفهم الدقيق والواضح لإمكانيات ومنطلقات وأهداف حركتهم في المعترك الدولي ، فأمتهم أمة مجاهدة بطبيعتها وأصولها وتكوينها ومقاصدها ، مقاتلة عندما تضطرها الظروف وتجبرها التطورات للدفاع عن ذاتها ومقدراتها .

* لقد سبق وأوضحنا أن الإسلام قد انتشر وترسخ في عقول وقلوب الأمم والشعوب بالجهاد وليس بالقتال ، وقد تعرض الإسلام لانتكاسة حضارية وثقافية مروعة عندما تخلى عن فكرة الجهاد وأساء فهمها ، وهاهو الآن أحوج ما يكون إلي فهم دقيق وعميق لفكرة الجهاد ، حتى يمكنه أن يقيم تواصلاً حضارياً وثقافياً يربط به ما انقطع ، ويعيد به ما سلف .

* مما تقدم يمكن الانتهاء إلي أن فكرة " الأمة المجاهدة " هي الأمثل والأبقى والأقدر على التعامل مع الواقع ، وهي تبدأ بالجهاد بكافة صوره وأشكاله ، حيث السعي الدؤوب نحو بناء الحضارة وإنتاج الثقافة ، وهذا السعي يمكن أن ينتهي " بالأمة المجاهدة " إلي " أمة مقاتلة " إذا تعرضت للعدوان أو التعدي .

- الجهاد " كعطاء فعّال " :

بعد أن أجرينا مقارنة بين " فكرة الأمة المجاهدة " و " مقترح الأمة المقاتلة " ، نقترب مرة أخرى من فكرة الجهاد ، حيث نحاول أن نتتبعها في منطلقاتها المتدرجة ونصل معها إلي نهايتها، ونحاول إجلاء الغيم عن هذه الفكرة علها تفيد الأمة :

* في معنى الجهاد :

الجهاد هو استفراغ كل ما في الوسع ، وهو أيضاً بذل أقصى الجهد ، والمجاهدة تعد مرادفاً للجهاد ، وكل منهما يعنى أو كلاهما يعنى تحفيز مقدرات ومكنات الإنسان ، وتوجيهها نحو هدف محدد ، فللجهاد إذن منطلقات ، وله كذلك مسارات ، وله آليات وأدوات ، وله أخيراً أهداف ومقاصد ، ومعنى ذلك أن الجهاد عملية مركبة ، لها أبعاد نفسية خفية تتعلق بالتعبئة الذاتية والتحفيز الداخلي ، ولها كذلك أبعاد عقلية فكرية ترتبط بالفكر الرشيد الذي ينبغي أن يقود ذلك التحفز والاستعداد ، ولها أيضاً أبعاد مادية ملموسة تتجسد في سلوكات تعبيرية ذات مدلولات خاصة ، ولها أخيراً أبعاد مثالية قيمية تتمثل في الأهداف التي تتوخاها تلك العملية .

* جهاد النفس والصبر علي المشاق :

جهاد أو مجاهدة النفس هي أولى درجات ومراتب الجهاد في سبيل الله ، ومضمونها إجبار النفس وإلزامها علي اتباع الأوامر الإلهية واجتناب النواهي ، وتبلغ المجاهدة والمشقة أقصاها كلما كانت النفس مارقة جامحة في طريق الغواية والهوى ، وكلما اقتربت النفس من الطريق القويم ، كلما خفت هذه المجاهدة ، ويصل جهاد النفس إلي منتهاه عندما تطمئن وتسكن وتستقر علي الإيمان والتقوى ، وجهاد النفس وفق الوصف المتقدم هو تمحيص للإيمان وترسيخ له في القلب والعقل .

وجهاد النفس يشكل المنطلق الأول الذي منه تتدرج المنطلقات الأخرى ، فهو إعداد وتهيئة للنفس الإنسانية ، كي تنتقل إلي مرحلة أخرى من مراحل الجهاد ، ولابد للمسلم الذي أزمع الجهاد في سبيل الله ، أن يمر بهذه المرحلة ، وبدونها لن يتمكن من الترقي للمراحل الأخرى ، وقد تكون هذه المرحلة هي أكثر المراحل مشقة وصعوبة .

ولذلك فقد ارتبطت هذه المرحلة بالصبر والجلد ، نظراً لما يكتنفها من عسر ونصب ومكاره شتى ، ويجتاز أصحاب العزائم القوية هذه المرحلة بسهولة ويسر ، وينتقلون إلي المراحل التي تليها ، وما أحوج أبناء الأمة في هذه **الأيام** إلي جهاد النفس .

* الجهاد بالقرآن :

المرحلة التالية لجهاد النفس هي الجهاد **بالقرآن** ، والجهاد الأخير يتطلب علماً عميقاً وراسخاً بكتاب الله ، ظواهر المعاني وبواطنها ، أسباب النزول ، خصوصية المناسبات وعمومية المبادئ والأحكام ، ما عجز العقل البشري عن تفسيره في الذكر الحكيم فقد احتفظ الله سبحانه بعلمه ، علاقة القرآن بالسنة ، فالسنة مفسرة لما خفي أُحجب ، ومفصلة لما أُجمل ، ومكملة لما سكت عنه الذكر الحكيم .

إن الجهاد بالقرآن هو جهاد الخاصة بل وخاصة الخاصة ، وإمام هؤلاء هو الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فقد جاهد الكفار والمشركين بالقرآن ، وتبعه في ذلك خلفاؤه الراشدون ، وتبعهم العلماء الأجلاء من أبناء هذه الأمة ، والذين يتناوبون حمل لواء الجهاد بالقرآن جيلاً بعد جيل .

لقد كثرت وتباينت الهجمات الشرسة في عصرنا الراهن علي الذكر الحكيم ، وهذه الهجمات دليل واضح علي كثرة المتربصين المرجفين ، الذين يضمرون الشر لهذه الأمة ، والذين يحسدونها على نعمة الإسلام ويتمنون زوالها ، وعليه فنحن نهيب بمجاهدينا

الذين رفعوا لواء الجهاد بالقرآن ، أن يتصدوا لتلك الهجمات ليردوا كيدها في نحرها ، والانتصار لكتاب الله وبكتاب الله .

* الجهاد بالحجة والبرهان :

المرحلة التالية هي الجهاد بالحجة والبرهان ، وهذه المرحلة تتم علي جبهتين : الأولى : جبهة الرد علي المرجفين الهادفين إلي الإساءة إلي الإسلام وحضارته وثقافته وأمته ، والثانية : جبهة الدعوة إلي دين الله ونشر الإسلام ، والعمل علي هاتين الجبهتين يتم من خلال تقديم الطرح الإسلامي المستنبط من الأصول والمصادر الشرعية ، المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ونماذج الممارسة في دولة الرسول الكريم والخلفاء الراشدين ، وإقران ذلك الطرح بأدوات وآليات الحركة ، التي تنقل ذلك الطرح من طور الفكر والنظر إلي طور الفعل والحركة ، وتثبت للمرجفين والمدعوين معاً أن الإسلام هو سبيل الحياة الطيبة ، حيث تسمو الروح علي المادة وتعلو القيمة وترتفع الفضيلة .

إن الجهاد بالحجة والبرهان أو الحكمة والموعظة الحسنة يعنى أن نبذل أقصى الجهد وطاقة ما في الوسع من أجل تقديم إنجازين ثمينين : الأول : الطرح الإسلامي الذي ذكرنا سلفاً فيما يتعلق بكافة نشاطات الإنسان وأوجه حركته في الكون والحياة ، والثاني : التجارب أو نماذج الممارسة العملية التي تنقل الطرح من الفكر والنظر إلي الواقع ، وتقيم الحجة علي الذين يشككون في صلاحية الطرح الإسلامي لأن يشكل نظاماً ، ثم يقدحون في النظام الإسلامي إذا قام وأنتصب !! ، إن الجهاد بالحجة والبرهان هو الجهاد الذي يبنى الحضارة ويفرز الثقافة، ويعد من أهم أدوات وآليات التواصل الحضاري والثقافي الإسلامي في الوقت الراهن .

* **الجهاد بالمال :**

ثم يأتي الجهاد بالمال كأحد أشكال وصور الجهاد في سبيل الله ، ولقد اختلف أمر الجهاد بالمال في الوقت الراهن عنه في فجر الإسلام وعهد الرسول الكريم ، ففي بداية الدعوة كانت الدولة ناشئة وتنقصها الموارد المالية والمصادر الاقتصادية التي تمكّنها من الإنفاق علي الجيش وتجهيزه، فكان إنفاق الأفراد مورداً أساسياً ومصدراً رئيسياً لتجهيز الجيش الإسلامي ، وتمكينه من أداء مهمته في الدفاع عن الدولة الناشئة ، وحمل الدعوة إلي بقاع الأرض ، ولذلك تعددت الآيات الكريمة التي ورد فيها الجهاد بالنفس مسبوقاً بالجهاد بالمال .

وبعد أن اتسعت مساحة الدولة الإسلامية ، وامتدت رقعتها ، تعددت وتنوعت مصادر الثروة فيها ، وبات الاعتماد علي الإنفاق المباشر من الأفراد يتم في أضيق الحدود ، وفي الظروف والأحداث ذات الخصوصية مثل الأزمات الاقتصادية والكوارث الطبيعية ، إلا أن الاعتماد علي الإنفاق غير المباشر من الأفراد في شكل ضرائب ظل هو السمة المميزة لمعظم فترات تاريخ الدولة الإسلامية بعد انتهاء الخلافة الراشدة ، فكانت الدولة تلجأ إلي فرض الضرائب إضافةً إلي الزكاة لتجهيز الجيوش وتمويل الحروب ، وازدادت وطأة هذه المسألة في فترة التفكك والانهيار .

وفي العصور الحديثة والمعاصرة تعمد الدول الإسلامية ذات الموارد المحدودة إلي فرض أنواع وصنوف شتى من الضرائب علي أفراد المجتمع ، وتخصيص قدر كبير منها للإنفاق علي الجيوش وتجهيزها ، فكل فرد في المجتمع يساهم في تجهيز الجيش ، من خلال ما يدفعه من ضرائب للدولة .

بالإضافة إلي ما تقدم ثمة وجوه أخرى للجهاد بالمال ، تتمثل في إنفاق المال في وجوه الخير التي تعود علي أفراد المجتمع بالنفع والفائدة ، مثل إنشاء دور العبادة والمؤسسات التعليمية ودور تحفيظ القرآن ودور كفالة الأيتام ودور كفالة ذوى الحاجة ، والمشاريع الاستثمارية التي تسعى لاستثمار الموارد البشرية والقضاء علي البطالة ودور الرعاية الصحية والاجتماعية .. الخ ، وهذه الوجوه تمثل في وقتنا الراهن أهم أشكال الجهاد بالمال .

لقد أصبح من أجّل وأعظم أشكال الجهاد بالمال في الوقت الراهن المساهمة ممن يملكون المال في حل مشاكل المجتمع الإسلامي ، ويتبلور لب هذه المشاكل في العمل علي تفعيل الطاقات المهدرة والمعطلة في ذلك المجتمع ، وتحويلها إلي عناصر منتجة ، وآلية ذلك التحويل تتمثل في التوزيع العادل لمقدرات الإنماء قبل توزيع ثماره ونتائجه ، إن توفير فرصة عمل منتج لفرد من أفراد المجتمع يحقق له " نطاق الغنى " ويكفل له " الحياة الطيبة " ، لهو جهاد في سبيل الله ، وما أعظمه من جهاد .

* الجهاد علي قدر الطاقة والوسع :

لقد أقر الشرع الحنيف قيمة العدالة ، وخص منها العدالة الاجتماعية ، ومفادهـا عدالة توزيع المقدرات والإمكانات حسب القدرة علي العمل والعطاء ، وكذا عدالة توزيع الأعباء وفق الطاقة والوسع ، والجهاد بكافة صوره وأشكاله التي قدّمنا لها إن هو إلا عبئاً ومجاهدة ، ولا تحمّل نفس فوق طاقتها ، ولا تكلف إلا وسعها .

فكل فرد من أفراد المجتمع مطالب بأن يجاهد بأي صورة من صور الجهاد شاء ، والمشيئة تعنى المقدرة والوسع ، وله كذلك أن يقدم القدر الذي يستطيع تقديمه دون إرهاق أو إعسار ، ولكن الجهاد فرض علي الجميع إلا ذوى الأعذار .

* فضل الجهاد :

جعل الله الجهاد بكافة صوره وأشكاله التي تناولناه من أعظم الأعمال وأجلّها ، فالجهاد في سبيل الله يأتي في المرتبة الثالثة بعد حب الله ثم حب الرسول ، لأنه تصديق بالعمل علي هذين الحبين ، فالجهاد بناء للمجتمع علي أفضل صورة وتقديم النموذج والمثال للحياة الطيبة ومجتمع المتقين ، وهو دفاع عن ذلك المجتمع وتلك الحياة ضد العدوان والتعدي ، ثم هو نشر للإسلام بالحجة والبرهان ، وتقديم نموذجه في كل مكان .

* الجهاد " عطاء فعّال " :

إن ما تقدم لينتهي بنا إلي خلاصة مؤداها أن الجهاد " عطاء فعّال " ، عطاء مؤثر ، محسوس وملموس في كافة المجالات والنشاطات ، يمارسه أفراد المجتمع ، كلٌّ وفق ما يتيسر ويقدّر له وقدر طاقته وجهده ، فالكل يجاهد لكي يعطى ، وجميع العطاء يصب في معين المجتمع الذي لا ينضب ، هكذا كان وسيظل الجهاد في الإسلام " عطاءً فعّالاً " ، يحرك فعاليات المجتمع ويحفز طاقاته نحو بناء الحضارة وإفراز الثقافة .

– الجهاد " كصراع عضوي " :

الجهاد " كعطاء فعّال " يتدرج – كما سبق الإيضاح – في منطلقات متتابعة تبدأ بجهاد النفس والصبر علي المشاق ، ثم الجهاد بالقرآن ، فالجهاد بالحجة والبرهان ، ثم الجهاد بالمال ، وبعد ذلك تأتي آخر مراحل الجهاد وأشد درجاته ميلاً للعنف وهي مرحلة الصراع العضوي ، والجهاد كصراع عضوي لم يفهم في الشريعة الإسلامية حق الفهم ، ولم يُضع في سياقه الصحيح من الدعوة الإسلامية ، ولم يصنف بدقة في مفردات الحضارة والثقافة الإسلامية ، وسوف نقدم في هذه الجزئية محاولة لتصحيح الأوضاع الخاصة بفكرة " الجهاد كعطاء فعّال " و " الجهاد كصراع عضوي " ، من خلال الطروحات التالية :

* تدرجية نماذج الجهاد :

للجهاد نماذج وصور عديدة أحدها هو الصراع العضوي ، وهذه النماذج تمثل آليات ووسائل للجهاد ، وقد يأتي الجهاد محصوراً في نطاق هذه النماذج والأشكال دون أن يصل إلي الصراع العضوي .

* المسلمون لا يعرفون الجهاد إلا من نهايته :

لقد اعتاد المسلمون بعد عصر الخلافة الراشدة التعامل مع الجهاد من نهايته ، ومن أقصى درجاته ميلاً للعنف وهي الصراع العضوي ، فلقد أساء المسلمون أنفسهم خلال أواخر عصر الخلفاء وطيلة العصر الأموي فهم الجهاد ، واعتبروا أن الفتوحات التي تمت خلال تلك الفترة هي من قبيل الجهاد كصراع عضوي أو قتال ، إلا أن الواقع كان غير ذلك ، فالفتوحات التي تمت خلال عصر الخلفاء وكذا العصر الأموي جاءت في مسلكين يكمل كل منهما الآخر :

○ المسلك الأول : كان الجهاد بمثابة عملية إزاحة لمعوقات تبليغ ونشر الدعوة ، تلك المعوقات التي تمثلت في الحكام والسادة والمتنفذين ، الذين قهروا الشعوب وأعاقوا وصول الدعوة إليها .

○ المسلك الثاني : أن الجيش حمل الدعوة وأوصلها إلي الشعوب ، ولكن الدعاة هم الذين تولوا التبليغ ، والتبليغ قام علي التخيير والاختيار ، ولم يُفرض الدين تحت أي ظرف من الظروف .

ومفاد ما تقدم أن الجهاد كان بالقرآن وبالحجة والبرهان ، ولم يُلجأ إلي الصراع العضوي إلاّ في حالة الحؤول دون وصول الدعوة والتبليغ .

* الانتكاسات هي سبب إساءة فهم الجهاد :

لقد كان للانتكاسات التي مرت بها الدولة الإسلامية ومن ثم حضارتها وثقافتها ، وما نتج عنها من تفكك وانهيار أثر بليغ في تشويه صورة الجهاد وتركزه حول نموذج واحد فقط ، هو الصراع العضوي كمحاولة للخروج بالأمة من كبوتها ، وذلك أدى إلي إساءة فهم الجهاد وأصبح مقترناً بالعنف والقتال .

* الجهاد خِلعة سياسية وذريعة لتحقيق مآرب شخصية :

لقد تحول الجهاد خلال فترات غير قصيرة من تاريخ الدولة الإسلامية إلي أداة سياسية أو خِلعة يتزي بها كل من يريد تحقيق مآرب شخصية ، وساهم ذلك بشكل مباشر ورئيس في عدم فهم الجهاد ، واختلاط معناه بمفاهيم ومدركات أخرى ، وكل ذلك خلق نوعاً من التشويش الفكري والالتباس العقلي لدى المسلمين حول مفهوم الجهاد ، كما كان لدى نماذج الممارسة العملية في دولة الرسول وخلفائه الراشدين ، وكما جاء في مصادر الشريعة الإسلامية .

* الصراع العضوي هو الاستثناء والعطاء الفعّال هو المعتاد :

إن الجهاد في حقيقته بمثابة عطاء فعّال يحمل صفة الاستمرارية ، وهو واقع حياة الأمة ونهجها الطبيعي ، أما الصراع العضوي فهو الاستثناء والظرف الطارئ العارض في حياة الأمة ، والدائم الثابت له الأفضلية علي المؤقت العارض .

* الجهاد كعطاء فعّال يفيد الخلق والإبداع :

كما سبق وأوضحنا فإن كافة صور ونماذج الجهاد " كعطاء فعّال " تفيد الخلق والإبداع ، أما الصراع العضوي فهدفه الدفاع ورد الأعداء ، والحفاظ علي ما يحرزه الجهاد كعطاء فعّال من نماذج حضارية وإفرازات ثقافية .

**٭ الأمة الإسلامية أمة مجاهدة وليست أمة مقاتلة :**

**لقد كانت الأمة الإسلامية منذ وجودها أمة مجاهدة ، خبرت كافة صور ونماذج الجهاد ، ولم تكن تلجأ إلي وضعية الجهاد كصراع عضوي إلا للدفاع عن مقدراتها ، أو لمحاولة النهوض من التردي ، حتى عندما كانت تلجأ إلي القتال لم تكن تكف عن مباشرة نماذج الجهاد الأخرى .**

٭ الإسلام يملك حضارة مجاهدة وثقافة مكافحة :

كانت الحضارة الإسلامية حضارة مجاهدة والثقافة الإسلامية ثقافة مكافحة لا تميلان إلي الصراع العضوي ، ولعل ظهور الصراع في الموروث الحضاري والثقافي الإسلامي جاء أولاً لحمل الدعوة ، ثم للدفاع عنها وعن الذات الحضارية للإسلام ومنطقه الثقافي الخاص .

٭ الواقع المعاصر يفرض إبراز حقيقة مفهوم الجهاد في الإسلام :

إن التعامل مع الواقع المعاصر ومستجدات الزمن والرغبة في إضفاء صفات العالمية والإنسانية والموضوعية علي الطرح الإسلامي وهي صفاته الأصيلة ، يتطلب من المسلمين البحث عن الخصائص الحقيقية للجهاد والدلالات الأساسية له حتى لا يتجنوا علي الإسلام ويسيئون إليه .

- الجهاد " كصراع عضوي " فرض كفاية حتى في حالة الاعتداء علي المسلمين :

لقد جاءت كافة التشريعات الإلهية بما يتواءم مع قدرة وطاقة المكلفين بها ، وعندما تفوق أعباء التكليفات طاقات وقدرات المكلفين ، يتدخل التشريع الإلهي بالترخيص بالإعفاء الكلي أو الجزئي ، والدائم أو المؤقت ، وهكذا كان الحال بالنسبة للجهاد " كصراع عضوي " ، إلا أن ثمة اختلافاً فيما يتعلق بالجهاد " كصراع عضوي " ، ومكمن هذا الاختلاف أن الجهاد كصراع عضوي لم يُفرض في مصادر التشريع الإسلامي فرض عين ،

إلا في آية واحدة ، وقد جاءت علي سبيل المثلية أو المعاملة بالمثل ، ومعنى ذلك أنه لم يكن دأباً ونمطاً ثابتاً في نموذج الجهاد كصراع عضوي ، مفاد ما تقدم أن فرض الجهاد كصراع عضوي علي كل أبناء الأمة لم يكن مبدءاً راسخاً وأساساً ثابتاً يرتكز عليه الطرح الإسلامي فيما يتعلق بشرعية الجهاد ، وإنما ترك الأمر ليُقرر من جانب جماعة المسلمين وفقاً لظروفهم وأحوالهم ، ولم يتم هذا التخيير بشكل عفوي ، ولكنه كان نتاجاً لعوامل كثيرة نذكر منها ما يلي :

* تأسيس الجيوش النظامية العاملة المتخصصة :

لقد عمدت الدول في جميع أنحاء العالم إلي تأسيس الجيوش النظامية المتخصصة التي تسلح بأحدث الأسلحة ، ويتم تدريبها علي أرقى الأساليب والوسائل ، والمفترض أن الدول الإسلامية لا تشذ عن هذا الإجماع ، فالجيوش الإسلامية باتت هي الأخرى جيوشاً نظامية متخصصة ومتطورة تسليحاً وتدريباً وعقيدة قتالية ، ومن شأن ما تقدم أن يجعل من مسألة فرض الجهاد كصراع عضوي علي أبناء الأمة كافة [ فرض عين ] محل نظر ، وذلك لأن الخدمة في الجيوش الحديثة تحتاج إلي مقدرات ذهنية وعقلية وربما عضلية بمواصفات خاصة ، ثم أن تطور الأسلحة قد يغني عن العامل البشري الكثيف ، وهكذا أصبحت مسألة حتمية انضمام كافة أبناء الأمة إلي الجيش الإسلامي الحديث مسألة غير مقبولة منطقياً وغير قابلة للتحقيق عملياً ، ومن ثم فقد ترك التشريع الإسلامي فراغاً في هذه المسألة يُسد من خلال ما يراه أولو الأمر محققاً لمصلحة المسلمين .

* عدم توفر القدرة علي الجهاد " كصراع عضوي " :

آلى الحق تبارك وتعالى علي نفسه ألا يكلف نفساً إلا وسعها ، وألا يحملها فوق طاقتها ، وهو سبحانه إذا كان قد اختص الأمة الإسلامية بهذه الميزات ، فلأنها الأخير والأمثل

والأوسط والشاهدة علي الأمم الأخرى ، وهذه الأمة لا تنسب لنفسها هذه الصفات والخصائص ولا تزكى ذاتها ، ولكن الله هو الذي رفعها وزكّاها ، فمن الحري بها أن تنظر في كل أمورها بروية وإمعان ، وكانت مسألة الجهاد عموماً ونموذج الصراع العضوي منها خاصة جدير بكل تأمل ونظر ، فليس كل أفراد الأمة مؤهلين للجهاد في شكله النهائي [الصراع العضوي] لأسباب شتى ، فمنهم من لا تمكنه قدراته الجسمانية أو الذهنية أو الاجتماعية علي مباشرة ذلك النموذج من الجهاد ، وهنا كانت حكمة الخالق تقضى بالإعفاء من هذا النموذج تخفيفاً ورحمة ومراعاة للظروف ، وإناطة الأمر إلي من تتجمع لديهم المقدرة والوسع .

* الجيش يحتاج إلي من يوفرون له مستلزماته المدنية :

الجيش في الإسلام مؤسسة لها طابع الدوام والاستمرارية ، وتحتاج بشكل مستديم إلي ما يحقق لها المقدرة والجاهزية ، والمقدرة ترتبط بعناصر ومقومات أداء المهام الموكلة إلي الجيش ، والجاهزية تتعلق بالاستعداد والتهيؤ المستمر لخوض الصراع العضوي ، وهذه وتلك تحتاج إلي قوي أخرى مساندة وداعمة هي قوة المجتمع ، أو ما درج علي تسميته بالجبهة الداخلية ، والجيش لا يمكنه بحال أن يؤدي مهامه دون دعم ومساندة من المجتمع ، وعليه فهو في احتياج دائم إلي من يوفرون له مستلزماته المدنية ، والآخرون لا يقلون أهمية عن من يخوضون الصراع العضوي ، فهناك تلازم وتكتل بين الفريقين يفضي إلي تحقيق نموذج الجهاد الإسلامي في أروع معانيه .

* ضبط وإحكام المجتمع والحياة حال الصراعات العضوية :

المجتمع الإسلامي لابد أن يكون متماسكاً ، وهو في مسيس الحاجة إلي التماسك والقوة والصلابة في حالة الصراعات العضوية [ الحروب ] فالمجتمع – كما المحنا — هو سند

الجيش، وأرضيته التي يتحرك عليها ، ومعبره إلي الظفر وتحقيق الأهداف ، من أجل ذلك لابد من تأمين المجتمع ، وتسيير حياته بشكل منضبط ومحكم في حال خوض الصراع العضوي ، وذلك يفرض فكرة " توزيع الأدوار " ، حيث يعمد أولو الأمر في المجتمع إلي توزيع الأدوار الاجتماعية يبن أبنائه ، فمنهم من توكل إليه مهمة مباشرة الصراع العضوي ، ومنهم من توكل إليه مهمة دعم ومساندة المقاتلين ، ومنهم من توكل إليه مهمة ضبط المجتمع وإحكام تسيير الحياة الاجتماعية بأسلوب يدعم الجيش ولا يضعفه .

صفوة القول أن كافة أبناء الأمة الإسلامية في حالة جهاد ، فكل يجاهد بما قُدّر له وتيسر ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم " قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : نعم ، حبسهم العذر " ، وينطبق حديث رسول الله علي من يجاهد في سبيل الله متوخياً أحد نماذج الجهاد مثله في ذلك مثل المقاتل في ميدان القتال .

- الجهاد " كعطاء فعّال " فرض عين حتى في حالة السلم :

أوضحنا آنفاً أن الجهاد " كصراع عضوي " فرض كفاية علي المسلمين ، حتى في حالة الاعتداء علي المسلمين ، وقيامهم برد العدوان والدفاع عن الدين والوطن ، وعلي الجهة المقابلة وباستقراء ما سلف يتبين أن الجهاد " كعطاء فعّال " هو فرض عين علي كل مسلم ذي مِرّة ، وتفصيل ذلك فيما يلي :

* كافة نماذج الجهاد لا تتوقف في زمن السلم إلا صورة الصراع العضوي :

الجهاد بكافة نماذجه هو دأب الأمة الإسلامية في زمن السلم ، إلا نموذج الجهاد كصراع عضوي ، فالأمة الإسلامية أمة عمل وجهاد وعطاء متواصل فعّال ، لا تكف عن الأخذ بالأسباب والتوكل علي الله ، هكذا أمة الإسلام كما أرادها الخالق سبحانه ، وكما كانت

في عهد النبوة الزاهر وعهد الخلافة الراشدة ، قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1] ، فالجهاد في الله بنصرة دينه وإعلاء شأنه ، وتقديم النموذج والمثال للمجتمع الإسلامي القويم لا يتوقف ، وقد أكد الحق تبارك وتعالى علي عاقبة الجهاد في سبيله بكافة السبل والوسائل، وهي الهداية إلي طريق الله والتحصن في معيته.

* كافة أبناء الأمة مجاهدون :

إذا كان الجهاد بكافة صوره هو دأب المسلمين في زمن السلم إلا القتال ، فانهم جميعاً مجاهدون حسب الصلاحية والقدرة ، فالأمة الإسلامية خبرت مبدأ توزيع الأدوار ، وجميع أبنائها مجاهدون كل حسب صلاحيته وقدرته ، فله أن يختار أية صورة من صور الجهاد يصلح لها ويقدر علي تحمل تبعاتها ، فمن المسلمين من يجاهد نفسه فيجبرها علي فعل الخيرات وترك المنكرات ، فيقدم بذلك النموذج والمثال الرشيد ، ومنهم من يجاهد بالقرآن ، ومنهم من يجاهد بالحجة والبرهان والدعوة إلي دين الله ، ومنهم من يجاهد بأمواله فينفقها في أعمال الخير والبر وما يصلح من شأن المسلمين ، ومنهم من يجاهد بإعمار الأرض وإنماء موارد المجتمع، ويعفي المسلمين من الاحتياج إلي غيرهم ، وهكذا قد اختار كل مسلم نموذج الجهاد الذي يتوافق مع مقدراته ويتماشى مع ما يصلح له ، قال تعالى ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[2] ، وقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾[3] .

---

[1] . سورة العنكبوت : ٦٩ .
[2] . سورة التوبة : ١٠٥ .
[3] . سورة العنكبوت : ٥٨ .

• لا يتخلف عن الجهاد " كعطاء فعّال " إلا ذوى الأعذار :

الجهاد " كعطاء فعّال " هو مجال رحب وميدان فسيح يستوعب جميع أبناء الإسلام ، ولا ينبغي أن يتخلف عن الجهاد أي مسلم ، إلا إذا كان ذو عذر يقعده شرعاً عن الجهاد ، قال تعالى ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1] .

• الجهاد " كعطاء فعّال " فرض عين في حالة السلم :

مفاد ما تقدم أن الجهاد " كعطاء فعّال " فريضة علي كل مسلم ، لا يسقط عنه إلا بعذر شرعي – كما قدمنا في البند أعلاه – ، فالمسلم الذي لم يجند ويؤهل للجهاد " كصراع عضوي " عليه أن يتوجه إلي الجهاد " كعطاء فعّال " إذا لم يكن من ذوى الأعذار ، وكان الرسول الكريم يقول بعد عودته من البعثات " رجعنا من الجهاد الأصغر إلي الجهاد الأكبر " .

• الجهاد " كعطاء فعّال " هو أساس فكرة " الردع الإسلامي الشامل " :

تقوم فكرة " الردع الإسلامي الشامل " علي أساس بناء قوة إسلامية ضاربة تردع العدوان وتصون الأوطان وترفع الأديان ، وتبدأ هذه القوة بأول نماذج الجهاد ، وتنتهي بنموذج الصراع العضوي ، وهي في سبيل ذلك تجند كافة عناصر القوة العقيدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وأخيراً العسكرية .[2]

---

[1] . سورة الفتح : ١٧ .
[2] . لتفصيل أكثر حول فكرتنا عن الردع الإسلامي الشامل يمكن الرجوع إلي : المجلد التاسع ، الحرب في الإسلام ، الجزء الثاني ، الحرب المعاصرة .

- الدلالات الخاصة لفكرة " الأمة المجاهدة " في بداية الدعوة :

كان لفكرة " الأمة المجاهدة " التي رسختها مصادر الطرح الإسلامي المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ونماذج الممارسة العملية في دولة الرسول ودولة خلفائه الراشدين دلالات خاصة في بداية الدعوة الإسلامية ، وقد تمثلت تلك الدلالات في الآتي :

* كانت الفكرة ضرورية لتأمين قوة دفع مستمرة لنشر الدعوة :

مثلت فكرة الأمة المجاهدة رافداً مهماً وضرورياً لتأمين قوة دفع مستمرة لنشر الدعوة الإسلامية ، من خلال الجهاد بالقرآن ، وكذا بالحجة والبرهان ، وأخيراً حمل الجيش الإسلامي للدعوة وتوصيلها إلي الأمم المختلفة ليتولى الدعاة تبليغها ، وكان ذلك الرافد مهماً في بداية الدعوة ، حيث كانت لا تزال محدودة جغرافياً وبشرياً ، كما كان ضرورياً أيضاً لاستمرار توفير زخم من الحماس والقدرة علي الانتشار في كافة الأرجاء .

* كانت الفكرة كفيلة بتأمين العنصر المادي :

كانت الدولة الإسلامية في بدايتها محدودة الموارد ، ولم يكن في مقدورها توفير المقدرات الاقتصادية المادية للإنفاق علي الجيش ، ومن ثم جاءت فكرة " الأمة المجاهدة " لتسد هذه الثغرة ، من خلال الجهاد بالمال ، فكان المسلمون المقتدرون مادياً يعمدون إلي تجهيز المقاتلين ، بالإضافة إلي من يتطوع للجهاد بما يملك من مال ثم يقاتل بنفسه .

* كانت الفكرة كفيلة بتأمين العنصر البشري :

كذلك كانت فكرة الأمة المجاهدة كفيلة بتأمين العنصر البشري الذي ينضم تلقائياً إلي صفوف الجيش الإسلامي ، فإذا نادى المنادي " حي علي الجهاد " ، أجاب الجميع بالمال والنفس ، وكان لذلك أهميته في تلك الأثناء التي نشأت فيها الدولة الإسلامية ، حيث كانت محدودة العدد ، وكان جيشها بالتالي قليل الأفراد ، ولم يكن هناك من بد

مـن إشـراك النـساء في القتـال ، لـيقمن بأعمـال تتوافـق مـع مقـدراتهن سـواء بالقتـال أو بالأعمال المساندة .

* كانت الفكرة نواة لفكرة " الردع الإسلامي الشامل " : [ إحالة ]

منذ بداية الدعوة الإسلامية ونشأة الدولة في المدينة المنورة وفكرة " الردع الإسلامي الـشامل " مصاحبة لهما ، فلقد سعت الدولة الإسـلامية بـشكل حثيـث مـن خـلال فكـرة " الأمـة المجاهدة " إلي بناء قوة ضاربة عقيدياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، وبعـد فـترة وجيـزة أصبحت تلك القوة واقعـاً فـرض نفسه علـي الظـروف الإقليميـة الـسائدة آنـذاك ، وبـات المحيطون بالدولة الإسلامية يرهبون جانبها ولا يجرؤون علي الاعتداء عليها ، بـل حتـى لا يفكرون في ذلك ، وتبلورت فكرة " الردع الإسلامي الشامل " واحتلت موقعها المتميـز في الفكر الاستراتيجي للمخطط الإسلامي ، ونحيل إلي تفصيل هذه الفكرة في الجزء الأول من المجلد الحادى عشر .

* كانت الفكرة اختباراً للإيمان وترسيخاً له :

يتضح مما أوردناه بشأن دلالات فكرة " الأمة المجاهدة " في بداية الدعوة الإسـلامية ، أن هذه الفكرة كانت بمثابة اختبار لإيمان المسلمين الذين اعتنقوا الدين حديثاً ، كما كانت في ذات الوقت ترسيخاً لذلك الإيمان في قلـوبهم وعقـولهم ، وبـرزت تعـبيرات ذلـك واضـحة جليـة في كافـة نمـاذج الجهـاد الـتي بـدأت بجهـاد الـنفس وانتهـت بالجهـاد " كصراع عضوي " .

## ثانياً : تنظيم الجيش :

بعد مناقشة " الأمة المجاهدة " كإطار عام احتوى جملة المفردات والأفكار المتعلقة بالجيش كأحد عناصر ومقومات الحضارة الإسـلامية ، ننتقـل في هـذه الجزئيـة إلـي عـرض تنظـيم

الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم ، وكيف تم التعامل مع فكرة الأمة المجاهدة كأساس لذلك التنظيم :

## ❖ أساس الجيش من الناحية الصراعية :

سنتحدث عن الجيش مجرداً من أية تداخلات أو ارتباطات أخرى ، بوصفه عنصراً فاعلاً في الظاهرة الصراعية ، والجيش وفق هذا الوصف لا يعدو أن يكون أداة لإدارة الصراع العضوي من جهة وإخضاع إرادة الآخر من جهة ثانية ، وإيضاح ذلك فيما يلي :

– الجيش أداة لإدارة الصراع العضوي :

للصراع بين الجماعات البشرية دواعيه وأشكاله . والظاهرة الصراعية قديمة قدم الوجود الإنساني ، والصراع يتخذ أشكالاً وتعبيرات متصلة ومترابطة ، وتسير في اتجاه تصاعدي تنتهي دائماً بالصراع العضوي إذا لم تتوقف أو تحل بأساليب اتفاقية ، والجيش الإسلامي بعيداً عن أهدافه وغاياته ورسالته ذات الطبيعة الخاصة هو أداة لإدارة الصراع العضوي ، وإدارة الصراع العضوي بالنسبة للجيش الإسلامي تتم وفق أصول وأسس مستنبطة من مصادر تشريعية محكمة لا مجال للحيد عنها أو الخوض فيها ، ولا يلجأ الجيش الإسلامي إلي الدخول في الصراعات العضوية ، إلا بعد استنفاد كافة الوسائل التي تحول دون وصول الصراع إلي مرحلة الصراع العضوي والتصادم الجسدي .

وما ينبغي التأكيد عليه في هذا الصدد أن الجيش الإسلامي في خلال الفترة التي تبدأ منذ البعثة المحمدية ، وتبلور الرسالة الإسلامية في شكل دولة وحتى نهاية العصر العباسي ، لم يكن جيشاً محترفاً لإدارة الصراع العضوي ، هذا علي الرغم من أنه كان أقوى الجيوش في العالم خلال الفترة التاريخية المذكورة ، وتحقيق ذلك أن الجيش الإسلامي لم يدخل صراعاً عضوياً البتة من أجل الصراع في ذاته أو لتحقيق أهداف ذاتية ، وإنما كان هدفه رد

عـدوان أو إزاحـة طغيـان ، قـال تعـالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[1] ، والطواغيـت هـم الـذين استعبدوا الناس وأذلوهم وحالوا بينهم وبـين ديـن الله ، الـذي يحـررهم مـن ذل العبودية وهوان الطغيان إلي حرية اختيار العقيدة والإيمان عن قناعة وقبول ، ومن ثم كان الجـيش الإسلامي جيش عتق وتحرير ، ولم يكن جيش سلب وتدمير .

- إخضاع إرادة الآخر :

الجيش في خضم الصراع لا يبتغي إلا هدفاً واحداً هـو إخـضاع إرادة الآخـر ، والآخـر هـو الجيش المقابل ، والجيش الإسلامي لم يستهدف أبداً إلا الجيش المقابل ، وإخـضاع إرادة الجيش المقابل كانت تعنى بالنسبة إلي الجيش الإسلامي ما يلي :

* التسليم للجيش الإسلامي والإذعان لـه وإنهـاء الـصراع ، ولهـذا التـسليم نتائجـه الـتي نظمها الشرع الإسلامي في تشريعاته الخاصة بإدارة الحرب .

* الهزيمة ، وانتهاء الصراع العضوي بهزيمة الخصم نظمها الشرع الإسلامي كذلك ، ونظم نتائجها بإبداع لم يسبق له مثيل في القوانين الوضعية .

* تحرير الشعوب الواقعة تحت استبداد الطواغيت ، ولعل هذا يمثل أهـم نتـائج الـصراع العضوي الذي يخوضه الجيش الإسلامي وأهم أهدافـه الـتي مـن أجلـها خـاض الـصراع ، والتحرير يعنى انتهاء خضوع الشعوب لحكم واستبداد الطواغيت ، وتملكها زمام أمرهـا في اختيار المعتقد الذي يحفظ لها كرامتها ويحترم إنسانيتها .

[1] . سورة النساء : ٧٦ .

## ❖ الجيش الإسلامي في عهد الرسول كان جيشاً بالمعنى المتعارف عليه:

الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم كان جيشاً بالمعنى المتعارف عليه في الوقت الراهن ، فالجيش كيان منظم محكم وصارم ، موضوعياً وعملياً لا يشترط فيه التنظيم المؤسسي المستمر والدائم ، ولكن يكفى ذلك وقت إدارة الصراع ، ويهدف ذلك الكيان إلي تحقيق غايات ومقاصد ، تمثلت في ردع الأعداء والدفاع عن الدين والوطن وحمل الدعوة ، إذن فالجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم تجمعت له كافة عناصر الجيش بمعناه المعروف ، والتي يمكن أن نزيدها تفصيلاً وتحليلاً في العرض التالي :

– أهداف الجيش الإسلامي :

تمثلت أهداف الجيش الإسلامي في الأهداف المتعارف عليها لأي جيش تعارف عليه البشر ، إلا أن الجيش الإسلامي تفرد ببعض المهام التي لم تجد لها مكاناً في اهتمامات الجيوش الأخرى ، وقد تحددت مهام الجيش الإسلامي في مصادر التشريع ، وكانت كالآتي :

* ردع الأعداء : من أول مهام الجيش الإسلامي ردع الأعداء ، حيث حث الله المسلمين وأمرهم بأن يتزودوا بالقوة ويتسلحوا بالمكنة ، حتى لا يفكر أحد في الاعتداء عليهم ، وإذا فكر وسولت له نفسه القيام بذلك فلابد أن يذوق وبال أمره .

* الدفاع عن الوطن والدين : الجيش الإسلامي جيش دفاع وحماية وتأمين وليس جيش اعتداء ، فهو حامي حمى الأوطان ورافع راية الأديان ، لا يقبل أن ينتهك الحمى أو تهان الأديان .

* حمل الدعوة : الجيش الإسلامي منذ عهد الرسول الكريم كان ولا يزال جيشاً عقائدياً ، وُجد ليحمل عقيدة التوحيد إلي شعوب الأرض ، ثم استمر لحمايتها وحماية معتنقيها ، فكما ذكرنا في مواضع متفرقة أن جيش الإسلام منذ عهد الرسول الكريم كان يحمل الدعوة

ويوصلها إلي الشعوب التي يفتح بلادها ، ثم يعهد إلي الدعاة بتبليغها فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، واستمر ذلك هو حال الجيش الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي ، وبعد أن توقفت الفتوحات الإسلامية والبعثات الإسلامية مع بداية العصر العباسي ، تحول الجيش إلي حامي حمى الأوطان والأديان ، ولكنه ظل جيشاً عقائدياً يعمل أساساً من أجل عقيدة التوحيد وباسمها .

– غياب التنظيم المؤسسي حل محله فكرة " الأمة المجاهدة " :

أشرنا إلي أن الجيش في ذاته كيان محكم الترتيب صارم التنظيم ، وكان ذلك هو حال الجيش الإسلامي ، ولم يكن الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم في حاجة إلي ديوان يضفي عليه صفتي المؤسسية والاستمرارية ، لأن فكرة الأمة المجاهدة كانت قد سدت هذه الثغرة ، فالأمة الإسلامية في حالة جهاد مستديم ، عبر نماذجه المختلفة التي تنتهي بالصراع العضوي ، فالجهاد في كافة نماذجه لا يتوقف ، وكل مسلم يجاهد وفق ما تيسر له ، وعندما يؤذّن مؤذّن النموذج الأخير من نماذج الجهاد وهو الصراع العضوي ينبري القادرون ليلبوا النداء ، ويأتلف علي الفور جيش يعرف مهامه بكل دقة وإحكام ، وينصرف إلي تحقيق أهدافه التي لا يتوقف إلا بعد إنجازها علي أكمل وجه . وهكذا كان جيش الإسلام في عهد الرسول الكريم جيشاً بالمعنى المتعارف عليه من حيث الأساس الذي قام عليه ، والمهام التي وكّل بها ، وأخيراً التنظيم الذي كان يبدو في أجلى صوره فور سماع داعي الجهاد ، أما عن استمرارية الجيش في شكله المؤسسي ، فكانت فكرة الأمة المجاهدة تحل محلها .

### ❖ الاستنفار [ الدعوة إلي الجهاد ] :

في إطار تنظيم الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم تناولنا أساس الجيش من منطلق الظاهرة الصراعية ، ثم بروز الجيش الإسلامي في ذلك العهد الزاهر بشكله وتنظيمه ومهامه التي جعلت منه جيشاً بالمعنى المتعارف عليه ، وفي هذه الجزئية نعرّج علي تناول أول مراحل تأسيس الجيش ككيان ذى طبيعة خاصة ومهام محددة ، وتتمثل هذه المرحلة فيما يعرف بالاستنفار أو الدعوة إلي الجهاد ، والاستنفار عملية ذات أبعاد تنظيمية ونفسية وعقيدية ، وسوف نولى هذه الأبعاد تحليلاً وتفصيلاً فيما يلي :

– الأمة المجاهدة في حالة استنفار دائم :

المتأمل لفكرة الأمة المجاهدة -كما أوردناها فيما أنف- يمكنه أن يلحظ أن المراحل المتتالية والمترابطة للجهاد في صوره المختلفة تجعل من أفراد الأمة جنوداً في حالة جهاد مستمر ، وهم علي أهبة الاستعداد لينتظموا في جيش مقاتل حال سماعهم مؤذن الجهاد ، ومن هنا قيل أن الأمة الإسلامية في عهد الرسول الكريم وحتى خلفائه الراشدين كانت كلها جيشاً ، ومفاد ذلك أن عملية الاستنفار لم تكن إلا مجرد إذن للتجمع والانتظام في جيش يعرف مهامه وأهدافه .

– البعد التنظيمي لعملية الاستنفار :

بالرغم مما تقدم وما مثلته فكرة " الأمة المجاهدة " من إطار ملائم وضروري لتأسيس الجيش الإسلامي في بداية الدعوة الإسلامية ، إلا أن عملية الاستنفار لم تكن تخلو من الاعتبارات التنظيمية التي تمثلت في تحديد سن من يجب عليهم الجهاد بالقتال ، وتوفر المقدرة والقوة والمكنة الذهنية والجسمانية ، ومراعاة الظروف الاجتماعية لكل مقاتل الخاصة بأسرته ووالديه ، وتشكيل هيئة مكونة من كبار الصحابة تتولى المسائل التنظيمية لعملية الاستنفار .

- البعد العقيدي لعملية الاستنفار :

ذكرنا أن الجيش الإسلامي كان جيشاً عقائدياً منذ تأسيسه وحتى أهدافه ومقاصده ، وقد أنسحب ذلك علي عملية الاستنفار ، فلم يكن الاستنفار يتم تحت دعوى القتال أو الحرب مطلقاً ، ولكن يتم تحت الدعوة للجهاد وحمل رسالة التوحيد إلي العالمين ، وكان لذلك وقعه المؤثر في نفسية المقاتلين وحماسهم ، فكان الاستنفار مغلفاً بدعوة عقيدية ذات تأثير علي كافة أبناء الأمة وبصفة خاصة المقاتلين .

- البعد النفسي لعملية الاستنفار :

كذلك كان لفكرة الأمة المجاهدة أثرها المواتي علي نفسية المقاتلين ، فالمقاتلون قبل أن ينضووا تحت لواء الجيش الإسلامي كانوا في حالة جهاد دائم ولكن بوسائل أخرى ، فهم قد انتقلوا من طور من أطوار الجهاد إلي الطور النهائي له وهو الصراع العضوي ، وكان ذلك يعنى بالنسبة لهم أنهم سيختمون جهادهم المتواصل في سبيل الله بإحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادة ، ولم يكن يزدهم ذلك إلا تثبيتاً ويقيناً ، وكان ذلك هو السر الذي كمن وراء قوة وصلابة الجيش الإسلامي ، حيث كان مقاتلوه يتمتعون بروح معنوية عالية ونفس مطمئنة إلي إحدى الحسنيين ، مما منحهم شجاعة وإقداماً ، وكان أساس كل ذلك نابعاً من عقيدة التوحيد التي يحملونها ويبتغون نشرها بين العالمين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم أنها تخلُفُ من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " ، وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد : " أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : " في الجنة " فألقى تمرات كن في يده ثم قاتل حتى قُتل .

## ❖ تمويل الجيش الإسلامي :

إنتهينا مما سبق إلي أن الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم كان جيشاً بالمعنى المتعارف عليه ، من حيث أسسه التي ارتكز عليها ، ومهامه التي كُلّف بها ، وتنظيمه الذي يتم بموجب دعوة داعي الجهاد ، وهنا يثار تساؤل عن تمويل الجيش الإسلامي ، بعبارة أكثر دقة كيف كان يتم الإنفاق علي جيش المسلمين في بداية الدعوة ونشأة الدولة الإسلامية ، إن هذه المسألة جديرة بالدراسة والبحث ، ويمكن التصدي لها من خلال الآتي :

– موارد الدولة الإسلامية الناشئة :

عندما تأسست دولة المدينة انتصبت بشرياً علي الأنصار الذين استقبلوا الرسول في المدينة . وعلي المهاجرين الذين لحقوا به وتركوا أموالهم وأهليهم في مكة ، وارتكنت اقتصادياً علي ممتلكات الأنصار الذين تصدقوا بقسط منها لمصلحة الدولة الناشئة ، وقسط آخر لإخوانهم من المهاجرين ، الذين دفعوا أموالهم لقريش في سبيل أن يخلوا بينهم وبين الهجرة إلي الرسول الكريم ، واشتروا أنفسهم بتلك الأموال ، وقسط ثالث احتفظوا به لأنفسهم وأهليهم ، بالإضافة إلي ممتلكات الأنصار كانت هناك أموال المهاجرين الأقوياء المتنفذين ، أمثال عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق ، والذين هاجروا بها وتصدقوا بمعظمها لدولة الإسلام الناشئة .

وكانت الأموال تشمل الأموال السائلة [ النقدية ] ، كما تشمل الأنعام ، إلي جانب الأرض الزراعية والحيطان [ البساتين ] ، وكل ذلك من الصدقات التي تصدق بها الأنصار والمهاجرين حتى قبل أن تفرض الزكاة ، وكان قسط من هذه الأموال ينفق علي الجيش الإسلامي .

- المقاتل المسلم يجهّز نفسه :

إعمالاً " لفكرة الأمة المجاهدة " كان المقاتل المسلم إذا أذّن مؤذّن الجهاد لبى النداء بماله ونفسه ، فجهز عدة الحرب وعتادها ، وانضوى تحت لواء الجيش الإسلامي ، وكان هذا هو المعتاد في بداية الدعوة ونشأة الدولة الإسلامية ، ومن ثم كان الجيش الإسلامي جيشاً يعتمد علي التمويل أو الإنفاق الذاتي ، وهذه رحمة من الله بهذه الدولة البسيطة الناشئة التي تشق طريقها الوعرة وسط بيئة قاسية .

وتجلت حكمة الخالق سبحانه في دعم الجيش الإسلامي الذي نشأ في ظل ظروف اقتصادية ومادية صعبة ، حيث حث المسلمين من خلال تسع آيات علي الجهاد بالمال والنفس معاً ، وكان ترتيب المال قبل النفس في هذه الآيات التسع ذو دلالة واضحة ، وكان لذلك أثره الجلي في التغلب علي العامل الاقتصادي المادي بالنسبة للجيش الإسلامي . وكذا في إعفاء الدولة الناشئة من قسط كبير من أعباء الجيش كان يمكن أن يؤثر عليها ، وأيضاً في إضفاء صفات القناعة والاعتدال في الإنفاق علي الجيش الإسلامي .

- صدقات المقتدرين من المسلمين :

إضافةً إلي ما تقدم من قيام المقاتل المسلم بتجهيز نفسه للقتال عدة وعتاداً ، كانت هناك الصدقات التي يقدمها المقتدرون من المسلمين للإنفاق علي الجيش الإسلامي ، وكانت هذه الصدقات تلعب دوراً مهماً في تأمين نفقة الجيش المسلم ، ولم يكتف المسلمون أصحاب تلك الصدقات بما يقدمونه من أموال كانت في بعض الأحيان كافية لتجهيز بعثة من البعثات ، بل كانوا في طليعة جيش المسلمين يجاهدون بأنفسهم ، بل وكانوا قواداً وأمراء .

لأجل ذلك كان حض المولى سبحانه علي الجهاد بالمال والنفس في التسع آيات علي النحو التالي :

قال تعالى ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ .[6]

---

[1] . سورة النساء : ٩٥ .
[2] . سورة الأنفال : ٧٢ .
[3] . سورة التوبة : ٢٠ .
[4] . سورة التوبة : ٤١ .
[5] . سورة التوبة : ٤٤ .
[6] . سورة التوبة : ٨١ .

وقـــال تعـــالى ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .[1]

وقـال تعـالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .[3]

– تقسيم الغنائم علي المقاتلين :

عمد الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه إلي توزيع أو تقسيم الغنائم علي المقـاتلين ، ووقف وراء هذا الإجراء الحكيم أمور عدة ، نذكر منها :

ء تنفيذ لأمر الله تعالى ، حيث نزل الأمر الإلهي علي الرسول الكريم بتوزيع الغنائم الـتي لم تحل من قبل إلا للمسلمين علي الوجه التالي :

○ خمس الغنائم لله ورسوله ، أي تصرف فيما يرضي الله من مـصالح المـسلمين العامـة ، بعد أن يأخذ منه الرسول كفايته ثم يـوزع البـاقي علـي ذوى القرابـة واليتـامى والمـساكين وابن السبيل .

○ أربعة أخماس تقسم علي المقاتلين الذين قـاتلوا الأعـداء ، وكـان الرسـول الكـريم يقـسم بالتساوي بين المقاتلين ، ولم يكن يفرّق في القسمة كما حدث لاحقاً .

---

[1] سورة التوبة : ٨٨ .
[2] سورة الحجرات : ١٥ .
[3] سورة الصف : ١١ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لم تحلّ الغنائم لأحد سود الرؤوس من قبلكم ، كانت تنزل نار من السماء فتأكلها ، فلما كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحل لهم ، فانزل الله تعالى ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .[1]

وقال تعالى في تحليل الغنائم للمسلمين ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .[2]

* الترغيب في الجهاد كصراع عضوي [ القتال ] ، كذلك كان لتوزيع الغنائم علي المقاتلين بعد نفسي يستهدف إيجاد نوع من الترغيب في الجهاد كصراع عضوي ، وكان ذلك ضرورياً حيث كان الإسلام في بداية عهده ولم يكن قد رسخ في قلوب وعقول بعض أصحابه .

* إنفاق المقاتلين علي أنفسهم وعلي ذويهم ، حيث كانت أسر المقاتلين تعتمد علي هذه الغنائم في نفقتها ومؤنتها .

- بروز موارد الدولة الإسلامية ونموها :

في مرحلة لاحقه برزت موارد الدولة الإسلامية وكان من أهمها الزكاة ، وقد خصص في الزكاة نصيب للإنفاق علي الجيش الإسلامي ، وفي ذلك قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[3] ، وبعد انتقال الرسول الكريم إلي الرفيق الأعلى ، ثم تحويل حصة المؤلفة قلوبهم للإنفاق في سبيل الله ، وفي أعقاب انقراض ظاهرة الرق

---

[1] . سورة الأنفال : ٦٨ .
[2] . سورة الأنفال : ٤١ .
[3] . سورة التوبة : ٦٠ .

تحولت كذلك حصة فك رقاب الأرقاء إلي الإنفاق علي الجيش الإسلامي ، ومن ثم كان الجيش الإسلامي منذ تأسيسه في عهد الرسول الكريم موضع اهتمام المسلمين والدولة من جهة الإنفاق عليه وتجهيزه .

## ❖ تسليح الجيش الإسلامي :

من الأمور الجديرة بالذكر والاعتبار فيما يتعلق بالجيش الإسلامي علي مدى تاريخ الدولة الإسلامية وفي عهد النبوة الزاهر بالذات مسألة تسليح الجيش ، فبالرغم من الفتوحات التي قادها ذلك الجيش العظيم وبلائه فيها وتفوقه الكاسح فكراً وحركة ، إلا أنه اعتمد في تسليحه علي سلاح العقيدة أكثر من اعتماده علي سلاح العتاد ، فأسلحة الجيش الإسلامي كانت دائماً أسلحة تقليدية ، بل إن أسلحته في عهد النبوة كانت بدائية وبسيطة ، ولكنها كانت ماضية وفتّاكة ، لأن من حملوها أضافوا إليها من عزمهم وإقدامهم وصدقهم ما جعلها مبتكرة وفعّالة .

– بدأ المسلمون بالأسلحة التقليدية البدائية المتعارف عليها عند العرب :

لم ينشأ الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم جيشاً محترفاً همه القتال وحرفته التفنن في وسائل الحرب وأسلحتها ، ولكنه بدأ بسيطاً وبأسلحة بدائية ، وكل اهتمامه منصرفاً نحو حماية الدعوة الناشئة ، ثم حملها وأوصلها إلي شعوب الأرض حيث يتولى الدعاة تبليغها .

وفيما تقدم دحض بليغ للحجة الواهية التي طالما رددها الكثيرون والقائلة بأن الجيش الإسلامي كان جيشاً محترفاً حرفته القتال ، وعمد إلي نشر الإسلام بحد السيف ، فذلك الجيش لم يكن يملك من السلاح والعتاد إلا أبسطه ، ولم يكن يخبر من فنون الحرب إلا أعمها وأكثرها شيوعاً وانتشاراً ، لأنه لا يرغب في الهجوم والتعدي ، ولا ينبغي السيطرة

علي مقدرات الآخرين ، فأسلحته من ثم كانت دفاعية ولم تكن أبداً هجومية ، إلا عندما تضطره الظروف وتفرض عليه الحرب فرضاً .

لقد كانت إمكانات الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم متواضعة وبسيطة ، وكانت البعثات الدعوية إلي القبائل والحواضر العربية تستخدم الأسلحة التقليدية المتعارف عليها عند العرب في ذلك الوقت ، وفي كثير من الأحيان كان معظم جيش المسلمين من المشاة ، نظراً لقلة بل ندرة الخيل التي كانت تعد من أهم وسائل الحرب في ذلك الوقت ، وفي ذلك جاء قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾[1] ، وقد نزلت هذه الآية الكريمة حسب رواية بن عباس قال " أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبدالله بن معقل المزني ، فقال : يا رسول الله احملنا ، فقال : والله لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا ولهم بكاء ، وعزّ عليهم أن يُحبسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً " ، فنزلت هذه الآية ، ودلالتها واضحة حيث تعنى عدم توفر المركب، وهو إحدى أدوات الحرب التي يعوّل عليها ، وعلي الرغم من ذلك فقد كانت قوة الجيش الإسلامي في عقيدة رجاله ، ورسوخ تلك العقيدة في قلوبهم وإقدامهم علي القتال لا يبغون إلا إحدى الحسنيين .

– تابع الجيش الإسلامي تطوير أسلحته من احتكاكه بالجيوش الأخرى :

لقد تعلم الجيش الإسلامي أن يأخذ بالأسباب في غير مبالغة أو إفراط ، فهو صاحب الوسطية والاعتدال ، فلم يحدث على مدى المعارك التي خاضها الجيش الإسلامي خلال عهد النبوة الزاهر وعهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي أن تفوق في عدته وعتاده علي

[1] . سورة التوبة : ٩٢ .

الجيوش التي إلتقاها ، بل كان دائماً هو الأقل عدة وعتاداً ، ولكنه الأكثر إيماناً والأشد عقيدة ويقيناً بنصر الله ، قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [1]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (١٧٣) ﴾ .[3]

وقال تعالى " ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ .[4]

ولكن الجيش الإسلامي لم يكف عن تطوير أسلحته طمعاً في إحراز النصر ، الذي لا يتحقق إلا من خلال مضاهاة العدو عدة وعتاداً ، والتفوق عليه في العزم والعقيدة ، ودأب المسلمون علي تطوير أسلحتهم بفعل احتكاكهم بالجيوش التي إلتقوها ، فأخذوا عنهم الكثير من الأسلحة والعديد من أساليب ووسائل القتال وأضافوا إليها وطوروها .

ومع ذلك لم يعتد المسلمون أن يستخدموا غريب الأسلحة مثل الفيلة التي استخدمها الفرس والروم ، وغيرها من الأسلحة التي تبالغ في التدرع والاحتماء خوفاً من القتل ، بل ألف الجيش الإسلامي الأسلحة المعتادة من عدة وعتاد ولباس ، فجنود المسلمين لم يخشوا الشهادة في سبيل الله ، فهم علي يقين بقول الله عز وجل ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً

---

[1] . سورة الحج : ٤٠ .
[2] . سورة للروم : ٤٧ .
[3] . سورة الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣ .
[4] . سورة غافر : ٥١ .

نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .[1]

– عرف المسلمون تصنيع السلاح :

منذ عهد الرسول الكريم والمسلمون يقومون بتصنيع معظم أسلحتهم من سيوف ورماح ودروع ، وكانوا يستعينون في ذلك ببعض أهل الذمة من اليهود الذين برعوا في تصنيع أنواع من هذه الأسلحة ، وقد كان الرسول الكريم يشجع ذلك ويحض عليه ، إضافةً إلي ذلك فقد كان المسلمون يحصلون علي الكثير من الأسلحة في عداد الغنائم ، وكان لذلك أهميته في التعرف علي أسلحة العدو واقتناء الكثير منها ، بل وتصنيعها واستخدامها كأنواع جديدة .

وعرف المسلمون كذلك شراء السلاح من مصادر عديدة اشتهرت بتصنيع نوعيات معينة منه مثل السيوف من الهند ، ومع تطور الدولة الإسلامية واتساع رقعتها وزيادة مقدراتها الاقتصادية ومواردها المالية تطورت صناعة السلاح وأصبح الجيش الإسلامي يحصل علي جميع أسلحته من تصنيع المسلمين ، وفي أواخر عهد الرسول الكريم كانت صناعة السلاح قد بدأت تتسم بسمات اقتصادية شبه متخصصة ، إلا أنه في عهد الخلفاء الراشدين كانت هناك مصانع بالمعنى المناسب لتلك الأزمنة ذات طبيعة متخصصة في تصنيع السلاح للجيش الإسلامي ، إضافة إلي كافة مستلزمات الحرب من مؤن ومواد مساندة .

[1]. سورة آل عمران : ١٥٤ .

## ❖ تدريب الجيش :

سبق أن حددنا مهمة الجيش الإسلامي في الدفاع عن الدعوة ، وعن الدولة الناشئة ، وفي حمل الدعوة وتوصيلها إلي شعوب الأرض ليتولى الدعاة تبليغها ، وهذه المهام لم تكن لتتم بشكل ارتجالي عشوائي ، بل كانت تحتاج إلي التخطيط الدقيق والتنظيم المحكم والتنفيذ الجاد . وذلك عبر آليات معينة نتابعها في الآتي :

- وضع الخطة العامة لحركة الجيش ، ولكل معركة علي حدة [ الإستراتيجية ] :

اعتاد المسلمون وبرعوا في صياغة الخطة العامة لحركة الجيش ، ولكل معركة يستعد لخوضها ، وذلك ما يعرف الآن بالاستراتيجية ، وكان الرسول الكريم يجتمع بصحابته ومعهم قواد الجيش حيث يتم رسم خطة المعركة ، فيحدد الهدف الرئيسي منها ، وكذا دراسة قوة العدو ومدى استعداداته ، ونقاط القوة في قواته ومكامن الضعف ، ومن ثم دراسة مقدرات وإمكانات جيش المسلمون ، وكيف يمكنه كسر نقاط قوة الخصم ، واستثمار مكامن ضعفه، إلي غير ذلك من استراتيجيات فرعية عن كيفية الهجوم ووقته وفجاءته ، وكيفية الدفاع ووسائله .

- إدارة العمليات الميدانية :

أما بالنسبة إلي إدارة العمليات المدينة والتي تعرف بالتكتيك ، فقد تركت لقواد الجيش وقت المعركة ، فلكل معركة ظروفها وتطوراتها ، وكان الرسول يعين أمير الجيش أي قائده ونائبه ، وكان الرسول قبل تحرك الجيش وانطلاقه يوصي بوصايا معينة تحدد حركة الجيش أثناء القتال ، وهذه الوصايا كانت بمثابة توجيهات عامة كان القواد يلتزمون بها ، ويعتبرونها ثوابت حركتهم أثناء القتال .

- تدريب الجيش علي السلاح :

كان الرسول الكريم في كثير من الأحيان يشرف بنفسه علي تدريب المقاتلين المسلمين علي السلاح ، ويشجعهم ويدعو لهم بالنصر ، وكان تدريب الجيش الإسلامي علي السلاح يتم بطريقتين ، الأولى : قبل الخروج أو المسير للقتال وبعد الاستنفار والتجمع ، الثانية : في ميدان المعركة وقبل الالتحام مع العدو ، حيث كان مقاتلو المسلمين يواصلون تدريبهم في معسكرهم استعداداً للقاء العدو .

- التدريب علي فنون القتال :

منذ وقت مبكر والجيش الإسلامي يجيد فنون المناورات ، وكان يقوم بتلك الفنون أثناء مسيره إلي ميدان المعركة ، وكانت تلك المناورات تتم تحت قيادة وتوجيهات أمراء الجيوش ، الذين كانوا يضعون قواعد وأسس تلك المناورات ، كذلك كان الجيش الإسلامي في معسكره يستعمل أساليب المناورة لعدم إطلاع العدو علي حقيقة عدده وعدته وخططه الهجومية والدفاعية .

## ❖ قيادة الجيش الإسلامي :

كانت قيادة الجيش الإسلامي من أهم وأسمى المسئوليات في الدولة الإسلامية منذ تأسيسها ، ومن ثم فقد تولى الرسول الكريم بنفسه قيادة الجيش الإسلامي في العديد من البعثات والمعارك، كما كان يوكل بهذه المسئولية إلي أهل القوة والمكنة من رجال الدولة ، وتفصيل ذلك فيما يلي :

- قيادة الرسول للجيش :

قلنا أن الرسول كان يقود الجيش بنفسه ، وقد كان الجيش تحت قيادته في تسعة غزوات هي : بدر وأحد وحمراء الأسد وحنين وتبوك والخندق والحديبية وبنى النضير وفتح مكة

، وكان يتابع استعدادات المقاتلين ، ويوزع القوات ، ويسدد الصفوف وينزلها مواقعها حتى تتهيأ للقتال ، ويتقدم الصفوف ، ويقاتل بحماس حتى يلهب حمية مقاتليه ، بل كان منهم من يحتمي به عند اشتداد وطيس المعركة .

وفي ذلك جاء قول الحق تبارك وتعالى في شأن قيادة الرسول للجيش يوم أحد ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] ، وتوضح هذه الآية الكريمة كيف أن الرسول الكريم قد خرج من المدينة مع جيشه في أول النهار ، لكي يُنزِل ويُرتب المقاتلين، ويتخذ لهم مصافاً ومعسكراً ومواطن ومواقف للقتال ، حتى يحسنوا الاستعداد للقاء العدو .

وقال تعالى في يوم بدر ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] ، وقال تعالى في معركة حنين ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[3] .

إن قيادة الرسول الكريم للجيش الإسلامي في هذه الفترة المبكرة من نشأة الدولة والدعوة معاً كانت لها دلالتها ، حيث رسخت من فكرة توحد القيادة الدينية والسياسية والعسكرية في شخص النبي الكريم ، وأنه رسول الله وفرد من أفراد المجتمع يقود الدولة وينشر

---

[1] . سورة آل عمران : ١٢١ .
[2] . سورة الأنفال : ٤٢ .
[3] . سورة التوبة : ٢٥ – ٢٦ .

الدعوة ويجاهد في سبيل الله فهو إذن القدوة والأسوة ، قال تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ .[1]

- تفويض قيادة الجيش إلي الصحابة :

كما قاد الرسول الكريم الجيش بنفسه أوكل مهمة قيادته إلي كبار الصحابة المعروفين بصفات الشجاعة والإقدام وإتقان فنون القيادة والحرب من أمثال خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة عامر بن الجراح وأسامة بن زيد وغيرهم .

وكان يتابع أخبار الجيش وحياً أو عن طريق الرسل ، وكان يرسل بالتوجيهات والوصايا ، كما كان يحث المقاتلين علي القتال ، ويرغبهم في الانتصار لدين الله وإعلاء شأنه ، ومن أشهر أدعيته في الحرب والقتال ، في يوم بدر رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فقال :" يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً " فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين " .

وفي غزوة الأحزاب كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :" اللهم لا اله إلا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء قبله ولا شيء بعده "، ودعا صلى الله عليه وسلم علي الأحزاب فقال :" اللهم منزل الكتاب مجري السحاب سريع الحساب اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم " .

[1] . سورة آل عمران : ١٤٤ .

– تشكيل الجيش :

حدثت موقعة أحد في الثالث من شوال في السنة الثالثة من الهجـرة ، وقبـل هـذه الموقعـة شكّل الرسول الكريم الجيش الإسلامي إلي ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة وساقه ، ومن هـذه الأقسام الخمسة سمى الجيش بالخميس ، ومنذ ذلك التاريخ والجيش الإسلامي يأخذ هـذا الشكل ، وإن كانت متطلبات المعركة ومقتضيات القتال في ميدان العمليات قد تفرض شكلاً آخر فلا ضير في ذلك ، وقد حدث ذلك في مواقع عديدة .

❖ دعم ومساندة الجيش :

نستحضر في هذه الجزئية – ما سبق وقدمناه — من مفهوم أو مدرك " الأمة المجاهـدة " ، فهذا المفهوم يعنى قيام عملية توزيع للأدوار بشكل بديع ، يتـولى مـن خلالهـا كـل مـسلم مهمة الجهاد في سبيل الله وفق جهده ووسعه وحسب معرفته وخبرته ، فالمقاتل في ميـدان المعركة يجاهد بنفسه ، ومـن خلفـه جميـع أفـراد الأمـة يجاهـدون كـلٌ في موقعـه ، وقـد ارتسمت ملامح هذا المدرك منذ زمن الرسول الكريم ، ويمكن الإشارة إلي تلـك الملامـح مـن خلال الآتي :

– قيادة الرسول المباشرة للجيش :

كان الرسول الكريم هو المجاهد الأول في أمة الإسلام ، وقد حـدد لنفـسه دوراً بـالرغم مـن منزلته الرفيعة ومكانته السامية ، فقاد الجيش بنفسه وقاتـل وجُـرح في المعركـة ، وحينمـا يفوض صحابته في قيادة الجيش ، كان يتابع أخباره ويدعو له بالنصر والظفر .

– عمليات الإمداد والتموين :

كان المجتمع المسلم يقف وراء جيشه فيمده بحاجته مـن الأفـراد والـسلاح والعتـاد والمـؤن حتى يتقوى علي المعركة ويحقق أهدافه ، ويحتاج الجـيش المقاتـل إلـي جبهـة أخـرى في

الداخل لا تقل أهمية عن جبهة القتال ، فطالما أنها تمد الجيش بحاجته فينبغي أن تظل متماسكة قوية ، حتى يقدّر لها أن تؤدي دورها في الجهاد مثلها مثل جبهة القتال .

**ثالثاً : في عهد الرسول الكريم كان توصيل الدعوة سلماً أكثر فعالية من توصيلها عن طريق الجيش :**

بالرغم من أهمية الجيش في كيان الدولة الإسلامية الناشئة والدعوة الواعدة ، إلا أن وجود الجيش في عهد النبوة الزاهر كان مقترناً بثوابت أخرى لها دلالتها التي أوضحت بجلاء المهام الأساسية للجيش ، وكذا علاقته بالدعوة الإسلامية ، وأكدت علي حقيقة أن الجيش الإسلامي لم يفرض الدعوة الإسلامية ولكنه حملها وأوصلها فقط ، وأُوكلت مهمة تبليغها إلي الدعاة ، ويمكن توضيح ذلك وتفصيله من خلال ما يلي :

❖ **تركيز الرسول علي الدعوة السلمية :**

منذ عهد الرسول الكريم أتضح أن هدف الدعوة لم يكن الجبر والإلزام ، بل كان التخيير والاختيار ، فالجيش في عهد الرسول كان خط الدفاع الأول عن الدعوة وخط الهجوم الأخير، فقد كان الجيش يحقق أهدافه دون الدخول في صراع عضوي ، فمن مجموع ( ٢٧ ) بعثة قادها الرسول الكريم بنفسه ، كان ( ١٩ ) منها قد تحققت أهدافها دون قتال ، ومعنى ذلك أن الجيش لم يكن وجوده تحت إمرة الرسول يعنى القتال بالضرورة .

❖ **تحددت منذ البداية مهمة الجيش الإسلامي :**

إن ما تقدم يعنى أن الجيش الإسلامي قد تحددت مهمته منذ بداية تأسيس دولة الإسلام في الدفاع عن الدولة وعقيدتها وحمل الدعوة وتوصيلها فقط ، ومن شأن ذلك أن يدحض الفكرة القائلة بأن الجيش الإسلامي نشر الدعوة بحد السيف ، وسنفصل ذلك بعد قليل .

## رابعاً : الجيش والحضارة الإسلامية :

قد يتبادر إلي الذهن تساؤل مؤداه : ما هي علاقة الجيش بالحضارة الإسلامية خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ الدولة والدعوة الإسلامية ؟ لقد كانت العلاقة واضحة وقوية منذ البداية ، حيث برز التلازم والمساندة بين الكيانات الثلاث التي تكتلت لتنطلق في كلية واحدة يدعم بعضها بعضاً ، وذلك علي النحو التالي :

### ❖ أين الحضارة في الدعوة الناشئة :

الدعوة الإسلامية الناشئة التي تجسدت في دولة المدينة هي في ذاتها دعوة حضارية تحمل أدوات وآليات التعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون ، وشرعت منذ تمثلها في تلك الدولة في صياغة نماذج الممارسة العملية لتلك الأدوات والآليات مثل التنظيم والنظام الاجتماعي والجيش .. الخ ، ومن ثم فالدعوة هي أهم عناصر ومحاور الحضارة الإسلامية . إذا لم تكن هي الحضارة ذاتها ، وصعوبة الفصل بين الدعوة والحضارة الإسلامية هي إحدى أهم خصائص تلك الحضارة ، وهذا التلاقي إلي درجة الذوبان بين الدعوة والحضارة يؤكد طبيعة الإسلام كدين وحياة وحضارة .

وبالرغم من أن الدعوة كانت ناشئة ، ولم تكن تملك نماذج ناضجة للممارسة العملية لتقدمها كأدوات وآليات التعامل مع عناصر الوجود ، إلا أن الأطر المرجعية الفكرية التي جاءت بها كانت كافية لأن تمثل منطلقات فكرية مهمة تعبر عن الذات الحضارية لتلك الدعوة في صراحة ووضوح .

وحقيقة الأمر أن الأطر المرجعية الفكرية التي مثلت منطلقات فكرية مهمة عبرت عن الذات الحضارية للدعوة الإسلامية ، لم تكن كذلك إلا في وعى وإدراك الرسول الكريم وصحابته الإجلاء ، وبصفة خاصة قبل أن تتحول إلي نماذج للممارسة العملية ،

أما في وعى وإدراك عامة المسلمين فهي لم تتجاوز الدين والشعيرة ونمط الحياة العادية ، وهذا التمايز المبكر في الوعي والإدراك بالمحتوى الحضاري للدعوة الإسلامية ، بين القيادات الإسلامية وعامة المجتمع الإسلامي الناشئ ، كان أمراً طبيعياً ولا يعبر عن قصور أو ضعف في المضمون الإيماني لعامة المسلمين ، الذين استوعبوا فيما بعد المحتوى الحضاري للدعوة عندما تحول إلي نماذج للممارسة العملية ، بل وعبّروا عن تلك النماذج أبدع تعبير .

### ❖ الجيش يحمل الدعوة نواة الحضارة :

إذا كانت علاقة الارتباط العضوي بين الدعوة الإسلامية والحضارة قد اتضحت منذ البداية في كون الدعوة ذات محتوى حضاري يجعل منها نواة الحضارة ، فإن علاقة الجيش بكل من الدعوة والحضارة هي أيضاً علاقة ارتباط عضوي ولكنها تحتاج إلي إيضاح .

فالجيش يدافع عن الدعوة وهي لا تزال في المهد ، ويدافع كذلك عن نموذجها البسيط المتمثل في دولة المدينة ومضامينها الحضارية البسيطة ، ثم هو يحمل الدعوة الإسلامية بما تحويه من مضمون حضاري ، ويسعى إلي توصيلها إلي كل بقاع الأرض ، حيث يتولى الدعاة تبليغها ، وعندئذ تتحول الدعوة إلي عقيدة وبصحبتها نموذج حضاري من الحضارة الإسلامية ، وعليه فقد قام الجيش بدور مزدوج تمثل في حمل الدعوة والحضارة معاً ، ومن جهة أخرى فالجيش يمثل أحد مقومات وعناصر الحضارة .

هكذا كان الجيش الإسلامي في عهد النبوة الزاهر كياناً مهماً له أصوله وقواعده وأهدافه وغاياته وتنظيماته وتشكيلاته ، وجمع بين مدركي " الأمة المجاهدة " و " الأمة المقاتلة " في تناسق بديع ، ثم قام بدور مهم في حمل الدعوة والحضارة معاً وتمكين الدعاة من نشرها ، وبعد ذلك يتحول الجيش والدعوة إلي مقومين أو عنصرين من مقومات الحضارة الإسلامية .

## المبحث الثاني

## الجيش في عهد الخلفاء الراشدين

أخذت رقعة الدولة الإسلامية في الاتساع السريع ، وترامت أطرافها ، واستتبع ذلك أن دخل أناس شتى في دين الله أفواجاً ، وحدث أن زادت متطلبات الدولة واحتياجات المجتمع ، وشرعت الحضارة الإسلامية تحدد معالمها ، وتفرز نتاجها ونماذجها مرتكزة علي عناصر ومقومات بذاتها ، وكان الجيش الإسلامي أحد تلك المقومات والعناصر التي كان لابد أن يشملها التطور ويعتريها التقدم ، وعليه فمتابعة تطور الجيش الإسلامي كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ، هو موضوع هذه الجزئية التي سنفصلها فيما يلي :

### أولاً : فكرة الأمة المجاهدة في عهد الخلفاء الراشدين :

لم يزد عهد الخلفاء الراشدين فكرة الأمة المجاهدة إلا ترسيخاً وتفعيلاً ، فاتساع نطاق الدولة عدّد حاجات أفراد المجتمع ونوّع نشاطاتهم ، وارتسمت شبكة من العلاقات والتفاعلات الاجتماعية آخذة في الكثافة ، وكان من شأن ذلك أن يعدد الأدوار الاجتماعية وينوعها ويجعلها متوافقة ومعتمدة علي بعضها البعض ، ولم يعد من الممكن مجرد التفكير في أن تتحول الأمة الإسلامية إلي أمة مقاتلة ، بل بات من المؤكد أن فكرة الأمة المجاهدة هي الأكثر قبولاً وتواؤماً مع تطورات المجتمع ومستجداته ، ووقف وراء ذلك علي الأرجح عاملان :

### ❖ العامل الأول : تطور الدولة الإسلامية :

تطورت الدولة الإسلامية بشكل شامل وفعّال ، ويمكن حصر اتجاهات هذا التطور في الآتي :

– التطور الجغرافي والعمراني :

في عصر الخلافة الراشدة توسعت الدولة الإسلامية وامتدت حدودها لتشمل مناطق وأقاليم جديدة في قارتي أسيا وأفريقيا ، وصاحب هذا التطور الجغرافي تطور عمراني ، حيث تعددت حواضر الدولة ومدنها الهامة ، وباتت هذه الحواضر والمدن نموذجاً لمدنية الإسلام وحضارته، وتنوعت العناصر والأعراق البشرية التي انضوت تحت لواء الدولة الإسلامية ، وتنوعت معها الموروثات الثقافية والحضارية لتلك العناصر والأعراق ، ولكنها انصهرت جميعها في بوتقة الإسلام ، لتنتج إفرازاً جديداً كان هو الذات الحضارية للإسلام ومنطقه الثقافي الخاص .

– التطور الجيوستراتيجي :

كان من شأن الامتداد الجغرافي الذي طرأ علي إقليم الدولة الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة أن يؤدي إلي نشوء وضعين علي النحو التالي :

* تعدد منطلقات الحركة وحمل الدعوة في اتجاهات عديدة في قارتي أسيا وإفريقيا ، وبالفعل لم تتوقف الدعوة الإسلامية عن الانتشار في هذه الاتجاهات سلماً أو فتحاً خلال العهد الأموي الذي شهدت فيه الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها .

* تعدد نقاط التماس ومحاور الاحتكاك بالكيانات الأخرى المجاورة في قارتي أسيا وإفريقيا وأوربا ، وتمثلت تلك النقاط والمحاور في حدود مجاورة أو ثغور ، وكانت دائماً مصدر قلق وإزعاج كما كانت في ذات الوقت منطلقات للحركة كما سبق الإيضاح .

وكانت تلك الأوضاع الجغرافية مدعاة للتخطيط الاستراتيجي القائم علي أساس استثمار الامتداد الجغرافي للدولة وتحويله من نقطة ضعف تتمثل في صعوبة الدفاع عن ذلك الفضاء وأعبائه الجسيمة إلي مكمن قوة اقتصادية ومنطلقات للحركة ونشر الدعوة الإسلامية .

وتمثلت أهم مرتكزات الاستراتيجية الإسلامية في ذلك الوقت في تقوية مركز الدولة ، لكي يتمكن من السيطرة علي الأقاليم الممتدة والمترامية ، وكذا مواجهة أية اعتداءات علي الحدود والتماسات القاصية .

وكل ما تقدم كان لابد أن يفضي إلي ضرورة تأسيس جيش قوى ، يتمكن من إخضاع كافة الأقاليم والأطراف للمركز ، وكذا من صد أي هجوم يستهدف الدولة الإسلامية ، وفي حقيقة الأمر أنه لم يكن يخشى علي الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء من مغبة هذين الاحتمالين لقوة الدولة وجاهزيتها لصد أي هجوم وإخضاع جميع حواضرها ، ولكن كان المهم هو الانطلاق لمواصلة نشر الدعوة في كافة الاتجاهات .

وتنوعت حدود الدولة الإسلامية بين الحدود المتمثلة في الموانع الطبيعية مثل الجبال والصحراء والأنهار والحدود المتمثلة في الشواطئ البحرية ، وقد تطلب هذا وذاك تعدد الثغور والمنافذ التي تحتاج إلي تكتيل وتجميع الجيوش بها للدفاع عنها أو الانطلاق منها ، ومنذ ذلك العصر بدأت الدولة الإسلامية في تنويع مخططاتها الاستراتيجية للدفاع عن حدودها ، حيث شملت تلك المخططات الترتيبات البرية الأرضية ، ولأول مرة تشمل الترتيبات البحرية التي لم تفعّل إلا في بداية خلافة عثمان بن عفان علي يد معاوية بن أبي سفيان ، الذي أسس أول أسطول حربي إسلامي ، وتمكن ذلك الأسطول من السيطرة المطلقة علي البحرين المتوسط والأحمر ، حيث أصبحا بحرين إسلاميين تماماً .

- التطور الاجتماعي :

بفعل التوسع الجغرافي للدولة الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة وما صحبه من تعدد وتنوع العناصر والأعراق التي شملها فضاء الدولة ، زخر المجتمع الإسلامي بتركيبة فريدة من الأخلاط البشرية وممتلكاتها من الموروثات الحضارية والثقافية والعادات والتقاليد ،

التي مثلت جميعاً علامات فارقة ينبغي التعامل معها بحرص وروية عند صياغة وتشكيل النظام الاجتماعي للدولة الناشئة ، والتي تنمو بشكل غير معتاد ، وذلك ما فعله الرسول الكريم طيلة حياته علي رأس الدولة .[1]

إلا أنه فيما يتعلق بعصر الخلفاء اختلفت الأوضاع بشكل يمكن ملاحظته ، حيث حدثت انحرافات عن النهج النبوي نمت ببطه منذ عهد الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب ، وأميط اللثام عن وجهها الحقيقي في عهدي الخليفتين الثالث والرابع ، وقادت إلي ما عُرف في تاريخ الدولة الإسلامية بالفتنة الكبرى ، وما أدت إليه من تحول محوري في تاريخ تلك الدولة .

ومهما يكن من أمر فإن القضية الجوهرية التي تستوجب الاهتمام والعناية هي أن التطور الاجتماعي الذي شهدته الدولة الإسلامية ، ابتداءً من عصر الخلفاء الراشدين كان يحمل في ثناياه معضلات كامنة ، أساسها التفرد والخصوصية التي هُذّبت وخُزّنت متراكمة في اللاوعي الجماعي الخاص بالعناصر والأعراق . التي انضوت تحت لواء الدولة الإسلامية والتي كان ينبغي إلا تغيب عن أذهان ولاة الأمور في هذه الدولة ، وكانت تستوجب ضرورة التمسك بالنهج النبوي الحكيم والبديع والبليغ ، الذي يدأب علي تذويب كتل التفرد والخصوصية في بوتقة الدولة الجديدة عبر نسق من القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والإدارية .. الخ ؛ يسانده ويدعمه نمط من المنطلقات الحركية والسلوكية يسيران في اتجاه تغليب الإسلام علي كل ما عداه واستيعابه لكل ما سواه .

وقد قدّر لكل عصر من العصور في تاريخ الدولة الإسلامية أن يحافظ علي الكيان السياسي والاجتماعي للدولة الإسلامية بقدر فهمه لهذه القضية الجوهرية ومدى تمكنه من معالجتها

[1] . يمكن الرجوع إلي الجزء السابق من هذا المجلد .

، واستعداده للمضي بعزم ومضاء في سبيل الحفاظ علي ذلك الكيان عبر نسق القيم ونمط السلوكات ، التي تعمل علي تغييب الفروق والخصوصيات ، وتغليب المساواة والقواسم المشتركة للإسلام الذي ينبغي أن يستوعب الجميع !! .

يضاف إلي ما تقدم تعدد شرائح المجتمع الإسلامي وتداخلها ، وزيادة وتيرة التفاعلات الاجتماعية ، وتنوع إفرازات تلك التفاعلات ، وتعقد شبكة العلاقات الاجتماعية ، وبروز الجديد من الظواهر الاجتماعية داخل النسيج الاجتماعي الإسلامي ، وكانت نتائج ذلك انبعاث مستجدات مهمة ومؤثرة كان ينبغي أن تعالج بدقة وفهم وصرامة ، ولكنها تُركت لتفرز سموماً أخذت تنخر ببطء في عظام المجتمع الإسلامي وجاءت آثارها بعد حين .

وبالرغم من أن الجيش كان بعيداً طيلة فترة الخلافة الراشدة عن آثار التطورات الاجتماعية ، إلا أنه لم يظل بمنأ عن تلك الآثار في الفترات التالية في العصرين الأموي والعباسي ، بل إن تلك الآثار اندفعت بقوة وعنف إلي الجيش لتبسط فيه يد العبث والتخريب ، وسنأتي علي تفصيل ذلك في حينه .

– التطور الاقتصادي :

ومن الناحية الاقتصادية التي تتعلق بالموارد المتاحة للدولة الإسلامية الناشئة في مقابل الحاجات المتنامية للمجتمع الإسلامي المتطور اجتماعياً وسكانياً ، برزت ثلاثة مستجدات كان لها آثارها في تحديد علاقة الجيش بالدولة والحضارة الإسلامية ، وكذا بمأثورة " الأمة المجاهدة " :

• زيادة موارد الدولة وتعدد مصادرها : لقد حدثت طفرة نوعية وكمية فيما يختص بموارد الدولة الإسلامية نتيجة التوسع الكبير والمتسارع في مساحتها ، وعلي الجهة المقابلة ارتبط بما تقدم زيادة في أعباء الدولة ونفقاتها .

* بروز الحاجة إلي إنماء الموارد وتطويرها والبحث عن موارد جديدة : منذ نشأتها والدولة الإسلامية صاغت لنفسها نموذجاً في الإنماء والإحداث مستنبطاً من إطار مرجعي ثابت ركين تمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وأضيف إلي ذلك الإطار نموذج عملي تجريبي تمثل في دولة الرسول الكريم ودولة الخلفاء الراشدين ، وهذا النموذج وضع أدوات إنماء موارد الدولة وتطويرها والبحث عن موارد جديدة ،[1] ، وإضافةً إلي الضرورات الشرعية المستمدة من الإطار المرجعي ، كان هناك كذلك الضرورات الموضوعية التي فرضتها التطورات الاجتماعية ، التي مرت بها الدولة وأوجبت عليها مواجهة الاحتياجات المتزايدة لأفراد المجتمع، والتي أدت بالتالي إلي زيادة أعباء الدولة وتضخم نفقاتها .

* تزايد الأعباء الاقتصادية للجيش : في حقبة الخلافة الراشدة تزايدت الأعباء الاقتصادية للجيش نتيجة كبر حجمه ، وتواصل فتوحاته وبعثاته في سبيل حمل الدعوة وتوصيلها إلي شعوب الأرض ، وقد استلزم ذلك ضرورة البحث عن موارد لمواجهة تلك الأعباء ، ومن ثم زادت أعباء الدولة وتبعاتها الاقتصادية ، وحدا بها ذلك إلي التوجه بقوة نحو الإنماء الاقتصادي لمواردها والسعي الدائم لاكتشاف موارد جديدة .

- التطور النظمي والتنظيمي :

في حقبة الخلافة الراشدة تطورت الدولة الإسلامية نظمياً وتنظيمياً في سبيل المؤسسية والاستقرار . ويمكن متابعة ذلك علي النحو التالي :

* علي المستوى النظمي : ترسخت أركان المنهاج الإسلامي [ النظام السياسي ] ، وتوطدت عملياته وتفاعلاته مع المجتمع ، واستقر نموذج الإسلام في السياسة والحكم .[2]

---

[1] . بخصوص نموذج الإسلام في الإنماء الاقتصادي يمكن الرجوع إلي : موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الثاني ، الاقتصاد الإسلامي ونموذج الإسلام في الإنماء الاقتصادي ، الجزء الثاني ، نموذج الإسلام في الإنماء الاقتصادي .

[2] يمكن الرجوع إلي : موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الأول ، السياسة والحكم في الإسلام ، الجزء الثاني: نحو صياغة نظرية سياسية إسلامية معاصرة .

* علي المستوى التنظيمي :كذلك تحددت معالم نموذج الإسلام في الإدارة العامة والإدارة المحلية في شكل نظم وتنظيمات ، فبرز النظام الإداري الإسلامي ، وبرز كذلك نظام الإدارة المحلية في الأقاليم والأمصار[1] ، كما أن التنظيم ذاته تطور بشكل جيد وفعّال خلال عصر الخلفاء بوصفه عنصراً من عنصر الحضارة الإسلامية .[2]

كانت نتائج التطورات المذكورة قوية وحاسمة ، وذلك لاتسام تلك التطورات بالعمومية والشمول ، فقد شملت كافة نواحي الحياة وعمت جميع نشاطات المجتمع ، وإذا قصرنا نتائج هذه التطورات علي الجيش الإسلام لوجدناها تتحدد في الآتي :

* لقد برز للجيش الإسلامي دور أكثر تخصصاً وحرفية ، والحرفية لا تعنى أنه جيش مهنته القتال ، ولكن تعنى أنه جيش مدرب ومعد لخوض الحروب ويخبر فنونها ، وقد أضفى كل من التخصص والحرفية علي الجيش مزيداً من المؤسسية والتنظيم ، إلا أن الملاحظ أن الأسس الشرعية لوجود الجيش وأهدافه ومقاصده ، وكذا دوره واعتماده كآلية من آليات إدارة الصراع العضوي ، كل ذلك لم يتغير عما كان عليه الحال في دولة الرسول الكريم .

* لقد بات من الضروري بفعل التطورات سالفة الذكر طرح فكرة توزيع الأدوار ، وتخصيص جزء من أفراد المجتمع تتحدد مهامهم في تسيير أمور المجتمع ، بما يضمن استمرار الحياة ، وتلبية حاجات ومتطلبات الجيش حتى يتمكن من مواصلة مهامه وتحقيق أهدافه .

### ❖ العامل الثاني : بروز الطروحات الإسلامية [ اجتهادات الخلفاء إزاء مستجدات الحياة ] :

---

[1] . يمكن الرجوع إلي : موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الثالث ، الإدارة العامة والمحلية في الإسلام ، الجزء الأول، الإدارة العامة في الإسلام .

[2] . يمكن الرجوع إلي الجزء الأول من هذا المجلد .

تحدثنا عن العامل الأول الذي وقف وراء ترسيخ فكرة " الأمة المجاهدة " في عصر الخلفاء ، وهنا نتناول العامل الثاني الذي وقف وراء ترسيخ هذه الفكرة ، وتمثل هذا العامل في البدايات الأولى لبروز الطروحات الإسلامية ، والتي جاءت تحديداً من اجتهادات الخلفاء الراشدين ومستشاريهم من كبار الصحابة والتابعين فيما يتعلق بمستجدات الحياة ، وقد تمحورت تلك الاجتهادات في محورين نتناولهما فيما يلي :

- مؤسسية وتنظيم الجيش :

في عصر الخلافة الراشدة وتحديداً من خلافة عمر بن الخطاب ، بدأ التعامل مع الجيش الإسلامي كمؤسسة وكتنظيم له قوانين تحكم حركته وتسيّر جزئياته وتقعّد تفاعلاته وعلاقاته مع كافة أجزاء ومنظمات الدولة ، وكان ديوان الجند هو المؤسسة والتنظيم الذي قام بالمهام المذكورة ، وكان هذا الطرح الذي تحول من الطور النظري إلي واقع عملي بمثابة تفاعل وتعاطٍ مع التطورات - التي سبق رصدها - وفرضت تطوير الجيش ، وسوف نعكف علي تفصيل هذه الجزئية في موضع لاحق .

- ترسخت مأثورة الأمة المجاهدة :

المحور الثاني للطروحات التي قدمها الخلفاء الراشدون بخصوص الجيش الإسلامي تمثل في ترسيخ " مأثورة الأمة المجاهدة ، حيث أقر الجميع بأن الجهاد كصراع عضوي فرض كفاية حتى في حالة الاعتداء علي المسلمين ، والجهاد كعطاء فعّال فرض عين حتى في حالة السلم .

**ثانياً : تنظيم الجيش :**

إنتهينا فيما مضى إلي أن الجيش في عهد الرسول الكريم كان بالمعنى المتعارف عليه ، من حيث أسسه التي قام عليها ، ودوره في الدولة والحضارة الإسلامية ، وأهدافه ومقاصده التي ينبغي الوصول إليها ، إلا أن التطورات التي دخلت علي الجيش في عصر الخلفاء

الراشدين ، قد تمركزت فيما يختص بالمسائل والدقائق التنظيمية ، التي كان هدفها ضبط مفردات وجزئيات الجيش وإحكام تفاعلاته وتحركاته ، انطلاقاً من التطورات التي دخلت عليه ، من حيث الحجم وتعدد المهام ، الناتج عن اتساع حركة الفتوحات ، وامتداد رقعة الدولة ، وكثرة الحدود والثغور ، وقد تطلب كل ذلك أن يكون هناك جيش دائم ، مرابط يتسم بالجاهزية والاستعداد للدفاع عن حمى الدولة وتسيير البعثات إلي شعوب الأرض لحمل الدعوة وتبليغها، وهذا يختلف عن الجيش في عهد الرسول الكريم الذي كان يُؤذَن بتجميعه عندما يدعو داعي الجهاد ، فجيش الرسول الكريم كان يلتئم عند اللزوم ، أما جيش الخلفاء فكان دائم الرباط ملازماً للتخوم ، إلا أن الجيش في عهد الخلفاء اختلف في الكثير من الأمور التنظيمية ، وكذا شارك في التفاعلات الاجتماعية والسياسية داخل الدولة الإسلامية ، مما يجعل وضعية الجيش خلال هذه الحقبة التاريخية جديرة بالدراسة والبحث :

❖ أساس الجيش من الناحية الصراعية :

بالنسبة إلي طبيعة الجيش الأكثر تخصصاً والأشد عمقاً وهي الخاصة بالظاهرة الصراعية ، فقد حدث العديد من التطورات علي موقع الجيش إزاء هذه الظاهرة التي يمثل أداتها الشرعية والرسمية الوحيدة ، ويمكن رصد تلك التطورات فيما يلي :

- الجيش أداة لإدارة الصراع العضوي :

كان الجيش في عهد الخلفاء الراشدين كما كان في عهد الرسول الكريم أداة لإدارة الصراع العضوي ، ولكن هذه الأداة اختلف موقعها من الظاهرة الصراعية خلال العهدين ، ففي عهد الرسول الكريم كان الجيش كأداة من أدوات إدارة الصراع العضوي يمثل خط الدفاع الأول وخط الهجوم الأخير ، ولا يُلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى ، أما في عهد الخلفاء

فقد اقترب الجيش أكثر من خط الهجوم الأول ، ولم يعد خط الدفاع الأخير الذي لا يُلجأ إليه إلا عند الضرورة ، وذلك ناتج عن أسباب سوف نوضحها بعد قليل .

- الجيش وإخضاع إرادة الآخر :

الأمر الثاني فيما يتعلق بعلاقة الجيش بالظاهرة الصراعية ارتبط باستخدام الجيش كأداة لإخضاع إرادة الآخر ، ولم يثر الاختلاف بين عهد الرسول الكريم وعهد الخلفاء الراشدين بخصوص كون الجيش أداة لإخضاع إرادة الآخر ، ولكن ثار الاختلاف فيما يتعلق بطبيعة وكنه الآخر ، وذلك ما يمكن إيضاحه فيما يلي :

* الآخر في عهد الرسول الكريم كان يتمثل في القبائل والتجمعات البشرية العربية ، ولم يكن الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم يقصد تلك القبائل في ذاتها ، ولكن كان يقصد زعماء تلك القبائل الذين يحولون دون وصول الدعوة إلي أفرادها ، وكان هؤلاء الزعماء لا يتجاوزون مجموعة من الأشخاص ومن حولهم من الأتباع ، وبالرغم من قوة العلاقة بين زعماء القبائل وأفرادها ، إلا أنهم في حالة صدامهم مع الجيش الإسلامي ، لم يكونوا يمثلوا إلا أنفسهم أو علي الأكثر أسرهم ، وكان بقية أفراد القبيلة يصبحون وجهاً لوجه مع حملة الدعوة الجديدة ودعاتها .

* في حين كان الآخر في عهد الخلفاء يتجسد في كيانات سياسية قومية ذات طبيعة نظمية وتنظيمية ، ترتكز علي مقدرات ومكنات حضارية وثقافية واقتصادية ذات خصوصية ، وتملك جيوشاً قومية قوية ومتمرسة علي القتال والصراع ، وكان علي الجيش الإسلامي أن يصارع الجيوش المقابلة ثم الزعامات والرموز السياسية ، فيهزم الجيش ويزيح الرموز والزعامات ، حتى يقدّر له توصيل الدعوة إلي المخاطبين والمستهدفين ، وهم الشعوب التي كانت ترزح تحت نير استعباد وقمع تلك الزعامات والرموز ، ولم يكن الآخرون

يمثلون أنفسهم كزعماء قبائل العرب في عهد الرسول الكريم ، ولكن كانوا يمثلون وراءهم تكتلاً صلباً من الكيانات القوية نظمياً وتنظيمياً ، والمرتكزة علي أواصر ووشائج قومية وعنصرية متينة ، يدعمها رصيد وافر من الميراث الحضاري والثقافي المميز ، وكان ذلك شأن الإمبراطوريتين العظميين في ذلك الوقت ، الإمبراطورية الفارسية الساسانية والإمبراطورية الرومانية البيزنطية وغيرهما من الكيانات .

فالآخر إذن في عهد الرسول الكريم كان زعماء القبائل ومن حولهم من الأتباع الذين كان يمكن أن يتفرقوا في أية لحظة عندما يستشعرون قوة البعثة الإسلامية ، ومن ثم يمكن النفاذ إلي المخاطب والمستهدف الأساسي والأصيل بالدعوة ، أما الآخر في عهد الخلفاء الراشدين فكان جيشاً نظامياً قوياً ومحترفاً ، ثم قادة وزعماء ثم نظاماً سياسياً ، ثم دولة عريقة ذات حضارة وثقافة لها جذور وامتدادات قومية عنصرية ، ولم تكن إزاحة كل تلك الحواجز بالأمر اليسير حتى يمكن النفاذ إلي المخاطبين بالدعوة .

وعليه فقد كان علي الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء أن يكون أكثر تواؤماً واستعداداً لطبيعة الصراع العضوي وطبيعة وقوة إرادة الأخر ، ومن شأن ذلك أن يضفي علي الجيش سمات خاصة ومقدرات غير معتادة ، كما كان من شأنه كذلك أن يجعل الجيش الإسلامي دوماً أقرب إلي الصراع منه إلي المهادنة ، وذلك ما سوف نوضحه في البند التالي .

الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء أقرب إلي الصراع من المهادنة :

استخلاصاً مما تقدم وبمتابعة تطور الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ، ومقارنته بظروف ووضعية الجيش في عهد الرسول الكريم لوحظ أن الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء كان أقرب إلي الصراع منه إلي المهادنة ، وليس مبعث ذلك أن الجيش الإسلامي كان ميالاً إلي العنف والصراع ، ولكن الأسباب الحقيقية وراء ذلك تكمن فيما يلي :

* إن وجود الرسول علي رأس الدولة ، وقيادته للكثير من البعثات الإسلامية — كما سبق الإيضاح — كان له أثره في جنوح الجيش الإسلامي للمهادنة وتلمس كافة السبل ، من أجل توصيل الدعوة سلماً دون خوض الصراع ، وغالباً ما كانت تلك المساعي النبوية الكريمة تكلل بالنجاح ، فكانت القبائل العربية بالرغم من كفرها وعزوفها عن الدخول في الإسلام تجلّ الرسول الكريم وتحسب له عظيم خلقه وسمو مكانته وعراقة أصله بين العرب . وما كان كفر العرب وشركهم إلا مكابرة واستنكافاً .

* كان الآخر في عهد الخلفاء الراشدين علي قدر عظيم من القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية ، مما جعله أكثر جبروتاً وطغيــاناً وميلاً إلي الصراع ، ورفضه للدعوة بشكل مطلق. ثم الحيلولة دون وصولها إلي الشعوب المخاطبين بها .

* كذلك كان الآخر يرغب في الصراع مع المسلمين بل وتحرش بهم ، وطمح في القضاء عليهم ، عندما استشعر قوتهم وأحس بخطر الدعوة علي كيانه ومقدراته .

* إن لجؤ المسلمين إلي الصراع مع الآخر كان عملاً وقائياً لدرء الخطر الماثل قبل أن يحيق بالدولة الإسلامية والدعوة إلي دين الله ، وبصفة خاصة أن المسلمين كانوا قد استشرفوا ميل الآخر إلي العدوان ، ورغبته في التعدي علي المسلمين والقضاء عليهم .

### ❖ أهداف الجيش :

التطورات – التي سبق وأوضحناها — قادت إلي تعديد وتعميق أهداف الجيش في عهد الخلفاء الراشدين ، والتوسع في الأهداف يعنى في ذات الوقت الاختلاف في طبيعة الجيش الإسلامي من حيث الحجم والتنظيم والجاهزية والفعالية ، وكل ذلك جعل الجيش الإسلامي الأكثر تأهيلاً في تلك الفترة ، لأن يكون أقوى جيش على ظهر الأرض ، هذا إذا ما أضيفت إلي ما سبق من مقدرات عنصر العقيدة كأهم عناصر ومقومات قوة الجيش

الإسلامي وقدرته الفائقة علي تحقيق أهدافه ومقاصده ، ويمكن تناول أهداف الجيش فيما يلي :

- الدفاع عن الدولة الإسلامية :

أوضحنا سلفاً التوسع الذي طرأ علي رقعة الدولة الإسلامية نتيجة الفتوحات التي تمت في عهد الخلفاء الراشدين ، وأدت هذه الامتدادات إلي طول حدود الدولة وتنوع أشكالها ، كذلك عرفت الدولة الإسلامية لأول مرة السواحل البحرية وما تتطلبه من مستلزمات دفاعية ذات طبيعة خاصة لم يألفها المسلمون من قبل ، وكان لكل ما تقدم أثره البالغ في تطوير هدف الجيش الإسلامي المتمثل في الدفاع عن الدولة ، والذي سار في اتجاهات عدة :

* الاتجاه الأول : حيث استلزم طول حدود الدولة وتنوعها بين الصحاري والجبال والسهول والمرات المائية ، أن تكون ثمة قوات مرابطة ودائمة لحراسة هذه الحدود والحيلولة دون اختراقها والتعدي علي حمى الدولة الإسلامية . ومن ثم عُرف الجيش النظامي الدائم .

* الاتجاه الثاني : حيث استلزم الاتجاه السابق إقامة الحصون والقلاع علي الحدود وفي الثغور . ونشأت من أجل ذلك المدن الحدودية والمعسكرات . والطرق ، والمعسكرات علي الطرق للإمداد والتموين ، وقد برع المسلمون في شئون الإمداد والتموين بشكل ملفت .

* الاتجاه الثالث : حيث ابتكر المسلمون نوعيات من الأسلحة تتواءم مع طبيعة الدفاع ومقتضياته عن الحدود بجميع أشكالها الصحرواية والجبلية والسهلية والمرات المائية .

* الاتجاه الرابع : حيث بدأ المسلمون لأول مرة يتعاملون مع السواحل البحرية علي البحر المتوسط في سوريا ومصر وطرابلس وتونس ، إضافةً إلي سواحل البحر الأحمر ، ومن

ثم شرعوا في بناء أسطول حربي في عهد عثمان بن عفان ، وبمجهودات معاوية بن أبي سفيان والي سوريا ومساعدة عمرو بن العاص والي مصر ، وسوف نوضح ذلك تفصيلاً في حينه .

* الاتجاه الخامس : حيث برعت العسكرية الإسلامية في فنون تحريك الجيوش ونقلها من موقع إلي آخر للنجدة والمساندة والدفاع ، وكذا القدرة علي المناورة ، والتحول السريع والمفاجئ من الدفاع إلي الهجوم بأسلوب يربك الخصم ، وسوف نوضح ذلك في مواضعه .

- حمل الدعوة وتوصيلها :

لقد بات هذا الهدف أكثر صعوبة من ذى قبل ، فالدعوة قد تجاوزت القبائل والأحياء العربية إلي إمبراطوريات قوية في ذاتها أو في مستعمراتها ، ونظراً لأهمية التطور الذي دخل علي هذا الهدف في أهم وأخطر فترات نشر الدعوة الإسلامية في التاريخ الإسلامي ، فقد رأينا تفصيله من خلال الآتي :

* مهمة الجيش الإسلامي في نشر الدعوة الحمل والتوصيل :

شهدت فترة الخلافة الراشدة أهم فترات نشر الدعوة الإسلامية في قارتي أسيا وأفريقيا ، وقد قام الجيش الإسلامي بدور يعتد به ويعّول عليه في نشر الدعوة خلال هذه الفترة . ولم يكن الجيش الإسلامي يعمد إلي نشر الدعوة وفق ما علق في أذهان بعض البحاثة والعامة عبر الغزو ثم الإجبار علي الدخول في الدين الجديد ، ولكن اختلف الأمر عن ذلك تماماً ، فالجيش الإسلامي بمعناه – الذي سبق وأوضحناه – لم ينشر الدعوة أبداً بل حملها وأوصلها فقط ، أما التبليغ فقد كان مهمة الدعاة ، وعليه فعملية نشر الدعوة التي تنسب إلي الجيش تتكون من ثلاثة عناصر قام الجيش باثنين منها وترك العنصر الثالث للدعاة ، وذلك ما سيتضح من التحليل التالي :

○ حمل الدعوة : كان حمل الدعوة الإسلامية من خلال الجيش يعنى وجود الدعاة ممن فقهوا الدين قرآناً وسنةً ، عباداتٍ وأحكاماً ، حدوداً ومعاملات في ثنايا الجيش ، إذ كان الدعاة علي صفتين : الصفة الأولى : صفة المقاتلين ، والصفة الثانية : صفة المرافقين ، وقد رأى بعض الخلفاء عدم إشراك الدعاة في القتال لاستشهاد العديد منهم في بعض المعارك التي خاضها الجيش الإسلامي ، وفي ذلك تأثير بليغ علي أدوات التبليغ التي يصعب تعويضها .

○ توصيل الدعوة : أما عن توصيل الدعوة عن طريق الجيش فكان يعنى إجرائين : الإجراء الأول : تبليغ الدعوة إلي أولياء الأمور أو الحكام المسئولين عن الشعوب ، فإذا أجابوا بقبول الدعوة ، أتاحوها للشعوب التي تحتهم ، وأتاحوا للمسلمين الفرصة لتوصيلها وتبليغها ، الإجراء الثاني : إذا رفض أولياء الأمور الدعوة وكانوا حائلاً دون توصيلها إلي شعوبهم ، لزم إزالتهم للنفاذ بالدعوة إلي الشعوب ، المخاطب الأساس بها ، وإزالة أولياء الأمور تعنى إزالة عدة عقبات أولها الجيوش ، وثانيها الدول والكيانات السياسية والنظم والتنظيمات التي تتبعها، وثالثها الحكام والسادة [ أولياء الأمور ] ، ورابعها الموروثات الحضارية والثقافية وبالذات ذات الطابع الديني ، وبعد ذلك تكون عملية التوصيل قد بلغت نهايتها بوصول الدعوة إلي الشعوب وهنا يبدأ الدعاة في مباشرة مهمتهم .

○ تبليغ الدعوة : وهذه مهمة الدعاة ، حيث يتولون مخاطبة الشعوب مباشرة وتعريفهم بالإسلام ، والدعاة يقومون بهذه المهمة كدعاة حيث تنتهي علاقتهم بالجيش الإسلامي ، فإذا كانوا مرافقين فصفتهم ثابتة ، أما إذا كانوا مقاتلين فينبغي تخليهم عن هذه الصفة تماماً حتى لا يرهبون الناس ويجبرونهم على الإسلام ! .

* حمل الدعوة [ تفصيل ] :

مهمة الجيش الإسلامي هي مهمة عقيدية بالأساس ، فهو يدافع عن العقيدة كمعتقد راسخ في العقول والقلوب وكحقيقة نظامية في شكل دول وكيانات ، وهذا الدفاع يأتي ضد الاعتداءات والتعديات الخارجية أو التشققات وحركات الخروج الداخلية ، إضافةً إلي ما تقدم فالجيش يحمل الدعوة الإسلامية ، ويتحرك بها في الاتجاه الذي يراد توصيلها إليه ، ليتولى الدعاة تبليغها ونشرها .

وحمل الدعوة عن طريق الجيش يعنى أن ثمة أدوات وآليات مهمتها تبليغ الدعوة ونشرها بأساليب خاصة تسير في ركاب الجيش وترافقه ، وربما تتبعه وتعقب وصوله إلي الجهة المقصودة ، وهذه الأدوات والآليات هم الدعاة الذين أُعدوا خير إعداد وهُيّئوا أحسن وأمثل تهيئة ، حتى يكونوا أحسن أسوة وأصلح قدوة ، وأساليبهم في التبليغ معروفة تتدرج في منطلقات متتابعة تعتمد علي البسط والتبسيط ، والترغيب دون الترهيب ، لا تعرف الملل أو الكلل . بل تسلك الأناة والصبر . ولا تبتغي غير وجه الله وإعلاء دينه .[1]

وعن صفة الدعاة وهيئتهم في الجيش الإسلامي ، فهم إما أن يكونوا مقاتلين في صفوف الجيش ، وإما أن يكونوا مرافقين يتولون مهامَ دعوية داخل الجيش للإرشاد وحث المقاتلين وتشجيعهم ، وهنا تجدر الإشارة إلي أن الدعاة في عهد الرسول الكريم كانوا علي رأس البعثات ، التي هي سرية أو جزء من الجيش ، فكان أمير السرية هو الداعية الأول ومعه معاونون . أما في عهد الخلفاء الراشدين فقلما حدث ذلك ، إذ أن قيادة أو إمارة الجيش كانت قيادة متخصصة أي عسكرية بحتة ، أما الدعاة فكانوا إما مقاتلين أو مرافقين .

[1] . لتفصيل أكثر يمكن الرجوع إلي : موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد العاشر ، الدعوة إلي الإسلام ، الجزء الأول ، مفهوم الإسلام للدولة الداعية .

كذلك كان يمكن للدعاة أن يتعقبوا الجيش أي يصلون في أثره ، وبعد أن يتمكن من إزالة العوائق والحواجز التي تعوق وصول الدعوة إلي الشعوب المقصودة ، وفي هذه الحالة وفي كافة الأحوال كان يتم اختيار الدعاة بما يتواءم مع طبيعة البلاد التي يقصدها الجيش حاملاً الدعوة ، كأن يعرفون طبائع أهل تلك البلاد وخصائصهم ولغاتهم وموروثاتهم الحضارية والثقافية ، وغير ذلك من الأمور التي تسهل عملية الاتصال والتواصل مع شعوب تلك البلاد ، وتقديم الإسلام بالشكل اللائق والمناسب ، ولا يعتبر توافد الدعاة في أعقاب الجيش وعلى أثره إعفاءً له من مهمة حمل الدعوة ، لأن الجيش في هذه الحالة إذا لم يكن قد اكتنف الدعاة وإنتظمهم في ثناياه ، فهو قد مهد لهم الطريق وسهل مهمتهم في الوصول إلي المخاطبين ومواجهتهم بشكل مباشر .

* توصيل الدعوة [ تحليل ] :

لقد حمل الجيش الإسلامي آليات وأدوات الدعوة في ثناياه أو في أعقابه ، ثم بات لزاماً عليه أن يوصلها إلي المخاطبين المستهدفين ، وهذه هي المهمة الثانية التي ينبغي عليه أن يتولاها فيما يختص بنشر الدعوة الإسلامية ، وتوصيل الجيش للدعوة عملية معقدة وتتكون من مراحل عديدة ، من الصدامات المتتالية التي يخوضها الجيش حتى ينتهي بالدعوة إلي الشعوب المخاطبة بها ، والصدامات المتتالية هي سلوك يسلكه الجيش من أجل إزالة العوائق والحواجز العديدة التي تحول دون وصول الدعوة وذلك عبر إدارة الصراع العضوي ، وتتجسد العوائق والحواجز التي علي الجيش أن يصارعها عضوياً أو فكرياً في الآتي :

○ الصراع مع جيوش قوية :

شهدت فترة الخلافة الراشدة أهم فتوحات الدولة الإسلامية وأخطر مراحل انتشار الدعوة الإسلامية ، فقد دخل الجيش الإسلامي في صراع عضوي عنيف مع أكبر وأقوى جيشين

لأعظم وأعتى إمبراطوريتين في التاريخ المدّون علي الإطلاق ، الإمبراطورية الفارسية الساسانية والإمبراطورية الرومانية البيزنطية ، الأولى في ذاتها ، والثانية في مستعمراتها ثم في ذاتها . لقد تعددت الصدامات بين هذين العملاقين ، ولم ينل أحدهما من الآخر ، فقد كانت قوتهما هائلة ومقدراتهما الاقتصادية كبيرة ، ورصيدهما الحضاري والثقافي وفير ومشهود ، فمن يمكنه أن يباري الأعظمين ! ! .

لقد تقدم الجيش الإسلامي المتواضع عدة وعتاداً القوى عقيدة وإيماناً ، تقدم ذلك الجيش ليزيح أول العوائق والحواجز ، ولكنه في ذات الوقت أهمها وأعتاها ، كانت قوة جيوش فارس والروم لا يُستهان بها . ولكنها كانت هينة أمام قوة الجيش الإسلامي الذي قدّر له أن ينه كيان الإمبراطورية الفارسية من الوجود ، وأن يحرر أهم مستعمرات الإمبراطورية الرومانية في شرق المتوسط وشمال أفريقيا ، وأن يهدد كيان الإمبراطورية ذاته .

وكانت نهاية الصراع العضوي بين الجيش الإسلامي وجيوش الفرس والروم هي تبدد الأول، وانسحاب الثاني من الشام ومصر وشمال أفريقيا إلي غير رجعة ، ومن ثم كانت الحلقة التالية من الصراع .

○ الصراع مع دول ونظم وتنظيمات :

بعد انتهاء الصراع العضوي بين الجيوش استجد صراع من نوع آخر . صراع بين جيش لا يفهم إلا لغة الصراع العضوي ومنطق القوة وبين بقايا الكيان المنهار ، بقايا دولة بنظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. الخ ، وكذا تنظيماتها الإدارية ، فكيف يمكن للجيش الإسلامي أن يتجاوز هذا العائق ويتعامل مع هذه البقايا ، لقد تعامل الجيش الإسلامي بمنطق آخر غير منطق القوة ، وبلغة مختلفة سوى لغة الصراع العضوي ، لقد أفسح الجيش الطريق في مهارة وحكمة لأهل الاختصاص وذوى الشأن ، الذين يفهمون في الإدارة والسياسة لكي يديرون شئون هذه البلاد ويدبرون أمور أهلها ، وبدأ التعامل مع

تلك النظم والتنظيمات على أنها الأدوات والآليات المبدئية للإدارة والسياسة ، حتى يتم استدعاء الأدوات والآليات الإسلامية النابعة من الأطر المرجعية الإسلامية ، ومن خلال هذا التدرج تطورت الأمور والأوضاع ، وتم التمكين للأنظمة والتنظيمات الإسلامية دون عنف أو ترويع .

○ الصراع مع الحكام والسادة والمتنفذين :

كانت الحلقة التالية هي حدوث مواجهة بين الجيش الإسلامي وبين الحكام والسادة والمتنفذين من أهل البلاد المفتوحة ، وأفضت تلك المواجهة إلي نتائج عديدة ، فمن هؤلاء من دخل الإسلام ولو على مضضٍ في البداية ، ومنهم من رفض الدعوة وآثر مواصلة الصراع العضوي وقضى نحبه ، ومنهم من آثر الفرار خارج البلاد ، وعندئذ أصبح الطريق مفتوحاً أمام الدعوة الإسلامية لتصل مباشرة إلي الشعوب ، ويتم الخطاب المباشر بين الدعاة الذين سيتسلمون مهمتهم من هذه اللحظة التاريخية ، والشعوب الراغبة في التعرف علي الدين الجديدة التواقة إلي التحرر والإنعتاق من نير الاستعباد والسيطرة .

* تبليغ الدعوة [ مواصلة ] :

من هنا استلم الدعاة مهمتهم وبدأوا يباشرون أعمالهم وأسدل الستار على دور الجيش وتحول إلي دور آخر ، هو دور المدافع عن الوضع الجديد المرسخ له والداعي إلي الأمن والاستقرار ، وخلال هذه المرحلة الجديدة كانت هناك جملة من التدابير كان على الدعاة القيام بها ، وهي تتمثل في الآتي :

○ وضعية الشعوب المحررة :

وضعية الشعوب المحررة التي أعتقها المسلمون ورحل عنها قاهروها وجلادوها ، وضعية معقدة ومركبة ، فلأول مرة يصبح هؤلاء أحراراً ، ويملكون حرية الاختيار في أهم وأثمن ما

يمكن أن يمتلكه الإنسان وهو المعتقد ، لقد قدّر لهم أن يروا سادتهم وكبراءهم يُذلون كما أذلوهم من قبل ، ولكن المهم أنهم في مفترق طرق وعليهم تحديد توجههم ومسارهم .

○ توزيع الأدوار بين الجيش والسياسة :

أما عن الطرف الإسلامي فكانت هناك عملية بديعة لتوزيع الأدوار بين الجيش والسياسة ، فالجيش كان عليه أن يتحول إلي دوره – الذي سبق وأشرنا إليه أعلاه – ، وعلى السياسة أن تحل محله ، وهنا يمكن لقائد الجيش أو أميره أن يتولى الإمارة العامة على الإقليم أو الولاية ، ولكنه لا يتولى أمر الدعوة .

وربما يبعث المركز بأمير غير أمير الجيش ليتولى الإمارة العامة علي الإقليم ، ولا علاقة له أيضاً بمسألة الدعوة ، وقد يكون هناك أميران يتقاسمان الولاية العامة ، حيث تصير ولاية كل منهما ولاية خاصة ، يتولى بموجبها مجموعة من المهام مثل إقامة الصلاة ، أو جمع الضرائب ، وفي هذه الحالة أيضاً لا يكون لأي من الأميرين شأن بمسألة وشئون الدعوة ، فالأخيرة لها أصحاب الشأن والتخصص .

○ الدعاة والتبليغ القائم على التخيير والاختيار :

يتولى الدعاة الذين جاءوا بصحبة الجيش أو في أعقابه أمور الدعوة إلي دين الله ، بتعريف الناس على الإسلام وما يحمله من قيم وفضائل ، ويتركون لهم حرية الاختيار ، ولقد حاول الكثيرون التدخل في هذه الجزئية المهمة من جزئيات العلاقة بين الجيش والدعوة الإسلامي ، تلك العلاقة الدقيقة والعضوية والتي ينبغي أن تعالج بدقة وموضوعية كما حاولنا تناولها ، فامتدت إليها يد العبث والحقد فطمستها وعتّمت عليها حتى لا يراها المنصفون ، ويتوهم المتابع أن الجيش فرض الدين الجديد وهو من ذلك برئ .

لقد انتهت مهمة الجيش بإزالته آخر حاجز من حواجز الإحالة بين الدعوة والشعوب ، وفوّض الأمر إلي الدعاة كي يتولوا مهمة التبليغ ، وتصبح العلاقة مباشرة بينهم وبين تلك الشعوب بعد إزاحة الحكام والسادة والمتنفذين ، ومن ثم فالجيش الإسلامي قد تحددت علاقته بالدعوة في كونه حاملاً موصلاً ، أما الدعاة فكان عليهم البلاغ المبين ، وأما الإيمان فأمره إلي الله ، فهو القائل ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .[1]

والقائل ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .[2]

والقائل ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .[3]

والقائل ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .[4]

والقائل ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ .[5]

---

[1] . سورة إبراهيم : ٤ .
[2] . سورة النحل : ٩٣ .
[3] . سورة القصص : ٥٦ .
[4] . سورة فاطر : ٨ .
[5] . سورة المدثر : ٣١ .

○ الصراع مع الموروثات الحضارية والثقافية :

إن علي الدعاة أن يخوضوا أيضاً صراعاً ، ولكنه صراع فكري أدواته الحجة والبرهان وحسن البيان والقدرة على التبيين ، عليهم وهم يدعون إلي دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالمنطق ، أن يصارعوا ما توارثته هذه الشعوب من عادات وتقاليد وأفكار ، فيدحضوا حيثياتها ، ويفندوا وجودها وجدواها ، حتى يتمكنوا من إزالتها من ذاكرة ووعي تلك الشعوب ، ويُحلوا محلها معتقدات الإسلام وقيمه ، فيتم الاختيار علي يقين ، ويتم الإيمان على بينة ، فيرسخ في العقل والقلب معاً وهذا ما كان .

– تأمين الأوضاع الداخلية :

مهمة أخرى من مهام الجيش لحقها التطوير والتعديل ألا وهي مهمة تأمين الأوضاع الداخلية بالدولة الإسلامية ، التي اتسعت مساحتها ، وتعددت أقاليمها ، وتنوعت شعوبها ، وترامت أطرافها ، بما تطلب من المركز أن يكون على قدر من القوة والمكنة بما يجعله يسيطر على كافة الأجزاء .

ويجرنا ما تقدم إلي الحديث عن عملية عدم الاستقرار في ربوع الدولة الإسلامية الناشئة ، فلقد شهدت هذه الدولة حالة من عدم الاستقرار خلال فترة حكم الخلافة الراشدة ، ومن الجدير بنا البحث في هذه الظاهرة في هذا الوقت بالذات ، ثم متابعة دور الجيش إزاءها ، وذلك من خلال طرح الأفكار التالية :

* أسباب ظاهرة عدم الاستقرار في الدولة الإسلامية :

فترة حكم الخلفاء الراشدين تعد مرحلة تأسيس الدولة وإرساء قواعد الحكم والإدارة فيها ، وقد سادت الدولة الإسلامية حالة من عدم الاستقرار انعكست في مظاهر وأشكال شتى ،

وكان هناك أكثر من سبب يقف وراء ظاهرة عدم الاستقرار السياسي في الدولة الإسلامية إبان فترة الخلافة الراشدة ، ويمكن تناول أهم تلك الأسباب في الآتي :

○ الدولة الإسلامية تمثل ظاهرة فريدة في عالم الكيانات السياسية ، فهي دولة غير تقليدية ، فهي لم تنشأ منذ تأسيسها ذات حدود جغرافية ثابتة وإقليم محدد المعالم ، ولكنها كانت دولة دائمة الاتساع والامتداد ، اشتملت على عناصر وأجناس شتى ، وبيئات طبيعية وجغرافية متباينة ، وحضارات وثقافات متنوعة ، وقد خلق كل ما تقدم حالة من عدم التجانس بين أجزاء الدولة ، قادت إلي حالة من عدم الاستقرار ، كان لسمات الرحابة والإنسانية ، التي اتسم بها الإسلام دور يعتد به في التقليل من آثارها ، ولكن لم يقدّر له القضاء عليها ، فكانت تبدو من وقت لآخر ، وفي أماكن مختلفة ، عندما تتجمع الظروف لبعثها .

○ لقد شعرت العناصر غير العربية التي دخلت الإسلام بحالة من عدم الرضا عن وضعهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، حيث أحبطهم تميز العنصر العربي ، مما نمّا لديهم شعوراً بالسخط وقابلية للخروج على النظام السياسي ، انعكس في أشكال وتعبيرات عديدة .

○ كان لحداثة إسلام شق كبير من الأقاليم والولايات دور يعتد به في خروجهم على المركز، انطلاقاً من عدم فهمهم للدين الجديد ، وتجاهلهم للعوامل التي توثق عرى التلاحم بين المسلمين ، وتركيزهم على التباينات والمثالب .

○ أدى ضعف إيمان بعض القبائل العربية الذي اقترن بطموحات كبرائها إلي التفكير في منافسة قريش ولو بالافتراء والكذب والاختلاق ، وهذا ما حدا بالبعض لإدعاء النبوة وبالبعض الآخر للارتداد عن الإسلام .

○ لقد وقف — عن عمد مرة أو غير عمد أخرى — شخصيات إسلامية ذات وزن وراء تغذية بعض عوامل عدم الاستقرار ، وبصفة خاصة في عهدي عثمان وعلي ، من أمثال عمرو بن العاص ومعاوية بن سفيان وغيرهما ، وقد كان ثمة خلاف بين تلك الشخصيات حول صيغ وأشكال ممارسة الحكم في الدولة الإسلامية .

○ بدأ خلال فترة حكم الخليفتين الثالث والرابع عثمان وعلي ، ضعف سيطرة المركز على بعض الولايات الإسلامية المتميزة ، من حيث موقعها داخل الدولة ومقدراتها الاقتصادية والحضارية ، وكذا من حيث شخصية ولاتها مثل مصر التي حكمها عمرو بن العاص والشام التي حكمها معاوية بن أبي سفيان ، وقد أدى ذلك التميز إلي إتاحة الفرصة لخروج أهلها على المركز ، وهذا ما حدث في أخريات عهد عثمان بن عفان .

○ ثارت خلافات بين رجالات الدولة الإسلامية حول توزيع مفردات الحكم وأسس ذلك التوزيع ، وكذا توزيع المقدرات المادية التي أراد البعض الاستحواذ على نصيب كبير منها دون الآخرين ، فقد حاول عمرو بن العاص الانفراد بمقدرات مصر ، وكذلك فعل معاوية بن أبي سفيان في الشام ، مما أدى إلي ضعف المركز ، وتطورت تلك الخلافات إلي صراعات عضوية بين المختلفين .

○ حدثت اختلالات في الأسس التي صاغها الرسول الكريم فيما يتعلق بأصول الحكم والسياسة ، وتم تغييب الكثير من القيم الخاصة بتلك الأسس خلال فترتي حكم عثمان وعلي، مما أدى إلي اختلاط الأوراق ، واختفاء النسق المتفق عليه بين جميع الصحابة حول المشاركة في صناعة القرار وأمور الحكم .

○ برزت بشكل واضح منذ أواخر حكم عمر بن الخطاب النعرات العصيبة والقبلية ، واستشرت بشكل مرضي في فترتي حكم عثمان وعلى التحزبات القائمة على تلك النعرات،

وبات لكل خليفة أنصار ومناهضون ، ولم تعد الأمة يداً واحدة ، بل انقسمت إلي مؤيد ومعارض ، وهكذا انتشرت الفتنة الكبرى في ربوع الدولة الإسلامية .

وفي ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته أن لا يسلط على أمتي عدواً من غيرهم فأعطاني ، وسألته أن لا يهلكهم بالسنين أي بالقحط فأعطاني ، وسألته أن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعني " ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد حبشي ، وإن من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ [ أي الأنياب ] وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة " ، وقال الرسول الكريم " إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب . ولكن في التحريش بينهم " .

* الجيش الإسلامي وعدم الاستقرار السياسي :

لقد وقف الجيش الإسلامي في فترة الخلافة الراشدة من عدم الاستقرار السياسي موقفاً اختلف من حالة إلي أخرى :

○ ففي ظروف الارتداد عن دين الله والخروج عن الطاعة تدخل الجيش الإسلامي بقوة وحزم، حتى قطع الفتنة وفرض الأمن وأعاد الأمور إلي أوضاعها ، ومكّن للدولة الإسلامية ونشر هيبتها في كافة الأقاليم والمناطق .

○ أما في ظروف الفتنة واختلاف المسلمين وتفرقهم إلي شيع وأحزاب ، فكان موقف الجيش الإسلامي موقفاً يحتاج إلي دراسة وتحليل ، حيث انقسم على نفسه ، وأصبح لكل شيعة جيش خاص بها ، وتحاربت الجيوش الإسلامية وقاتل بعضها بعضاً ، وذلك ما سوف نوضحه بعد قليل .

* أمثلة لعدم الاستقرار السياسي وموقف الجيش الإسلامي :

سنصطفي عدة أمثلة لظاهرة عدم الاستقرار السياسي التي انتشرت في فترة الخلافة الراشدة ، وننظر ماذا كان موقف الجيش الإسلامي إزاءها :

○ فهناك حروب الردة التي خاضها الجيش الإسلامي ضد القبائل والأحياء العربية التي ارتدت عن الإسلام ، وشقت عصا الطاعة بعد انتقال الرسول الكريم إلي الرفيق الأعلى وفي فترة حكم أبي بكر الصديق ، وقد تمكن الجيش من القضاء على تلك الفتنة وأبلى بلاءً حسناً ، وذلك راجع إلي توحد كلمة المسلمين في مواجهة هذه الفتنة ، واتفاقهم على تكييفها وعلى آليات مواجهتها لأنها تمس عصب الدين وقوام العقيدة .

○ وهناك مقتل ثلاثة من الخلفاء الراشدين ، حيث قُتلوا ثلاثتهم بأيدي ثلاثة من العناصر الحانقة الحاقدة التي دخلت الإسلام ، ولعلهم من السوقي والغوغاء ولكن كان وراءهم دوافع وبواعث ذات دلالة ، وإزاء هذه الأحداث المؤسفة وقف الجيش الإسلامي عاجزاً ، لأنه لم يتمكن من مواجهة حالة السخط والنقمة ، التي امتلأت بها نفوس الكثيرين ممن دخلوا الإسلام وفوجئوا بالتفرقة بينهم وبين العنصر العربي على غير ما عرفوا وسمعوا عن عصر النبوة الزاهر .

○ وهناك الفتنة الكبرى حيث اقتتل المسلمون ، وتوزع الجيش الإسلامي ليصبح جيوشاً تقاتل بعضها البعض ، وكلٌ كان يعتقد أنه على الحق ، وهنا لم يعد الجيش الإسلامي ذو كيان موحد ، ولم يكن باستطاعته إن كان كذلك أن يواجه هذه الكارثة ، فهي الفتن التي أخبر عنها الصادق الأمين أنها ستكون كقطع الليل المظلم .

- بروز قوة الجيش وجموحها :

في فترة الخلافة الراشدة وبصفة خاصة في عهد عمر بن الخطاب بلغت قوة الجيش الإسلامي أوجها ، وتابع فتوحاته إلي أن وصل إلي أطراف الدولة شرقاً وجنوباً وشمالاً ، وتعددت الجيوش الإسلامية وتحركت في كافة الاتجاهات[1] ، واكتسبت الخبرة والدربة انطلاقاً من احتكاكها بأقوام شتى ، وكان يمكن للجيش الإسلامي في خلافة عمر بن الخطاب أن يصل إلي أبعد مما وصل إليه ، ولكن الخليفة لم يطلق العنان لقيادات الجيش الإسلامي الذين أخذت منهم انتصاراته كل مأخذ ، حيث أصبح أقوى جيوش الأرض على الإطلاق ، إلا أن الجيش الإسلامي أصابه الوهن في أواخر حكم عثمان بن عفان وأوائل حكم على بن أبي طالب وتحوّل – كما سبق الإشارة – إلي عدة جيوش متناحرة ، وكان من المنطقي أن تتوقف عملية الفتوحات ويتأثر نشر الدعوة ولكن إلي حين ، فقد استعاد الجيش الإسلامي قوته مرة أخرى في عهد بنى أمية ، وأضاف إلي الدولة الإسلامية فتوحات جديدة ، ولكن تحت أشكال واعتبارات ذات خصوصية ودلالة ، وسوف نتناول ذلك في حينه .

- إقحام الجيش الإسلامي في شئون السياسة :

لم يكن ثمة اعتراض على تدخل الجيش في الأوضاع الداخلية لإقرار الأمن ، والدفاع عن الهيبة الداخلية للدولة ، وحماية الدين من الفتنة والقضاء عليها وعلى التمرد والعصيان والارتداد ، بل إن ذلك يُحمد للجيش ، ولكن ما حدث بعد مقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان، يعد تحولاً في مهمة الجيش الإسلامي ، وخروجاً على مهامه الشرعية التي حددت له وفق الأطر المرجعية الإسلامية ، حيث أُقحم الجيش في شئون السياسة

[1] . انظر الجزء الأول من هذا المجلد .

والحكم ، واستعان به الفرقاء لحسم الخلافات السياسية التي تحولت إلي صراعات عضوية ، وتصادمت الجيوش الإسلامية في أصعب محنة وأقسى مأساة تمر بها الدولة ، وعن الجيش الإسلامي من خلال هذه الفتنة لنا جملة من الآراء ، نعرضها فيما يلي :

* لقد كان من السهل في هذه الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية تكوين الجيوش ، فقد كان أنصار كل فريق يكونون نواة الجيش ، ثم يشرعون في عملية تعبئة واستنفار تنتهي بتكوين جيش يقاتل في صف الشخصية الرمز .

* لقد كان الجيش الذي تكون موالياً لشخصية إسلامية بذاتها يهدف إلي حسم الخلاف بين الفرقاء لصالح تلك الشخصية ، ظناً منه أن ذلك سوف يقود إلي استتباب الأمن والهدوء في أركان الدولة .

* لقد كان تكوين الجيش وتصادمها قد تم بفعل نوع من التعاطف مع شخصيات إسلامية بذاتها ، ولم يكن رغبة من تلك الجيوش في التصادم والصراع ، فقد كانت الفرق المتصارعة على يقين من أن صراعها يعد خروجاً على الجماعة وشقاً لعصا الطاعة ، ومن ثم فقد خططت الفرق المتناحرة مثلاً للتخلص من كل من علي ومعاوية في وقت واحد على اعتبار أنهما أساس الخلاف والصراع .

* لقد كان الجيش الإسلامي في ذلك الوقت أداة من أدوات الصراع ، ولم يكن سبباً من أسبابه ، والجيش لم يكن وراء تلك الصراعات ، بل كان صدىً لها .

وبالرغم من أن الجيش الإسلامي تدخل في السياسة ، إلا أنه لم يلبث أن انصرف إلي مهامه مرة أخرى ، فقد كان تدخل الجيش في السياسة إقحاماً من الساسة وأولياء الأمور ، ولم يكن ذلك دأب الجيش ، ولذلك لم يحدث أن تدخل الجيش الإسلامي من قبل في السياسة ، وتدخل الجيش في السياسة إبان الفتنة الكبرى لم يكن للسيطرة على الحكم

وممارسة السياسة ، ولكن كان — كما سبق القول — أداة لحسم الصراع فقط وتخليص المسلمين من الفتنة !! .

### ❖ الاستنفار :

الاستنفار أو التعبئة — كما سبق وأشرنا — هي عملية تجميع العنصر البشري ، وللاستنفار طرق عديدة ، وقد اختلف الاستنفار في عهد النبوة الزاهر عن الاستنفار في عهد الخلافة الراشدة ، ونظراً لأهمية الاستنفار خلال عهد الخلفاء ، فقد أفردنا له هذه الجزئية وهذه الحزمة من الأفكار :

– مفهوم الأمة المجاهدة في عهد الخلافة الراشدة :

لقد أصبح مفهوم الأمة المجاهدة أكثر وضوحاً ورسوخاً ودلالة في عهد الخلفاء الراشدين ، حيث توسعت الدولة وامتدت رقعتها وشملت من العناصر والأجناس العديد ، كما تنوع اقتصادها وبات في حاجة إلي جهد كل فرد في الدولة ، وتعددت الجيوش الإسلامية عدداً ومهاماً ، وأضحت في حاجة ماسة إلي المدد والعون الذي يأتي من جبهة داخلية قوية ، هنا ثبتت المأثورة التي صِغناها من قبل وهي أن القتال فرض كفاية حتى في حالة الاعتداء على المسلمين ، وأن الجهاد فرض عين حتى في حالة السلم .

لقد اتضحت ابتداءً من خلافة عمر بن الخطاب أهمية وجود الجيش المنظم المدّرب ، فلم يعد باستطاعة أي مسلم أن يذهب من تلقاء نفسه إلي الجهاد ، دون أن يمر بمراحل إجرائية وتنظيمية للتثبت من مدى صلاحيته واستعداده البدني والنفسي والاجتماعي للجهاد ، ثم بعد ذلك يتلقى تدريباً على القتال يؤهله للقيام بمهامه ، ولم يكن التدريب علي القتال فقط بل كان هناك الاستعداد والتعبئة العقيدية ، حتى يتلقى المقاتل توجيهات وتوصيات خاصة بتوضيح الهدف من القتال ، حتى يتسنى له أن يقاتل عن عقيدة

ويجاهد عن برهان ، وهذا ما اتجهت إلي الأخذ به الجيوش الحديثة في الوقت الراهن ، وهو ما يعرف بالتوجيه المعنوي في الجيش .

إزاء ما تقدم كان على الدولة الإسلامية أن تتكفل بإعاشة المقاتل وكذا من يعولهم ، فالمجتمع الإسلامي هو مجتمع التكافل ، واستوجب ذلك أن يتم تسجيل أفراد الجيش ومعهم أسرهم حتى تصرف لهم العطاءات ، وكان ذلك ما حدا بالخليفة الراشد عمر بن الخطاب لإنشاء ديوان الجند ، الذي يعتبره البعض المؤشر التاريخي والتنظيمي لتأسيس الجيش الإسلامي كمؤسسة تنظيمية لها كيانها المستقل داخل المجتمع الإسلامي .

إلا أن ما ينبغي التأكيد عليه أن مأثورة الأمة المجاهدة قد تثبتت في عصر الخلافة الراشدة ، وباتت إحدى البديهيات فيما يتعلق بمسألة تأسيس وإعداد الجيش الإسلامي ، حيث أيقن الجميع أن الأمة المجاهدة تتوزع على أفرادها الأدوار ، ويجاهد كلٌ بدوره الذي اختاره بما يتواءم مع وسعه ومقدراته ، إلا أنه عندما يستشعر ولي الأمر بضرورة زيادة عدد المقاتلين فلا ضير في أن يكلّف الأفراد بالانتقال من أشكال الجهاد المختلفة إلي الجهاد كصراع عضوي ، أي كمقاتلين لأن الضرورة تفرض ذلك ، وهذا ما سوف نأتي عليه بعد قليل .

- البعد التنظيمي لعملية الاستنفار :

الاستنفار يختص بتجميع العنصر البشري الذي يمثل قوام الجيش ، ونظراً للعوامل والمستجدات - التي سبقت الإشارة إليها — اختلفت العمليات التنظيمية والإجرائية الخاصة بالاستنفار في عهد الخلافة الراشدة عن عهد النبوة الزاهر ، وتمثلت أهم الاختلافات فيما يلي :

* كان الاستنفار أو الدعوة إلي الجهاد يتم في كافة الأمصار والأقاليم ، وكان أمير كل ولاية أو عامل كل إقليم يقوم على اجراءات وتنظيمات عملية الاستنفار التي تبدأ بالدعوة أو الأذان بالجهاد ، ثم بتجميع الأفراد وتسليحهم في ديوان الجند ، ثم بإنزالهم معسكرات خاصة استعداداً لنقلهم إلي المركز ، هذا إذا كان المركز في حاجة ماسة إلي مدد عاجل لتلبية متطلبات الحرب في موقع من المواقع .

أما في الظروف العادية فإن كل ولاية أو إقليم تتولى عملية الاستنفار وإعداد الجند وتدريبهم وتحضير جاهزيتهم ، حتى يكونوا على أهبة الاستعداد للانطلاق رهن إشارة المركز . وهذا يسلم إلي القول بأن كل ولاية كان لها جيشها الخاص بها ، الذي كان يعتبر في ذات الوقت جزء من الجيش الإسلامي العام والشامل ، حيث كان يمكن للمركز في أية لحظة أن يطلب جيش أية ولاية للجهاد في موقع من مواقع الدولة الإسلامية .

وقد تتطلب بعض الظروف الخاصة من بعض ولايات الدولة الإسلامية أن يكون لها جيش خاص دائم الاستعداد ويُدعم بشكل مستمر من المركز ، فقد تكون إحدى الولايات بمثابة خط الدفاع الأول عن الدولة الإسلامية في مواجهة عدو قائم أو محتمل ، وقد تكون ولاية أخرى بمثابة ثغر من الثغور ، وقد تكون ولاية ثالثة ذات موقع ممتد على ساحل من السواحل البحرية المعرضة للهجوم أو الغارات المفاجئة .

* عناصر الجيش الإسلامي :

في البداية ومنذ تأسيس الدولة الإسلامية كان العنصر العربي هو العنصر الغالب على أفراد الجيش الإسلامي ، ومنذ بداية الخلافة الراشدة بدأت تدخل إلي الجيش عناصر غير عربية ولكن بشكل محدود ، إلا أنه بعد فتح بلاد فارس ومصر والشام والعراق تزايد عدد العناصر غير العربية في الجيش الإسلامي ، وربما أضافت تلك العناصر قوة إضافية يعتد

بها إلي قوة الجيش الإسلامي ، ولعلى أرى أن هذه القوة الإضافية قد مكنت الجيش الإسلامي من مواصلة فتوحاته في كافة الاتجاهات ، فقد كانت تلك القوة بمثابة الوقود الذي يلهب حماس الجيش، ويفتح شهيته للتقدم وحمل الدعوة ، وكلما تقدم وفتح الأقطار والأمصار تراكم الوقود واشتعل الحماس ، وهكذا مكّن الله لدينه عبر أقوام لم يعرفونه من قبل !! .

– البعد العقيدي للاستنفار :

قام البعد العقيدي بدور مهم في عملية الاستنفار وتحفيز المسلمين على الجهاد ، وقد جاء ذلك عبر مسلكين واضحين :

* المسلك الأول : أن قوة الإيمان ورسوخ عقيدة التوحيد في عقول وقلوب المسلمين وراء اندفاعهم للجهاد مترسمين خطى السابقين الأولين من أصحاب الرسول الكريم ، وهذا التأسي والاقتداء بالرسول الكريم وصحابته كان له تأثير بليغ في هذه الفترة بالذات انطلاقاً من الاقتراب الزمني من عهد النبوة الزاهر ، إضافةً إلي قيام الخلفاء الراشدين على رأس الدول، وكذلك وجود معظم صحابة رسول الله بين الناس .

* المسلك الثاني : كان الحماس والرغبة في حمل الدعوة والإسهام في نشرها هدفاً سامياً لأفراد الجيش الإسلامي وقف وراء مواصلة الفتوحات في عهد الخلفاء ، وقد زاد من قوة ذلك الحماس وعَظم من طموحات الجيش الإسلامي فتح بلاد فارس والعراق ومصر والشام ، وأيقن الجميع أن الإسلام سيسود العالم أجمع وشرعوا يعملون من أجل تحقيق هذه الغاية .

- البعد النفسي للاستنفار :

إضافةً إلي البعد العقيدي — الذي سبق إيضاحه — كان هناك البعد النفسي ، حيث سيطرت على المقاتلين المسلمين في الجيش الإسلامي حالة من الاطمئنان والسكينة بخصوص أنفسهم وأهليهم فهم سينالون إحدى الحسنيين ، أما أهلوهم فهم في كفالة الدولة الإسلامية حال حياتهم وبعد استشهادهم ، وتفصيل ذلك فيما يلي :

* لقد كانت المساواة بين المقاتلين العرب وبعضهم ، وبينهم وبين غيرهم من العناصر الأخرى خلال فترات خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ومعظم خلافة علي بن أبي طالب . وراء الحالة النفسية الصحية والروح المعنوية العالية التي شعر بها الجنود المسلمون ومكنتهم من تحقيق أهدافهم على أكمل وجه ، فقد كان معيار الأفضلية والعطاء يتمثل في القرابة من الرسول ، والسبق في الإسلام ، وحسن الأثر في الدين ، ولما انقرض أهل السبق ، أُدخلت معايير أخرى تجمع بين الموضوعية والواقعية ومواءمة العصر والمساواة ، وتمثلت في الشجاعة وعدد أفراد الأسرة وغلاء المعيشة وتكاليفها ، وقد سادت هذه المعايير الأخيرة طيلة زمن الخلافة الراشدة ، وشكلت الأساس الذي ارتكزت عليه عملية العطاء ، وهي التعبير المادي عن الإحسان والإجادة في الجهاد .

* كذلك كانت كفالة الدولة لأسر المقاتلين حال حياتهم وبعد استشهادهم تزيد من شعورهم بالراحة والطمأنينة على أسرهم .

❖ بناء الأسطول الإسلامي :

نتناول هذه الجزئية الخاصة بالأسطول الإسلامي في صحبة الحديث عن الاستنفار نظراً لارتباط الأسطول بالاستنفار واعتباره جزءاً منه ، وسوف نتناول الأسطول الإسلامي في فترة الخلافة الراشدة على النحو التالي :

- دواعي بناء الأسطول :

كان إقدام المسلمين على بناء الأسطول تلبية لرغبتهم في اقتناء كافة الأدوات والآليات التي تمكّن لهم ولدينهم ، وتماشياً مع الظروف والمستجدات التي حملها تطور المجتمع الإنساني ، وسداً لإحدى الثغرات التي استغلها أعداؤهم وأخذوا يتفوقون عليهم باستغلالها ، ويمكن رصد أهم دواعي بناء الأسطول الإسلامي في فترة الخلافة الراشدة في الآتي :

* امتداد حدود الدولة الإسلامية واتساع مساحتها لتطل علي البحر المتوسط من جهة الغرب في الشام ومصر وشمال أفريقيا ، ومن جهة الشرق لتطل على الخليج العربي ، وهذه السواحل الطويلة كانت في حاجة إلي قوة بحرية تحميها .

* كثرة الاعتداءات والتعديات على السواحل الإسلامية من الكيانات المجاورة للدولة الإسلامية ، وبصفة خاصة من الأساطيل البيزنطية التي ألفت الاعتداء على السواحل الإسلامية المجردة من القوة البحرية التي تحميها .

* رغبة المسلمين في مجاراة البيزنطيين والتصدي لهم بنفس سلاحهم وهو الأسطول البحري . وقد كان المسلمون في احتياج فعلي لهذا السلاح ، ولو أن تملك البيزنطيين له زاد من توق المسلمين إليه .

- بداية الفكرة :

تدرجت فكرة بناء أسطول إسلامي من خلال محاولات لركوب البحر ، ثم من خلال طرح الفكرة على الخليفة عمر بن الخطاب ، ونوضح ذلك في الآتي :

* في ولاية عمر بن الخطاب قام العلاء بن الحضرمي عامله على البحرين بمحاولة لفتح سواحل فارس ، فتقدم بإثنى عشر آلفً من المسلمين ومعهم سبعة عشر سفينة ، وكان

ذلك دون إذن الخليفة ، وفقد المسلمون جميع سفنهم بالرغم من أنهم غنموا مغانم كثيرة ، وأغضب ذلك عمر بن الخطاب فعزل العلاء بن الحضرمي .

* كذلك قام عرفجة بن هرثمة الأزدي بغزو عمان بحراً ، فلامه عمر بن الخطاب ، والواضح أن عمر لم يكن يميل لركوب البحر ، وذلك كطبيعة كل العرب الذين نشأوا في البادية ويخشون البحر ويرون فيه خطراً يجب تجنبه .

* تشبهاً بالبيزنطيين ورغبة في منافستهم والتصدي لغاراتهم المستمرة على السواحل الغربية للدولة الإسلامية في الشام ومصر وشمال أفريقيا ، طلب معاوية بن أبي سفيان والي الشام من الخليفة عمر بن الخطاب أن يسمح له بغزو الروم بطريق البحر ، وكان قرار الخليفة بعدم الإقرار على ذلك ، إلا بعد التعرف على البحر والتمرس على فنون الحرب البحرية ، وأمره بالتنسيق والتشاور مع عمرو بن العاص والي مصر الذي نصحه بعدم ركوب البحر نظراً لمخاطره ، فكان القرار النهائي للخليفة بعدم الإقدام على غزو الروم عن طريق البحر لقلة خبرة المسلمين في هذا المجال .

* بالرغم من أن ابن الخطاب لم يأذن لمعاوية بن أبي سفيان القائد الجريء بركوب البحر وغزو الروم بحراً ، إلا أنه سلك سياسة بحرية دفاعية لمواجهة خطر الروم على ثغور المسلمين ، وذلك بتحصين السواحل وإعداد قوات ترابط بشكل مستديم وحرس خاص وأربطة ومسالح لمراقبة الجهات التي يأتي منها الروم ، واستخدمت النيران للإنذار باقتراب الأعداء ، وكل ما تقدم كان بمثابة وسائل وترتيبات دفاعية برية لحماية السواحل وحدود الدولة ، وقد أمر الخليفة الراشد معاوية باتباع هذه السياسة في سواحل الشام وعمرو بن العاص في سواحل الإسكندرية .

- تنفيذ بناء الأسطول الإسلامي :

لم يتمكن معاوية بن أبي سفيان من إقناع عمر بن الخطاب بفكرة بناء الأسطول الإسلامي ، ولكن ذلك لم يجعله يتخلى عن الفكرة بل أخذ يهتبل الفرصة لإنفاذها ، وقد تحولت فكرة معاوية إلي واقع على النحو التالي :

* في خلافة عثمان بن عفان عرض عليه معاوية مشروعه المؤجل المتعلق بغزو الروم بحراً ، فوافقه عثمان على ذلك ، ولكنه وضع لموافقته عدة شروط منها : أن تكون مشاركة المقاتلة العرب في ركوب البحر تطوعاً واختياراً وألاّ يحمل أحداً ضد رغبته ، وأن يصحب معه امرأته " فاختة بنت قرظة " ، وأن يترك جيشاً يحرس السواحل الإسلامية .

فور موافقة الخليفة شرع معاوية في العمل ببناء الأسطول ، فأسس داراً لصناعة السفن في الإسكندرية ، واحضر الأخشاب من لبنان ، واستعان بخبرات أهل الشام ومصر وعرب الأزد والغساسنة فيما يتعلق بصناعة السفن والملاحة ، أما المحاربون فكانوا من العرب من أهل العطاء أي المسجلين في ديوان الجند المضروب لهم ولأسرهم عطاء .

* في عام ٢٨ هـ أبحرت أول بعثة بحرية للمسلمين في البحر المتوسط قاصدة جزيرة قبرص ، وتم الصلح بين المسلمين وأهل الجزيرة على الشروط التالية :

أن يدفع أهل قبرص جزية قدرها سبعة آلاف دينار سنوياً ، وأن يلتزموا الحياد فيما يتعلق بالصراع العربي البيزنطي ، وأن يبلّغوا المسلمين بنوايا الروم وتحركاتهم .

* وفي عام ٣٤ هـ حقق المسلمون النصر المشهور على جيش الروم بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح عامل عثمان على مصر في معركة ذات الصواري نسبة لموقعها ، وليس إلي كثرة صواري السفن فيها كما ردد البعض ، وكانت هزيمة ثقيلة للروم الذين كانوا قد أرادوا من هذه المعركة القضاء على البحرية الإسلامية الناشئة .

* أخذت الحملات البحرية تتوالى على البلاد البيزنطية طيلة خلافة عثمان بن عفان وجزء من خلافة علي بن أبي طالب ، إلا أنه عندما تولى معاوية الخلافة أصبح للأسطول الإسلامي شأن كبير وهذا ما سوف نتناوله في موضع لاحق .

### ❖ تمويل الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين :

تعويلاً على التطورات العديدة التي لحقت بكافة نواحي الحياة في الدولة الإسلامية حدث تطور ملحوظ على تمويل الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ، ويمكن إيضاح هذا التطور من خلال عناصره ومراحله التالية :

- موارد الدولة الإسلامية :

تطورت موارد الدولة الإسلامية خلال حكم الخلفاء عنه في عهد النبوة الزاهر ، بل أنها تطورت خلال فترة الخلافة الراشدة في بدايتها عن نهايتها ، وكان ذلك تطوراً طبيعياً حكمه التطور العام ، الذي سبق الحديث عنه تفصيلاً .

لقد تعددت موارد الدولة وتنوعت وزاد حجمها . ولعله من التكرار غير المقبول الحديث مرة أخرى عن تلك الموارد ، ولكن الأجدر التنبيه إلي مسألة مهمة تسترعي انتباه المتابع والمحلل معاً ، وهي أن الدولة الإسلامية منذ عهد النبوة الزاهر وهي تعمد إلي صياغة نموذج خاص بها لإنماء مواردها بشكل مستمر ، وقد وضعت بالفعل الأسس والأصول في ذلك العهد الأنور ، إلا أن عصر الخلافة الراشدة قد جاهد من أجل ترسيخ تلك الأسس والأصول والسير على هداها .

وكانت نتيجة ما تقدم زيادة حجم موارد الدولة في فترتي خلافة عثمان وعلي ، وكان لذلك أثره البالغ في تحسين وضعية الجيش الإسلامي المالية ، واعتماده شبه المطلق على بيت المال في إعداده وتجهيزه والعطاء لأفراده والعاملين به .

- صدقات المقتدرين :

منذ عهد النبوة الزاهر وهذا المورد يلعب دوراً لا بأس به في تمويل الجيش الإسلامي ، وفي عهد الخلافة الراشدة لم ينضب هذا المعين ، بل ظل فياضاً بعطاء المقتدرين من أبناء الأمة الذين جهزوا بعثات وجيوشاً كاملةً على نفقتهم الخاصة ، وهذا ما فعله عثمان بن عفان عندما جهز جيش العسرة ، وسار على هذا النهج غيره من الذين ساهموا بصدقاتهم في تجهيز الجيوش الإسلامية أمثال عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وغيرهم .

- العطاء للجند ولأسرهم :

كان الجند في عهد النبوة الزاهر يحصلون على حصة من الغنائم للإنفاق على أسرهم ، وعندما أنشأ الخليفة عمر بن الخطاب ديوان الجند في سنة ٢٠ هـ - كما سبق الإيضاح - جعل للجند رواتب مخصصة قدّرت في عهد عمر بن الخطاب بما يتراوح بين ٣٠٠ إلي ٤٠٠ درهماً سنوياً .

وكان تقدير العطاء يتم بناءً على معايير منها القرابة من الرسول الكريم ، والسبق في الإسلام . وحسن الأثر في الدين ، وقد احتكم عمر إلي هذه المعايير فترة من الزمن ، ثم تحوّل عنها إلي معايير أخرى تواءمت مع التطور الزمني مثل الشجاعة والإقدام والبلاء في القتال ، وعدد أفراد أسرة الجندي ، والغلاء وارتفاع تكاليف المعيشة ، وكانت أسرة الجندي من زوجة وأطفال ووالدين ينالون عطاءً من الدولة .

واختلفت معايير العطاء بعد ذلك . فقد حاول عثمان بن عفان أن يحتكم إلي معايير تفرّق بين العرب وغيرهم في العطاء ، بل بين العرب وبعضهم ، وقد أثار ذلك حفيظة الكثير من صحابة رسول الله ولكنه أرضى المستفيدين ، إلا أن الخليفة الراشد الرابع علياً بن أبي طالب حاد عن هذه المعايير ، وعمد إلي المساواة في العطاء بالرغم من المعارضة القوية من بعض القبائل العربية ولكنه لم يأبه بذلك .

## ❖ تسليح الجيش الإسلامي :

في فترة الخلافة الراشدة تطورت أسلحة الجيش وطرق القتال وكان مرد ذلك إلي الاحتكاك المستمر للجيش الإسلامي بجيوش مختلفة ، وقد اهتمت الدولة الإسلامية بتسليح الجيش اهتماماً خاصاً ، وانعكس ذلك الاهتمام في مظهرين :

- تطوير أسلحة الجيش الإسلامي :

واظب الخلفاء الراشدون أنفسهم على متابعة تطوير أسلحة الجيش الإسلامي ، ووضح إصرارهم على تزويد الجيش بأحدث الأسلحة التي يتم التعرف عليها خلال المعارك واللقاءات ، وبالرغم من ذلك ظل الجيش الإسلامي معتدلاً وسطياً يوازن بين الاهتمام بالسلاح وبين الاهتمام بالوازع الديني والبعد العقيدي والروح المعنوية العالية ، فلم يبالغ في استخدام غريب السلاح مثل الفيلة أو غيرها ، وفي ذات الوقت كان دائم التطوير في أساليب القتال وطرق المناورة في الميدان .

- تصنيع السلاح :

كذلك اهتم الخلفاء الراشدون وعلى نهجهم سار ولاتهم بتصنيع الأسلحة الخاصة بالجيش الإسلامي ، وانتشرت مصانع السلاح في مصر والشام تحت ولاية عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان ، وزادت وتيرة الاهتمام بعملية تصنيع السلاح في فترة خلافة عثمان بن عفان في هاتين الولايتين ، حيث برز ولع معاوية بن أبي سفيان ذلك القائد الجريء بعمليات تصنيع السلاح وبناء الأسطول الإسلامي ، وتعددت مصانع السلاح وكذا دور بناء سفن الأسطول في كل من مصر والشام .

وقد رصدت الدولة أموالاً من بيت مال المسلمين لعملية تصنيع السلاح وبناء قطع الأسطول الإسلامي ، وقد وضحت فائدة هذه السياسة الثاقبة فيما بعد في العصر الأموي ، حينما

برزت قوة الأسطول الإسلامي لتسيطر على البحار المعروفة في ذلك الوقت وهي البحر المتوسط والخليج العربي والمحيط الهندي ، ولتترجم هذه السيطرة إلي فعاليات اقتصادية واستراتيجية لها أهميتها في ذلك الوقت ، كما برزت كذلك قوة الجيش الإسلامي كجيش كبير وحديث يحمي حمى دولة كبيرة المساحة ممتدة الأطراف ، ويسعى باستمرار إلي حمل الدعوة وتوصيلها إلي أبعد مدى ممكن ، وترتيباً على ذلك شهدت الدولة الإسلامية في فترة حكم بنى أمية أوج قوتها وتقدمها واتساع رقعتها ، وهذا ما سوف نتناوله في حينه .

❖ تدريب الجيش :

الجيش الإسلامي في فترة الخلافة الراشدة كان دائم الحركة ودائم التفاعل مع الأحداث والتطورات من خلال الفتوحات المتعددة في كافة الأنحاء والاتجاهات ، وهذه الحركة والتفاعل الدائمان كانا بمثابة تدريبات للجيش وتحضير مستمر للجاهزية ، إلا أن الجيش الإسلامي خلال هذه الفترة الحيوية من تاريخ الدولة الإسلامية ، والتي شهدت أهم الفتوحات والانتشار العظيم للدعوة الإسلامية ، كان يمارس التدريبات العسكرية بأشكال شتى ، ونوضح ذلك في الآتي :

- التدريب على السلاح وفنون القتال في المعسكرات وخلال تحركات الجيش :

دأب الجيش الإسلامي على التدرب على السلاح وفنون القتال في المعسكرات التي كان يقيمها في أماكن مختلفة قريبة من مواقع الالتقاء بالجيش المعادي ، والتي أصبحت فيما بعد مدناً زاهرة مثل البصرة والفسطاط وغيرها ، وقد اختلفت طبيعة تلك التدريبات من واقعة إلي أخرى ومن قائد إلي آخر .

كذلك كان الجيش الإسلامي يباشر بعض التدريبات على المناورة والحركة ، وذلك خلال تحركاته من معسكره أو موقعه إلي مواضع الالتقاء بالجيش المقابل ، وكانت قيادات

الجيش تشرف على هذه التدريبات ، وكانت أشبه بالمناورات التي تجريها الجيوش في العصر الحديث .

– تدريبات القوات المرابطة في الثغور والحصون وعلى الحدود :

أما بالنسبة إلي القوات المرابطة في الثغور والحصون وعلى الحدود ، فكانت تقوم بتدريبات دائمة تحت إشراف القادة المباشرين لتكون في حالة جاهزية دائمة للرد على أي اعتداء والدفاع عن البلاد .

– وضع الخطة العامة [ الاستراتيجية ] :

كانت الخطة العامة للجيش الإسلامي أو ما يعرف بالاستراتيجية ، تتم صياغتها بين الخليفة بوصفه القائد العام الأعلى للجيش وبين قيادات الجيش ، وكذا بمشاركة كبار الصحابة الذين كانوا يشكلون مجلس الشورى بالنسبة للخليفة ، وكانت الخطة العامة أو الاستراتيجية تتضمن الوجهة الأساسية للجيش وهدفه الرئيسي ووقت التحرك وتوقيتات بدء الهجوم . كما كانت تتضمن كذلك وصايا وتوجيهات الخليفة بشأن مباشرة العملية الحربية وعمليات القتال وآداب وأخلاقيات الميدان ومعاملة الأسرى والشعوب التي يتم فتح بلادها ، وكيفية تبليغ الدعوة عن طريق الدعاة وغير ذلك .

– إدارة العمليات [ التكتيك ] :

وفيما يتعلق بإدارة العمليات [ التكتيك ] ، فقد كانت قيادات الجيش وعن طريق تشكيلاته المختلفة تتولى إدارة العمليات الحربية ، التي كانت تتباين وتتعدد وفق طبيعة كل معركة وحسب ظروف القتال ، وقد أبلى الجيش الإسلامي بلاءً لا نظير له في كافة المعارك التي خاضها ، وسجل في تحركاته وعملياته [ تكتيكيه ] ما يعتبر سبقاً في مجالي الاستراتيجية والتكتيك .

وكان الجيش الإسلامي في فترة الخلافة الراشدة يتألف من الرحالة والفرسان والرماة وفيلق الخدمة [ الغلمان ] والطليعة [ الكشافة ] ، وكشافة المؤخـرة [ الردء ] ، وقد كـان علـى كـل عشرة جنود عريف ، ولكل مائة من الجند قائد ، ولكل عشرة من القادة أمير ، وكان الجيش الإسلامي يتكون من أكثر من جيش . وكانت طريقة القتـال الـتي اتبعـت في تلـك الفترة هي طريقة الصفوف وليس الكر والفر كما كان من قبل .

- قيادة الجيش :

كان الخليفة بحكم ولايته العامة هو القائد الأعلى للجيش ، ولكن معظم الخلفاء الراشـدين لم يتولوا فعليـاً قيـادة الجـيش الإسـلامي إلا نـادراً ، فكـانوا ينيبـون عـنهم أهـل الكفـاءة والشجاعة في قيادة الجيش ، أما في الولايات والأقاليم الإسلامية فقد كانت قيـادة الجـيش للولاة أو من ينيبونهم .

وبالرغم من ذلك فقد كان الخليفة على علم تام بأخبار الجيش بواسطة البريد مهما بعـدت ساحة القتال ، وكان يرسل بتوجيهاته وتوصياته إلي قواد الجيش .

- دعم ومساندة الجيش :

مرة أخرى يبرز مفهوم الأمة المجاهدة لكي يستوعب عملية دعم ومساندة الجيش الإسلامي ، فهو الذي يوضح هذه العمليات من خلال ما يتكتل خلفها من طرح إسـلامي حـصيف ، فالأمة الإسلامية بكاملها أمة مجاهدة ، فهي تشكل أداة دعم ومساندة للجيش ، فالجبهة الداخلية تزود الجيش بكافة احتياجاته المادية والمعنوية وحتـى البـشرية ، ثـم هـي الـتي تـسند الجـيش وتدعمـه في أرض المعركـة ، ففـي فـترة الخلافـة الراشـدة كـان المقـاتلون يصطحبون معهم أسرهم للعون والمساعدة والدفع والحث على القتال ، فكلٌ كان لـه دور في الجهاد ولكن حسب طاقته ووفق مقدرته .

## المبحث الثالث

## الجيش الإسلامي في العصر الأموي

انتهت فترة الخلافة الراشدة التي مثلت امتداداً لعهد النبوة الزاهر بفتنة كبرى قسمت الدولة الإسلامية وهي في أوج قوتها إلي فرقتين كبيرتين هما السنة والشيعة ، وبينهما فرق صغيرة، ولأول مرة عرفت هذه الدولة الانقسام ، وقد أنعكس ذلك الوضع السياسي والاجتماعي المتردي على الجيش ، حيث تعددت بالتالي الجيوش ، وتوزعت بين الفرقاء ، ليس هذا فقط بل تقاتلت قتالاً مراً ولم يكن أحد يعرف مَن مِن المقتتلين على حق ، وانتهي الأمر بانتصار فريق معاوية بن أبي سفيان ، ولعل في ذلك خيراً فقد حقن دماء المسلمين وأوقف نزيفها ، ولو أن ما نزف منها كان طاهراً وغالياً ، فقد استشهد الإمام كرّم الله وجهه وولداه ، وأُهين أهل البيت ، ولم تحترم حرمتهم التي أوصى بها الرسول الكريم مراراً ، وجماع القول أنه على أنقاض الفتنة الكبرى قامت دولة بنى أمية التي أسسها معاوية بن أبي سفيان ذلك السياسي المحنك والقائد الجريء .

من هذه المقدمة ننفذ إلي ضالتنا المتمثلة في تطور وضعية الجيش الإسلامي في العصر الأموي ، حيث كان لذلك الجيش شأن عظيم ، فقد صال وجال وفتح البلدان والأمصار ووسّع حدود الدولة إلي أقصى ما بلغته طيلة تاريخها ، فما هي تفاصيل ودقائق تطور ذلك الجيش العظيم، وكيف وصل إلي هذه الحالة العظيمة ، وماذا حقق للدولة الإسلامية ، ثم كيف أنتهي به المآل .

### أولاً : نظرة في خصوصيات الدولة الأموية :

الدولة الأموية هي أول نقطة أو موضع تنتقل إليه الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي بعد عصري النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، وهذا التطور قد حمّل هذه الدولة بأعباء ثقال

وتبعات جسام فقد انتهي عصر الوحي ، كما انتهي عصر الالتزام النقي التقي بالأصل والأساس ، وبدأ عصر جديد ، عصر دولة قامت على القبلية واستغلال انقسام صف المسلمين . جاهدت من أجل الالتزام بالأسس والأصول ، ولكنها أعطت الفرصة للمستجدات والمتغيرات كي تفعل أفعالها ، بدأت قوية فانعكست قوتها على الإسلام ، ووصل في زمانها إلي آخر النقاط التي وصل إليها في تاريخه ، ثم انتهت ضعيفة متهالكة قوضتها الأيدي الخفية التي سُمح لها بالتدخل في شئونها ، وأذهب ريحها آثار الفتنة الكبرى والفِرق والتحزبات ، لقد حملت هذه الدولة من الخصائص ما هو جدير بالذكر والتبيان ، لأنه انعكس بشكل مباشر على الجيش الإسلامي في العهد الأموي ، فإلي أي مدى بلغت شدة أواصر تلك العلاقة ، فلننظر فيما هو آت :

### ❖ ضوابط الالتزام بأسس وأصول عهدي النبوة الزاهر والخلافة الراشدة :

قلنا أن الدولة الأموية هي أول نقطة تنتقل إليها الدولة الإسلامية بعد أن غادرت زمن النبوة والوحي ثم زمن الخلافة الراشدة ، وكان ذلك بمثابة عبء ثقيل تمليه ضرورة بل حتمية الالتزام بأصول وأسس ذينك الزمانين ، وقد جاهدت تلك الدولة من أجل الالتزام بتلك الأسس والأصول ، وبرزت تلك المجاهدة عبر التمسك بمبادئ محددة يمكن إيضاحها في الآتي :

- محاولات التمسك بالأسس والأصول :

في العام الواحد والأربعين من هجرة الرسول الكريم وهو عام الجماعة اجتمعت كلمة المسلمين على خليفة واحد هو معاوية بن أبي سفيان ، الذي آثر الحسن بن على أن يتنازل له عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين وجباً للفتنة ، وبايع المسلمون معاوية خليفة لهم ، ولا شك في أن معاوية بن أبي سفيان وخلفاء بنى أمية من بعده ، قد خرجوا على

أحد أهم مبادئ وأصول السياسة والحكم في الإسلام ، وهو مبدأ انتخاب الخليفة بناءً على اعتبارات السبق والخدمة في الإسلام ، وانتخاب الخليفة يعني أن الجماعة هي مصدر المسئولية والصلاحيات ، كما أدخل معاوية كذلك بدعة الوراثة في انتقال الحكم بين أفراد الأسرة الأموية .

إن التحليل الدقيق والعميق للتاريخ الإسلامي ليوصّل إلي حقيقة مفادها أن ثمة صراعاً سافراً وقوياً نشب بين مبادئ الإسلام وأصوله في السياسة والحكم . وبين التقاليد العربية القائمة على العصبية القبلية ، والتي تجعل من القوة والنفوذ أدوات للوصول إلي الحكم ، وينبغي أن يسجل ذلك على أنه تعارض واضح سنعود إلي تفصيله في موضع متقدم . بين الحضارة والثقافة الإسلامية وبين الثقافة العربية حول أسس وأصول السياسة والحكم ، ولم يكن بداية عهد الدولة الأموية هو بداية ذلك الصراع فقط ، ولكن كان بداية لترسيخ تلك التقاليد العربية وتفوقها على المبادئ الإسلامية ، حيث نحى العباسيون نفس المنحى وبأساليب ووسائل شتى .

بالرغم مما تقدم لم يستسلم الأمويون بشكل مطلق للتقاليد العربية التي أرتكنوا إليها في حكمهم . بل حاولوا التمسك بالأسس والأصول الإسلامية في كافة أمور الحياة ، ومنهم من جاهد بصدق في سبيل ذلك .

– اهتمام الأمويين بنشر الإسلام والدعوة إليه :

لم يتوان الأمويون في نشر الإسلام والدعوة إليه بكافة السبل والوسائل ، وواصلوا ما شرع فيه الرسول الكريم ومن بعده خلفاؤه الراشدون ، من العمل الدائب والمستمر على توصيل الدعوة وتبليغها إلي كافة بقاع الأرض ، وفي عهدهم اتسعت رقعة الدولة الإسلامية لتشمل أجزاءً كبيرةً من أوربا ولتصل إلي أقصى ما وصلت إليه في تاريخها .

وإذا كان الأمويون لم يتبعوا الطرق والوسائل التي صاغها الرسول الكريم ومن بعده خلفاؤه الراشدون للوصول إلي الحكم وسياسة شئون المسلمين ، وغلّبوا التقاليد العربية ذات النعرات العصبية القبلية ، فعذرهم أن تلك الآليات والوسائل كانت محل خلاف منذ نهاية خلافة عثمان بن عفان ، يضاف إلي ذلك أن أحداً لا يمكن أن ينكر أن معاوية بن أبي سفيان كان له أنصاره غير القليلين ، وأن سيطرته على الحكم حالت دون استمرار الفتنة وحقنت دماء المسلمين ، وأخيراً فقد قدّم الأمويون للإسلام أعلاماً مثل عمر بن عبد العزيز ، كما قدّموا له انتشاراً لم يسبق له مثيل ، وما يمكن الانتهاء إليه هو أن العبرة ليست بكيفية الوصول إلي الحكم أو بشكله ونظامه أو بآلية انتقاله داخل الأسرة الأموية ، ولكن العبرة بتطبيق شرع الله والعمل بكتابه والدعوة إلي دينه .

### ❖ الجنوح نحو الشدة في معاملة الخصوم الحاليين والمحتملين :

منذ بدايتها قامت الدولة الأموية على الشدة والغلظة في التعامل مع الخصوم القائمين والمحتملين. فقد عرف عن معاوية بن أبي سفيان نفسه مؤسس هذه الدولة الجرأة والقوة إلي جانب المكر والدهاء ، وقد امتدت هذه الخصية إلي عمال الدولة وولاتها في كافة الأمصار والأقاليم ، ولعل اشهر هؤلاء الحجاج الثقفي . ولكن وقفت وراء هذه الخصية عدة عوامل تمثلت في الآتي :

– الظروف التي نشأت فيها الدولة :

يمكن القول أن الدولة الأموية هي إفراز طبيعي للفتنة التي عمت الدولة الإسلامية بمقتل عثمان بن عفان . كما أنها في ذات الوقت مخرج فُرض على جميع الفرقاء لعبور مأزق الصراع العضوي المدمر بين أبناء الأمة ، ومن ثم فإن الدولة الأموية لم تنشأ كنتاج طبيعي وحصيلة منطقية مقبولة ومرغوب فيها من أبناء الأمة ، لتطبيق الأصول والأسس التي شرّعها الرسول الكريم فيما يتعلق بأمور السياسة والحكم في الدولة الإسلامية .

وكان من شأن هذه النشأة أن تخلق نوعاً من السخط والشعور بالغضب وعدم الرضا لدى قطاع واسع من أبناء الأمة الإسلامية ، وبصفة خاصة بين أبناء الصحابة ومن لا يزال على قيد الحياة من صحابة الرسول الكريم ، وشكّل هذا القطاع ، الناقم على هذه الدولة ، الراغب في تطبيق الأصول والأسس الإسلامية ، جبهة معارضة راغبة عن الحكم ، ولكنها راغبة في تطبيق الشرع والأصول والأسس .

كذلك كانت هناك المعارضة الأساسية لمعاوية بن أبي سفيان ودولته التي أقامها وهم أنصار علي بن أبي طالب وولديه من بعده ، وهؤلاء اشد نقمة وسخطاً على دولة بنى أمية لقناعتهم بأنها سلبت حقهم الطبيعي والشرعي في الحكم وسياسة شئون المسلمين ، وصدرت الفتاوى التي تبحث في الأسانيد الشرعية لدعاوى هذه الفئة مما زادها قوة ورسوخاً .

من جماع هاتين الفئتين إضافةً إلي فئات أخرى عارضت الدولة الأموية بل وعارضت مناوئيها كذلك . تشكلت جبهة وقفت من الدولة الأموية موقفاً رافضاً متربصاً . مما جعل الأمويين طيلة عهدهم محل انتقاض وانتقاص في نفس الوقت . فلم يكن أمامهم بد والحال كذلك إلا أن يجنحوا ناحية الشدة والغلظة في مواجهة هذه المعارضة القائمة ، وما يمكن أن يستجد من معارضين محتملين .

– طبيعة الدولة التي قامت على أسس عصبية قبلية :

قلنا فيما سلف أن الدولة الأموية قامت أصلاً على تغليب التقاليد العربية التي تزكي العصبية وتوطد القبلية ، وقد كان لطبيعة نشأة الدولة دور مهم في ذلك ، حيث استشعر معاوية إن ارتكانه إلي أبناء عَصَبَتِه فيه التمكين له ولأبنائه من بعده ، وهكذا كان شعور حكام بنى أمية الذين انتقل إليهم ذلك الاعتقاد من مؤسس الدولة .

إضافةً إلي ما تقدم كان ذلك الاعتقاد ينبع من شعور نفسي بالخوف من الآخر ، نتيجة المعارضة القائمة والمتربصة ، وكذا الجو العام الذي نشأت فيه الدولة ، وقد يلتقي ذلك التحليل مع ما يمكن اعتباره شعوراً بالتميز والتفوق لعصبية بنى أمية وسمو التكوين القبلي الذي انحدروا منه ، فالمتميز يشعر بالتفوق والسمو ويشعر في ذات الوقت بالاضطهاد من الآخرين، انطلاقاً من رفعة وعراقة أصله .

قاد ما تقدم إلي أن يّرقى معاوية بن أبي سفيان من عَصَبَتِه فوق الجميع ، ويحابي شيوخ القبائل الشامية ، ويعمل على إرضائهم وكسب ودهم ، حيث يرى فيهم عدته وعتاده ، وهكذا فعل خلفاؤه من بعده ، فكان معاوية وكذا حكام بنى أمية يتعاملون مع قبائلهم كشيوخ قبائل وليس كخلفاء وحكام ، وكان لذلك أثره على شكل وطبيعة الدولة ، وطبيعة مفردات الحكم والسياسة فيها من نظام سياسي وديناميات ذلك النظام وعلاقاته .. الخ .

هذا التمايز الذي تعامل به الحكام الأمويون مع قبائلهم وعصبتهم ، قابله شدة وغلظة في معاملة الآخرين ، مما أشعل نار الحقد وأشاع جواً من التفرقة وعدم الثقة وزاد من ضيق المعارضين على الدولة الأموية وتصرفات حكامها .

- الأهداف التي سعت الدولة الأموية لتحقيقها :

تاريخ الدولة الأموية ينتهي بالمحلل إلي هدفين سعت الدولة إلي تحقيقهما في آن واحد ، وقد اضطرها ذلك السعي إلي استخدام الشدة في معظم الأحوال وصولاً إلي هذين الهدفين ، وجعلت منهما غاية يبرر نيلها استخدام أية وسيلة :

* أما الهدف الأول فقد تمثل في تقوية الدولة الإسلامية وضمان وحدتها ، ولتحقيق هذا الهدف كان من المفروض قطع أية محاولات لإثارة القلاقل والفتن ، والتشدد في التعامل

مـع حركـات الخـروج علـى الوحـدة وإضـعاف كيـان الدولـة والحـوادث والوقـائع في ذلك شهيرة .

* أما الهدف الثاني فقد تجسد في الرغبة الجامحة لدى حكام بنـى أميـة في نـشر الـدعوة الإسلامية وتوسيع رقعة الدولة ، وكانوا يعتبرون أن هذا هو الهدف الأساسـي لوجـودهم ، وجعلوا من الهدف الأول وسيلة له ولا يمكن أن يتحقق بدونه ، وواقـع الحـال أن سـعيهم لتحقيق الهدف الثاني كُلّل بنجاح منقطع النظير ، وأن الهـدفين إمتزجـا معـاً وقـادا إلـي دولة قوية نشرت الدعوة الإسلامية في أراضٍ جديدة في أوربا وآسيا وأفريقيا ! ! .

### ❖ الالتزام بنشر الإسلام والدعوة إليه :

لقد وضح التزام بنى أمية بمبدأ ثابت هو نشر الإسلام والدعوة إليه فيما قـدّر لهـم الوصـول إليه من أقطار الأرض . وهنا يثار سؤال لا يجد المحلل مفراً من التـصدي لـه ، وهـو هـل هذا المبدأ كان بمثابة هدف في حد ذاته من أجـل الإسـلام ؟ أم أنـه كـان هـدفاً لجـأ إليـه الأمويون لإضفاء طابع السمو بالعمل لمصلحة الإسلام على دولتهم ، وتكتيـل قـوة المـسلمين من كافة الاتجاهات والفرق وراءهم من أجل ذلك الهـدف الـذي لا ينبغـي أن يكـون مثـار خلاف ، ومن ثم دحض دعاوى المعارضين لهم ؟ .

ينبغي علينا كمسلمين التعامل مع وقـائع وأحـداث ودقـائق التـاريخ الإسـلامي بموضـوعية وتجرد . حتى نتمكن من الاستفادة من ذلـك التـاريخ . فيمـا نرغـب ونجتهـد مـن أجـل الوصول إليه من إيجاد نوع مـن التواصـل الحـضاري يعيـد للحـضارة الإسـلامية ازدهارهـا وإيناعها ، لأجل ذلك ينبغي الالتجاء إلي أدوات وآليات التحليل التاريخي المعتمـد علـى منهج الطرح الإسلامي الـذي يتعامـل مـع الوقـائع والأحـداث بتجـرد كامـل عـن الهـوى والرغبة . وبإعمال تلك الآليات التي تعتمد على أصول وأسس ومعايير ليس في مقدور أحـد أن يحيد عنها أو يهّمشها .

وعليه ينبغي التفرقة بين طبيعة الدولة الأموية – التي سبق وأوضحنا بعض خصائصها – والتي أهمها سيادة الطابع العصبي القبلي ، وبين أسلوب الشدة والغلظة التي استخدمته تلك الدولة وكان طابعاً مميزاً لتعاملاتها مع الخصوم والمعارضين ، وبين طريقة وصول معاوية بن أبي سفيان مؤسس هذه الدولة إلي الحكم ، وبين ما ابتدعه من بدعة الوراثة في الحكم ، بين كل ذلك وبين التزام الدولة الأموية بنشر الإسلام والدعوة إليه ، وهنا لابد من إبراز مثالب ونواقص تلك الدولة وخروجها عن الأسس والأصول الإسلامية التي ارتضاها الشرع وطبقها الرسول الكريم وخلفاؤه من بعده ، ولابد في ذات الوقت من إنصاف ما يستحق الأنصاف من سلوكات وتصرفات تلك الدولة وما حققته للإسلام ودعوته ، فالأخطاء تُرصَد وتُعَدد والمناقب تُذكر وتحمد . وذلك فيما يلي :

– يشهد التاريخ على أن الدولة الأموية بدأت منذ نشأتها قوية ، فقد أحكم معاوية بن أبي سفيان ومن بعده فعل خلفاؤه ، قبضته على الدولة بكافة أقاليمها وأمصارها ، وكانت هذه الوضعية كافية لتأمين حكم بنى أمية ، ولم يكونوا إذن في احتياج إلي التشبث بمبدأ نشر الدعوة لتقوية نفوذهم وسيطرتهم على الدولة من الداخل ، إذ أن ذلك كان حاصلاً فعلاً .

لقد كان اهتمام الدولة الأموية بنشر الإسلام اهتمام جندت له كل طاقاتها وبزخم قوى ، ولا يمكن أن يكون ذلك حق أُريد به باطل ، فلقد كانوا في غنى عن ذلك الجهد والعناء والاكتفاء بما وصلوا إليه من حكم وسيطرة إن شاءوا ، ولكنهم لم يألوا في سبيل نشر الدعوة أي جهد ولم يدخروا أية قدرة .

إن التضحيات التي قدمتها الدولة الأموية وما بذله حكامها منذ مؤسسها معاوية بن أبي سفيان، لم تكن بالتضحيات التي هدفها تحقيق المجد الشخصي أو الشرف الذاتي ، بل كان من الواضح أن الإسلام هو هدفها ورفعته ونشره هي غايتها .

ظلت الدولة الأموية طيلة عهدها تعمل على نشر الإسلام في ربوع الأرض ، فحتى قبل سقوطها بشهور كان الفتح الإسلامي الأموي قاب قوسين أو أدنى من موسكو الحالية ، حيث أدى سقوط الدولة إلي انسحاب القائد الفاتح مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، الذي كان يحاصر هذه المدينة .

❖ ظهور النزعات العصبية القبلية وسيطرتها على سياسة الدولة :

الحق أن النظام القبلي متأصل في المجتمعات العربية وبصفة خاصة في شبة جزيرة العرب ، وحاول الرسول الكريم منذ تأسيس الدولة الإسلامية في مدينة رسول الله أن يكبح جماح هذا النظام ، وما يترتب عليه من نزعات ونعرات عصبية تنحو نحو التميز والتفرد وتقود في النهاية إلي التشرذم ، وتبذر بذور الفرقة وعدم المساواة في المجتمع ، وبالرغم من ذلك فلهذا النظام دور مهم في إيجاد حالة من التكاتف والتكتل إذا أُحسن استثمار الجانب الإيجابي فيه ، وكان هذا النظام يفرز آثاره من وقت لآخر حتى في وجود الرسول الكريم ، ولكنه كان يعرف كيف يستوعب آثاره السيئة ويوظف نتائجه الإيجابية ، وفي فترة الخلافة الراشدة كان هذا النظام يطل من وقت لآخر بوجهه البغيض فيثير الفتن والقلاقل ، وكان إخمادها مرهوناً بمقدرة كل خليفة من الخلفاء الراشدين على ترسم خطى الرسول الكريم الذي أجاد التعامل مع هذا النظام بدرجة ممتاز ، ويمكن تتبع النزعة القبلية العصبية في دولة بنى أمية على النحو التالي :

– دور النزعة القبلية العصبية في إثارة الفتنة :

التعمق في وقائع وأحداث الفتنة الكبرى ينتهي إلي التوصل إلي أن تلك الفتنة كانت إفرازاً لمزيج من المؤثرات والمحفزات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى الفكرية ، ويبرز من خلال هذا المزيج النزعة العصبية القبلية بدورها المميز وتأثيرها الفعال في إثارة

وتأجيج نيران تلك الفتنة ، فقد كان تحزب كل فريق لعصبيته وقبليته وراء البحث عن الأدوات والآليات المحدودة القاصرة في نقل صلاحيات السياسة والحكم ، وممارسة تلك الصلاحيات ، والتغاضي بل إهمال الأدوات لتي صاغها الرسول الكريم ، ومن ثم فقد أعمت هذه النزعة الذين تلبّسوا بها عن رؤية الصواب واتباعه .

- دور النزعة القبلية العصبية في نشأة الدولة الأموية :

أفلح معاوية بن أبي سفيان بشكل جيد في استنفار النزعة القبلية العصبية في نفوس أنصاره ومعاونيه ، وتمكن الرجل من استثارة هذه لنزعة بوسائل امتاز دوماً بإتقانها ، وكان لذلك أثره الفعال في تكتيل بنى أمية والموالين بعد خلف معاوية في صراعه مع الخليفة الراشد على بن أبي طالب وأبنائه مع بعده ، ولولا هذه النزعة ، ولولا استغلال بن أبي سفيان لآثارها لما تمكن من إقامة دولته التي فرضت فرضاً بالرغم من معارضة ذوى النفوذ السياسي والديني والاجتماعي ، فقد كانت عصبية بنى أمية وأنصارهم من القوة والصلابة والإصرار بما جعلها تمثل أداة ضغط وجبر على هؤلاء المعارضين لقبول الأمر الواقع جباً للفتنة وحقناً لدماء المسلمين ، ويكمل ما تقدم أن أنصار معاوية كانوا من الكثرة بما جعل من الصعب الاستهانة بهم والتقليل من شأنهم وبما يمكن أن ينشرونه من الفوضى والفتن ، فقد رأي الجميع اتقاء ذلك وسلّموا بقيام دولة واحدة تمثل عموم المسلمين وهي دولة بنى أمية .

- دور النزعة القبلية العصبية في حفظ كيان الدولة :

واصلت النزعة القبلية العصبية الحفاظ على وجودها كأساس من الأسس التي ارتكنت عليها الدولة الأموية ، بل زادت حدتها وأمعن الأمويون في إذكاء حميتها في نفوس بنى أمية والموالين لهم ، ومن ثم فقد لعبت القبائل الشامية القوية التي كانت تسكن دمشق

الدور البارز والحاسم في تعضيد الخلفاء الأمويين ، وكان الأخيرون يتصرفون كخلفاء وشيوخ للقبائل في ذات الوقت ، فقوتهم وسيطرتهم كانت تستند إلي قوة القبائل ، ولذا حافظوا على مراعاة شعور القبائل وكانوا يتصرفون كأنهم منهم ، وعليه فقد اهتم الأمويون بمراعاة التقاليد العربية أكثر من اهتمامهم بالمبادئ الإسلامية .

وإذا كانت النزعة القبلية العصبية قد لعبت دوراً يعتد به في الحفاظ على كيان الدولة الأموية ، فقد لعبت كذلك دوراً يعوّل عليه في تأسيس وتقوية الجيش الأموي ، فقد كان للقبائل الشامية والقبائل الموالية للأمويين السيادة المطلقة على الجيش الأموي ، كما كان للعنصر العربي السيطرة على الجيش دون سواه من العناصر ، وإن كان الأمر قد اختلف بعد ذلك بصفة خاصة في منطقة المغرب العربي والأندلس ، حيث دخل إلي الجيش عناصر أخرى غير العرب مثل البربر والزنج وغيرهم ، وهذا ما سوف نأتي عليه تفصيلاً في موضع متقدم من هذا المبحث .

– أدت النزعة القبلية العصبية إلي إثارة الفتن والقلاقل :

قوبلت النزعة القبلية العصبية التي اتكأ عليها بنو أمية في نشأة دولتهم ، وكذا في تعضيد هذه الدولة بموجة من عدم الارتياح والسخط عمت العرب والعناصر الأخرى التي انضوت تحت لواء الدولة الإسلامية مثل الفرس والأتراك ، فالعرب أنفسهم لم يقبلوا تفضيل بني أمية للقبائل الشامية على بقية العرب ، والعناصر الأخرى لم تقبل بتفضيل بني أمية للعنصر العربي وترقيته على بقية العناصر ، وكانت هذه الاعتراضات والتحديات كامنة وتبدو على السطح من آن لآخر عندما تتهيأ الظروف ، ومن ثم فقد كانت الدولة الإسلامية في العصر الأموي حبلى بالثورة على السلوكات الأموية .

- كانت النزعة القبلية العصبية من أهم عوامل القضاء على الدولة الأموية :

من أعجب المفارقات التي حملها تاريخ الدولة الإسلامية هو أن النزعة القبلية العصبية التي لعبت دوراً – كما قدمنا – يعتد به في قيام الدولة الأموية ، وعضدت وجود تلك الدولة، وحفظت كيانها إلي ما شاء الله ، كانت هي ذاتها التي لعبت نفس الدور في تقويض تلك الدولة والقضاء عليها ، فالنزعة العصبية القبلية التي ذكاها الأمويون وأوقدوا جذوتها انتشرت في ربوع الدولة وبرزت التحزبات والشرذمات في الأمصار والأقاليم ، وبنفس المنطق فكر المعارضون الأساسيون للأمويين وهم بنو العباس ، الذين كانوا على يقين وقناعة بأن الأمويين سلبوا منهم حقهم الطبيعي والشرعي في الحكم ، فقد سرت بينهم نزعة العصبية والقبلية هم أيضاً ، وظلوا طيلة العهد الأموي وهم يفكرون في كيفية استرداد حقهم المسلوب ، ونمت قوتهم في الوقت الذي كانت تضمحل وتتضعضع قوة الدولة الأموية إلي أن حانت ساعة الثأر وتناطحت العصبيات العربية ، وبرزت التقاليد العربية المرتكنة على قوة النفوذ وسيطرة العصبية ، وخلت الساحة من القيم والمبادئ والأصول الإسلامية ، ورحلت دولة بنى أمية وشيعتها النزعة العصبية القبلية كما وُلدت على يديها .

❖ ابتداع توريث الخلافة :

ننتقل إلي خصية أخرى من خصيّات الدولة الأموية وهي المتعلقة ببدعة توريث الخلافة ، حيث عمد معاوية بن أبي سفيان إلي ابتداع عملية توريث الخلافة لحفظ الملك بذريته ، ثم لإيمانه بقوة العصبية الأموية ورغبتهم في حفظ الملك فيهم ، وكذا تحسباً للمشاكل التي يمكن أن تحدث عند وفاة الخليفة ، ولكن كيف انبعثت تلك البدعة ، وما هي آثارها على الطرح الإسلامي الخاص بأصول السياسة والحكم ، فيما يلي نتناول هذه المسألة ، ونردف ذلك التناول بوجهتنا في مسألة توريث الخلافة ، من خلال الآتي :

- منبع بدعة توريث الخلافة في الدولة الأموية :

تشير المرجعيات التاريخية إلي أن هذه البدعة أشار بها المغيرة بن شعبة أحد العمد الأساسية في الدولة الأموية ، وقد عرضها على معاوية بن أبي سفيان لكي يحتفظ بولايته على الكوفة ، وزين له الأمر وأغراه بأن يعقد لزيد خلفاً له ، وأكد له أنه يضمن له موافقة أهل الكوفة، وسيضمن له زياد بن أبيه أهل البصرة ، وهما أهم مصرين في الدولة ، ولن يخالف أحد بعدهما، واطمأن معاوية للفكرة ، ولكنه أجّلها مرجئاً إياها لحين تحين الظروف ، وبعد وفاة الحسن بن على سعي للبيعة لإبنه يزيد في الأمصار ، وقد أفلح في ذلك تحت الإجبار مرة وبالرضا مرة أخرى .

وقد أثار ذلك السلوك الذي يعد الأول من نوعه في الدولة الإسلامية سخط الأمصار والأقاليم عامة ، وأهل المدينة وأبناء الصحابة خاصة ، وحتى بعض الأمويين أنفسهم ، إلا أن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً ، ولما توفى معاوية جددت البيعة ليزيد تأكيداً للعهد ، وأصبحت هذه عادة يسير عليها الخلفاء في بنى أمية ومن بعدهم بنى العباس .

- موقف الطرح الإسلامي الخاص بأصول السياسة والحكم من توريث الخلافة :

الرجوع إلي الطرح الإسلامي فيما يتعلق بأصول السياسة والحكم والتنقيب في ثناياه عن أداة أو آلية اختيار الحاكم يضع أيدينا على ما أورده ذلك الطرح على سبيل التأكيد من أن الاختيار هو الآلية الوحيدة المعتمدة لذلك الأجراء[1]، ولكن عرف الطرح الإسلامي كذلك تجربة الرديف وهو المؤهل الأول لتولى الحكم بعد الحاكم ، وإن كان لا يُعقد له ولا يُبايع[2] . وبالرغم من أن الطرح الإسلامي كان واضحاً إزاء هذه المسألة ، إلا أن ثمة أموراً ينبغي التدقيق فيها وإمعان النظر ، فلعل في ذلك فائدة . وهذا ما سوف نوضحه فيما يلي .

[1] . يمكن الرجوع إلي تفصيل ذلك في موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الأول ، السياسة والحكم في الإسلام ، الجزء الثاني ، نحو صياغة نظرية سياسية إسلامية معاصرة .
[2] . المرجع السابق .

- رأي في توريث الخلافة :

في هذا الموضع لا نرى غضاضة في طرح بعض الوجهات ، لعل في طرحها فائدة ، حتى ولو من الناحية النظرية أو الفكرية البحتة ، فهي للتذكير حيث أن الذكرى تنفع المؤمنين ، وسوف ننثر هذه الطروحات تباعاً على النحو التالي :

* إن ما قام به معاوية بداءة من تأسيس الدولة الأموية بالرغم من أنه جب للفتنة وحقن لدماء المسلمين ، إلا أنه يعد اغتصاباً للخلافة والحكم رغماً عن جماعة المسلمين ، وذلك لا يتوافق مع الطرح الإسلامي الخاص بأدوات الحصول على الحكم أو نقله .

* إن سلوك معاوية في أخذ العهد لإبنه يزيد على الرغم من معارضة أهل العقد والحل يعد مخالفاً كذلك للطرح الإسلامي في هذا الصدد .

* ولكن ماذا يكون الرأي إذا اتسم الحاكم بالصلاح والتقوى ، ونال رضا وقبول كافة المسلمين ، وكلها صفات تؤهله للحكم وفق الطرح الإسلامي .

* وماذا إذا أخذ العهد لشخص من أسرته يتسم بنفس الصفات ، ونال ذلك أيضاً رضا وقبول المسلمين ؟ ووعد بأن يحكم بما أنزل الله ويقيم شرعه ويعمل بكتابه ويسهر على نشر دينه والدعوة إليه .

* إن الممارسة العملية في فترة الخلافة الراشدة عرفت ظاهرة الرديف ، وهي ظاهرة سياسية تعنى باختيار الخليفة لأحد الثقاة ، ويوصى له بالبيعة من بعده .

* إن أخذ العهد لأحد الثقاة يؤمّن نقل الحكم دون مشاكل أو قلاقل ، ويقي المسلمين شرور الفتن والقلاقل التي تظهر في حالة فراغ مكان الحاكم .

* إذا كان الرديف أو ولى العهد ليس كفئاً فلا يُبايع ولا يؤخذ له العهد ، وذلك لا يلغي حق الاختيار لجماعة المسلمين بل يزكيه .

* إن الخلافة أو الحكم شكل وليس جوهراً ، فالجوهر العمل وفق شرع الله والحكم بكتابه وتطبيق المنهج الإسلامي ، فقد يكون الحاكم مختاراً ولا يلتزم بالأصوليات التي ذكرناها ، وقد يكون الحاكم قد بويع سلفاً وأُخذ له العهد حال وجود سلفه ، ويلتزم بالأصوليات ويقدم نموذجاً فريداً في الصلاح والتقوى وتطبيق المنهج الإسلامي ، فالحاكم إذن اختياراً أو توريثاً إن هو إلا شكلاً ووسيلة ، أما الالتزام بالمنهج فهو الجوهر والأصل ، فمعاوية الثاني جاء بطريقة الوراثة ، وكان مثالاً للزهد في الخلافة وانتقد أباه وجده في طريقة وصولهم إليها . ووصف جده باغتصابها من أصحابها ، كما نعت أباه بعدم الاستحقاق ، ومن ثم فلم يوصى لأحد من بعده بالخلافة ، كذلك جاء عمر بن عبد العزيز بطريقة الوراثة وهو الذي لقب بخامس الخلفاء الراشدين لصلاحه وحرصه على مصالح المسلمين وتفانيه في سبيل الإسلام والدعوة .

**❖ تقوية الجيش لحمل الدعوة خارجياً وحماية الدولة داخلياً : [ إحالة ]**

آخر الخصيّات التي تحمل خصوصية وتفرد الدولة الأموية خاصة بتقوية الجيش الذي لعب دوراً مهماً في هذه الدولة على المستويين : الداخلي المتمثل في حفظ كيان الدولة والحفاظ على وحدتها في مواجهة حركات المعارضة والخروج عليها ، والخارجي المتجسد في الدفاع عن الدولة ضد الاعتداءات الخارجية ، وكذا حمل وتوصيل الدعوة إلى أماكن وبقاع لم يصلها الإسلام من قبل ، وسوف نفصل هذه الجزئية في مواضع مختلفة لاحقة .

## ثانياً : فكرة الأمة المجاهدة وتأسيس الجيش في الدولة الأموية :

الأمة المجاهدة – كما سبق وتحدثنا عنها في أكثر من موضع – تعني جاهزية أفراد الأمة واشتغالهم الدائب بأشكال ونماذج الجهاد في كافة مناحي ومجالات الحياة ابتداءً من مجاهدة النفس وانتهاءً بالصراع العضوي ، وانتهينا بصدد هذه الفكرة إلي مأثورة أن الجهاد كعطّاء فعّال هو فرض عين حتى في حالة السلم ، وأن الجهاد كصراع عضوي هو فرض كفاية حتى ولو تم الاعتداء على المسلمين ، وقدمنا الحيثيات التي تقود إلي تلك المأثورة ، وأردفنا بهذه الفكرة فرضية مفادها أنه يجوز لولي الأمر أن يفرض الجهاد كصراع عضوي على عموم المسلمين إذا رأي أن الأحوال والظروف تتطلب ذلك .

لقد تابعنا بتفصيل وإسهاب فكرة الأمة المجاهدة في عهدي النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، وهانحن نواصل متابعة هذه الفكرة في عهد الدولة الأموية ، لنرى كيف قدّر لرجالات تلك الدولة تكتيل هذه الفكرة وراء الجيش الأموي ، وكيف تم تطويعها وتحويرها لتتلاءم وظروف الدولة ، وذلك من خلال الآتي :

### ❖ خصوصية الدولة الإسلامية والحاجة إلي تقوية الجيش :

قدمنا سلفاً ببعض التفصيل خصيات الدولة الأموية ، وما تمتعت به من تميز وتفرد بسبب نشأتها وظروف قيامها ، ثم بسبب تطورها والمرتكزات التي أرتكنت عليها ، ثم بفعل ما ابتدعه مؤسسها من بدعة توريث الخلافة ، وأخيراً بسبب ما حققته هذه الدولة للإسلام من قوة ومكنة في الداخل والخارج .

وكان من شأن تلك الخصيات وما قادت إليه من تفرد وتميز أن تمثل دواعٍ قوية لتأسيس جيش قادر على تحقيق أهداف الدولة الأموية ، حتى تتجاوز ظروفها الخاصة ، وتحقق أهدافها التي بدت طموحة ومكلفة ، ويمكننا القول بأن الجيش الأموي كان أهم سمات

دولة بنى أمية ، كما كان في ذات الوقت أساس وجودها ومحور حركتها ، وسيتضح ذلك من خلال التحليلات اللاحقة :

- القوة دعامة أساسية في دولة بنى أمية :

بالفعل كانت الدولة الإسلامية في عصر الأمويين في أوج قوتها وعنفوانها ، وقد ارتكن الأمويون إلي القوة متمثلة في جيش قوى نظراً لأهمية تلك القوة في ردع الخصوم الذين يتربصون بهذه الدولة الدوائر في الداخل ، وردع العدو التقليدي الخارجي وهو البيزنطيون، واستكمال الفتوحات ونشر الدعوة التي بدأت في عصر الخلافة الراشدة .

ومن ثم صار الجيش محور اهتمام الدولة وشغل قادتها الشاغل ، بكافة متطلباته من عنصر بشري وتسليح وتخطيط وقيادات ، واتسم الجيش الأموي من حيث عناصره وتنظيمه وتشكيله وتسليحه وعقيدته القتالية وقياداته بسمات خاصة أضفت جميعها عليه طابع القوة والمكنة .

وبدا ارتكان الأمويين إلي القوة حتى في اختيارهم لولاتهم وعمالهم ، فقد كانوا يتخيرون من الولاة الأقوياء ومن العمال الأشداء ، ويحضونهم على الشدة والعنف في التعامل مع الخصوم والمعارضين وحتى مع عموم الناس ، وكان أشهر هؤلاء جميعاً الحجاج الثقفي ، الذي حظى بشدته وقسوته بتقدير خلفاء بنى أمية وباحترامهم .

وكأن التحليل يفضي إلي أن نشأة الدولة الأموية ، والظروف التي عايشتها منذ قيامها ، ووقائع تطورها ، والتبعات التي ألقيت على عاتقها ، قد فرضت عليها الجنوح إلي القوة والتحصن الدائم بها ، نظراً لأهميتها ولزوميتها داخلياً وخارجياً .

ويمكن القول بأن قوة الدولة الأموية لم تكن تتمثل فقط في قوة الجيش والاستحواذ على مقدرات وإمكانات إدارة الصراع العضوي ، بل تجاوزت ذلك إلي القوة الاقتصادية كذلك

، فقد كان اقتصاد الدولة الأموية من القوة بما ساعد على تجهيز الجيش والإنفاق عليه ، وكان ذلك يتم في المعتاد بفرض الضرائب وجباية الأموال .

- الدور السياسي للجيش الأموي :

كانت أحداث الفتنة الكبرى إيذاناً ببدء تدخل الجيش الإسلامي في السياسة ، وشرع يلعب دوراً في ترتيب العملية السياسية وتوزيع الأدوار ، ويحتل موقعاً في خريطة توزيع القوى السياسية في المجتمع الإسلامي ، ويمكن القول بأن الجيش هو الذي حسم الصراع على الحكم بين معاوية والحسن بن علي ، ولولا قوة الجيش الذي ذهب به معاوية إلي العراق غازياً لما أمكنه السيطرة على الموقف وحسم الأمر لصالحه .

منذ ذلك التاريخ والجيش الأموي يلعب دوراً يعوّل عليه في الشئون السياسية ، فقد صار إحدى القوى السياسية التي يحسب حسابها في توزيع القوة على خارطة المجتمع الإسلامي ، وتسييس الجيش في العصر الأموي كان مواكباً لظروف الدولة وظروف نشأتها — التي سبق وتناولناها — وظل للجيش دور سياسي طيلة فترة الحكم الأموي .

فالجيش كان قوة داعمة للحكم الأموي ، واللجؤ إليه لحسم الصراعات ووأد حركات التذمر والتمرد كان أمراً طبيعياً ومعتاداً ، والتلويح به دوماً لتخويف الخصوم القائمين والمحتملين كان من سمات الحكم الأموي في معظم فتراته .

❖ بروز ظاهرة العزوف عن الجهاد :

الخلافات والصراعات المذهبية بين أبناء الأمة الإسلامية بدأت تفرغ فكرة الأمة المجاهدة من مضمونها القيم ودلالاتها العظيمة ، فلأول مرة يعزف المسلمون عن الجهاد في الجيش الأموي، وكان ذلك سلوك المعارضين لبنى أمية ، وقد استند هؤلاء إلي أسانيد وحجج شرعية تحرم الجهاد في الجيش الأموي ، تحت دعوى عدم شرعية الجيش المنبثق من عدم شرعية الدولة الأموية ذاتها .

ومن ثم فقد قعدت الأمة عن الجهاد ، وتقاعست عن الصراع العضوي كشكل من أشكاله ، وكان ذلك مبرراً وجيهاً لأن يتجه الناس إلي العمل في مجالات شتى من مجالات الحياة ، ويتركوا الجهاد في سبيل الله بكافة نماذجه وأشكاله والتي منها الصراع العضوي .

❖ **اللجؤ إلي التجنيد الإجباري :**

أمام أهمية الجيش — التي سبق إيضاحها — في كيان الدولة الأموية ، كان لابد من تلمس كافة السبل لتقوية الجيش ، وإمداده بالأعداد اللازمة من المقاتلين ، وإزاء عزوف الناس عن الجهاد بكافة أشكاله ونماذجه والتي منها الصراع العضوي والذي يتم بالانخراط في الجندية ، إزاء هذا وذاك لم ير الأمويون بداً من فرض التجنيد الإجباري الذي لجأ إليه ونفذه الحجاج الثقفي ، وظل نظاماً ثابتاً بعد ذلك .

## ثالثاً : تنظيم الجيش في العصر الأموي :

اكتسب الجيش في العصر الأموي خصائص جديدة ميزته عن الجيش في فترة حكم الخلافة الراشدة ، وذلك بسبب ما لحق دور الجيش وأهدافه من تغيير ، وما اعترى أسسه واستراتيجياته من تبديل ، وانعكس كل ذلك على تنظيم الجيش في العصر الأموي ، والتوضيح فيما هو تالي :

❖ **الجيش والظاهرة الصراعية :**

الظاهرة الصراعية هي التي تعنى بتصادم الإرادات الإنسانية ، ويهدف الصراع دائماً إلي رغبة كل طرف في إخضاع إرادة الآخر أو إنهاء وجوده ، والجيش هو دائماً أداة الصراع العضوي بين إرادات الوحدات النظامية ، وقد اتسعت دائرة علاقة الجيش الأموي بالظاهرة الصراعية انطلاقاً من الظروف التاريخية التي وجدت فيها هذه الدولة ، وكذا

الأعباء والتبعات التي تحملتها فيما يتعلق بالدعوة الإسلامية والدفاع عن الدولة ، وسوف نتتبع علاقة الجيش الأموي بالظاهرة الصراعية من خلال الآتي :

- الجيش أداة لإدارة الصراع العضوي :

كان الجيش الأموي أداة سريعة وحاسمة وفعالة في إدارة الصراع العضوي ، وقد تعددت وتباينت الصراعات العضوية التي خاضها الجيش الأموي داخلياً وخارجياً ، وبالرغم من أوجه التشابه بين الجيش الأموي والجيش في فترة الخلافة الراشدة ، إلا أن الجيش الأموي فيما يتعلق بإدارة الصراع العضوي كان أكثر استجابة وأوسع طموحاً ، فقد أطلق له الخلفاء الأمويون العنان فصال وجال في أقطار الأرض ، ولم يكن ذلك على سبيل العبث واحتراف الصراع وامتهان الحرب ، ولكن كان القصد والغاية هو حمل الدعوة وتوصيلها ، والدفاع عن الدين والدولة .

والصراعات التي خاضها الجيش الأموي كانت صراعات خارجية كما كانت كذلك صراعات داخلية ، توزعت الصراعات الخارجية بين صراعات الإرادات التي حاولت إعاقة وصول الدعوة إلي المخاطبين بها ، والصراعات الأممية النظامية ، أما الصراعات الداخلية فقد انقسمت إلي صراعات مع الخصوم السياسيين والمعارضين ، وصراعات مع الخارجين على الدولة ومن شقوا عصا الطاعة ، وقد اعد الجيش الأموي لكل صراع عدته وأدوات خوضه وإدارته .

- الجيش وإخضاع إرادة الآخر :

في فترة حكم بنى أمية تعددت الإرادات التي لم يكن لإخضاعها من سبيل إلا عن طريق الجيش ، ففي الداخل كان هناك الخصوم السياسيون والمعارضون ، وكان هناك كذلك الحركات التي انتشرت في بعض الأقاليم للخروج على الحكم الأموي وزعزعة استقرار الدولة، وهذه وتلك كان الجيش الأموي يتدخل لإخضاعها وإجبارها على الانصياع .

وفي الخارج كان هناك إرادات من يحولون دون وصول الدعوة الإسلامية إلي الشعوب ، وكان على الجيش الأموي أن يتعامل مع تلك الإرادات على غرار تعامل الجيش في عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، ثم كان هناك إرادات الوحدات النظامية التي وُجدت في زمن الأمويين وكان لا مفر من السعي الجاد والصارم لإخضاع إرادتها كتعبير من تعبيرات الردع ، وكان ذلك هو شأن الإمبراطورية البيزنطية ، التي يمكن القول أن الأمويين كانوا على قناعة بضرورة التعايش بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية بشكل أو بآخر ، وإن كان ذلك لم يوقف الصراع العضوي فيما بينهما الذي بدا من وقت لآخر .

– الجيش والصراع الأممي النظامي [ العلاقات الأممية ] :

لقد أفردنا هذه الجزئية لمسألة الصراع الأممي النظامي ، بالرغم من أنها إحدى أشكال الصراع التي كان الجيش الأموي يمثل أداتها الوحيدة ، لأهمية هذه المسألة فيما بعد بخصوص العلاقات الأممية في تلك الفترة ، وبخصوص ما عرف من دلالات مبكرة لظاهرة التوحد المكاني وسيادة الأقوى التي نعرفها الآن بالعولمة ، لقد عهد الجيش الإسلامي في فترة الخلافة الراشدة إدارة الصراع الأممي ، وأجاد فيه ، وقدّر له أن يحسم وقائع عديدة من ذلك الصراع لصالحه ، فتمكن من صراع أمة الفرس ودعوتهم إلي الإسلام فاستجابوا للدعوة ودخلوا في دين الله أفواجاً ، كما تمكن من صراع أمم أخرى عديدة ، ونقل إليها الدعوة ، وقبلت دعوة الإسلام، واعتنقتها عن قناعة واختيار ، إلا أن الجيش الأموي خاض صراعاً مع أمة أخرى ، تعد قاعدة انطلاق أساسية ومهمة لحضارة ذات أصول وجذور ضاربة في أعماق التاريخ ، وكانت امتداداً وتواصلاً لما يعرف اليوم بالحضارة الغربية ، تلك كانت الحضارة الرومانية وأداتها النظامية المتمثلة في الدولة البيزنطية .

لقد خاض الجيش الأموي صراعاً مع الدولة البيزنطية ، وهو يدرك أنها التعبير النظامي عن حضارة وثقافة ذات خصوصية ، ومن ثم فلم يكن على يقين من أنه سيُخضع إرادة

تلك الدولة بشكل حاسم ، بل أدرك أن ذلك الصراع سيظل سجالاً بين طرفين ، لأن كلاً منهما يملك ذاتاً حضارية ومنطقاً ثقافياً يعتد به ، ولقد انتهت الدولة الأموية كإحدى فترات التاريخ الإسلامي وحلقاته المتواصلة ولم ينته الصراع بين المسلمين والروم ، وحتى عندما سقطت الدولة البيزنطية على أيدي الأتراك العثمانيين ، لم يكن ذلك إيذاناً بانتهاء حضارة الرومان وثقافتهم ، وسوف نفرد لهذه الجزئية تحليلاً خاصاً في الجزء التاسع من هذا المجلد .

- الجيش الأموي وإقرار الأمن الداخلي :

أوضحنا أن الجيش الإسلامي قد خاض تجربة إقرار الأمن الداخلي للدولة ، وإخضاع إرادات الخارجين في فترة الخلافة الراشدة ، ولعل الجيش نفسه هو الذي حسم الشكل الصراعي للإرادات المتناطحة داخل كيان الدولة الإسلامية ، وأوجد الدولة الأموية تتمة لتداعيات الفتنة الكبرى ، فلم يكن جديداً على الجيش الأموي أن يتقن دوره المتمثل في إقرار الأمن الداخلي وإخضاع إرادة المناهضين للدولة والخارجين عليها ، وكان الأمويون في ذلك غلاظاً شداداً لا يخشون في ذلك لومة لائم ، وقد أعدوا لهذه الأدوار قواداً كانوا أكثر شهرة في التاريخ الإسلامي من خلفاء بني أمية أنفسهم ، وقد تمكن الجيش الأموي من القيام بهذا الدور بشكل جيد ، إلا أنه عندما ضعف الجيش وضعفت قدرته على القيام بدوره السياسي الذي أُعد له في الدولة الأموية ، لم يتمكن من السيطرة على الأوضاع وكانت النهاية ، وهذا ما سوف نوضحه في العنصر التالي .

- الدور السياسي للجيش الأموي :

الجيش الأموي كان منذ قيام الدولة إحدى القوى السياسية التي لها دور في الحياة السياسية، والدور السياسي للجيش الأموي تمثل في قيامه بالحفاظ على شكل الحكم

وقواعد اللعبة السياسية كما يريدها حكام بنى أمية ، فهو حارس لبدعة توريث الخلافة ، وأمين حفيظ على قواعد انتقال الحكم من حاكم إلي آخر ، وهو سيف مسلط على رقاب من يعترض أو يعارض نظام الأمويين وطريقتهم المثلى ، وظل كذلك حريصاً على دوره كفئاً في القيام به ، ومن ثم ظلت الدولة قوية ومسيطرة على كيانها .

وعندما ضعف الدور السياسي للجيش ونُحّي جانباً ، قويت شوكة المعارضين ، وعمدوا هم أيضاً إلي تكوين جيش مقابل ، وبدا أن زمام الأمور سيفلت من بين يدي الأمويين ، وهذا ما حدث عندما أدت القبلية العصبية التي أقامها الأمويون ، وأقاموا عليها حكمهم إلي تفسخ الجيش وتمزق وتشتت ولائه بين القبائل ، في هذا الوقت كانت قوة المعارضين الأساسيين لبنى أمية وهم العباسيون في تصاعد مستمر ، وشكلّوا قوة لا يستهان بها ، لم تقم على أساس قبلي عصبي ، ولكن على أساس ديني شرعي قوامه الانتساب إلي رسول الله وآل بيته ، ومن هذا المدخل نفذ العباسيون إلي عقول الناس وربما قلوبهم ، وكانت الدولة الأموية قد ذهبت ريحها وولى زمانها .

– الجيش الأموي وحمل وتوصيل الدعوة :

لقد برع الجيش الأموي في حمل وتوصيل الدعوة الإسلامية إلي أقوام في مناطق شتى ، فقد وصل الجيش الإسلامي في العصر الأموي إلي موسكو الحالية ، وتجاوز الحدود الفاصلة بين شبه جزيرة أيبريا وفرنسا ، وتوغل في وسط أوربا ، وفتح جزر صقلية وكريت وقبرص وجنوب إيطاليا وأجزاء من جنوب اليونان .

لقد عمد الجيش الأموي في نشر الدعوة إلي الأسلوب الذي اتبعه الجيش الإسلامي في عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة — كما سبق وأوضحنا — وقد قام ذلك الأسلوب على حمل الدعوة في ركابه ، ثم توصيلها من خلال إزالة الحواجز التي تحول دون وصولها إلي

الشعوب ، وبعد ذلك يلتقي الدعاة بالناس فيبلغونهم بالدين الجديد ، ويدعونهم إلي الدخول فيه ، ويتركون لهم حرية الاختيار .

### ❖ العنصرية القبلية والجيش الأموي :

ذكرنا مراراً أن العنصرية القبلية كانت من أهم سمات الدولة الأموية ، وقد قامت الدولة على هذه الخصيصة مستفيدة منها ، ولكنها جلبت عليها التداعيات والنواقص ، بل وقادت في نهاية المطاف إلي سقوط هذه الدولة ، وإذا كانت العصبية القبلية قد أفرزت نتاجها السيئ على الدولة الأموية ، فهل كان لها تأثير يذكر على الجيش ، في الحقيقة لقد مدت العصبية القبلية آثارها إلي الجيش بشكل واضح حتى أدت إلي انهياره هو الآخر ، ويمكن إيضاح ذلك على النحو التالي :

- نظرة في ولاء الجيش الإسلامي الأموي :

سؤال يطرح نفسه بإلحاح في هذا الصدد ، وهو إذا كانت العصبية القبلية قد استشرت في شئون الدولة الأموية وكانت لها مثالبها ، وقد انتقلت كذلك إلي الجيش الأموي ، فهل قادت إلي تشتت ولاء الجيش وتوزعه بين الدولة الإسلامية والنظام الإسلامي بأصوله وقيمه وأهدافه، وبين الحكام الأمويين كأشخاص بذوات وصفات ؟ .

الحقيقة أن الجيش الإسلامي الأموي قام بدوره فيما يتعلق بحمل الدعوة وتوصيلها إلي كافة الأنحاء باسم الإسلام ، وممثلاً للدولة الإسلامية ، وكان ولاؤه منصرفاً تماماً للدين الحنيف ، فلقد استكمل الجيش الأموي فتح شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلنطي ، وعبر مضيق جبل طارق ليفتح شبه جزيرة أيبريا وجنوب القارة الأوربية وجزر البحر المتوسط باسم الإسلام ، ثم انطلق ذلك الجيش من وسط أسيا نحو الشمال حتى مدينة موسكو أيضاً باسم الإسلام ، ولم يحمل الدعوة باسم الأمويين ، بل كان موحد الولاء للإسلام والدعوة الإسلامية .

ولكن كان من الطبيعي أن يتجه ولاء الجيش على مستوى الأحداث والتطورات الداخلية إلي الأمويين ، فهم الذين أقاموا الدولة وعلى الجيش حماية هذه الدولة التي تنسب إلي بنى أمية ، والذين يجتهدون من أجل أن يظل الحكم فيهم ولأبنائهم من بعدهم ، فالجيش الأموي كان يحمى الحاكم ونظامه الذي كان ينطلق من عصبية قبلية هي بنو أمية وأنصارهم من العصبيات والقبائل ، فالجيش الإسلامي في فترة حكم الخلافة الراشدة كان يحمى الدولة الإسلامية ونظامها الإسلامي ولا يحمى الخليفة الراشد ، ومن ثم فولاؤه الداخلي كان للدولة الإسلامية كشخصية اعتبارية ونظامها السياسي ، أما الجيش الإسلامي الأموي فكان يحمى الخليفة الأموي وعصبته وقبائله ، ويؤمّن وجودهم ضد أية معارضة أو خروج عليهم .

إذن الحديث عن ولاء الجيش الإسلامي الأموي يستوجب التفرقة بين الوظيفة الخارجية للجيش ، التي كان ولاؤه بخصوصها موجهاً للدولة الإسلامية والإسلام والدعوة إلي الدين الحنيف ، وبين الوظيفة الداخلية المتمثلة في حفظ كيان الدولة والحفاظ على وجودها ، وكان ولاؤه بصددها موجهاً إلي الأمويين كعصبية قبلية ، حيث تمثل هدف الجيش في الحفاظ على الحكم في أسرة بنى أمية .

وكان ذلك هو الحال في بداية قيام الدولة الأموية ، إلا أنه بعد أن اتسعت رقعة الدولة ودخلتها عناصر جديدة من الأتراك والزنج والبربر ، والذين انضموا للجيش الأموي وأبلوا بلاءً حسناً في الفتوحات التي قادها الجيش ، وساهموا بفعالية في حمل وتوصيل الدعوة وتبليغها ، تعدّلت وضعية ولاء الجيش الإسلامي الأموي للأمويين كعصبية قبلية ، وقلّ تدريجياً تأثير الجيش في السياسة وتدخله المستمر لإحباط وقمع حركات التمرد والخروج ، حيث شغلت العديد من العناصر المذكورة الأدوار القيادية ، وهذه العناصر لم يكن لديها ولاء مسبق للأمويين بل كان ولاؤها رأساً وأساساً للإسلام ، ومن ثم بدأت تضعف قبضة

الجيش على الأمور الداخلية ، وشرع يتخلى تدريجياً عن حمايته التي كان يكفلها للعصبية الأموية ، وذلك سهل مهمة العباسيين الذين كانوا يعدون العدة لانتهاز هذا الخلل في تركيبة علاقة الجيش بالحكم الأموي ، كي يقفزوا على الدولة الأموية التي كانت قد هرِمت وخارت قواها .

- العنصرية القبلية وتنظيم الجيش الإسلامي الأموي :

كذلك ظهرت العنصرية القبلية في تنظيم الجيش الأموي ، فقد كان الجيش الأموي عند تأسيسه يعتمد على القبائل الموالية للأمويين في الشام فكان جيشاً قبلياً عنصرياً ، وكان تسجيل الجند يتم حسب القبائل والعصبيات وليس حسب القرى والمدن ، وأدى ذلك إلي وجود فوارق بين الجند منبعها العصبية القبلية ، وبدت سيطرة الشوام على الجيش الأموي وعلى العنصر العربي فيه ، وقاد ذلك إلي تذمر العديد من المقاتلين وكذا القبائل العربية .

وفي مرحلة تالية خفت حدة هذه الوضعية بدخول عناصر غير عربية عديدة إلي الجيش الأموي ، مثل الفرس والأتراك والزنج والبربر ، وبدأوا في مزاحمة الشوام فاختفت تدريجياً عملية التفرقة ، ولكن ظلت القيادات والمراكز المهمة في الجيش تحت سيطرة الشوام ، وما يمكن قوله أن تلك التفرقة قد فتت في عضد الجيش ، وفتّرت من حماسه للدفاع عن الدولة الأموية ، فتركها نهباً لخصومها الأقوياء الذين كانوا في أوج قوتهم .

## ❖ الاستنفار :

الاستنفار – كما سبق وأوضحنا – يعنى بجملة الإجراءات التي تتّبعها الدولة من أجل تجميع العنصر البشري للالتحاق بالجيش لتولى مهام إدارة الصراع العضوي ، وقد تناولنا عملية الاستنفار في عهدي النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، من خلال شرح وتحليل

العلاقة الارتباطية بين مدركي " الأمة المجاهدة " و " الأمة المقاتلة " ، ونظراً لاختلاف الأوضاع داخل الدولة الأموية عن العهدين المذكورين ، لذا لزم أن نوضح إجراءات الاستنفار وأطرها الفكرية في تلك الدولة ، وذلك من خلال ما يلي :

– التجنيد الإجباري الذي حل محل الأمة المجاهدة :

انتهينا إلي أن الأمة المجاهدة تعنى أن أبناء الأمة الإسلامية في حالة جهاد ذاتي متواصل في أشكال ونماذج عديدة ، وهم جاهزون دوماً إلي القيام بآخر أشكال ونماذج الجهاد المتمثل في الصراع العضوي ، إلا أن الوضع في الدولة الأموية قد اختلف عن الوضع المذكور ، فلم يعد أبناء الأمة يملكون الجاهزية لأن يقوموا بالصراع العضوي في أي لحظة بل انصرفوا إلي مصالحهم وشئونهم الخاصة ، ثم أنهم اعرضوا في كثير من الأحوال صراحةً عن الانضمام إلي الجيش لأداء مهام الصراع العضوي حيث اضمروا للدولة الأموية الكره وعدم الارتياح .

بالرغم من استمرار نموذج الجهاد بشكله الذي كان في عهدي النبوة الزاهر والخلافة الراشدة على نطاق ضيق ، مال الأمويون إلي تضخيم عدد الجيش لتعدد مهامه داخلياً وخارجياً ، فلجئوا إلي التجنيد الإجباري الذي ابتدعه الحجاج الثقفي ، ليصبح بعد ذلك أساساً ثابتاً ونظاماً يعوّل عليه ، ويحل محل مفهوم الأمة المجاهدة بشكل نهائي .

– البعد التنظيمي لعملية الاستنفار :

الاستنفار هو أول مراحل تأسيس الجيش ، والبعد التنظيمي أول إجراءات عملية الاستنفار ، ويعنى البعد التنظيمي الإجراء المتعلق تحديداً بتجميع الأفراد واستقطابهم للالتحاق بالجيش ، وهذا البعد الإجرائي كان في الدولة الأموية ذو خصوصية ، حيث تداخل مع النزعة العصبية القبلية التي انتشرت في زمن الأمويين وعوّلوا عليها في تأسيس دولتهم ،

وبالرغم من ذلك استجدت تطورات حَدت من هذه النزعة وحجّمت من آثارها ، ويمكن إيضاح ذلك من خلال ما يلي :

* في بداية عهد الدولة الأموية كانت القوة العسكرية الضاربة والفعّالة للجيش الإسلامي الأموي مركزة في المقاتلين الشوام التابعين للقبائل الشامية الموالية للأمويين في سوريا ، كما تركزت كذلك في حاميات واسط والكوفة والبصرة وخراسان ، بالإضافة إلي تنظيمات عسكرية قوية في الجزيرة الفراتية .

وكان استنفار الجند الشامية يتم من خلال تسجيلهم في ديوان الجند ، وهم في مقدمة مقاتلي الجيش الأموي ، وكانوا يفضلون بقية المقاتلين نظراً لانتماءاتهم العصبية والقبلية ، وكان ذلك مثار حنق وتبرم أفراد الجيش الأموي الذي أثر في كثير من الأحوال على أداء الجيش وربما على تماسكه ووحدة بنيانه .

* كان استنفار جيش الفتح يتم من خلال تسجيل المقاتلين الشوام ، ثم تجميع المقاتلين من الولايات والأمصار ، وكان جيش الفتح يعنى الجيش المخصص لحمل الدعوة وتوصيلها إلي المناطق والأقاليم المختلفة ، وقد تعددت العناصر العربية التي ائتلفت جميعها في كنف الجيش الإسلامي – وهذا ما سنوضحه بعد قليل – الذي انطلق في كافة الاتجاهات ليكمل مسيرة الفتح التي بدأها جيش الخلافة الراشدة ، وقد أبلى هذا الجيش بلاءً حسناً فيما يتعلق بتوسيع نطاق الدولة الإسلامية ، حيث وصل بحدود هذه الدولة إلي ما لم تصله من قبل ولم تصله بعد ذلك .

* كذلك عُرف الاستنفار المحلي في كل ولاية أو إقليم ، وذلك لتشكيل الحاميات العسكرية والقوات المرابطة بشكل مستديم في الثغور والحصون والحدود ، وقد اهتمت الدولة الأموية بهذه الجيوش ، وعوّلت عليها في حفظ الأمن الداخلي والاستقرار السياسي

، كما بدت أهميتها كذلك كقوات دائمة لصد الاعتداءات الخارجية على الحدود والمدن الحدودية والسواحل البحرية .

• كان العنصر العربي هو السائد في الجيش الإسلامي الأموي ، وعلى رأس العنصر العربي جاء الجند الشوام ، إلي أن فتح الأمويون الشمال الأفريقي وشبه جزيرة أيبريا [ الأندلس ] ، وعند ذلك دخلت عناصر أخرى غير عربية إلي الجيش الإسلامي ، ومن ثم ضم الجيش الإسلامي عناصر فارسية وحمراوية وأساوره وسيابجه وزط ونحارية وأتراك وبربر وزنج وغيرهم ، وقد قلل دخول هذه العناصر إلي الجيش الأموي من سيطرة العنصر العربي ، كما حدّت من النزعة العصبية القبلية التي وضعت المقاتلين الشوام على رأس الجيش ، وقد أضافت هذه العناصر للجيش الإسلامي قوة ضاربة جعلت منه أقوى جيش في ذلك الوقت ، وكان بالفعل جيشاً إسلامياً تكويناً ومقصداً ، وتمكن هذا الجيش الإسلامي من تحقيق فتوحات لعلها الأعظم في التاريخ الإسلامي .

• في العصر الأموي عادت إلي الظهور إحدى الظواهر التي أمدت الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوَل برافد من المتطوعين المسلمين من عناصر شتى ، التحقوا بالجيش الأموي غالباً على نفقتهم الخاصة وبمعداتهم الخاصة بالحرب ، وفي كثير من الأحيان كانوا يساهمون في تكاليف الحرب ، وقد عرفت مساهمة هؤلاء في الجيش الأموي " بالتناهد " ، وقد كان لهؤلاء المتطوعين دور مهم في انتصارات الجيش الأموي وفتوحاته .

• ثمة قضية في هذا السياق جديرة بالإشارة والاعتبار ، وهي أن الجيش الأموي في المعتاد لم يكن جيش بعثات مؤقتة ، ولكنه كان أكثر ميلاً إلي الجيش النظامي العامل ، الذي هو في حالة جهاد مستمر ، حيث لم تتوقف فتوحات الجيش الإسلامي الأموي منذ تأسيس الدولة الأموية ، وقد ترتب على ذلك أنه لم يكن باستطاعة المقاتلين أصحاب

العطاء ، أي الذين يتقاضون راتباً من الجيش أن يعودوا إلي ديارهم ، كما كان يحدث غالباً في الجيش الإسلامي في عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، وذلك لثلاثة أسباب : الأول : أن البعثات الفتوحية لا تتوقف – كما قدمنا – فهي دائمة وفي كافة الاتجاهات ، الثاني : أن العطاء أو الراتب الذي يتقاضاه المقاتل قد يتوقف إذا ترك الجهاد وعاد إلي موطنه ، مما جعل منه مجاهداً نظامياً دائم التواجد في ميدان الجهاد ، الثالث : أن الانضمام إلي الجيش كان قد بات إجبارياً في العصر الأموي — كما أوضحنا — ولم يكن بمقدور المجاهد أن يعود أدارجه بإرادته المنفردة .

أما فيما يتعلق بالمتطوعين الذين سبقت الإشارة إليهم ، فكان باستطاعتهم العودة إلي أماكنهم إذا انتهت بعثة من البعثات التي ساهموا فيها بشكل خاص ، أما إذا كان الجهاد متواصلاً فلهم أن يعودوا أدراجهم متى شاءوا .

– البعد العقيدي :

البعد العقيدي ودوره في التأثير على حركة ومنطلقات الجيش الأموي الإسلامي يعد من الموضوعات الجديرة بتكثيف الضوء عليها وإبرازها في موضوعية وحيدة ، نظراً لما شابها وثار حولها من تهويمات ، وعليه فإشكالية البعد العقيدي في الجيش الإسلامي الأموي سنتطرق إليها على النحو التالي :

• كان للظروف التاريخية والموضوعية التي نشأت في رحابها الدولة الأموية ، وما أدت إليه من قيام معارضة لتلك الدولة في العديد من الولايات والأقاليم ولدى قطاع عريض من المجتمع الإسلامي ، دور يعتد به في انبعاث حركة تشكيك واسعة النطاق في شرعية قيام تلك الدولة، وكان من شأن ذلك أن يؤثر بفعالية على البعد العقيدي كمحفز للجيش وكقوة دافعة له في تحقيق أهدافه ، وبصفة خاصة على المستوى الداخلي المتعلق بقمع حركات

التمرد والخروج، تزامن مع ذلك ، وربما ترتب عليه انتشار موجة العزوف عن الجهاد في صفوف الجيش الأموي ، والتشكيك في شرعيته وشرعية أهدافه .

ـ إذا كان ما تقدم قد أثّر بشكل أو بآخر في حركة الجيش الأموي على المستوى الداخلي فإنه لم يؤثر بشكل فعّال في حركته على المستوى الخارجي ، فقد انطلق إلي تحقيق أهدافه في حمل وتوصيل الدعوة دون عائق أو مثبّط ، وذلك يعنى أن البعد العقيدي كان له دوره الفعّال كمحفز ودافع فيما يتعلق بنشر الدعوة الإسلامية ، وهذا يؤشر بقوة إلي أن الدعوة الإسلامية في قلوب وعقول الأكفّاء من أبناء الأمة لم تكن لتتأثر بالحساسيات والاختلافات المذهبية ، فهي كانت دوماً فوق هذه الاختلافات وفي معزل عن الرغبات والمآرب الذاتية .

ـ كان لانضمام عناصر عديدة غير عربية إلي الجيش الأموي دوره المؤثر في التخفيف من حدة حركة التشكيك السابق الإشارة إليها في الجيش ، وبالذات فيما يتعلق بحركته من أجل الدعوة ، حيث اتسمت تلك العناصر بإيمانها الصافي الذي لم تشبه شوائب وإرسابات الخلافات والاختلافات المذهبية ، واحتفظت بحماسها وحميتها التي توجهت بكاملها نحو حركة الجيش المتمثلة في حمل وتوصيل الدعوة ، ومن هنا كانت أهمية تلك العناصر في استمرارية وتواصل حركات الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي .

– البعد النفسي :

على المستوى الخارجي المتعلق بحمل وتوصيل الدعوة كان للعامل النفسي أهميته وتأثيره في الجيش الأموي ، فقد خبرت قيادات الجيش الأموي التعامل مع العامل النفسي لدى المجاهدين، مستثمرين في ذلك التعامل المدخل العقيدي ، حيث كان الأخير دوماً أداة للترقي بمعنويات الجنود ودفعهم تلقاء الجهاد بصبر وإقدام وجلد ، ولعل مسيرة طارق بن

زياد وموسى بن نصير نحو شبه جزيرة إيبريا وعبورهما المضيق في ظروف صعبة ذات دلالة في هذا السياق ، كما أن الحصار الطويل الذي فرضه مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية على مدينة موسكو في أحوال قاسية وكانت على وشك السقوط ، لهو أيضاً من قبيل الترقي بمعنويات المقاتلين عبر البعد العقيدي .

### ❖ تقوية الأسطول الإسلامي :

تناولنا في فترة الخلافة الراشدة كيف تم تأسيس الأسطول الإسلامي في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان بمجهودات القائد الجريء معاوية بن أبي سفيان ، وفي هذا الموضع نواصل متابعة الجهود التي بذلها ذلك القائد من أجل تقوية الأسطول الإسلامي :

- بناء قطع الأسطول :

الاهتمام بالأسطول هو نوع من الاستنفار ، فعندما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة عمد إلي الاهتمام بإنشاء السفن الحربية ورتب لمواجهة البيزنطيين ، الذين كانوا يمثلون في ذلك الوقت العدو التقليدي للدولة الإسلامية ، وبلغ عدد سفن أسطول الشام ١٧٠٠ سفينة من أنواع عديدة .

وفي عام ٤٨ هـ وجه معاوية بعثة لفتح القسطنطينية ، ولكن هذه البعثة أخفقت في تحقيق أهدافها بسبب الخبرة المحدودة للأسطول الذي تلقى نيراناً من الحصون والقلاع البيزنطية لم يعهدها المسلمون من قبل ، وبسرعة استوعب المسلمون الدرس وشرعوا في التوقي والاستعداد للحروب البحرية .

وفي العام التالي ٤٩ هـ رد البيزنطيون بهجوم على سواحل الشام ، تسبب في خسارة فادحة للمسلمين وكانت استجابة معاوية سريعة وحاسمة ، حيث أنشأ داراً لصناعة السفن في مدينة عكا ، نُقلت في خلافة هشام بن عبد الملك إلي مدينة صور .

استعمل معاوية بن أبي سفيان على الأسطول الإسلامي عبد الله بن قيس الذي قاد خمسين بعثة صيفاً وشتاءً ، ونجح جنادة بن أبي أمية في فتح جزيرة رودس في عام ٥٢ هـ ، وفي عام ٥٤ هـ استولىُ ابن أبي أمية على جزيرة أرواد وفتحها وأتخذ منها قاعدة لانطلاق بعثاته ضد القسطنطينية ، وفتح جزيرة كريت في عام ٥٥ هـ .

في العام ٥٤ أسس معاوية بن أبي سفيان داراً لصناعة السفن في جزيرة الروضة بمصر على يد واليه على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ، وكان ذلك بعد أن غزا الروم مدينة البرلس في شمال مصر في عام ٥٣ هـ ، وفي عام ٦٨ هـ هاجم أسطول إسلامي جزيرة صقلية قبل أن يفتحها المسلمون وغنم منها مغانم كثيرة .

وفي عهد عبد الملك بن مروان أتخذ واليه على تونس حسان بن النعمان الغساني داراً لصناعة السفن في تونس في عام ٨٩ هـ .

كذلك حرص الخليفة الوليد بن عبد الملك على صناعة السفن والاهتمام بالأسطول الإسلامي. فازدهرت في عهده تلك الصناعة في كل من جزيرة الروضة والقلزم وهي السويس الحالية والإسكندرية ، ووصل عدد قطع الأسطول الإسلامي في خلافة سليمان بن عبد الملك إلي ١٨٠٠ سفينة من أنواع مختلفة .

لقد كانت وحدات الأسطول الإسلامي في العهد الأموي في البحر المتوسط تتوزع على خمس وحدات : أسطول الشام ومركز قيادته اللاذقية ، وأسطول أفريقيا ، وأسطول مصر ومركزه الإسكندرية ، وأسطول النيل ومركزه بابليون ، وأسطول خاص لحراسة النيل .

أما البحرية الإسلامية إجمالاً في العصر الأموي فقد انقسمت إلي قسمين منفصلين : القسم الأول : هو أسطول البحر المتوسط – الذي ذكرناه لتونا –القسم الثاني : هو أسطول الخليج العربي والمحيط الهندي وهو الذي كان يعمل في هاتين المنطقتين ، وقد كانت نماذج السفن في كل أسطول مختلفة عن الأخرى .

ومما يذكر عن نشاط الأسطول الإسلامي في العهد الأموي أنـه حاصر القسطنطينية ثلاث مرات ، مرتان في عهد معاوية بن أبي سفيان والثالثة في عهد سليمان بن عبد الملك .

- أهمية الأسطول الإسلامي :

بالرغم من أن العرب ومن ثم المسلمين الأوائل كانوا أهل بداوة ولم يخبروا ركـوب البحـر ، إلا أنهم عندما عمدوا إلي التعامل مع الخصم أجادوا في تطويعه ، من خلال أسطولهم الحربي الذي بدأوا تأسيسه في عهد عثمان بن عفان ، ثم في عهد معاوية بن أبي سفيان صاحب الفكرة ، تم تطوير الأسطول بشكل جيد وسريع ووصل إلي أوج قوته الحربية القتالية في عهد بنى أمية ، أما الجانب المدني أو الاقتصادي منه فلم يُستفد منه بالشكل الكثيف والفعّال إلا في عهد العباسيين ، وفي هذه الجزئية نبحث في أهمية الأسطول الإسلامي خلال العصر الأموي ، وذلك من خلال ما يلي :

• كان من شأن الأسطول الإسلامي أن يقيم نوعاً من التوازن على المستوى الاستراتيجي وحتى على المستوى العملياتي التكتيكي بين استخدام الأرض والبحر في مسألة الصراع العضوي ، فقد بدأت تحركات الجيش الإسلامي وفتوحاته لمناطق وأقاليم ذات طبيعة قارية ، ومن ثم فقد خبر التعامل مع الأرض بكافة أشكالها إلي درجة الإجادة ، ثم كان عليه أن يتحول إلي التعامل مع البحر ، وكان ذلك إيذاناً بمرحلة جديدة في حركة الفتوحات الإسلامية .

• لقد برزت أهمية الأسطول الإسلامي كأداة من أدوات التحول في حركة الفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة ، حيث عزم المسلمون على توصيل الدعوة إلي مناطق وأقاليم لا يتم الوصول إليها إلاّ عبر ركوب البحر ، ومن ثم كان دور الأسطول دوراً مهماً في شمولية الدعوة، حيث جمعت بين المناطق القارية والمناطق البحرية ، فلولا تطور الأسطول

الإسلامي لما أمكن الانطلاق إلي جنوب الهند وسواحل الصين والتوغل في عمق القارة الأفريقية عبر النيل وفتح جزر البحر المتوسط رودس وكريت وقبرص وصقلية وسواحل جنوب أوربا في اليونان وإيطاليا والانطلاقة الكبرى نحو شبه جزيرة أيبريا [ أسبانيا ] .

* كان للأسطول الإسلامي أهميته في إيجاد توازن في الصراع التقليدي الذي اشتهر بين المسلمين وبيزنطة ، حيث برزت قوة وحنكة الرومان في ركوب البحر والحرب البحرية ، ومن شأن التفوق الروماني في هذا الجانب أن يؤثر في كيان الدولة الإسلامية ، حيث ستصبح عرضة في أي وقت للتعديات والاعتداءات البيزنطية دون رادع ، ويؤثر كذلك في حركة الفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة لأن التفوق الروماني كفيل بعرقلة الحركة الإسلامية في البحر المتوسط والاتجاه صوب الجنوب الأوربي .

* كان للأسطول الحربي الإسلامي دوره المهم في وضع أساس الأسطول التجاري في العصر الأموي ، وإن لم يؤت أكله في حينه ، فقد ظهرت قيمة الأسطول التجاري الإسلامي في العصر العباسي ، حيث ازدهرت حركة التجارة والتبادل بين الدولة الإسلامية ودول بحرية كبيرة مثل الهند والصين وسواحل أوربا الجنوبية وسواحل شرق أفريقيا .

### ❖ تمويل الجيش في العصر الأموي :

بدأ الجيش في العصر الأموي يعتمد في تمويله أكثر على موارد الدولة وذلك يؤشر لتحولات في اقتصاد الدولة الإسلامية ، التي اتسعت رقعتها وزادت مواردها وتنوعت ، ونتناول مسألة تمويل الجيش في العصر الأموي من خلال ما يلي :

- موارد الدولة :

لم يعد الجيش يعتمد في تمويله على الغنائم بشكل مباشر كما كان في عهد النبوة الزاهر ، ولا على صدقات المقتدرين كما حدث كثيراً في عهد الخلافة الراشدة ، ولكن استقر أمر تمويل الجيش على الاعتماد على موارد الدولة المختلفة التي ارتكزت على أساسين مهمين هما : موارد الملكية العامة والضرائب ، واتسمت الميزانية المخصصة للجيش في العصر الأموي بالضخامة ، حيث تعددت الجيوش الإسلامية في الداخل والخارج ، وزادت أعدادها وأعباؤها وكلفتها ، إضافةً إلي بروز الأسطول الإسلامي ، وما احتاجه من نفقات في تجهيزه بالسفن والأسلحة والأفراد .

- ارتفاع رواتب المجاهدين ونفقات الجيش في العصر الأموي :

زادت رواتب الجند في العصر الأموي عما كانت عليه في العصر الراشدي ، فقد بلغ راتب الجندي في عهد معاوية ١٠٠٠ درهماً في السنة ، وقبيل انتهاء العصر الأموي كان هناك ستون آلفاً من أصحاب العطاء في العراق وحده ، وبلغت رواتبهم مع رواتب أسرهم ستين مليون درهماً سنوياً ، في حين بلغ عدد الجيش الأموي في أواخر حكمهم مائةً وعشرين آلف مقاتلٍ .

- ظاهرة التناهد :

تعد ظاهرة التناهد من الظواهر التي برزت في العصر الأموي وخففت إلي حد ما من أعباء نفقات الجيش على الدولة ، حيث انضم إلي الجيش الأموي المتطوعون من عناصر غير عربية وعلى نفقتهم الخاصة وبمعداتهم ، وكانوا في كثير من الأحيان يساهمون في تكاليف الحرب .

## ❖ تسليح الجيش الأموي :

طرأت تطورات عديدة على تسليح الجيش في العصر الأموي وكذا على تشكيلاته ، وكان ذلك بسبب كثرة الاحتكاك بجيوش أخرى أثناء عمليات الفتح ، ويمكن متابعة جانب من هذا التطور فيما يلي :

- تطور أسلحة الجيش وتشكيلاته :

أُدخلت أسلحة جديدة على الجيش الأموي كما تم تطوير أسلحة معروفة ، وشجع خلفاء بنى أمية على تصنيع السلاح وأقاموا لذلك مصانع خاصة ، وكان الجيش الأموي يطور أسلحته بسرعة بسبب احتكاكه المستمر بالجيش البيزنطي والجيوش الأخرى .

كان تشكيل الجيش الأموي على غرار الجيش الراشدي ينقسم إلي خمسة أقسام : المقدمة والقلب والجناحان والمؤخرة ، وبالنسبة إلي التشكيل القتالي فكان نظام الصفوف ، ويتألف من : المشاة ، والفرسان ، وفرق الخدمة ، والنقابين الذين يقومون بإحداث الثغرات في جدران معاقل وحصون الأعداء في حالة الهجوم على المدن المحصنة أو الثغور .

ويصحب الجيش جهاز كامل للخدمات الإدارية يتكون من مجموعة من الموظفين ، مثل الصراف والخازن والقاضي والمترجم وصاحب الخبر والدعاة ، وهذا ما كان عليه الحال في عهد الخلافة الراشدة وكذا في جيش الرسول الكريم .

أدخل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ما عرف بنظام الكراديس ، والكُردوسة تشكيل عظيم وحشد هائل من الفرسان ينقض دفعة واحدة على الجيش المقابل ، وكان هذا النظام بمثابة تطوير جديد أدخله الأمويون على تشكيل الجيش وطريقتهم في القتال ، واستخدمها الخليفة مروان بن محمد الذي عُرف عنه أنه كان يقود الجيش بنفسه .

عرفت الدولة الأموية القوات النظامية المرابطة في المواقع الأمامية للدولة وعلى حدودها وفي الثغور والسواحل ، وعُرفت هذه التشكيلات والمواقع بالرُبُط ، وكانت هذه الحاميات تتكون من وحدات نظامية متحركة وخفيفة من الفرسان أو الخيالة تحرس الحدود والثغور والحصون وتتصدى للأعداء في حالة الهجوم المباغت لحين وصول الجيش أو المدد .

كذلك ابتدع معاوية بن أبي سفيان كتيبة لحراسة الخليفة ، وعلى شاكلته سار معظم خلفاء بني أمية ، وكانت هذه الكتيبة تنتقي من ذوي الولاء القبلي والسياسي ، ولم تكن هذه الكتيبة تقوم بمهام أخرى غير هذه المهمة .

سبق وأوضحنا أن الجيش الأموي وانطلاقاً من الظروف التي نشأت فيها الدولة الأموية كان يقوم بدور مهم وأساسي في حفظ كيان الدولة وأمنها الداخلي في مواجهة المعارضين والخارجين عليها ، ولهذا الغرض أنشأ معاوية بن أبي سفيان مسالح في داخل المدن غير المستقرة كمسلحة واسط ومسلحة الحيرة وغيرها ، وكانت مهمة هذه المسالح حفظ الأمن وقمع الخارجين على الدولة ، وبرزت من تلك المسالح كذلك مسلحة الكوفة ومسلحة البصرة ومسلحة خراسان وهذه جميعها كانت معاقل العباسيين .

في العصر الأموي ظهرت مصطلحات عسكرية فيما يتعلق بتشكيل الجيش مثل الكتيبة ، وهي وحدة فرسان تتكون من ٢٠٠ فارس ، والحُقُب وهي وحدة فرسان صغيرة تتكون من ٣٠ فارساً ، والكُردوسة وهي وحدة عسكرية متكاملة استخدمها مروان بن محمد ، والسرية وهي وحدة هجوم ضخمة تتكون من ألف مقاتل في تشكيل قتالي خاص ، والقيقانية وهم رماة السهام ، والعيون وهي الوحدة الاستطلاعية ، ثم الرُبُط وهي القوات المرابطة على الحدود والثغور والسواحل والحصون ، والمسالح وهي حاميات توجد في المدن وتختص بحفظ الأمن الداخلي ضد الخارجين على الدولة .

أوضحنا سلفاً أن جيش الفتح في العصر الأموي هو الجيش الأساسي في الدولة ، والتي تتمثل مهامه في حمل الدعوة وتوصيلها إلي الشعوب المختلفة ، حيث يتولى الدعاة الذين يكونون بصحبة الجيش تبليغ الدعوة وتبصير الناس ، وبيّنا كذلك أن المدن غير المستقرة سياسياً كانت توجد بها مسالح لحفظ الأمن وقمع الخارجين على الدولة ، وإلي هذا وذاك نضيف أنه كان لكل مدينة أو ولاية جيشها الذي يتولى مهمة الدفاع عنها ضد أية اعتداءات خارجية ، وكان جيش الولاية مكوناً من عناصر مختلفة عربية وغير عربية تحت إمرة قائد يعينه الخليفة أو الوالي .

- تطور أسلحة الأسطول :

إضافةً إلي التطور الذي لحق بالجيش البري وأسلحته تطور الأسطول الإسلامي في أسلحته وأساليبه القتالية ، فبالنسبة إلي أسلحة الأسطول اهتم الأمويون ببناء السفن من مختلف الأنواع والأحجام ، واهتموا كذلك بتطوير تسليح هذه السفن حتى أصبح الأسطول الإسلامي يفوق الأسطول البيزنطي وسيطر على البحر المتوسط والخليج العربي والمحيط الهندي .

❖ تدريب الجيش :

كان لمسألة التدريب اعتباراتها الخاصة في الجيش الأموي ، وتعامل ذلك الجيش مع هذه المسألة على النحو التالي :

- بالنسبة إلي جيش الفتح :

كما أسلفنا يقصد بجيش الفتح الجيش المكلّف بحمل الدعوة وتوصيلها إلي الشعوب والأقطار المختلفة ، وقد عهد ذلك الجيش التدريب في أسلوبين : الأسلوب الأول : البعثات المستمرة التي قادها الجيش الأموي كانت كفيلة بأن تجعله في حالة تدريب

وجاهزية على القتال بشكل مستديم ، الأسلوب الثاني ، أن جيش الفتح كان يتدرب على تنفيذ الاستراتيجية المعّدة مسبقاً للبعثة من حيث حركة الجيش ووسائل الهجوم والأهداف النهائية ، وكان ذلك يتم في المعسكرات التي يتخذها الجيش قبيل المناطق التي يقصدها .

– القوات والحاميات والمسالح المرابطة :

أما بالنسبة إلي القوات المرابطة في الثغور والحصون وعلى حدود الدولة ، وكذا الحاميات والمسالح في المدن والحواضر غير المستقرة ، فكانت تتدرب على أداء مهامها في مواقعها بشكل مستديم ، وقد كانت هذه القوات في حالة استعداد دائم لصد أي هجوم أو قمع أية حركات للخروج على الدولة ، إلا أنه في نهاية عهد الدولة الأموية بدأت هذه القوات تضعف أمام حركات المعارضة والثورات المتصاعدة ، مما أفقدها السيطرة على الأوضاع الأمنية داخل المناطق التي تمركزت فيها المعارضة العباسية بالذات ، وإزاء ذلك كان من السهل على العباسيين تحقيق أهدافهم بالقضاء على الدولة الأموية وإقامة دولتهم .

– وضع الخطة العامة :

اعتاد الأمويون — كما كان حال الخلفاء الراشدين — مشاركة الخليفة قيادات وأمراء الجيش المبتعث للفتح ، وضع وصياغة الخطة العامة لاتجاهات الجيش بشكل عام ، أي المناطق والأقاليم التي ينبغي حمل وتوصيل الدعوة الإسلامية إليها ، وكانت تصاغ هذه الخطة وفق معايير وأولويات معينة مثل : المناطق والأقاليم المجاورة لحدود الدولة وتمثل مصدراً للاعتداءات والتعديات الدائمة ، المناطق الكثيفة السكان والتي يُرى أن حمل الدعوة وتوصيلها إليها يعد كسباً للإسلام ، المناطق التي يُرى في فتحها تأمين لحدود الدولة من الناحية الاستراتيجية ، المناطق التي يضيف فتحها ميزات استراتيجية للدولة مثل الجزر والمناطق ذات السواحل أو المتحكمة في المضايق والمعابر .. الخ .

بعد تحديد اتجاه الجيش وتحديد المنطقة المقصودة بالفتح يتم تحديد وسائل وأدوات تحرك الجيش، ويشمل ذلك تجهيز الجيش عدة وعتاداً ، وتعيين قواد وأمراء الجيش أو البعثة ، ومهام كل قائد أو أمير ، وبداية التحرك ، والمعسكرات التي يستريح فيها الجيش ، والطرق التي يسلكها .

– قيادة الجيش :

لقد عُرف عن خلفاء بنى أمية أكثر من غيرهم أنهم كانوا يقودون البعثات والجيوش بأنفسهم، فقد قاد يزيد بن معاوية بعثة على القسطنطينية قبل أن يتولى الخلافة مباشرة ، وكان مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يقود الجيش بنفسه ، وقد حاصر مدينة موسكو وأوشك على فتحها لولا الثورة العباسية التي أنهت وجود الدولة الأموية .

إلا أنه في بقية الأحوال كان الخلفاء الأمويون يعهدون بقيادة الجيش إلي الثقاة من القادة الذين يتصفون بالشجاعة والإقدام والذكاء ، ولكنهم كانوا على اتصال دائم بالجيش ، ويتابعون أخباره وتطورات حركاته والمعارك التي يخوضها ، كما كانوا يرسلون بتوجيهاتهم ووصاياهم لقيادات الجيش كما كان الحال في عهد الخلافة الراشدة .

❖ الإمداد والتموين :

الإمداد والتموين من أهم المقومات والمرتكزات التي ترتكن عليها حركة الجيوش وتترتب عليها قدرتها على الغلبة وإحراز النصر وتحقيق الأهداف ، وتحتاج مسألة الإمداد والتموين في الجيش الأموي إلي معالجة خاصة ، نظراً لطبيعة ذلك الجيش ، وما أحرزه من انتصارات وفتوحات قادت إلي توسيع إقليم الدولة الإسلامية ، ونطرح تلك المعالجة فيما يلي :

- مهام الجيش الأموي وخصوصية حركته :

لقد واصل الجيش الأموي بقوة وإقدام ما بدأه الجيش في العصر الراشدي من فتوحات لحمل وتوصيل الدعوة الإسلامية ، ولم يتوان هذا الجيش في سبيل تحقيق هذه الغاية السامية ، ومن أجل ذلك فتح مناطق جديدة ووصل إلي أقاليم بعيدة ومترامية ، فاتسعت حدود الدولة وشسعت مساحتها ، ولم تكن هذه ميزة لحركة الجيش بل شكلت عبئاً استراتيجياً وتكتيكياً في ذات الوقت لابد من مواجهته بحزم ودقة ، حيث تحتاج الجيوش إلي عملية إمداد وتموين بشكل دائم ومستمر وسريع ، وكان ذلك أهم ما واجه الجيش الأموي في حركته وتحركاته ، وقد أثرت تلك المسألة على فعالية الجيش في مواضع عدة فأخرت من إنجازه لمهامه ، وربما أثنته عن إحرازه لمهامه .

- معسكرات الإمداد والتموين :

منذ العهد الراشدي والجيش الإسلامي يدرك أهمية مسألة الإمداد والتموين ، وانطلاقاً من ذلك الإدراك عمد الجيش إلي إقامة المعسكرات على الطرق الرئيسية التي تمر بها الجيوش أو الإمدادات ، وكانت مهمة هذه المعسكرات تتمثل في ضمان راحة الجيوش وتجهيزها بما تحتاج إليه من مستلزمات ، وكذا تجهيز الإمدادات والمؤن وإرسالها إلي الجيش في المواضع التي قرر أن يخوض فيها المعارك ، وقد تطورت معسكرات الإمداد والتموين على أيدي الأمويين بشكل ملموس ، ولكنها لم تف بالغرض نظراً للاتساع المستمر في إقليم الدولة ، حيث أنها لم تلاحق ذلك الاتساع الذي كان سريعاً ومتزايداً ، فأثر ذلك على حركة الجيش في بعض تحركاته .

- أدوات الجيش الأموي في الإمداد والتموين :

طوّر الأمويون مسألة النقل والإمداد العسكري بشكل جيد ، حيث أجادوا في نقل الجند وعوائلهم ومؤونتهم وآلات الحصار والحرب على ظهور الجمال ، وكذلك الإسعافات

الطبية وأعدوا الهوادج للمرضى والجرحى ، كما استخدموا كذلك البغال للنقل ، وكانت هذه وسائط تجيد اختراق الطرق الصحراوية الوعرة ، أما الخيول فكانت للقتال .

**رابعاً : الجيش الأموي والحضارة الإسلامية :**

بالفعل كان الجيش الأموي — كما كان سابقا جيش الرسول الكريم وجيش الخلفاء الراشدين — أحد مقومات الحضارة الإسلامية ، وتحتاج هذه العلاقة إلي إيضاح نقوم به فيما يلي :

❖ **حمل وتوصيل الدعوة الإسلامية :**

الدعوة الإسلامية هي مخ الحضارة الإسلامية ، وسبق لنا أن أوضحنا تفصيلاً كيف قُدّر لجيش الرسول وجيش الخلفاء الراشدين أن يساهم في نشر الدعوة الإسلامية من خلال القيام بمهمتي الحمل والتوصيل ، وترك مهمة التبليغ على الدعاة الذين يكونون بصحبة الجيش أو يعقبون وصوله ، وبنفس الدور قام الجيش الأموي ، فقد حمل الدعوة وسار بها إلي فجاج عميقة لم يكن يدور بخلد المسلمين أن يصلوا إليها ، وأوصلها إلي أناس لم يكونوا يعلمون عن الدين شيئاً ، وهو في سبيل ذلك أزال عقبات كأداء تمثلت في الحكام والسادة والمتنفذين الذين أذلوا الشعوب وقهروها وفرضوا عليها عبادة ما يرتضون .

❖ **إضافة عناصر جديدة إلي الدولة الإسلامية :**

كذلك تمكن الجيش الأموي من أن يدخل في كنف الدولة الإسلامية عناصر جديدة من البشر بما تملكه من موروثات ثقافية وحضارية أمثال الترك والزنج والبربر وغيرهم ، وقد أضاف هؤلاء إلي الحضارة الإسلامية قدرة استيعابية على التفاعل والحوار والاحتواء في إطار أشمل أعم هو الإسلام بقيمه ومبادئه الإنسانية السامية .

لقد كانت تلك العناصر بمثابة قوة دفع وتحفيز لمزيد من الطموح والرغبة في نشر الدعوة ، وهذا يدل دلالة قاطعة على عظمة ورقي تلك الحضارة ، فهي لم تُدخِل تلك العناصر إلي بوتقتها لتكبح جماحها أو تقمع طموحها أو تستعبدها ، وإنما أطلقت لها عنان الإبداع والعطاء الفكري والروحي والحركي ، فظهر المفكرون والفقهاء والعلماء والقيادات العسكرية البارزة، هكذا كان الإسلام وهكذا كانت حضارته ، يّرقى النفس روحاً ومادة ، ويسمو بها إلي الذرى ، فتجود بأحسن ما عندها ، ومن ثم تزدهر الحضارة وتينع الثقافة .

❖ إقامة التنظيم :

ساهم الجيش الأموي بدور مهم وفعّال في تمهيد سبل الحياة المدنية في المناطق التي حمل إليها الدعوة ، ولعل التنظيم بكافة أنواعه السياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية .. الخ يعد أول تلك السبل — فكما سبق وأوضحنا — لم يصطدم الجيش الإسلامي بالتنظيمات التي كانت قائمة في تلك المناطق بشكل يسيء إلي أهلها ويسفه من أحلامهم ومنجزاتهم ، وإنما تعامل معها بتدرجية عمد من خلالها إلي إحلال التنظيم الإسلامي محل المحلي ، بل إن من التنظيمات المحلية ما تم الإبقاء على شكله وهيكله أما مضمونه ومسارات حركته وغاياته فكانت إسلامية ، وفي كل ما سبق من مراحل وعمليات إقامة التنظيم ، لم يتصرف الجيش الإسلامي إزاء ذلك بوصفه جيش ولكن بوصفه إدارة مدنية ، فالجيش قد انتهت أولى مهامه بتوصيل الدعوة وتسليمها إلي الدعاة ، وبقيت له مهمتان ، الأولى : الدفاع عن المناطق والأقاليم المفتوحة ، الثانية : إقامة التنظيم والتمهيد للحياة المدنية وفق الرؤية الإسلامية ، لحين نقل كل ذلك إلي الإدارة المدنية التي يشارك فيها بل يضطلع بها أبناء البلاد أنفسهم .

❖ إقامة المدن :

وضع الجيش الأموي أساس العديد من المدن في كافة أنحاء الدولة الإسلامية ، وكانت هذه المدن إما بمثابة معسكرات للجيش نفسه ثم تحولت إلي مدن ، أو بمثابة مدن عسكرية ثم تحولت إلي مدنية ، ومنذ الخلافة الراشدة والجيش الإسلامي يتولى هذه المهمة ويجيد فيها .

❖ الدفاع عن الدولة والحضارة الإسلامية :

إلي جانب ما تقدم تولى الجيش الأموي مهمة الدفاع عن الدولة الإسلامية وحضارتها ، وحافظ عليها في مواجهة التحديات التي أحاطت بها ، وبصفة خاصة مع عدو تقليدي عُرف بصلابته وقوته منذ نشأة الدولة الإسلامية وهو الدولة البيزنطية ، والتي اشتهرت بعدائها التقليدي للإسلام والمسلمين ، والتي جردها المسلمون من أهم مستعمرتها في شرق المتوسط وشمال أفريقيا ، بل وهددوا كيانها ذاته ونواة ذلك الكيان وهو العاصمة القسطنطينية .

## المبحث الرابع

## الجيش الإسلامي في العصر العباسي

بدأ الجيش العباسي قوياً تنظيماً وتسليحاً ، ولم يلبث في نهاية العصر العباسي الأول أن انتهى به الحال إلي جيش ضعيف متهالك ، حيث انتشرت الجيوش الإقليمية في أنحاء الأطراف ، وآل إلي جماعات من المتطوعين الذين لم يكن في مقدورهم حتى الدفاع عن الدولة المركزية ، وكان ذلك إيذاناً بانتهاء دور الجيش كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية ، وظهور الجيوش الإقليمية التي تمثلت مهمتها في الدفاع عن الولايات والأمصار ، وكان ولاؤها لحكامها ، في هذه الجزئية نخلو إلي دراسة الجيش الإسلامي في العصر العباسي ، من خلال ما يلي :

### أولاً : ظروف نشأة الجيش العباسي :

المتابع لتطور الجيش الإسلامي خلال الفترات الأربعة التي تبدأ من عهد النبوة الزاهر وتنتهي بالعصر العباسي ، يلحظ أن الجيش في كل فترة من هذه الفترات قد نشأ أو تأسس مرتبطاً بالدولة التي قامت في هذه الفترة ، ومعنى ذلك بعبارة أكثر دقة أنه لم يكن ثمة جيش ثابت ومستقر وتتغير عليه الدولة والأنظمة ، بل إن ما حدث أن كل دولة في كل فترة زمنية من الفترات المذكورة قد أسست جيشاً يصطبغ بصبغتها ويتماشى مع ظروفها ، ففي عهد النبوة الزاهر تأسس الجيش مع نشأة الدولة الإسلامية الأولى في دولة الرسول الكريم في المدينة المنورة، وكان جيشاً بسيطاً في تشكيله ، ولكنه عظيم في مقاصده ومهامه ، وفي فترة حكم الخلافة الراشدة تأسس الجيش الإسلامي ، أو ربما تطور ليحمل صفات خاصة ، تتسم بالقوة والحيوية والتطور السريع الذي يتواءم مع طبيعة المرحلة ، حيث كان هناك اهتمام بالغ بنشر الدعوة في كافة الاتجاهات والأرجاء ، أما في العصر الأموي

فقد تأسس الجيش الإسلامي متأثراً بظروف نشأة تلك الدولة ، واتسم بأهم خصائصها والتي تمثلت في العصبية القبلية ، ولكنه بالرغم من ذلك قدّم للدعوة الإسلامية والحضارة الإسلامية إنجازاً لم يشهده التاريخ الإسلامي ، وفي العصر العباسي تأسس الجيش الإسلامي متوائماً مع ظروف الدولة العباسية ، التي نشأت كنتاج لثورة عقيدية مسلحة على الدولة الأموية ، ويمكن متابعة ظروف نشأة الجيش العباسي من خلال ما يلي :

### ❖ تنظيم عسكري ثوري :

بدأ الجيش العباسي على هيئة تنظيم عسكري ثوري أسسه أبو العباس السفاح من أهل خراسان لمواجهة الدولة الأموية ، ومن ثم فقد كانت الفرقة الخراسانية من أهم الفرق وأقواها في الجيش العباسي ، وقد انسحب ذلك على حركة الجيش العباسي فيما بعد ، حيث أجادت هذه الفرقة القوية الدفاع عن النظام العباسي والدولة العباسية في فترات الأزمات الحادة ضد جند الثوار في البصرة والموصل والشام وأفريقيا ، ومن ثم فقد احترف الجيش العباسي فيما بعد قمع الثورات ، وتأمين الأوضاع الداخلية ، أكثر من ارتياده الجهاد الخارجي ، وحمل الدعوة وتوصيلها ، وفتح مناطق جديدة ، كما فعل الجيش الأموي من قبل .

وبالرغم من أن الفرقة الخراسانية كانت نواة الجيش العباسي ، إلا أن العباسيين لم يأمنوا عواقب قوة هذه الفرقة في الانقلاب عليهم ، فاتبعوا من الأساليب ما كفل لهم اتقاء شرها ، وهذا ما سوف نبحثه في موضع متقدم من هذه الجزئية .

### ❖ جيش نظامي قوي :

بعد أن قُدّر للجيش الثوري العباسي المتمركز في الفرقة الخراسانية إنهاء وجود الدولة الأموية وفرض العباسيين على سدة الحكم ، ومن خلال المعارك العنيفة التي خاضها ضد

التمركزات والحاميات والمسالح الأموية في البصرة وواسط والكوفة وحتى في الشام ومصر ، اكتسبت تلك الفرقة التي أصبحت نواة الجيش العباسي خبرة ودربة في الفنون القتالية والأمور العسكرية لا تضاهى ، وكانت الفرقة الخراسانية قوام الجيش العباسي .

معنى ما تقدم أن الجيش العباسي قد تأسس قبل قيام الدولة ، وهو في ذلك مثله مثل الجيش الأموي ، فالدولتان فُرضتا عن طريق الجيش ، فالجيش الأموي الذي أسسه معاوية بن أبي سفيان في سوريا ، وكان قوامه القبائل الشامية الموالية لبنى أمية ، هو الذي فرض الدولة الأموية عندما ذهب على رأسه غازياً إلي الكوفة في عام الجماعة ، وقبل الحسن بن على التنازل له عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين وجباً للفتنة ، وبالمثل كان الجيش العباسي الذي قاده أبو العباس السفاح ، وكان قوامه أهل خراسان الذين تشيعوا لبنى العباس ، بالرغم من أنهم قد تحللوا من الارتباطات العصبية القبلية لإقامتهم في المجتمع الفارسي وتأثرهم بعاداته وتقاليده وموروثاته الحضارية والثقافية ، وظل هذا الجيش الثوري الخارج على الدولة الأموية يقاتل حتى تمكن من إسقاط الدولة الأموية وفرض دولة بنى العباس ، فالدولتان إذن صنيعة الجيوش والقوة ، فالجيشان الأموي والعباسي تأسسا قبل الدولة وعندما قامت الدولة ضمنا وجودها وبقاءها ، وعندما وهنت تلك الجيوش كان ذلك إيذان بذهاب تلك الدولة وانتهاء أمرها ، ومن ثم فإن الدور السياسي للجيش الأموي ونظيره العباسي كان دوراً فعالاً في وجود الدولتين واستمرارهما ، هذا على عكس وضع الجيش في دولة الخلفاء الراشدين ، حيث لم يكن للجيش دور سياسي إلا في أواخر هذه الدولة ومع ظهور الفتنة الكبرى ، أما قبل ذلك فقد كان الجيش لا يتخطى دوره المحدد المتمثل في حمل وتوصيل الدعوة وحماية الدولة ، وذلك لأن الدولة ومن ثم النظام السياسي كانت كياناً طبيعياً تبلور وبرز إلي الوجود بفعل أدوات وآليات

متفق عليها ومقبولة من الجميع ، ولم تكن كياناً مفروضاً عن طريق الجيش والقوة، فرضته طائفة على أخرى .

وتنبئنا السوابق التاريخية أن الجيش إذا فرض الدولة وتسبب في وجودها كان من الصعب عليه أن ينسحب ويتركها ، لأنه صانعها وسبب وجودها ، وكان من المستحيل على تلك الدولة الاعتماد على ذاتها ، والتحرر من سيطرة الجيش ، لأنه الضامن الوحيد لوجودها ، والمتكفل بفرضها على الآخرين ، فهي إذن دولة الجيش أو دولة العسكر . وإذا ذهب الجيش تحللت تلك الدولة ، ولم تفلح دولة أقامها الجيش وضمن وجودها . ولذلك كان تدخل الجيش في السياسة والحكم هو نهاية السياسة وبداية القوة والعنف ، ولا خير يُنتظر من دولة أساسها القوة وقوامها العنف .

وبعد أن تمكن التنظيم العسكري الثوري المسلح من فرض دولة بني العباس كان من المنطقي تصحيح الأوضاع وتعديل الأمور ، فبعد أن قامت دولة الجيش ، كان على الأخير أن يتحول إلي جيش الدولة ، وشرع خلفاء بنى العباس في إعادة تنظيم الجيش وترتيب أوضاعه من جديد ،وهذا ما سوف نتناوله في الجزئية الخاصة بتنظيم الجيش .

## ثانياً : تنظيم الجيش العباسي :

الحديث عن تنظيم الجيش العباسي بعد قيام الدولة يستوجب تناول مجموعة من القضايا التي تتعلق بالجيش ، ويمكن القيام بذلك من خلال الآتي :

### ❖ الجيش والظاهرة الصراعية :

منذ نشأته والجيش العباسي يتقن فنون الصراع ويجيد إخضاع إرادة الآخر ، وعليه فعلاقة الجيش العباسي بالظاهرة الصراعية علاقة وطيدة ، ويمكن إيضاح أبعاد تلك العلاقة من خلال ما يلي :

- إدارة الصراع العضوي :

لعل نشأة الجيش العباسي كان هدفها الأساسي إدارة الصراع العضوي مع المنافس الأول للعباسيين وهم بنو أمية ، وكان هدف ذلك الصراع سياسياً بالأساس يتعين في الوصول إلي الحكم ، ومن هنا كان دور الجيش العباسي دوراً يتمثل في صناعة السياسة وفرض آليات معينة لانتقال الحكم ، وقد جمعت تلك الآليات بين المنطلقات الشرعية والقبلية ، التي هدفت إلي تكتيل إرادات أبناء المجتمع الإسلامي وراء العباسيين في صراعهم الذي اعتبروه جهاداً مقدساً ضد باغٍ مغتصب اغتصب ( سلب ) حقهم الطبيعي في الحكم .

ومعلوم أن الصراع العضوي الذي عركه الجيش العباسي منذ وجوده كان صراعاً داخلياً ، ولعل سبب ذلك واضح جلي ، أما نتائجه فقد تمثلت في إتقان ذلك الجيش لفنون الصراع الداخلي في الوقت الذي لم يبرع في إدارة الصراع الخارجي أو ما يعرف بالصراع الأممي ، ثم في الصراع المتعلق بحمل وتوصيل الدعوة الإسلامية ، حيث توقف الصراع الخارجي بشكل شبه تام ، ولم يبق إلا مجاهدة البيزنطيين . حيث كثرت اعتداءاتهم وتعدياتهم على الدولة الإسلامية .

- إخضاع إرادة الآخر :

لقد برز من خلال حركة الجيش العباسي منذ نشأته أنه يجيد الصراع الداخلي ، ويتعامل بشراسة مع أعدائه ، ويمضي في عزم وإصرار نحو إخضاع إرادة الآخر وإذعانه ، ولم يكن الجيش العباسي الثوري ليكتفي بعمليات الإخضاع والإذعان ، بل كان يعمد في كثير من الأحيان إلي إنهاء وجود الآخر ، ولذلك دلالته ، فالجيش العباسي كان يعتبر مجرد وجود الآخر يمثل خطراً محدقاً وعائقاً يعوق تحقيق أهدافه ومقاصده التي تبلورت في شكل قاطع وصارم في إزالة دولة الأمويين وإقامة دولة بنى العباس .

وحتى بعد تحقيق الجيش العباسي لأهدافه وتمكنـه من إقامة دولة العباسيين ، لم يتراجع عن موقفه الدائم المتمثل في استئصال شأفة أية معارضة لهذه الدولة ، وظـل هكـذا الجـيش العباسي قوة سياسية يُعوّل عليها ولا يُستهان بها في الحياة السياسية في العـصر العباسـي الأول بالذات ، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً .

– الجيش العباسي والصراع الأممي النظامي :

على عكس ما قام به الجيش العباسي فيما يتعلق بالحياة السياسية والأوضاع الداخلية كان دوره على المستوى الخارجي هزيل ومحدود ، فعند مقارنة وضعية الجيش العباسي بنظيره الأمـوي فيما يتعلق بالصراع الأممي النظـامي ، نجد أن الجـيش الأمـوي كـان أكثـر قـوة وصلابة وطموحاً فيما يتعلق بذلك الصراع ، في حين كـان الجـيش العباسـي يكتفـي بـصد الاعتداءات والتعديات ، التي كانت الدولة الإسـلامية هـدفاً دائمـاً لهـا مـن قبـل المنـافس التقليدي وهو الدولة البيزنطية ، ولم يملك الجيش العباسـي الجـرأة في المبـادرة بمهاجمـة الدولة البيزنطية إلا مرات محدودة ، ويمكن إيعاز ذلك إما إلـي انـشغال ذلـك الجـيش في الأمور والشئون الداخلية حيث أنه كـان يمثـل إحـدى القـوى الـسياسيـة ، أو إلـي عـدم إتقانه لفنون الصــراع الأممي النظامي ! .

– إقرار الأمن الداخلي :

منذ نشأته والجيش العباسي شـغله الـشاغل هـو الأمـن الـداخلي ، الـذي يكفـل إخـضاع الجميع لسيطرة الخلفاء العباسيين ، وقد أفلح الجيش في هذه المهمة بشكل جيـد ، ولكـن الأوضاع في نهاية العصر العباسي الأول قد آلت إلـي ضـدها ، فلقـد وهـن جـيش الخلافـة العباسية ، وباتت جيوش الأقاليم والأمصار أقوى من ذلك الجـيش بكـثير ، وكـان سـبب ذلك المباشـر أن الدولـة المركزيـة لم تكـن لتجـد مـا تنفقـه علـى الجـيش ، فاقتـصر علـى

المتطوعين ، في حين كانت الأقاليم والأمصار يجزل أمراؤها في عطاياهم لأفراد الجيش ، فاستحوذت على أقوى الجيوش وأكثرها عدداً وعتاداً ، فكان من السهل على تلك الولايات أن تستقل فعلياً عن المركز وإن ظلت رسمياً وشكلياً على ذمته .

وهكذا تحول الجيش من أداة استقرار وأمن إلي عامل تقويض وهدم ، عندما تخلى عن المركز وتحول إلي الولايات ، يقدم لها إغراءً قوياً للانفصال والاعتماد على الذات .

– الدور السياسي للجيش :

منذ العصر الأموي شرعت الجيوش تلعب دوراً سياسياً ، وتشكل قوة سياسية يعوّل عليها في الحياة السياسية في المجتمع الإسلامي ، لقد كان وجود الجيشين الأموي والعباسي كرمزين للقوة في الحياة السياسية ، يعني أن لغة السياسة والحكم في المجتمع الإسلامي أصبحت هي القوة التي حلّت محل لغة التفاهم والحوار بين مفردات وفعاليات النظام السياسي أو المنهاج الإسلامي .

إن الجيش هو الذي فرض الدولتين الأموية والعباسية ، وهو الذي حافظ على وجودهما وكفل بقاءهما . وهو نفسه الذي أدى إلي انهيارهما وزوالهما ، وهذا يبين كم كان الجيش قوة سياسية مؤثرة وفعالة في وجود الدولتين الأموية والعباسية .

إن الحديث عن أصول السياسة والحكم وفق الطرح الإسلامي المستقى من الشريعة الإسلامية ونماذج الممارسة العملية في دولة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين ، يختلف بطبيعة الحال عن نظيره وفق النموذج الذي ساد في الدولتين الأموية والعباسية ، فالأول طرح أصولي يمثل النموذج والمثال الذي سيظل أبداً نبعاً فياضاً لا يعتريه النقص أو يلحقه التغيير من بين يديه ولا من خلفه ، أما الثاني فهو الخروج والانحراف عن الأصل والأساس ، لقد خرج الأمويون ومعهم العباسيون عن الكثير من أصول وأسس السياسة

والحكم في الإسلام ، لقد احلّوا القوة والعنف محل الحوار والتفاهم والقبول والتراضي بين أبناء الأمة . لقد فرضوا منطق العصبية القبلية ليحل محل منطق الإجماع والجماعة وهو التسليم بكتاب الله والاحتكام لشرعه . لقد نكصوا عن قيم اختيار وقبول الجماعة الإسلامية للحاكم وقيم البيعة وقيم الشورى وقيم العدالة والمساواة والإخاء ، لقد جرّموا من يتحلى بأهم قيمة سياسية إسلامية وهي قيمة نصح وتوجيه الحاكم ، لقد استبدلوا كل ذلك بمنطق القوة رمز القمع والجبر والإلزام .

لقد أعطى الأمويون والعباسيون للحضارة الإسلامية وأثروا الثقافة كذلك . ولكنهم حادوا عن قيم الإسلام في السياسة والحكم . لقد عرفت الأمة الإسلامية التي تشكلت في وحدة سياسية نظامية عُرفت بالدولة الإسلامية خلال هذين العصرين التفرق والتحزب والتشرذم. ونسيت الإجماع والجماعة . كما ألفت التكتل وراء العصبية والقبلية . وكان ذلك مقدمة للتكتل وراء العنصر والأصل .

إن الأمويين والعباسيين أخذوا من الحضارة الإسلامية أكثر مما أعطوها ، أخذوا منها أهم خصيّاتها وأسرارها . أخذوا منها بل جرّدوها من بساطتها ، من سلامها ووئامها الدائم مع نفسها . وأحلوا محل ذلك التعقيد والمبالغة في التعظيم والتبجيل للحاكم وولاة الأمور والتفرقة بين أبناء المجتمع الإسلامي على أساس العصب والقبيلة ثم العنصر والأصل .

– الجيش العباسي وحمل وتوصيل الدعوة الإسلامية

لم يصب الجيش العباسي حظاً وافراً مثلما أصاب الجيش الأموي فيما يتعلق بحمل وتوصيل الدعوة الإسلامية إلي مختلف الأنحاء . فالدولة الإسلامية ومعها الدعوة لم تزد في عصر العباسيين عما وصلت إليه في زمن الأمويين ، وهذه المسألة جديرة بأن تستوقف المتابع لدور الجيش في الحضارة الإسلامية كمقوم من مقوماتها . هذا على الرغم من أن

الجيش العباسي منذ نشأته — كما سبق الإيضاح — لم يكن أقل قوة وتنظيماً من الجيش الأموي ، بل ربما كان أشد قوة وأكثر جمعاً ، ويمكن الدفع بجملة من الطروحات لعلها تحمل تفسيراً لهذه المسألة، في نهج مقارن بيانه كالتالي :

* لقد رغب الخلفاء الأمويون في مواصلة حمل الدعوة وتوصيلها ونشرها استكمالاً لعهد الخلافة الراشدة ، حيث رأوا في هذا المسلك أداة مهمة ووسيلة مناسبة لجمع المسلمين حولهم، وتأييد المهاجرين والأنصار وما بقى من صحابة رسول الله ، وكان هؤلاء يمثلون رأي الأمة ، في حين بدا العباسيون زاهدين في نشر الدعوة وتوسيع حدود الدولة الإسلامية ، حيث اقتنعوا بأنهم ليسوا في حاجة إلي استخدام نشر الدعوة كوسيلة لاستقطاب تأييد خاصة الأمة وعامتها، فقد اعتمدوا في خلافتهم الوراثية على قرابتهم من الرسول ، وأدخلوا في روع أبناء الأمة إن الله سبحانه وتعالى فرض عليهم خلافة أقرباء الرسول من بعده ، وعليه فقد حسبوا خلافة الأمويين ابتزازاً وظلماً . وأن الله قد رد الحق لأهله وآل بيته الذين فُرضت طاعتهم ، ومؤدى ذلك أن الخليفة العباسي يحكم بتفويض من الله فهو مصدر كل السلطات . وروج العباسيون لذلك بين الناس حيث ادعوا أنهم فوق مستوى البشر ، وبالغوا في تقديسَ أنفسهم بدعوى أن الخلافة ستبقى في أيديهم إلي الأبد ، ومن ثم فمسألة الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية لم تكن لتضيف إليهم وهم على هذا القدر من المهابة والجلال .

* في فترة الحكم الأموي كان الجهاد من أجل نشر الدعوة الإسلامية لا يزال يتسم في نفوس المسلمين بالنشاط والحيوية والعزيمة القوية ، وكان الجيش الأموي الوسيلة الوحيدة لإخراج ذلك الحماس والحمية ، وبصفة خاصة أن العصر الأموي شهد وجود عدد كبير من المهاجرين والأنصار وصحابة الرسول الكريم والتابعين ، وكل هؤلاء كانوا بمثابة رموز للجهاد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية ، أما في العصر العباسي فقد بعدت الشقة وفتر

حماس المسلمين ، واهتموا بشئون الصراعات الداخلية وانكفئوا على مشاكلهم ، وتواضعت طموحاتهم ، واكتفوا بما تحقق من انتشار للدعوة وامتداد لحدود الدولة .

ـ لقد كانت الأمم والشعوب المحيطة بالدولة الإسلامية في العصر الأموي مهيأة لقبول الدعوة الإسلامية ، أما في العصر العباسي فقد تغير الحال فلم تكن تلك الشعوب والأمم المجاورة على استعداد لقبول الدعوة الإسلامية ، ومعنى ذلك أن الأمويين قد وصلوا إلي آخر ما يمكن أن تصل إليه حدود الدولة والدعوة الإسلامية .

ـ يمكن القول بأن عصر الأمويين هو عصر تمدد الدولة الإسلامية وانتشار حضارتها عن طريق نشر الدعوة ، وأن عصر العباسيين هو عصر توقف المد الإسلامي ، وربما إنحسار في العصر العباسي الثاني .

ـ في العصر الأموي كانت الدولة الإسلامية أشد قوة من جيرانها ، ومن ثم قوى طموح الأمويين في نشر الإسلام وحمل الدعوة إلي أهل الجوار ، أما في العصر العباسي فكانت الدولة الإسلامية أقل قوة ومنعة وبدا جيرانها أقوى وأشد ، ومن ثم تبددت الآمال في نشر الدعوة ، وكان ذلك مثلاً هو حال الدولة البيزنطية التي هددها الأمويون وحاصروا عاصمتها ، في حين كانت تمثل خطراً شديداً على الدولة الإسلامية في العصر العباسي ، وكذلك كان الخطر الصليبي فيما بعد ، حيث هدد كيان الدولة العباسية واقتطع أجزاءً منها ، ولم تتمكن الدولة من استرداد تلك الأجزاء إلا عن طريق ولاة أقوياء .

ـ كان الجيش الأموي تواقاً إلي الفتح وحمل الدعوة وتوصيلها إلي مناطق بعيدة ، فقد تحلى الجيش الأموي بروح المغامرة والشجاعة والإقدام ، أما الجيش العباسي فقد اكتفى بالدفاع عن الحدود القائمة التي تركها الأمويون ، ولقد فقد العباسيون الأسطول تماماً ولم يهتموا به ، وفقدوا مع ذلك سيطرتهم على البحر المتوسط بشكل نهائي حيث بدت القوة

البيزنطية هي المسيطرة على هذا البحر والسواحل المطلة عليه ، كذلك عندما جاء الصليبيون إلي الشرق الإسلامي بأساطيلهم القوية لم يكن لدى العباسيين أية مقدرة لمجابهتهم ، حتى صلاح الدين الأيوبي لم تكن له طاقة بمواجهة قوة الصليبيين البحرية ، فاستعان بأسطول أمير الموحدين يعقوب المنصور فبعث إليه بمائة وثمانين سفينة حربية في عام ٥٨٦ هـ لمنع الصليبيين من مهاجمة سواحل الشام .

• في العصر العباسي بدأت الدعوة الإسلامية تنتشر بالعلاقات والتبادل التجاري ، حيث أهتم العباسيون بالأسطول التجاري في الخليج العربي والمحيط الهندي ، واستقرت الأوضاع في هذه المناطق ، واتجهت الدعوة نحو الهند والصين وأندونيسيا من خلال التجار والدعاة .

### ❖ العصبية القبلية في الجيش العباسي :

لم يتمكن الجيش العباسي ولا الدولة أن تنأى بنفسها عن العصبية القبلية ، فالدولة العباسية مثلها مثل الدولة الأموية قامت منذ تأسيسها على الدعوة العصبية والنعرة القبلية . التي تعنى التشيع لبنى العباس تحت دعوى القرابة من الرسول الكريم — كما سبق الإيضاح — ولم تنتسب الدولة إلي الإسلام كدين وعقيدة وإلي منهاجه كنظام ، بل انتسبت إلي أصول وعصبيات وقبائل تستند إلي مدى قربها أو بعدها من الرسول الكريم وآل بيته .

إن المحلل لتاريخ الدولة العباسية يمكنه أن يكتشف بسهولة أن العصبية القبلية كانت ضرورة حتمتها ظروف نشأة الدولة والجيش ، فالجيش — كما سبق الإيضاح — كان بمثابة تنظيم ثوري مسلح شق عصا الطاعة وخرج على الدولة الأموية ، وهذا التنظيم العسكري أسسه بنو العباس ، وكان هدفه الأساسي الوصول إلي الحكم ، وكان ذلك هو

التعصب عينه لبنى العباس تحت دعوى قرابتهم من الرسول الكريم التي استندوا إليها في مطالبتهم بالحكم ، الذي اعتقدوا أنه مسلوب منهم وأنهم الأحق به دون غيرهم .

وهذه النشأة للجيش أولاً ثم للدولة العباسية التي أقامها الجيش بطبيعتها وظروفها التاريخية والاجتماعية والسياسية ، لتؤشر إلي سيادة النزعة القبلية العصبية في الكيانين معاً . بالرغم مما حاول بنو العباس إضفاءه عليهما من مسحة دينية شرعية تستند إلي تأويلات وتخريجات من الصعوبة قبولها لدى أهل المرجعية الإسلامية الأصولية .

إن مجرد اسم الدولة العباسية نفسه يؤكد وجود العصبية القبلية والتشيع لبنى العباس كما تشيع الأمويون لبنى أمية . فنسب الدولة إلي العباسيين يعنى التعصب إلي أشخاص وقبائل وعصبيات، وبمقارنة ذلك بالدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين لا يمكننا نسب الدولة إلي خليفة من الخلفاء . ولكنها كانت الدولة الإسلامية وتمييزاً للحقبة التاريخية تُطلق " في عهد الخلفاء الراشدين " . وذلك أن الخليفة الراشد كان يمثل عموم الأمة . ولم يكن يرتكن إلي عصبية أو قبيلة معينة ، فقد اختاره المسلمون ليمثلهم جميعاً ، أما العباسيون ومن قبلهم الأمويون فكانوا يحكمون بعصبيتهم وبانتماءاتهم القبلية . بل كانوا يعتقدون أن هذه الانتماءات هي سبب وجودهم في الحكم وهي التي أهلتهم له .

إن الدولتين الأموية والعباسية كانتا بمثابة تكتلات عصبية وقبلية متعارضة ومتصارعة من أجل الحكم ، كل منهما بذل قصارى جهده فكرياً وحركياً من أجل الانتصار لعصبيته وقبيلته ، وكل منهما حشد خلفه تكتلاً من القبائل والعصبيات التي تدفع به إلي سُدة الحكم ليحقق مآربها وطموحاتها . وكل منهما استخدم الدين أداة ووسيلة للوصول إلي الحكم واثبات أحقيته به .

لقد كان أهل خراسان هم قوام الجيش العباسي الذي نشأ كتنظيم عسكري ثوري قبل قيام الدولة ، وبالرغم من أن أهل خراسان من العرب القاطنين في خراسان لفترة طويلة ، وقد تكلموا الفارسية وتزوجوا من نساء فارس ولبسوا الأزياء الفارسية وتكيفوا مع البيئة الفارسية بتقاليدها وعاداتها وموروثاتها الثقافية والحضارية . إلا أنهم كانوا يعتزون بتقاليدهم العربية الإسلامية . ومروا بعملية تعريب جديدة خاصة وأن الخلفاء العباسيين الأوائل كانوا يشجعون الثقافة العربية والروح العربية . مما جعل أهل خراسان يعاودهم الحنين مرة أخرى إلي عصبيتهم ويزيد من تكتلهم خلف العباسيين ، ثم تبدو العصبية مرة أخرى في الجيش العباسي ، فعلى الرغم من ثقة الخلفاء العباسيين بالفرقة الخراسانية فقد أسسوا فرقاً أخرى تقوم على أسس قبلية للموازنة وتحسباً لاحتمالات التمرد أو الثورة . وكانت هذه الفرق الأخرى هي العربية من ربيعة ومضر واليمن ، فقد بانت أهمية العرب للعباسيين منذ وقت مبكر وزادت أثناء الحروب التي خاضها الجيش العباسي ضد الجيش الشامي . فخلال تقدم العباسيين في العراق ساعدت عناصر قبلية مختلفة الجيش الخراساني . ثم إن سقوط الكوفة وواسط والموصل والبصرة ودمشق كانت نتيجة لمساعدة شيوخ القبائل الذين انضموا إلي العباسيين الذين أدركوا مدى التأثير البالغ الذي يمارسه شيوخ القبائل على قبائلهم ، ولذلك عاملوهم معاملة طيبة ومحترمة بما يتناسب مع عدد أفراد القبيلة ! .

إن الفارق الوحيد بين العصبية القبلية لدى الأمويين والعباسيين يكمن في أن الأمويين استسلموا لذلك التقليد واعتبروه أحد أسس حكمهم وكذا جيشهم . أما العباسيون فقد حاولوا التخفيف منه قدر المستطاع . ليس رغبة في التخلي عنه ، ولكن خوفاً على حكمهم. واعتباراً بما آل إليه حال الأمويين واتبعوا لذلك ما يلي :

– تطور الجيش العباسي مستفيداً من أخطاء العصر الأموي ، فكان ديوان الجند يعتمد في تسجيل المقاتلين على أساس قراهم ومدنهم وأقاليمهم التي عاشوا فيها بخراسان ، وليس على أساس قبائلهم وأنسابهم وبذلك تخلص الجيش نسبياً من العصبية القبلية .

– حاول الخلفاء العباسيون تنمية شعور الولاء والإخلاص للدولة وليس للقبيلة لدى المقاتلين ، ومن ثم اضطر بعض الخلفاء إلي ضرب التكتلات القبلية ببعضها ، كما فعل المنصور في ضرب الحلف بين ربيعة واليمنيين .

### ❖ الاستنفار :

اختلف الاستنفار في العهدين الأموي والعباسي عن الاستنفار في جيش الرسول الكريم والخلفاء الراشدين ، ويرجع ذلك إلي طبيعة تكوين الجيوش في كل عهد من هذه العهود، وطبيعة وجود وتكوين الدولة ، ومن ثم العلاقة بين الكيانين الدولة والجيش ، ويمكن إيضاح ذلك من خلال ما يلي :

– أيهما أسبق إلي الوجود الجيش أم الدولة ؟ :

ليس من المستغرب الحديث عن جيش يسبق وجوده وجود الدولة ، فالجيش في هذه الحالة قد تأسس بشكل غير شرعي وغير مشروع ، حيث يعد وجوده خروجاً على شرعية الدولة القائمة ، وقد تكون حقيقة هذا الجيش عبارة عن تنظيم عسكري يتبع شخصاً بذاته من منطلقات عصبية قبلية ويهدف هذا الجيش إلي :

• إقرار أمر واقع لصالح الشخص أو العصبية التي يشايعها ذلك الجيش ، وربما فرض واقع جديد في ظروف تاريخية معينة ، مثلما حدث بخصوص جيش معاوية ابن أبي سفيان الذي هو أساس الجيش الأموي ، حيث ذهب معاوية على رأسه غازياً للعراق التي

ناصرت الحسن بن على ، وتمكن الجيش الأموي بقيادة معاوية مؤسس دولة بنى أمية من إقرار الأمر الواقع وقيام دولة الأمويين .

• محاولة تقويض الوضع القائم والدولة الكائنة وخلق واقع جديد وفرضه ، مثلما حدث بخصوص الجيش العباسي الذي قاده أبو مسلم الخراساني وأبو العباس السفاح ، وتمكن من تقويض الوضع القائم والقضاء على الدولة الأموية وفرض واقع جديد هو الدولة العباسية .

وفي كلتا الحالتين سبق وجود الجيش قيام الدولة ، ومعنى ذلك أن تأسيس الجيش واستنفار وتجميع أفراده قد تم بآليات وأساليب مختلفة تحكمت فيها الدعوة العصبية القبلية إلي جانب الدفع بدعاوى وأسانيد معتقدية شرعية لإقناع الأفراد بالانضمام إلي التنظيم العسكري والتحمس لأهدافه .

وإذا انتقلنا إلي الجيش في عهد النبوة الزاهر نجد أنه تأسس — كما سبق الإيضاح — بعد قيام دولة المدينة ، وتحددت أهدافه في الدفاع عن الدولة الناشئة وحمل وتوصيل الدعوة في نطاق القبائل والأحياء العربية ، وهي المجال الحيوي في ذلك الوقت لتلك الدولة ، ثم أخذ ذلك المجال في الاتساع مع الوقت ، ولم يلبث ذلك الجيش أن تطور عدداً وتنظيماً بتطور الدولة واتساع رقعتها وزيادة وتنوع مهامه .

أما الجيش في العهد الراشدي فكان بمثابة تطوير لجيش النبوة الزاهر الذي وُجد حال حياة الرسول الكريم وقبل أن يأتيه اليقين ، ويفيد ما تقدم أن الجيش في الحالتين الأخيرتين قد جاء تالياً لوجود الدولة ، وأن عملية الاستنفار كانت تتم بطرق شرعية من خلال فكرة الأمة المجاهدة — التي سبق إيضاحها — وعلى أسس معتقدية خالصة .

- آلية الاستنفار :

على أساس طبيعة وجود الدولة وظروف نشأتها وعلاقتها بالجيش جاءت آلية الاستنفار ، فالأخيرة كانت دوماً تعكس مدى ولاء أبناء الأمة للدولة ولأهدافها ومقاصدها . التي يعتبر الجيش من أهم أدوات تحقيقها :

* ففي عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة كانت الدعوة إلي الجهاد وفكرة الأمة المجاهدة كفيلة بأن تستنفر أبناء الأمة وتخرجهم للجهاد بكافة نماذجه وأشكاله وخصوصاً الصراع العضوي .

* في العهد الأموي بدأ تأسيس الجيش الذي سبق قيام الدولة عن طريق استثارة النعرات العصبية القبلية . التي جمعت القبائل الشامية حول معاوية بن أبي سفيان ، الذي تمكن عن طريق ذلك الجيش من فرض الدولة الأموية كواقع أقره الجميع . وبعد ذلك ظلت العصبية القبلية تلعب دوراً فعالاً في تطوير الجيش الأموي . ثم أدخل عليها التجنيد الإجباري الذي ابتدعه الحجاج الثقفي . ووجدت إلي جانب ما تقدم الدعوة إلي الجهاد في الأمصار والولايات وبصفة خاصة لجيش الفتح ، وأدت هذه الدعوة دورها في كثير من الأحيان ، وأخيراً كانت هناك ظاهرة التناهد . حيث تطوع المسلمون من كافة العناصر للجهاد بأموالهم وأنفسهم .

* وفي العهد العباسي تأسس التنظيم العسكري الثوري في خراسان بفعل استثارة النعرات العصبية القبلية كذلك . ولكنها اختلطت وغُلّفت بشكل جيد بأغلفة ذات طبيعة شرعية عقيدية ، تجد منطلقاتها في التشيع لقرابة الرسول وآل بيته ، وتنتهي إلي أحقية العباسيين في استرداد الحكم الذي سُلب منهم ، وبعد ذلك وعندما قامت الدولة العباسية كانت العصبية القبلية لا تزال تلعب دورها في استنفار المشايعين والأنصار للانخراط في

الجيش العباسي إلي جانب التجنيد الإجباري ، وكان بعض الخلفاء من وقت لآخر يطلقون الدعوة للجهاد كأداة للاستنفار .

– البعد التنظيمي :

عملية تقسيم الجيش وتوزيعه وتحديد مهامه تعد عملية تنظيمية تدخل في إطار الخطة العامة أو ما يعرف بالاستراتيجية ، وقد مر الجيش الإسلامي منذ دولة الرسول الكريم وحتى الدولة العباسية بأكثر من مرحلة في تنظيمه وتوزيعه وتحديد مهامه ، ويمكن تناول تلك المراحل في نهج مقارن على النحو التالي :

• في دولة الرسول الكريم ودولة الخلفاء الراشدين كان ثمة جيش واحد مهمته الأساسية تتمثل في حمل وتوصيل الدعوة – كما سبق الإيضاح – . إلا أنه في بداية خلافة أبي بكر الصديق برزت مهمة الجيش في إقرار الأمن الداخلي وسيطرة المركز على كافة الأقاليم والأمصار من خلال حروب الردة ، وبالرغم من بروز هذه المهمة للجيش واعتبارها ضمن مراتب الجهاد أو نماذجه وأشكاله ، إلا أنه لم يُحدد للقيام بها جيش خاص ، ولكنها اعتبرت ضمن مهام الجيش يتولى القيام بها عندما تطل الفتنة برأسها .

وكان تسجيل الجند في ديوان الجند الذي استنه الخليفة الراشد الثاني يتم في البداية بناءً على معايير سبق الحديث عنها . ثم عُدِل عنها إلي معايير أخرى مواءمة لتطور المجتمع والحياة . وفي عهد الخليفة الراشد الثالث تم الاحتكام إلي معايير يغلُب عليها طابع التفرقة من منطلقات عصبية قبلية عَدِل عنها الخليفة الراشد الرابع كرّم الله وجهه إلي معايير تنحو نحو المساواة والموضوعية . وهذه المعايير تحدد مراتب الجند والعطاء المحدد لهم ولأسرهم .

- في الدولة الأموية برزت ظاهرة تنظيمية جديدة وهي تقسيم الجيش إلي تقسيمات ذات طبيعة تخصصية ، فكان هناك جيش الجهاد أو جيش الفتح ، وهو الجيش الرئيسي الموكل إليه مهمة حمل الدعوة وتوصيلها إلي النواحي والأرجاء . وكان هناك الجيش المكلف بحفظ الأمن وضمان هيبة الدولة والولاء لها وبالذات في المدن غير المستقرة ، ثم كان هناك الجيش المرابط على حدود الدولة وفي الحصون والثغور والسواحل لصد هجمات الأعداء وحماية الدولة من الاعتداء الخارجي ، وكانت هناك جيوش الولايات والأقاليم التي تتحدد مهامها حسب ظروف كل ولاية .

وكان تسجيل الجند في الجيش الأموي ينم بناءً على معايير عصبية قبلية في بداية نشأة الدولة ، إلا أن ذلك النهج خفت حدته وقارب على الانتهاء والتلاشي عندما دخلت إلي الجيش الأموي وبالذات جيش الفتح عناصر عديدة ومتنوعة .

- في الدولة العباسية اختلفت الأوضاع بشكل واضح . فجيش الفتح الذي بدا قوياً ودائم الحركة في كافة الاتجاهات في العصر الأموي بدا في العصر العباسي محدود الحركة واقتصر دوره على مجاهدة الدولة البيزنطية وصد اعتداءاتها المتكررة ، ولم يبادر إلي فتح مناطق جديدة وحمل وتوصيل الدعوة مثل نظيريه في الخلافة الراشدة والدولة الأموية . كذلك كانت هناك جيوش للدفاع عن حدود الدولة وثغورها . وكانت هناك جيوش لحفظ الأمن الداخلي وضمان هيبة الدولة ، وهذه الأخيرة اختلطت بالجيش الأول إلي درجة يصعب معها فصل أحدهما عن الآخر . وكانت هناك أخيراً جيوش الولايات التي كانت نواة لجيوش مستقلة عندما انفصلت تلك الولايات عن الدولة العباسية في أواخر العصر العباسي الأول .

وكان تنظيم الجند في الجيش العباسي يتم بناء على معايير خاصة بالموطن ، وإن كانت المعايير المتعلقة بالعصبية القبلية لم تهمل بشكل مطلق ، وبصفة خاصة فيما يرتبط بالعنصر

العربي الذي دخل الجيش بشكل قوي بعد قيام الدولة مباشرة لموازنة نفوذ الفرقة الخراسانية وخوفاً من انفرادها بالأمور .

– البعد العقيدي :

كان البعد العقيدي دوماً يملأ فراغاً كبيراً في تعبئة أفراد الجيش الإسلامي على مر التاريخ . ولكن كان يختلف في طبيعته وقوته من فترة إلي أخرى ، وتفصيل ذلك كالآتي :

* في زمن الرسول الكريم كان البعد العقيدي أقوى وأشد في عملية استنفار الناس للجهاد وإقدامهم على القتال . وأسباب ذلك عديدة منها ما يرجع إلي وجود الرسول الكريم بين ظهراني المسلمين . وقوة الإيمان والعقيدة . ورغبة المسلمين الصادقة في نشر الدعوة ، وولائهم المطلق للدولة الإسلامية كتعبير نظامي عن الإسلام .

* وفي زمن الخلفاء الراشدين كان البعد العقيدي على نفس وتيرته في زمن الرسول الكريم من القوة والشدة في شحن وتعبئة المقاتلين المسلمين ، وكان لذلك أهميته البالغة في دفع حركة الفتوحات ونشر الدعوة .

* وفيما يتعلق بالبعد العقيدي في استنفار وتهيئة الجيش الإسلامي في العصر الأموي ، يمكن القول أن ذلك البعد قد اتسم في بداية الدولة ببعض الفتور ، نظراً لكثرة المعارضين للدولة الأموية والتشكيك في شرعية نشأتها ووجودها . وفي صدقية مسعاها نحو الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية ، إلا أن ذلك الفتور لم يلبث أن اختفى وحل محله عزيمة ومضاء نتيجة دخول عناصر جديدة إلي الإسلام ، كانت بمثابة قوة دفع للجيش الأموي حرّكته بعنف نحو الجهاد ونشر الدعوة . وهذا يفسر اندفاع الجيش الأموي في سبيل حمل الدعوة وتوصيلها إلي أماكن ومواقع قاصية .

* أما في العصر العباسي فلم يكن البعد العقيدي على نفس قوته وشدته التي كان عليها في الجيش الإسلامي في العصور الثلاثة المذكورة . حيث أن الجهاد في العصر العباسي لم يكن يتجاوز مجاهدة البيزنطيين ثم الصليبيين في مرحلة تالية ، وإن كان جهاد الصليبيين قد وقع على كاهل ولايتي الشام ومصر .

- البعد النفسي :

يرتبط البعد النفسي بالبعد العقيدي ارتباطاً وثيقاً . فالولاء للعقيدة والتفاني من أجل ترقيتها وإعلاء شأنها وحملها وتوصيلها إلي العالمين يخلق استعداداً وتهيئاً نفسياً لتحمل التبعات وتجشم كافة الصعاب من أجل تحقيق تلك المقاصد والغايات ، وإذا كانت الدولة كتعبير نظامي عن كيان الجماعة وعقيدتها . وإذا كان الجيش كأداة من أدوات تحقيق تلك الأهداف بشكل شرعي ورسمي . إذا كان الاثنان يعكسان إجماع الجماعة ورغبتها في تحقيق أهدافها المذكورة. وضح الارتباط بين البعد العقيدي والبعد النفسي للمقاتل بجلاء وأقدم على الصراع العضوي في حماس ودون وجل ، وهذا ما تابعناه في خصوص تحليل البعد النفسي في الجيش الإسلامي في دولة الرسول الكريم والخلفاء الراشدين . أما إذا كان ثمة خلاف وعدم قبول أو رضا عن الدولة ومن ثم الجيش من فرق وجماعات داخل المجتمع . فإن ذلك يعنى تشكك هؤلاء في صدقية قيام الدولة والجيش بتحقيق المقاصد والأهداف سابقة التبيان فيما يتعلق بالعقيدة. وبالتالي تنتشر حالات الإعراض والعزوف عن الجهاد ، وهذا ما حدث في حالة الدولتين الأموية والعباسية . مما أضطر الأولى إلي فرض التجنيد الإجباري ، وقلّص من رغبة وطموح جيش الثانية فيما يتعلق بحمل وتوصيل الدعوة . وتوقف حركة الفتوحات .

## ❖ الأسطول في العصر العباسي :

نتعامل مع الأسطول في الدولتين الأموية والعباسية بوصفه أداة من أدوات الاستنفار في الجيش. وسبق لنا أن تابعنا نشأة الأسطول الإسلامي في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان وبمتابعة ورعاية معاوية بن أبي سفيان ، ثم واصلنا المتابعة لتطور الأسطول الإسلامي في العصر الأموي ، حيث وصل إلي أوج قوته وسيطرته على البحار والمحيطات التي تطل عليها الدولة الإسلامية . وفي هذه الجزئية نواصل المتابعة لنقف على تطور وضعية الأسطول الإسلامي في العصر العباسي ، وذلك من خلال ما يلي :

- إهمال الأسطول في العصر العباسي :

منذ بداية الدولة العباسية لم يلق الأسطول الاهتمام الكافي ، فتراجع في قوته وتنظيمه وتسليحه. وفقد المسلمون السيطرة على البحر المتوسط ، وكان من نتيجة ذلك نشاط حركات المعارضة في الغرب ، حيث نزعت العديد من الولايات إلي الاستقلال ، وظهرت دول الخوارج ثم الأدارسة ثم الأغالبة . واستمر ذلك الحال حتى خلافة الرشيد .

وفي خلافة الرشيد أولى الأسطول اهتماماً ملحوظاً ، فعهد بسواحل مصر والشام إلي حميد بن معيوف في عام ١٩٠ هـ . فاهتم بالأسطول وسيّر بعثات إلي كل من قبرص وكريت . وبعد ذلك أُهمل شأن الأسطول من جديد .

ترتب على إهمال الأسطول الإسلامي بعد خلافة الرشيد سيطرة الأسطول البيزنطي على البحر المتوسط . وفي عام ٢٤٦ هـ غزا الروم مدينة دمياط المصرية وأنزلوا بسواحلها دماراً شديداً وعاثوا فيها فساداً ، مما اضطر الخليفة المتوكل إلي حراسة السواحل المصرية والشامية وحشد فيها المقاتلين ، ولكن ذلك لم يؤد إلي الاهتمام بالأسطول الذي أهمل تماماً بعد ذلك . إلي أن وهنت الدولة العباسية واستقلت عنها معظم ولاياتها .

وظهـرت دويـلات شـبه مـستقلة في مـصر والـشام أولـت الأسـطول اهتمامــاً ملحوظـاً ، وسوف نعرّج على تفصيل ذلك في حينه .

- التحول إلي الاهتمام بالأسطول التجاري :

في الوقت الذي أهمل العباسيون الأسطول الحربي الإسلامي في البحر المتوسط والشمال الأفريقي اهتموا بالأسطول التجاري مع الشرق في منطقة الخليج والمحيط الهندي ، فأدى ذلك إلي قيام علاقات تجارية جيدة مع شرق أسيا ، كما أدى كذلك إلي حدوث استقرار سياسي في هذه المناطق من الدولة الإسلامية ، واستتبع ذلك نشاط حركات نشر الدعوة الإسلامية من خلال التجار والدعاة . وتعددت التجمعات الإسلامية في المدن التجارية في الهند والصين وغيرها من دول الشرق الأقصى .

❖ عناصر الجيش العباسي :

نظراً لتعدد العناصر البشرية التي احتوى عليها الجيش العباسي ، فقد رأينا أن نرصد في عجالة هذه العناصر ، وموقع كل منها في الجيش والدور الذي أسند إليها :

- الفرقة الخراسانية [ أهل خراسان ] :

هذا العنصر هو أساس الجيش العباسي الذي تكون قبل قيام الدولة ، وظل كذلك يلعب دوراً مهماً في الجيش العباسي ، وهذا العنصر عبارة عن عرب قطنوا منطقة خراسان الفارسية لفترة طويلة ، فتكلموا الفارسية وتزوجوا من نساء فارس ولبسوا الزي الفارسي ، وتكيفوا مع البيئة الفارسية بتقاليدها وعاداتها وموروثاتها الثقافية والحضارية ، ولكنهم في ذات الوقت ظلوا يعتزون بأصولهم العربية .

وبعد أن كوّن أبو مسلم الخراساني الجيش ، أو بعبارة أكثر دقة التنظيم الثوري العسكري العباسي من أهل خراسان وزحف به نحو العراق ، اختلط هؤلاء مع العرب من جديد ، ومروا بمرحلة تعريب جديدة ، أيقظت لديهم انتماءاتهم العربية الكامنة . والتقت هذه العملية مع التوجه الذي ساد الخلفاء العباسيين الأوائل . والذي شجع الثقافة العربية والروح العربية .

وظل هذا العنصر الخراساني في الجيش العباسي يكن ولاءً وتفانياً للدولة العباسية ، وكان يمثل أهم أداة من أدوات الدفاع عن النظام ضد الثورات التي شبت في البصرة والموصل والشام وأفريقيا ، كذلك قام هذا العنصر بدور مهم في الدفاع عن الدولة العباسية ضد الهجمات البيزنطية التي كثرت في عهد العباسيين ، مستغلة ضعف دولتهم وأسطولهم الحربي مقارنة بالدولة الأموية والأسطول الإسلامي في عهدها .

وكذلك استثمر العباسيون ولاء أهل خراسان لهم في تحقيق مآرب سياسية فيما يتعلق بتوريث الخلافة ، حيث عمدوا إلي احتكار ولاية العهد لأبنائهم دون إخوانهم وأقربائهم مستغلين في ذلك تأييد أهل خراسان .

وكان الخليفة العباسي المنصور من أول الخلفاء العباسيين الذين اهتموا بأهل خراسان وقربوهم، فقد استعمل البارزين منهم في مناصب عالية للاحتفاظ بهم والحفاظ على ولائهم . ويعتبر تعيين حازم بن خزيمة نائباً عن الخليفة المنصور على العسكر والميرة حينما ذهب إلي الحج في عام ١٤٤ هـ ذو دلالة في هذا الخصوص .

كذلك استعان الخليفة المنصور بالجيش الخراساني للقضاء على ثورة العلويين ، وقد وصى ابنه المهدي بالإحسان إلي أهل خراسان والتجاوز عن مسيئهم ، وقد أسكنهم في مدينة المنصور المدورة وضواحيها ، وفي ذلك دلالة على مكانتهم في الخلافة العباسية .

- العرب :

برزت أهمية العنصر العربي للعباسيين منذ خروج العباسيين على الدولة الأموية ، وزادت تلك الأهمية أثناء الحروب التي خاضها الجيش العباسي ( الخراساني ) ضد الجيش الأموي في الشام . فأثناء تقدم العباسيين في العراق ساعدت عناصر قبلية مختلفة الجيش الخراساني ، بل إن سقوط الكوفة وواسط والموصل والبصرة ودمشق كان بفعل مساعدة شيوخ القبائل الذين انضموا إلي العباسيين .

من هنا أدرك العباسيون مدى التأثير الذي يمارسه شيوخ القبائل على قبائلهم ، فعاملوهم معاملة طيبة بما يتناسب مع عدد أفراد قبائلهم ! . وبالرغم من ذلك لم يكن العباسيون يولون الانتماءات القبلية اهتمامهم البالغ ، فقد كان الخليفة المنصور يعمد إلي ضرب التحالفات القبلية بشكل دائم .

ولم يتوان العباسيون في إدخال العنصر العربي إلي الجيش ، مستهدفين موازنة ثقل الفرقة الخراسانية تحسباً لاحتمالات تمردها أو ثورتها . وتوفير بديل يمكن الاعتماد عليه في حالة انفلات الفرقة الخراسانية .

- الموالي :

وهم خليط من عناصر متعددة : من العرب ممن كانوا أسرى . أو من قبائل مغمورة ، أو ممن اصطنعهم الخليفة . ومن الفرس والترك والعبيد المحررين وغيرهم من العناصر الأخرى . ويربط كل هؤلاء بالخليفة الولاء والتفاني والإخلاص الذي يضعونه فوق كل اعتبار .

وكان الخليفة العباسي المنصور هو أول من أدخل الموالي في البلاط والإدارة والجيش ، فجلب منهم الكثير بطريق الحرب أو الشراء ، واهتم بهم المنصور واعتنى بتدريب بعضهم من الأحداث [ صغار السن ] على السلاح . وشكلوا فرقة كبيرة في الجيش العباسي .

ومن ثم برزت ظاهرة ولاء الاصطناع . الذي يعنى اختيار الخليفة لأفراد أو جماعات بغض الطرف عن أصلهم العنصري ، ثم يمنحهم الخِلَع والرتب ويعهد إليهم بالأعمال المهمة . واعتبرت هذه الشريحة نفسها كتلة مستقلة ومختلفة عن العرب وغير العرب . وهم يقولون بأفضليتهم على العرب ، لأن أصولهم أعجمية ، وأفضليتهم على العجم ، بسبب روابطهم مع العرب ، ولكن الموالى حصلوا على هذه المكانة بسبب رعاية الخلفاء لهم ، وتعود هذه الرعاية إلي انتسابهم إلي أمهات غير عربيات في الأغلب .

ولقد زادت مكانة الموالى وأهميتهم في البلاط والإدارة والجيش منذ عهد الخليفة المنصور ، وكان أول خليفة عباسي يستعمل مواليه وغلمانه في أعماله ، وكذلك فعل الخلفاء المهدى والرشيد .

وسكن الموالى في مدينة المنصور المدورة في قطاع خاص بهم يسمى " درب الموالي " إضافةَ إلي أماكن أخرى . كما كان لهم ديوان يسمى " ديوان الموالي والغلمان " .

- الأبناء :

وهم أبناء وأحفاد أهل خراسان ، وقد ظهر هذا الاصطلاح بمضمونه ودلالته في أواخر عهد المهدي وفي أيام الهادي والرشيد . وقد تركز الأبناء في بغداد وهاشمية الأنبار . وشكل الأبناء كتلة واحدة منسجمة تأثرت بالتطورات الجديدة السياسية والحضارية . لكنهم لم ينسوا خراسان إقليم آبائهم ، وكما كان أهل خراسان من العرب والعجم كذلك كان الأبناء ، اشتهر منهم من العرب عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي ، ومن الفرس يحي بن

خالد البرمكي ، وبمرور الزمن ازداد تأثير الأبناء في الدولة العباسية ، وكان تأثيرهم في نزاع الأمين والمأمون واضحاً ، كما ناصروا أهل خراسان في الأزمات والشدائد ، وسكن الأبناء الأرياض من بغداد ، ولذلك يسمون أهل الأرياض ، وعليه فأهل خراسان كانوا من العرب المتأثرين بالتقاليد الفارسية بسبب سكناهم في بلاد فارس ، أما الأبناء فقد تأثروا بتقاليد الخلافة العباسية في العراق .

- السودان والزنوج والعبيد :

كان للزنوج وجود في الجيش العباسي ، كذلك وُجد فيه العبيد ، فالثابت أن جيش يحيي بن محمد العباسي والي الموصل حين وصوله إليها كان يضم وحدة من الزنوج قوامها أربعة آلاف مقاتل وكان ذلك في عام ١٣٣ هـ ، كما أن الجيش الذي أرسله الخليفة المنصور لإخماد ثورة إبراهيم أخي النفس الزكية كان يضم عدداً من السودان غير قليل ، وقد كانت في بغداد دار خاصة بالرقيق تسمى " دار الرقيق " ، وتمثلت أهم مصادر الرقيق في العصر العباسي في الشراء والسبي والهدايا وكجزء من ضرائب الأقاليم .

- الأعراب :

اعتاد قادة الجيش العباسي من أصحاب النفوذ القبلي أن يسيروا في جزءٍ مهم من قبائلهم برفقة الجيش . عندما يبتعثون للفتح أو يُندبون لقمع ثورة أو تأديب الخارجين على الدولة ، وكان في هذه العادة نفع للدولة والقبائل معاً ، فالدولة تستفيد من إنهماك هؤلاء الأعراب وانخراطهم في عمليات الصراع العضوي التي يخوضها الجيش ، فتأمن خروجهم عليها ، وتنعم بالأمن والاستقرار دون عناء ، أما الأعراب فيتحصلون على الغنائم التي تسد حاجاتهم وتلبي طموحاتهم ، في الوقت الذي يشعر قادة الجيش بالاطمئنان لتفاني أفراد قبائلهم في نصرتهم .

- الشاكرية :

وينصرف اصطلاح الشاكرية كما ورد في كتب التاريخ إلي طائفة الخدم والمرتزقة المرتبطين بالقائد ، فهم جزء من مواليه وغلمانه وخدمه ، وكانت مهمتهم تتحدد في شئون الخدمة والحراسة ، وكانت أسماؤهم تسجل مع المقاتلين في العصر العباسي الأول في ديوان الجند والشاكرية .

- الصعاليك :

في العصر العباسي الأول انتشرت كلمة الصعاليك لتعنى الفقراء عموماً ، وقد عمد الخلفاء العباسيون إلي استيعاب فصيل عريض من هؤلاء بالجيش أواخر ذلك العصر ، حتى تأمن الدولة شرهم ، حيث كانوا ينخرطون في حركات المعارضة ، ولوحظ أن مكان هؤلاء الصعاليك يكون دائماً بين القوات المرابطة في الثغور .

- الزواقيل :

مع هذا المصطلح ظهرت مصطلحات كثيرة أُطلقت على شرائح من المجتمع الإسلامي في العصر العباسي في فترة صراع الأمين والمأمون مثل الشطار والعيارين ، وكان هؤلاء يرجعون بأصولهم إلي العرب القيسيين ، الذين انحدروا من شبه جزيرة العرب وبلاد الشام ، وقد شايع هؤلاء الأمين في صراعه مع أخيه المأمون على الخلافة كغيرهم من التجمعات ذات الأصول العربية ، التي رأت ضرورة الوقوف مع الأمين صاحب الحق الشرعي في الخلافة ضد المأمون الذي استعان بجيش طاهر بن الحسين الفارسي ، وقد اكتسب هذا الصراع طابعاً ذا نزعة عنصرية ، عندما ناصر العرب الأمين وشايع الفرس المأمون ، وبعد انتصار المأمون بقوة الجيش الفارسي بات هؤلاء جميعاً في صف المعارضة وحرمتهم الدولة من العطاء ، فلم يجدوا إلا أن يعثوا في الأرض مفسدين ، فتعقبتهم الدولة كمجرمين خارجين

على النظام والقانون ، ثم رأت في إدخالهم إلي الجيش العباسي مع ما أدخلت من الفقراء والعوام حلاً لمشكلتهم في الحياة وجباً لما يثيرونه من الفتن والقلاقل .

- المغاربة :

في أواخر العصر العباسي الأول انضم إلي الجيش عناصر عديدة جُلبت من مصر والسودان والشمال الأفريقي ، وكوّن منهم المعتصم فرقة خاصة عُرقت بالمغاربة وكانوا في معظمهم من العرب اليمانية والقيسية .

- المشارقة :

في خلافة المعتصم ازداد عدد الأتراك الذين استخدمهم المنصور لأول مرة . إلا أن المعتصم قد آثرهم على العرب الذين اسقط أسماءهم من الديوان ، ثم بنى لهم مدينة سامراء شمالي بغداد، لتخليصهم من مضايقات أهل بغداد ، وصاروا يعرفون في جيش المعتصم بالمشارقة تمييزاً لهم عن المغاربة ، واستفحل خطر هذه الفرقة . ولم يستطع الخلفاء بعد المعتصم الوقوف بوجه قادتها ، وقد ذهب الخليفتان المتوكل والمعتز ضحية ذلك الخطر .

- عناصر أخرى :

إضافةً إلي ما تقدم أنضم إلي الجيش العباسي العديد من العناصر الأخرى . مثل الفراعنة والزط والأرمن والأكراد ، ولم تشكل هذه الجماعات فرقاً خاصة وإنما أدخلت للجيش ضمن المتطوعين والقوات غير النظامية .

### ❖ تمويل الجيش :

لعب العامل المالي دوراً مهماً في الجيش العباسي . فقد اعتمد على الدولة في تمويله ، وكانت موارد الدولة طيلة العصر العباسي الأول تفي باحتياجات الجيش مما جعله أكثر

قوة وتنظيماً ، وفي العصر العباسي الثاني تبدلت الأحوال . إذ لم يتوفر المال الكافي لتأسيس جيش نظامي يتمكن من الدفاع عن الخلافة العباسية ضد نفوذ الفرس والأتراك . وبقي اعتماد الجيش على المتطوعين . بسبب عدم رغبة المقاتلين في الانخراط في جيش الخلافة لعدم منفعته مقارنة بجيوش أمراء الأطراف . الذين أسسوا جيوشاً خاصة بهم تمهيداً للاستقلال عن الدولة العباسية . وهكذا كان العامل المالي والوضع الاقتصادي المتردي الذي عانت منه الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني ، سبباً رئيسياً في انهيار الجيش العباسي بل وانهيار الدولة بالكامل .

وكان راتب المقاتل في العصر العباسي الأول بحدود ثمانين درهماً شهرياً . أما صغار القادة فكانت رواتبهم تتراوح بين مائة إلي ألف درهماً ، في حين كانت مخصصات القادة الكبار تتراوح بين ألف إلي ألفي درهماً سنوياً .

واعتادت الدولة أن تزيد رواتب الجيش أو تقوم بصرف رواتب عدة اشهر مقدماً في أوقات الأزمات التي تواجه الخلافة . كما توزع الأرزاق في مناسبة بيعة كل خليفة جديد ، وتعتبر رواتب الجيش العباسي أكثر إذا ما قورنت برواتب الجيش في صدر الإسلام .

### ❖ تسليح الجيش العباسي :

تطور تسليح الجيش العباسي عما كان عليه الحال في العصر الأموي وعصر الخلافة الراشدة . ويمكن متابعة ذلك من خلال الآتي :

– أسلحة الجيش :

شهد الجيش العباسي أنواعاً من الأسلحة لم تكن موجودة في العصور التي سبقته ، كما تم تطوير أنواع أخرى من الأسلحة ، فكان هناك أسلحة الاستعمال الفردي مثل السيوف والخناجر والرماح والقسي والسهام وغيرها ، وكانت هناك أسلحة الاستعمال الجماعي

وأشهرها المنجنيق ، الذي صنعه سلمان الفارسي للرسول الكريم واستخدم في حصار الطائف سنة ٨ هـ ، ثم تطور هذا السلاح الجماعي الذي يستخدم في دك الحصون والأسوار . كما عرف الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأسلحة الكيميائية ممثلة في استعمالات النفط ، وكذا استعمال نترات البوتاسيوم [ ملح البارود ] ، يضاف إلي ما تقدم ما عرفه الجيش الإسلامي من الأسلحة الوقائية أو الدفاعية لتفادى ضربات العدو ، مثل الترس الذي يقي من ضربات السيوف والرماح والسهام وعلى شاكلته كانت الدروع .

وظلت الخيل من أهم أدوات الجيش منذ عهد الرسول الكريم الذي قال فيها " الخيل معقود في نواصيها الخير إلي يوم القيامة " ، كذلك كانت الجمال تستخدم بكفاءة في نقل الأمتعة والمؤن والعتاد والآلات إلي جانب نقل المرضى والمصابين .

وفي العصر العباسي كذلك أتقن الجيش الوسائل الدفاعية مثل بناء الأسوار حول المدن وإنشاء الحصون وحفر الخنادق ، وأيضاً إقامة الاستحكامات في مناطق الحدود وفي الثغور والعواصم، وكان قادة الجيش يستثمرون العوامل الطبيعية والظواهر الجوية في عمليات الهجوم والدفاع . كما يحرصون على دفع الروح المعنوية بالمبارزة وقرع الطبول والشعر الحماسي .

- تصنيع السلاح :

انتشرت مصانع السلاح في كافة الأمصار ، وتطورت بشكل ملحوظ في العصر العباسي ، كما ازداد عدد العاملين فيها واتسموا بالمهارة والإتقان ، كذلك تطورت عمليات تخزين السلاح ، وارتبطت بعمليات الإمداد والتموين والنقل عبر الوسائل المتاحة في ذلك الوقت .

## ❖ تشكيل الجيش العباسي :

بالمقارنة مع وضعية الجيوش الإسلامية — التي سبق الحديث عنها — في صدر الإسلام والعصر الأموي يمكن الانتهاء إلي أن الجيش العباسي كان أكثر تنظيماً وتطوراً من حيث الشكل والتوزيع النوعي والوظيفي للقوات ، ويتضح ذلك مما يلي :

– قيادة الجيش ورتبه وتشكيله :

سبق الحديث عن عناصر الجيش العباسي ، ومن الحديث يستشف أن الجيش كان يوزع إلي فرق أو جيوش فرعية ، وكان على كل فرقة أو جيش فرعي قائد ، ثم كان هناك أمير الجيش أو قائد عام الجيش وهو نائب الخليفة ويعين من قبله ، وتأتي بعد ذلك رتبة أمير الجيش ويكون على عشرة آلاف أو أكثر ، ثم تأتي رتبة أمير الكُردوسة على كل عشرة من القواد ، ثم هناك رتبة القائد على كل عشرة من النقباء ، والنقيب على كل عشرة من الجند ، والجندي أو المقاتل هو الوحدة الأساسية في الجيش ، وأخيراً كانت هناك رتبة العريف وهو المسئول عن ضبط الجند وتنظيمهم وإن كان أحدهم ولكن يكون أقدمهم .

– التشكيل النوعي والوظيفي في الجيش العباسي :

٭ الفرسان : وهم قوام الجيش وأهم عناصره ، وتوكل إليهم المهام القتالية الأساسية ، وهم راكبو الخيل ، وأسلحتهم فردية هجومية دفاعية أو وقائية ، فالسيوف أداة القتال الأساسية. والترس والدرع أداته الوقائية ، وقد يستخدمون الرماح .

٭ المشاة : وهم الراجلون الذين يكونون بصحبة الفرسان ، ويستخدمون نفس أسلحة الفرسان إلا أن استخدامهم للرماح كان أكثر .

* الرماة : وأسلحتهم الأقواس والنبال ، ويلبسون الخوذ والتروس للوقاية ، ومهمتهم تتمثل في رمي جيش الأعداء بالأقواس والسهام .

* أصحاب الدبابة : وكانوا يهاجمون حصون الأعداء واستحكاماتهم الدفاعية . مستترين وراء دبابات أو أبراج خشبية ضخمة يدفعونها لتدمير تلك الحصون والاستحكامات .

* النفاطون : وكانت مهمة هؤلاء قذف النفط على الحصون وإشعال النيران فيها تمهيداً لاختراقها ومهاجمة المتحصنين بها .

* فرقة المنجنيق : وهم رماة المنجنيق . وهذا السلاح عرفه المسلمون منذ زمن الرسول الكريم واستخدمه في حصار الطائف . وهو عبارة عن إطلاق مقذوفات ملتهبة متجاوزة الحصون والأسوار والاستحكامات الدفاعية إلي داخل المدن والتجمعات المحصنة لتشعل فيها النار وتمهد بالتالي لاقتحامها .

* فرقة الزراقين : ومهمة هذه الفرقة تقتصر على العمل في الأسطول ، وتتولى قذف النار داخل الحصون المطلة على البحر أو على سفن الأعداء .

* العيارون : وهذا الفصيل من الجيش يتولى مهمة إلقاء الحجارة الضخمة على الحصون والأسوار لدكها وإحداث منافذ فيها حتى يتم اقتحامها .

* الفدائيون : ويتولى هؤلاء القيام بأعمال جرئيه داخل صفوف الأعداء ، وقد تم تطوير هذا السلاح بشكل فعّال فيما بعد .

* أفراد الخدمة والمهنيون : كذلك التحق بالجيش أصحاب المهن والحرف المختلفة مثل النجارين والبنائين والمهندسين والأطباء والبياطرة والجواسيس من رجال ونساء حيث يتنكرون في هيئات التجار . وكان هناك الإدلاء وجماعات خاصة للاستكشاف وجس نبض العدو قبل الهجوم . وكان هناك الموسيقيون وحملة الألوية والرايات .

- **تدريب الجيش :**

منذ زمن الرسول الكريم والجيش الإسلامي يعهد عملية التدريب بمستوييها الفردي والجماعي. فعلى المستوى الفردي كان التدريب يتم من خلال المبارزة والتدريب على الأسلحة بكافة أنواعها . وعلى المستوى الجماعي كان الجيش في معسكراته يتدرب بشكل جماعي . وكذلك وهو في طريقه لملاقاة العدو .

**ثالثاً : الجيش العباسي والحضارة الإسلامية :**

في نهاية المطاف نخلص إلي إثارة السؤال التالي : ماذا قدم الجيش العباسي للحضارة الإسلامية بوصفه مقوماً من مقوماتها ؟ ، لقد كانت علاقة الجيش العباسي بالحضارة الإسلامية علاقة مأساوية ، فلم يقدم لتلك الحضارة ما كان مأمولاً منه ، ويمكن تفصيل ذلك من خلال الآتي :

- لقد دافع الجيش العباسي الأول عن الحضارة الإسلامية باستماتة وتفانٍ ، فعلى المستوى الداخلي تصدى لكافة حركات الثورة والتمرد على الدولة وحفظ للدولة كيانها ووحدتها . وانعكس ذلك على الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في ذلك العصر ، وقدمت ضروباً ونماذج يُشار إليها . وعلى المستوى الخارجي واجه بصلابة وقوة اعتداءات العدو التقليدي للدولة الإسلامية وهي الدولة البيزنطية . ولم يمكنها من النيل من الدولة الإسلامية أو من حضارتها .

- لم يقدر له الإجادة في حمل وتوصيل الدعوة الإسلامية مثلما قُدِّر للجيوش الإسلامية في العصور السابقة ابتداءً من عهد الرسول الكريم وحتى العصر الأموي مروراً بعصر الخلافة الراشدة ، فقد تمكنت الجيوش الإسلامية في العصور المذكورة من حمل وتوصيل الدعوة الإسلامية إلي أقصى ما وصلت إليه في التاريخ الإسلامي على الإطلاق .

❖ تقاعس الجيش العباسي منذ نهاية العصر العباسي الأول في الدفاع عن الدولة الإسلامية وحضارتها ، مما جعل تلك الدولة مغنماً ومطمعاً لاعتداءات الآخرين ، الذين اجترؤوا عليها وعلى حضارتها ، واقتطعوا أجزاءً منها ووضعوها تحت سيطرتهم ولو إلي حين ، وكان ذلك شأن الصليبيين ، وما ذاك إلا نذير شؤم بين يدي تفكك وانهيار بات وشيك الوقوع .

❖ في العصر العباسي الثاني انهار الجيش ، ولم يستطع السيطرة على أجزاء الدولة ، التي تفلّتت الواحدة تلو الأخرى ، وبدأ عصر التفكك ، وكان انعكاس ذلك واضحاً على الحضارة الإسلامية ، التي بدا أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وتلملم أشلاءها في إعياء وخجل ، لتبحث لها عن مكان في أروقة التاريخ ولتصبح ماضٍ وتراثاً .

❖ تسبب انهيار الجيش العباسي بشكل مهين إلي تسليم الدولة ، بل والحضارة الإسلامية إلي الغزو التتري الهمجي ، الذي أنهى وجود الدولة العباسية ، وأسدل الستار على آخر فصول الحضارة الإسلامية ، واقترن التفكك بانهيار أليم ، ومن ثم تم تدشين عصر التفكك والانهيار البئيس في التاريخ الإسلامي .

# الفصل الثالث

# الجيش في عصور التفكك والانهيار

بالرغم من أن الجيش الإسلامي قد أسلم الدولة الإسلامية ومعها حضارتها الزاهرة لمصير مؤلم كانت بدايته تفككاً وانهياراً لم يسبق له مثيل ، توزعت على أثره إلي دويلات متفرقة وربما متناحرة ، إلا أن جيوش تلك الدويلات جاهدت وكافحت في جلد وعناء من أجل الحفاظ على جسد تلك الدولة المثخن بالجراح ، تذب عنه الذين تقاطروا عليه ، وكان ذلك أقصى ما يمكن أن تقدمه للحضارة الإسلامية في ذلك الوقت ، ونجد أنفسنا مطالبين بالتصدي لدراسة الجيش أو بعبارة أكثر دقة للجيوش الإسلامية في ذلك العصر ، لنواصل المتابعة التاريخية للجيش في الحضارة الإسلامية ، ونقف على طبيعة تلك الجيوش وأهدافها ، وسيتم ذلك من خلال المباحث الثلاثة التالية :

**المبحث الأول : خصائص الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار .**

**المبحث الثاني : تنظيم الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار .**

**المبحث الثالث : الجيوش الإسلامية والحضارة الإسلامية في فترة التفكك والانهيار .**

# المبحث الأول

## خصائص الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار

اتسمت الجيوش الإسلامية التي تأسست منذ نهاية العصر العباسي الأول ، وبداية العصر العباسي الثاني وبدأت تعلن عن استقلالها بولاياتها . اتسمت تلك الجيوش بمجموعة من القواسم المشتركة التي جعلت منها إحدى خصائص مرحلة التفكك والانهيار التي شهدتها الدولة الإسلامية في تاريخها ، ويمكن تناول أهم تلك الخصائص من خلال الآتي :

### أولاً : الطابع الشخصي للجيوش :

تمثلت أول وأهم خصائص الجيوش الإسلامية التي تأسست في مرحلة التفكك والانهيار في كون تلك الجيوش كانت تابعة لأشخاص تولوا تشكيلها . وهم حكام الولايات وكان ولاء هذه الجيوش في المعتاد لهؤلاء الأشخاص ، كما أن هدف تلك الجيوش هو تحقيق رغبات مؤسسيها التي بدأت في الرغبة في الاستقلال عن الدولة العباسية ، ثم في التوسع على حساب الولايات الأخرى وترسيخ الاستقلال الذاتي .

إن معنى ما تقدم أن الوازع القومي العنصري لم يكن قد تبلور بعد لدى العناصر المنضوية تحت لواء الدولة الإسلامية ، كما أن ذلك الوازع لم يكن قد تجسد في رغبة تنزع نحو الاستقلال برقعة من الجغرافيا تحدد معالم الكيان وتبلور طابعه ، فالجيوش المذكورة كانت تنسب إلي الأشخاص أو الأسر الحاكمة للولايات .

### ثانياً : التناحر بين الجيوش الإسلامية المتعددة :

من خصائص تلك الجيوش أنها كانت في معظم الأحوال متناحرة ، فقد تعددت اعتداءات الولايات الإسلامية على بعضها ، إما بسبب خلافات شخصية ، وإما بسبب الادعاءات

والمطالبات التي أطلقها الولاة للسيطرة على أقاليم أو مناطق متنازع عليها ، ناهيك عن الصراعات التي كانت تتم داخل الولايات من أجل الحكم ، وكانت هذه الصراعات بشقيها غالباً ما تفت في عضد هذه الجيوش وتصيبها بالوهن ، ويمكن الزعم بأنها يمكن أن تقويها وتدفع بالحكام إلي الاهتمام بها لتحقيق مآربهم ، إلاّ أن الثابت أن كلفة تلك الجيوش كانت تتحملها الشعوب الإسلامية في شكل ضرائب .

**ثالثاً : عناصر الجيوش الإسلامية :**

كان قوام الجيوش الإسلامية في بداية تأسيسها المرتزقة من عناصر عديدة ، وبعد انهيار الخلافة العباسية بدأت تلك الجيوش تعتمد في عناصرها البشرية على أبناء الولايات من العرب وغيرهم ، فالفاطميون في مصر كانت عناصر جيشهم مكونة من المغاربة من قبائل البربر ومن عبيد الشراء السودانيين والعرب والأرمن والأكراد والديلم والروم والفرنج والصقالبة ، وفي زمن الأيوبيين في مصر والشام قضى صلاح الدين على الصقالبة واستخدم بدلاً منهم عسكراً من الأكراد والأتراك والعرب ، أما المماليك فقد اعتمدوا على الرقيق من الأتراك والجركس في الجهاد ضد الصليبيين .

**رابعاً : الجيوش الإسلامية والدفاع عن أجزاء الدولة :**

بالرغم مما تقدم بخصوص سمات الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار ، إلا أن ثمة حقيقة جديرة بالذكر والاعتبار معاً وهي أن الجيوش الإسلامية المتعددة في الولايات الإسلامية لم تكن تتوانى في الدفاع عن أجزاء الدولة الإسلامية حتى دونما يطلب منها ذلك ، وتعود هذه الحقيقة إلي رسوخ الرابطة الإسلامية وسموها على النزعات الانفصالية التي حدت بالولاة إلي الاستقلال بولاياتهم وتأسيس الجيوش الخاصة بهم ، وتتجلى هذه الحقيقة عندما تقدمت الجيوش الإسلامية من أقاليم وولايات مختلفة للجهاد ضد

الصليبيين من العراق والشام ومصر ، وكان للأسطول الموحدي الذي أرسل منه يعقوب المنصور أمير الموحدين ١٨٠ سفينة حربية لنجدة صلاح الدين الأيوبي ومنع الصليبيين من مهاجمة سواحل الشام دوره المهم في الدفاع عن الشام ضد الخطر الصليبي ، كما تجمعت عناصر من جيوش عديدة للوقوف في وجه المغول حتى تم القضاء عليهم في عين جالوت .

## المبحث الثاني

## تنظيم الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار

في هذه الجزئية ننتقل إلي البحث في تنظيم الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار ، ومعلوم منذ البداية أن كل جيش كان يتسم في تنظيمه بخصوصية تميزه عن غيره من الجيوش . ولكننا سنحاول في هذا الموضع تتبع القواسم المشتركة لهذه الجيوش ، لأننا بصدد استنباط مؤشرات عامة تتعلق بعلاقة الجيوش في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة الإسلامية بالحضارة الإسلامية ، وليس من تبعات هذه الدراسة الخوض في سرد وتفصيل الوقائع والأحداث والتنظيمات ، ونتطرق إلي بحث تنظيم الجيوش الإسلامية في خطوطه العريضة من خلال ما يلي :

### أولاً : الجيوش الإسلامية والظاهرة الصراعية :

الجيش دائماً هو رمز القوة والصراع ، وهذه خصيصة من خِصيّات الجيوش في كافة الأماكن وجميع الأزمنة ، والجيش لا يخوض الصراع لذاته ، ولكن يصبو إلي تحقيق أهداف ومقاصد يحددها قبل خوض ذلك الصراع حتى ولو كان يرد اعتداءً ، فقد أزمع قبل الانخراط في الحرب أن يتصدى للعدوان ، ومن ثم يمكن تحديد علاقة الجيوش الإسلامية خلال عصور التفكك والانهيار بالظاهرة الصراعية من خلال الأبعاد التالية :

❖ **إدارة الصراع العضوي :**

كما ذكرنا مراراً الصراع العضوي هو آخر أشكال الصراع بين الإرادات المتناطحة ، وهو نزال ينتهي بإخضاع أحد الطرفين للآخر أو إنهاء وجوده . وقد ألفت الجيوش الإسلامية منذ تأسيسها إدارة الصراع العضوي مع إرادات عديدة – سنتناولها بعد قليل –

ولم يكن هدف تلك الجيوش إدارة الصراع العضوي كغاية في حد ذاته ، ولكنها هدفت من وراء ذلك الصراع إلي تحقيق أهداف اختلفت باختلاف طرف الصراع ، ومن هذه الجيوش من أدارت الصراع العضوي بحرفية واقتدار ، ومنها من لم تؤده بإتقان ، وكان ذلك يعود إلي طبيعة تلك الجيوش ، والهدف من تأسيسها . وخبرة الأشخاص التي أسستها ، فجيش صلاح الدين الأيوبي كان من أقدر الجيوش الإسلامية على إدارة الصراع العضوي ، كذلك كان جيش المماليك الذي خاض الصراع العضوي مع المغول في عين جالوت .. الخ .

❖ إخضاع إرادة الآخر :

إرادة الآخر هي الطرف الثاني المستهدف النهائي من إدارة الصراع العضوي ، وتظل هذه الإرادة هدفاً منشوداً إلي أن تسلّم للإرادة الأولى ، أو ينتهي وجودها الفعّال في إدارة الصراع قهراً وجبراً ، وقد تعددت وتنوعت الإرادات التي تصارعت معها عضوياً الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار .

فمنذ الشروع في تأسيس تلك الجيوش منذ نهاية العصر العباسي الأول وبداية العصر العباسي الثاني وتلك الجيوش تزمع إدارة الصراع مع الخلافة العباسية في مركز الدولة ، فتكوين تلك الجيوش ذات الاستقلالية كمقدمة للاستقلال بالولايات ، واستغلالاً لضعف الدولة ووهن المركز عن السيطرة على الأطراف ، يعد خروجاً على إرادة الدولة ، وبداية الدخول في صراع معها ، وقد نشبت صراعات من هذا القبيل ، ولكنها كانت تنتهي بإخضاع إرادة الدولة العباسية لإرادة جيوش الأقاليم ، وتسلّم الأولى ولو بشكل غير مباشر بمراد الثانية .

كذلك أَلِفت الدولة العباسية منذ أن كانت تنظيماً عسكرياً ثورياً قبل قيام الدولة خوض صراع عضوي شرس مع الجيش الأموي ، وانتهت الحركة العباسية إلي إخضاع إرادة

الأمويين لمنطقها ، وأقامت دولتها وأزالت الإرادة الأموية من الوجود ، وبعد ذلك ظل الجيش العباسي يتقن إدارة الصراع العضوي ضد الحركات الخارجة على الدولة والمتمردة على الحكم العباسي، وقدّر له النجاح في ذلك ولكن إلي حين .

أيضاً تناطحت إرادات الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار في لقاءات شرسة ومدمرة، منها ما حسم لصالح طرف ضد الآخر . ومنها ما لم يحسم ، وظل الصراع بكافة أشكاله ، إلا أن شكله العضوي أُرجيء لحينه . فكان هناك الصراع التركي الفارسي الشهير الذي لم يحسم بشكل نهائي بالرغم من اللقاءات العضوية المشهورة ، وتعددت الصراعات التي تمت بين جيوش الدويلات الإسلامية ، وبالرغم من شكلها العضوي إلا أنها لم تحسم بتغليب إرادة على أخرى .

وكانت هناك أخيراً الصراعات العضوية التي خاضتها الجيوش الإسلامية مع إرادات قوى خارجية ذات طبيعة نظامية رسمية . فالصدامات مع البيزنطيين شهيرة في هذا المجال ، وأنهاها العثّمانيون بإخضاع إرادة الرومان بشكل نهائي عندما فتحوا القسطنطينية في عام ١٤٥٣ هـ ، والصراع العضوي المتكرر مع إرادة القوى الأوربية الناهضة المتمثلة في الحملات الصليبية أكثر شهرة . وحسمته معركة حطين لمصلحة الطرف الإسلامي ، وعلى نفس المنوال كان الصراع العضوي الذي خاضه الجيش الإسلامي مع الجيش المغولي الذي انتهى وجوده النظامي في معركة عين جالوت .

### ❖ الجيش الإسلامي في عهد التفكك والانهيار والصراع الأممي النظامي :

لم تكن العلاقات بين الأمة الإسلامية والأمم الأخرى لتأخذ طابع الصراع العضوي إلاّ في حالتين : الأولى : الإحالة دون وصول الدعوة الإسلامية إلي الشعوب ، الثانية : الاعتداء على الأمة الإسلامية ، وبالرغم من أن الجيوش الإسلامية المتعددة في فترة التفكك والانهيار

قد خاضت صراعات عضوية متنوعة ، إلا أن أهم تلك الصراعات في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الأمة كانت تلك التي خاضتها في إطار علاقاتها النظامية مع الأمم الأخرى التي حاولت الاجتراء عليها والتعدي على مقدساتها وأراضيها ، وقد تعددت هذه الاجتراءات والتعديات في تلك الفترة حيث استشعرت القوى المحيطة بالدولة ضعفها وتفككها . فالاعتداءات الأوربية في الهجمة الأوربية الأولى التي عُرفت بالحملات الصليبية فرضت على الجيوش الإسلامية خوض الصراع العضوي ، والاجتياح المغولي الهمجي لأجزاء الدولة الإسلامية فرض على جيوشها مرة أخرى خوض الصراع العضوي . ثم الهجمات الأوربية على الأندلس اضطرت الجيوش الإسلامية في هذه المنطقة إلي الدخول في الصراع العضوي للحفاظ على الوجود في هذه المناطق . وهكذا بدت العلاقات الأممية النظامية بين الأمة الإسلامية والمجاورين لها في فترة التفكك والانهيار على أنها علاقات صراعية هدفها الحفاظ على كيان الأمة .

❖ إقرار الأمن الداخلي :

لعبت جيوش الولايات والأقاليم دوراً مهماً في إقرار الأمن الداخلي في تلك الولايات من خلال خوض الصراع العضوي — كما سبق الإيضاح — مع الخصوم والمعارضين والخارجين على أنظمة الحكم فيها . وكانت تلك الصراعات قوية وشبه دائمة وكانت تنعكس على الشعوب الإسلامية بالتفكك والمعاناة .

❖ الدور السياسي للجيش :

يرتبط بما ذكرنا أعلاه أن الجيش الإسلامي في الدويلات الإسلامية لم يكن أداة للدفاع عن الولاية ضد الاعتداءات الخارجية فقط . بل كان إحدى القوى السياسية المهمة التي يستعين بها الحكام في حسم الصراعات السياسية . وعليه فالجيش كان دائم التدخل في

الحياة السياسية ، وكانت ظاهرة الصراعات العضوية بين جيوش الحكام وجيوش الخصوم السياسيين والمعارضين ظاهرة مألوفة في فترة التفكك والانهيار ، كما لم يكن مستغرباً أن يستولي الجيش على الحكم ثم يُنشئ نظاماً خاصاً به .

❖ **الجيوش الإسلامية والدفاع عن الدولة ضد العدوان الخارجي :**

معظم الصراعات التي خاضتها الجيوش الإسلامية كانت تستهدف تحقيق مآرب شخصية لحكام الولايات ، فيما عدا ما قامت به تلك الجيوش من صراعات عضوية للدفاع عن الدولة الإسلامية ضد العدوان الخارجي ، فقد كان هدف ذلك الصراع هو هدف موضوعي يتبلور في الحفاظ على كيان الأمة ووجودها ، وقد ظل ذلك الهدف حياً في وجدان أبناء الأمة، بالرغم من تفرقهم في دويلات مستقلة ، وربما متناحرة ، إلي أن سيطرت الدولة العثمانية على معظم تلك الدويلات وبدأت مرحلة جديدة ، سنفرد لها تحليلاً في المبحث التالي .

**ثانياً : الأسرية مكان العصبية القبلية :**

أسلفنا أن الدولتين الأموية والعباسية قد برزت فيهما العصبية القبلية بشكل ترك آثاراً واضحةً على بنية وشكل نظام الحكم وانتقاله من حاكم إلي آخر ، بل وعلى كافة مفرداته ، كما ترك آثاره كذلك على الجيش في الدولتين ، فظهرت في عناصره وتكويناته فرق تعتمد في تشكيلها على العنصر والقبيلة ، وكان مرد ذلك أن الأمويين والعباسيين قد خرجوا من لب وجوهر القبائل والعصبيات العربية . فكان أمراً طبيعياً — وبالذات عند العرب — أن لا يتجردوا مباشرة ونهائياً من انتماءاتهم العصبية والقبلية ، وهي التي أوصلتهم إلي سُدة الحكم وحافظت على وجودهم فيه . وقد انغمس الأمويون في القبلية العصبية ، ولم ينكروها بل وعوّلوا عليها في حكمهم دون مواربة ، أما العباسيون فبالرغم

من أنهم استفادوا من النزعة القبلية العنصرية منذ بداية ثورتهم وخروجهم على الأمويين ، وفي تشكيل جيشهم الذي بدأ كتنظيم ثوري عسكري ، واستمروا بعد وصولهم إلي الحكم في استدرار عطف القبائل وتأيدها ، إلا أنهم كانوا يتحاشون إعلان ذلك ، ويتظاهرون بعكسه ، ويجدون غضاضة في إبرازه بشكل صريح، وربما لجأوا إلي ضرب التكتلات القبلية لذر الرماد في العيون ، وتحجيم مخاطرها التي قد ترتد عليهم في وقت ما . وإذا كان ذلك هو شأن العصبية القبلية في الدولتين الأموية والعباسية فقد اختلف الحال في الدويلات الإسلامية التي نشأت في عهد التفكك والانهيار . ففي تلك الدويلات حلت دول الأسر محل العصبية القبلية ، وحكم الأسر بديلاً عن الحكم المستند على العصبية القبلية ، وعلى مثل ذلك تأسس الجيش . فكان في معظمه جيش من المرتزقة والمأجورين . وكان جيش الأسرة الحاكمة فعلاً ، وكان جيش الولاية مجازاً ، وإلي الإيضاح :

### ❖ قيام دويلات الأسر :

نشأت دويلات الأسر في كافة أنحاء الدولة الإسلامية بعد انهيار الخلافة العباسية على أيدي المغول في عام ٦٥٦ هـ – ١٢٥٨ م . وإن كانت تلك الدويلات قد بدأت في الظهور في أقصى الشرق في دويلات آل بويه وآل سلجوق وآل قاجار وآل خوارزم وآل صفار وآل سامان .. الخ ، وفي أقصى الغرب في دويلات الأدارسة والأغالبة والعلويين والمرابطين .. الخ في نهاية العصر العباسي الأول وبداية العصر العباسي الثاني ، إلا أنه في فترة التفكك والانهيار انتشرت دويلات الأسر في كافة أنحاء الدولة الإسلامية ، وعاد ذلك إلي ما يلي :

– الولاة جاءوا من غير الولاية :

كان المتعارف عليه وفق نظام الإدارة المحلية الإسلامي أن يُعين الولاة من مركز الدولة ، وفي العصر العباسي الثاني وقبل انهيار الخلافة العباسية كان ولاة الولايات والأقاليم

معينين من مركز الخلافة ، وعندما استقر بهم المقام في ولاياتهم ، وانهارت الدولة ، واستقلوا بولاياتهم ، لم يكونوا ذوى أصول قبلية أو انتماءات عصبية ، فتم تداول حكم تلك الولايات في أسرهم وعرفت الدويلات الإسلامية بأسماء تلك الأسر .

- الولاة الذين جاءوا من الولايات لم يكونوا ينتمون إلي قبائل أو عصبيات :

إلي جانب ما تقدم كان هناك ولاة جاءوا خلال فترة التفكك والانهيار وربما قبيل ذلك من داخل الولايات التي حكموها ، ولكن هؤلاء لم ينحدروا من قبائل . ولم يكونوا ذوى أصول عصبية ممتدة ، فكونوا أسراً حاكمة . وعرفت الدويلات الإسلامية التي حكموها بأسمائهم أو بأسماء أسرهم ، وتوالت الأسر المختلفة على حكم الولايات مثل سوريا ومصر وبلاد المغرب ومثال ذلك في أقصى شرق الدولة الإسلامية .

- معظم ولايات الدولة الإسلامية لم تكن تعرف الانتماءات والنزعات القبلية العصبية :

لعل أشهر مناطق الدولة الإسلامية تشبثاً بالنزعات القبلية والانتماءات العصبية هي بلاد العرب العاربة في شبه الجزيرة العربية والعراق وجزء من بلاد الشام . أما بقية مناطق الدولة فلم تكن تعرف النظام القبلي مثل بلاد فارس ووسط آسيا ومصر والشام وشمال أفريقيا بوصفها مستعمرات رومانية ، وعليه فالحكم الذي قام في هذه الولايات في فترة التفكك والانهيار كان ينتمي إلي أشخاص كونوا بدورهم أسراً حاكمة ، ولم ينتموا إلي امتدادات قبلية أو أصول عصبية .

- الاستيلاء على الحكم بالقوة :

في فترة التفكك والانهيار ذاعت ظاهرة الاستيلاء على الحكم بالقوة . مرتبطة بصراعات حادة بين أشخاص وأسر تطمح إلي الحكم في ولايات الدولة الإسلامية ، ولم يكن أولئك الأشخاص أو تلك الأسر ذات أصول عصبية أو انتماءات قبلية . بل ربما أن منهم من جاء

من خارج الولاية ، وفي هذه الحالات التي تأسس فيها الحكم على الاغتصاب الذي جاء في أعقاب الصراعات ، تكونت الدول على أساس أسرى أو شخصي ، ولم تكن على أسس قبلية أو عصبية .

– الجيوش تفرض الحكام والأسر الحاكمة :

كانت الجيوش في الولايات الإسلامية في فترة التفكك والانهيار قوة سياسية لا يستهان بها . بل لعلها كانت أشد القوى التي تملك التغيير السياسي العنيف ، وكان الجيش دائم التدخل في السياسة والحكم ، وكثير الاستيلاء على السلطة ، وعندما يستولي على السلطة كان يحتفظ بها أو قد يعهد بها إلي شخص ذى صلة بالعسكرية . وفي كلتا الحالتين يؤول الحكم إلي شخص أو أسرة وتصبح الدولة كذلك منسوبة إلي ذلك الشخص أو تلك الأسرة ، وهكذا كانت الدويلات الإسلامية في فترة التفكك والانهيار .

### ❖ تأسيس جيوش الأشخاص والأسر :

استتبع قيام دويلات الأشخاص والأسر في كافة أرجاء الدولة الإسلامية تأسيس جيوش تحمل نفس الخصائص والسمات . ويمكن إيضاح تلك الخصائص في الآتي :

– لقد تأسست الجيوش في الدويلات الإسلامية سواء في أواخر الدولة العباسية [ العصر العباسي الثاني ] . أو في فترة التفكك والانهيار مرتبطة بالحكام أو الولاة والأسر الحاكمة . ومن ثم كانت تلك الجيوش جيوش أشخاص تأتمر بأمرها وتعمل لمصلحتها وتحقق أهدافها ، فكان ولاء تلك الجيوش لمصلحة الحكام أشخاصٍ وأسرٍ . كما ألقي في روع أفراد تلك الجيوش أنهم يتلقون رواتبهم وعطاءاتهم من شخص الحاكم . وكان هو الذي يملك منح هؤلاء ويملك في ذات الوقت منعهم بل وإعفاءهم نهائياً والإتيان بغيرهم .

– تحددت المهام الأساسية لجيوش الحكام والأسر في الدويلات الإسلامية في مرحلة التفكك والانهيار في الوصول بالحاكم إلي سدة الحكم ، ثم الحفاظ عليه في موقعه ، من خلال قمع خصومه ومعارضيه ، وكانت المهمة الأخيرة هي أهم مهام الجيش بعد أن تستقر الأمور للحاكم في موقعه ، فكثيراً ما كان الحاكم يعد الجيش إعداداً خاصاً بعد الوصول إلي الحكم ويهيئه للقيام بهذه المهمة التي أصبحت شغله الشاغل وأساس وجوده ، ويرتبط بما تقدم أن الجيش كان ملزماً بالتفاني في هذه المهمة ؛ انطلاقاً من ولائه لشخص الحاكم من ناحية ، وتعويلاً على ارتباطه بشخصه من ناحية أخرى ، إذ في حالة زوال الحاكم وإزاحته عن مكانه ، يتم إحلال الجيش وتفكيك أوصاله ، وتأسيس جيش جديد يرتبط بالحاكم الجديد كما كانت وضعية سابقه .

– كذلك كان من مهام الجيوش الإسلامية في عهد التفكك والانهيار – كما سبق القول – خوض صراعات عضوية لصلحة الحاكم أو الأسرة الحاكمة مع الدويلات الأخرى . وقد تعددت تلك الصراعات وانحصرت أهدافها في تحقيق طموحات ومآرب شخصية . وكان يحلو لكل من يخوض تلك الصراعات أن يدّعي أنها من أجل توحيد الأمة ولمّ شملها ، ودائماً ما كانت تلك الصراعات تعود بالوبال والخسران على كافة الأطراف المتصارعة .

– ما لا ينبغي أن يُنكر أن بعض هذه الجيوش قد خاضت صراعات عضوية ضد قوى أجنبية كانت تستهدف تمزيق الأمة والنيل من كرامتها . وقد أبلت هذه الجيوش بلاءً حسناً ، ونافحت عن الدولة الإسلامية بصدق وإخلاص ، فجيش الناصر صلاح الدين كان في مقدمة تلك الجيوش وكذا جيش المماليك . فالأول تصدى للحملات الصليبية والثاني تصدى للمغول .

وكان هناك جيوش الأمويين في الأندلس . ولكن الأخيرة لم يقدّر لها الصمود في وجه الضغوط العاتية التي انبعثت من القوى المتعددة المحلية والخارجية مستهدفة الوجود الإسلامي في شبه جزيرة أيبريا [ الأندلس ] .

## ثالثاً : الاستنفار في الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار :

اختلف الاستنفار في جيوش الدويلات الإسلامية في عصر التفكك والانهيار عن نظيره في صدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي في كثير من الأمور ، وأول تلك الاختلافات أنه باستثناء الاستنفار لدفع التعديات الخارجية والعدوان على أجزاء الأمة ، لم يكن لذلك الاستنفار ما يبرره من الوجهة الشرعية ، إذ كان الهدف من الجيوش — كما سبق الإيضاح — الصراعات الداخلية على الحكم أو الصراعات بين الدويلات الإسلامية لتحقيق مآرب شخصية ، أما ثاني تلك الاختلافات أن معظم جيوش الدويلات الإسلامية كانت تتألف من مرتزقة ومأجورين لا يحتاجون إلي استنفار أو تحفيز ، بل تجمّعهم العطاءات والرواتب التي يتحصلون عليها من قبل الحاكم أو الأسرة الحاكمة التي يصارعون لصلحتها . وثالث تلك الاختلافات أن كثيراً من أبناء الولايات الإسلامية لم يستحلوا الجهاد في صفوف تلك الجيوش، إلا في حالة الصراع العضوي مع قوى خارجية مثل الحروب الصليبية أو الحرب ضد المغول ، وإلي مزيد من الإيضاح فيما يتعلق بالاستنفار في الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار :

### ❖ المرتزقة والمأجورون قوام الجيوش الإسلامية :

اعتمدت معظم جيوش الدويلات الإسلامية في فترة التفكك والانهيار على المرتزقة والمأجورين. الذين تم استجلابهم لمباشرة الصراع العضوي في تلك الجيوش لمصلحة الحكام والأسر الحاكمة ، فالفاطميون في مصر كانت عناصر جيشهم مكونة من المغاربة من قبائل

البربر وعبيد الشراء السودانيين والأتراك والعرب والأرمن والأكراد والديلم والروم والفرنجة والصقالبة . وفي عهد الأيوبيين قضى صلاح الدين الأيوبي على هذه التركيبة البشرية العجيبة، وأسس جيشاً جديداً كان قوامه الأكراد والأتراك والعرب ، أما المماليك فقد اعتمدوا في جيشهم على الرقيق من الأتراك والجركس في الجهاد ضد المغول . ثم ضد الحملات الصليبية التي استهدفت مصر والشام .

وهكذا لم تكن هذه الجيوش المكونة من المرتزقة والمأجورين في حاجة إلي استنفار ، فقد كانت حرفة هؤلاء هي الحرب مع الطرف الذي يحدده الحاكم .

### ❖ التجنيد الإجباري عند اللزوم :

لجأت بعض الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار إلي التجنيد الإجباري عند خوض الصراعات مع الولايات الأخرى . أو عند الجهاد ضد قوى خارجية . وكان ذلك يمثل ظرفاً اضطرارياً . حيث يضطر الحاكم إلي فرضه أمام الضغوط المتمثلة في قلة عدد الجيش مقارنة بالجيش المقابل . أو احتدام الصراعات واستحكام الأمور بشكل يصعب معه استجلاب المرتزقة والمأجورين .

### ❖ الدعوة إلي الجهاد :

في حالات كان الحكام يدعون فيها للجهاد كوسيلة من وسائل الاستنفار ، وأهم تلك الحالات الصراع العضوي ضد قوى خارجية معتدية مثل المغول والصليبيين . وكانت دعوة الجهاد في هذه الحالة تلقى قبولاً واستحساناً من كافة فئات المجتمع الإسلامي . كما كانت أداة فعالة في استنفار أفراد المجتمع وتكوين الجيوش . وكانت هناك حالات الصراع العضوي ضد ولايات أخرى داخل نطاق الدولة الإسلامية ، وهذه الحالة قلما كانت تجد من أفراد المجتمع آذاناً صاغية . بل كثيراً ما كانت تقابل بالنفور والإعراض

. أما حالات الصراعات الداخلية فلم يكن يُلجأ بصددها إلي الدعوة إلي الجهاد ، بل كان المنبع هو شحن الأنصار والمشايعين . واستجلاب المرتزقة والمأجورين . أما الدعوة العامة للجهاد فلم تكن محل نظر في هذه الحالة .

❖ **البعد التنظيمي :**

في فترة التفكك والانهيار كانت معسكرات الجيوش قد باتت أمراً مألوفاً ، حيث يتجمع فيها الجنود الذين تم استجلابهم من المرتزقة والمأجورين . وكذلك من أبناء الولاية إذا كانت هناك دعوة للجهاد ضد عدوان خارجي . ومن خلال هذه المعسكرات يتم توزيع الأفراد حسب نوعية السلاح . حيث يُشرع بعد ذلك في عمليات التدريب التي يتم على أثرها توزيع المقاتلين على المواقع المعينة . أو يتم تحريك الجيش بالكامل لملاقاة العدو في موقع تم تحديده حسب الخطة العامة للقتال [ الاستراتيجية ] .

❖ **البعد العقيدي والنفسي :**

لا مجال للحديث عن البعد العقيدي أو النفسي فيما يتعلق بالجيوش الإسلامية التي كان قوامها المرتزقة والمأجورين . فهؤلاء المقاتلون كانوا يؤدون القتال كحرفة أو مهنة . ولا يفيد في تهيأتهم أو تحفيزهم عقيدة أو معنويات . بل إن حافزهم للإجادة في القتال كان زيادة العطاء أو مضاعفة الراتب .

أما في حالة الجهاد ضد المغول والصليبيين فكان الجنود المسلمون في حالة تحفز وحماس شديدين . فهم سيجاهدون معتدين على الدين والوطن . وشعارهم الدفاع عن الإسلام وإعلاء شأنه ، وكان ذلك كفيلاً بأن يرفع من روحهم المعنوية . ويقدمون على القتال بتفان وشجاعة . وقد سجلت الجيوش الإسلامية في مصر والشام والأندلس بطولات وملاحم رائعة في جهاد الصليبيين والمغول والفرنجة .

## رابعاً : الأسطول في الجيوش الإسلامية :

في فترة التفكك والانهيار لا يمكن الحديث عن الأسطول في الدويلات الإسلامية كقوة حربية يعتد بها إلا في مصر والأندلس ، حيث احتكمت هاتان الولايتان على أسطول كان له شأنه في الدفاع عن سواحلها ، ويمكن تفصيل ذلك من خلال الآتي :

### ❖ أسطول مصر :

في زمن الطولونيين عمل أحمد بن طولون على تقوية القواعد والحصون الساحلية ، واهتم بإنشاء دور صناعة السفن في جزيرة الروضة حتى بلغ عدد سفنه مائة سفينة زادت في عهد ابنه خمارويه .

وفي عهد الإخشيد نقل دار صناعة السفن من جزيرة الروضة إلي دار امرأة أحمد بن طولون على ساحل الفسطاط على النيل في عام ٣٢٥ هـ ، بعد أن تعرضت للتدمير على أيدي الجيوش المغربية ! .

وفي زمن الفاطميين ازداد الاهتمام بالأسطول ، وحرصوا على التصدي للهجمات البيزنطية التي استهدفت السواحل المصرية ، ونشط الاتصال البحري والتعاون بين أساطيل بلاد الشام ومصر من جهة والمغرب وصقلية من جهة أخرى ، وخصص الفاطميون للأسطول ديوان عُرف بديوان الجهاد أو العمائر .

تابع الفاطميون اهتمامهم بالأسطول فأنشأوا داراً لبناء السفن في كل من الفسطاط والإسكندرية ودمياط . وبلغ عدد العاملين بالأسطول حوالي خمسة آلاف رجل بين مقاتل وعامل ، على رأسهم أمير الأسطول ، وعشرة من الأعيان يساعدون الأمير كقواد .

وصل عدد قطع الأسطول الفاطمي في أوج قوته إلي ٦٠٠ قطعة بحرية من مختلف الأنـواع ، من الشواني والمسطحات والحمالات والمراكب النيلية ، ثم اخذ في التناقص إلـي أن وصـل في أواخر عهد الأسرة الفاطمية إلي ثمانين شونة وعشر مسطحات وعشر حمـالات ، وكـان ذلك مؤشراً إلي ضعف الدولة وضعف جيشها عموماً .

وفي العصر الأيوبي استمر الاهتمام بالأسطول واصبح يسمى ديوان الأسطول ، وعرف قائـده بصاحب الأسطول ، وكان الأسطول في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي هو أسـطول مـصر والشام . وقد أمر صاحب الأسطول ألا يبارح البحر . وكتـب إلـي جميـع عمالـه في مـصر والشام بتلبية طلباته وطاعته . ورصد له الأموال من مصادر مختلفة بلغت ٥٨ آلف دينار ، وبعد رحيل الناصر صلاح الدين ارتبط الاهتمام بالأسطول في زمـن الأيـوبيين بمـدى قـوة أو ضعف الخطر الصليبي على السواحل الشامية والمصرية ، وقد أتضح ذلك في أيـام الـسلطان الكامل وولده الصالح . حيث هاجم الصليبيون السواحل المصرية فكان الاهتمام بالأسطـول وبتسليحه لحماية السواحل في مصر والشام .

وفي العصر المملوكي ازدادت أيضاً العناية بالأسـطول في مـصر والـشام . وكـان سـبب ذلـك أيضاً مواجهة الخطر الصليبي في البحر المتوسـط وخـصوصاً في جزيـرة قـبرص . ممـا حـدا بالـسلطان الظـاهر بيـبرس لأن يـصدر تعليماتـه بمنـع النـاس مـن التـصرف بالأخـشاب لاستعمالها في تصليح السفن في الإسكندرية ودمياط ، بالإضافة إلـي دور صـناعة الـسفن في الروضة والفسطاط .

كذلك حرص السلطان الأشراف خليل بن قلاوون المملوكي على بناء أسطول قوى ، احتفل بإتمامه في سنة ٦٩٢ هـ في الفسطاط . وكان يتكون مـن ٦٠ سـفينة مجهـزة بالجنـد والآلات الحربية ، وكذلك اهتم أخوه السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالبحريـة . حيـث انتهـي من إنشاء أسطول قوى في دار صناعة السفن في الفسطاط عام ٧٠٢ هـ .

وكانت العناية بالأسطول في عهد المماليك قد وصلت إلي قمتها في أيام السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٦٧ هـ ، بعد أن تعرضت الإسكندرية لغارة من ملك قبرص فأنزل بها الدمار ، فأسرعت دور صناعة السفن في مصر ببناء مائة سفينة في عام واحد ، بعدها هاجم المماليك قبرص ثلاث مرات في عهد السلطان الأشرف برسباي ، حتى احتلوها في عام ٨٢٩ هـ ، وحمل ملكها أسيراً إلي مصر وتبعت الجزيرة مصر .

وفي نهاية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي لم تعد تجدي عناية المماليك بالأسطول تلك التي بذلها السلطان قانصوه الغوري . حيث بات يواجه خطرين في آن واحد ، خطر الأسطول العثماني الذي سيطر على البحر المتوسط وخطر الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي. وانتهي الأمر بانتصار العثمانيين على المماليك في مصر سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م في موقعة الريدانية في عهد السلطان سليم الأول .

### ❖ الأسطول الأموي في الأندلس :

كذلك اهتم الأمويون في الأندلس بالأسطول حيث أنشأوا دوراً لصناعة السفن منذ أيام الأمير الحكم الريفي . وزاد ذلك الاهتمام في عهد عبد الرحمن الأوسط . وبصفة خاصة بعد أن تعرضت سواحل الأندلس في سنة ٢٢٩ هـ إلي الغزو النورمندي . فعمد عبد الرحمن الأوسط إلي تحصين السواحل . وإحاطة مدينة اشبيلية بسور . وأنشأ المراقب والمحارس على طول الساحل الغربي المطل على المحيط الأطلنطي وكثف عليه المقاتلين المرابطين . كما أنشأ عبد الرحمن الأوسط داراً لصناعة السفن في اشبيلية سنة ٢٣٠ هـ وأخرى في جزيرة شلطيش وثالثة في مدينة قرمونة . حتى وصل عدد السفن إلي ٣٠٠ سفينة اشتركت في غزو جزيرتي ميورقة ومنورقة سنة ٢٣٤ هـ ، ولما توفى عبد الرحمن الأوسط زاد ابنه محمد بن عبد الرحمن ما مقداره سبعمائة سفينة .

بالرغم مما تقدم يعتبر عبد الرحمن الناصر هو المؤسس الحقيقي للأسطول الأموي في الأندلس ، حيث أنشأ عدداً من دور صناعة السفن في مدن المرية وطرطوشة والجزيرة الخضراء ومالقا ودانية ومدينة الزهراء وغيرها ، وقد تخصصت هذه الدور في صناعة نوعيات معينة من السفن، بينما تخصصت دوراً أخرى في صناعة ما يلزمها من أسلحة ، ومع ذلك لم يتجاوز عدد سفن الأسطول في عهد عبد الرحمن الناصر ٢٠٠ سفينة تركزت في المرية للدفاع عن سواحل البحر المتوسط ، وفي اشبيلية للدفاع عن السواحل الغربية المطلة على المحيط الأطلنطي .

استمر الاهتمام بالأسطول الأندلسي في عصور المرابطين والموحدين ، وقد اشتهروا بعمارة الأساطيل ، وقد سبق أن أشرنا إلي أن الناصر صلاح الدين الأيوبي قد أرسل سنة ٥٨٦ هـ رسولاً إلي أمير الموحدين يعقوب المنصور يطلب إعانة الأسطول الموحدي لمنع الصليبيين من مهاجمة سواحل الشام ، فبعث إليه بمائة وثمانين سفينة حربية لتأمين هذا الغرض ، ثم تراجعت البحرية في الأندلس وانحدر مستواها بسبب ضعف الدولة .

## ❖ قطع الأسطول الإسلامي :

اختلفت قطع الأسطول الإسلامي متوائمة مع البحار التي تعمل فيها . وقد كان ذلك يمثل بعداً حضارياً مهماً ، إذ أنه يعبر عن أرقى درجات التعامل مع عناصر الوجود ومفردات الطبيعة بالتحوير والتكييف . فقد كان شكل قطع الأسطول وطريقة بنائها يتواءم مع البحار التي ستستخدم فيها ، فسفن البحر المتوسط كانت ذات دفتين ، وتستخدم فيها المسامير الحديدية وذلك يتواءم مع حركة الرياح في المتوسط ، وعمق مياهه وخلوه من الشعاب المرجانية ، في حين لم يكن يستعمل المسمار الحديدي في سفن البحر الأحمر ، بل كانت ألواحها تُخاط بحبال من خيوط ونسيج القنبار . ويستخدم لتثبيتها مسامير

خشبية ، وذلك يقلل من احتمالات تحطمها في حالة ارتطامها بالصخور المرجانية الكثيفة في البحر الأحمر ، كما أن الحديد لم يكن متوفراً في هذه المناطق ، وأن ذلك يمنحها خاصية الرسو بأمان عند السواحل . وكان الأسطول الإسلامي منذ نشأته في عهد عثمان بن عفان وحتى نهاية فترة التفكك والانهيار يتكون من القطع البحرية التالية التي تطورت خلال هذه الحقبة بشكل ملحوظ :

– الشواني : ومفردها شيني أو شونة ، وهي عبارة عن مراكب كبيرة تعمل بمائة وأربعين مجدافاً . وكانت هذه السفن تعرف في بعض المناطق بالأغربة . حيث كانت تطلى بالقار لحماية أخشابها من التآكل ومنع الماء من التسرب ، كذلك كانت تزود بأبراج وقلاع لأغراض الدفاع والهجوم ، ومخازن ضخمة للغلال وصهاريج لخزن الماء العذب والمؤن اللازمة للعاملين عليها .

– البُطْس أو البُطْش : ومفردها بطسة أو بطشة ، وهي عبارة عن سفينة كبيرة الحجم كذلك ، وتتكون من عدة طوابق . وتتسع لما يقرب من سبعمائة مقاتل . وهي مركب شراعي تعمل بأربعين شراعاً ، ونظراً لما تحمله من عدد كبير من الجنود . فكانت تستعمل في الهجوم . وكذا في الإنزال على السواحل وفي الثغور .

– الحراريق : مفردها حُراقة ، وهي عبارة عن مركب متوسط الحجم ، تتسع لحوالي مائة مقاتل وتعمل بالمجاديف التي تصل إلي مائة مجداف ، وقد أشتهر عن هذه المراكب أن بها مرامي لقذف اللهب أو كرات النفط المشتعلة . وكانت هذه السفن تستعمل في مهاجمة القطع المعادية أو مهاجمة الحصون أو القلاع التي على السواحل وفي الثغور .

– المسطحات : مفردها مسطح ، وهي عبارة عن سفن ضخمة كبيرة الحجم تعمل بالمجاديف. حيث يكون المجدفون في الأسفل والمقاتلون من أعلى ، وعرفت في الأندلس

بالمراكب الحمالة، حيث كانت تستعمل في حمل الجنود المجهزين للقتال والالتحام مع القطع المعادية .

– الشلنديات : مفردها شلندي ، وهي عبارة عن سفن كبيرة الحجم . تشبه المسطحات، ولكنها كانت تستخدم لأغراض النقل فقط ، وكانت تعمل بالمجاديف .

– الطرائد أو الطرّادات : ومفردها طريدة أو طرّاد . تمثلت مهمتها في المشرق الإسلامي في نقل الخيل والمقاتلين والمؤن والسلاح ، وكانت مفتوحة من الخلف حتى يتسنى للخيل الدخول والخروج ، وكانت تسع في المعتاد حوالي أربعين فرساً ، أما في الأندلس والمغرب فقد تمثلت مهمتها في مطاردة سفن العدو . ومن ثم اكتسبت اسمها ، وكانت برميلية الشكل ، وتتميز بالسرعة . حتى تتمكن من القيام بمهامها القتالية .

– الأغربة : واحدها غراب . وهي مركب سريعة . اكتسبت إسمها من شكلها . حيث كانت مقدمتها تشبه رأس الغراب وتطلى بالقار ، وكانت تستعمل في العمليات الهجومية السريعة بما لديها من قدرة على المناورة .

– البراكيس أو البراكيش : واحدها بركوس أو بركوش ، وهي عبارة عن مراكب صغيرة الحجم ، كانت تستخدم في نقل المياه العذبة ، وقد استخدمت في النقل عموماً ، وسعتها لا تتجاوز خمسة وعشرين رجلاً .

### ❖ أسلحة الأسطول الإسلامي :

التسليح الفردي لمقاتل البحر لا تختلف عن نظيره عند مقاتل البر ، إلا أن هناك بعض الاختلاف فيما يتعلق ببعض أسلحة الاستخدام العام الذي يلائم بيئة البحر . ونذكر من ذلك ما يلي :

- الكلاليب : جمع كلاّبة ، وهي نوع من الخطاطيف الحديدية القوية ، تنتهي بها سلاسل متينة. تستخدم لجذب مراكب العدو ، حتى يسهل الالتحام معها . والعبور إليها بواسطة سلالم أو ألواح خشبية . ومن ثم يبدأ القتال .

- الباسليقات : واحدتها باسليقة ، وهي عبارة عن سلاسل حديدية تنتهي برؤوس رمانية الشكل من الحديد أيضاً . وتستخدم في القتال الالتحامي .

- التوابيت : وهي بمثابة صناديق خشبية مفتوحة من أعلاها . تكون بمثابة خنادق مفتوحة من أعلاها . يختفي فيها المقاتلون ، وتنصب أعلى صواري السفن ، ويحتفظ فيها الجند بالحجارة والنفط والنوره وبعض الحشرات لرميها على العدو .

- اللجام : وهي قضيب حديدية تشبه الرمح . تستخدم في تهشيم سفن الأعداء وإحداث الثقوب بها حتى يتسرب إليها الماء فتغرق .

- وسائل الحماية والتمويه : استخدم المسلمون وسائل عديدة لحماية سفنهم من الحريق . فكانت تُلّف بقطع اللبّود [ اللبّاد ] المبللة بالخل والماء أو الخل المزوج بالشب والنطرون . وفي أحيان أخرى تُطلى بالطين المعجون بالنطرون . كذلك كانت الصواري تلون باللون الأزرق فتختلط مع لون الماء ، مما يعطى السفن القدرة على الاختفاء والتمويه والتمكن من المباغته والهجوم المفاجئ .

## خامساً : تمويل الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار :

كانت المؤسسة العسكرية في الدويلات الإسلامية في فترة التفكك والانهيار ذات ثقل وكلفة مادية تتواءم مع أهميتها وحيوية وجودها في تلك الدويلات . فالجيوش ازدادت أهميتها انطلاقاً من دورها في الحفاظ على وجود تلك الدويلات . وأيضاً في الدفاع عن أجزاء الدولة

الإسلامية عند الضرورة ، فماذا عن تمويل تلك الجيوش وعن رواتب الجند ، وكيف يتم تدبير المخصصات المالية لمواجهة تلك النفقات ؟ :

### ❖ موارد الدولة :

اختلفت موارد الدويلات الإسلامية حسب القاعدة الاقتصادية التي يعتمد عليها اقتصاد كل دويلة من هذه الدويلات ، وتراوحت تلك الاقتصادات بين الزراعية والرعوية والتجارية ، إلي جانب ذلك كانت الضرائب تمثل مورداً مهماً من موارد الدويلات الإسلامية ، وقد خُصصت للمؤسسة العسكرية نسبة لا يُستهان بها من الموارد العامة ، وفي وقت الحروب أو الصراعات كانت تفرض الضرائب لتمويل تلك الحروب والصراعات ، ودائماً ما كان المجتمع الإسلامي يعاني من ويلات ذلك ، ولكنه لم يكن يأبه بالمصاعب المالية إذا كان الجهاد في مواجهة عدوان خارجي على أجزاء الأمة .

### ❖ المساعدات بين الدول الإسلامية :

بالرغم من الصراعات التي كانت مألوفة بين الكثير من الدويلات الإسلامية ، إلا أنه في حالة الجهاد ضد اعتداءات خارجية على أجزاء الأمة ، كانت المساعدات تتقاطر على الأجزاء التي وقعت عليها الاعتداءات وتأخذ أشكالاً عديدة ومتنوعة ، فتتحرك الجيوش البرية والبحرية قاصدة الجهاد في سبيل الحفاظ على وحدة كيان الأمة ، وترسل الإمدادات من مؤن وذخائر وأسلحة ، والمتابع لتاريخ الدولة الإسلامية سيجد أن ما كان يحدث من تعاون بين الدويلات الإسلامية في حالة وقوع اعتداء على إحداها فيما نسميه بعصور التدهور أو التفكك والانهيار كان أفضل بكثير مما يحدث في وقتنا الراهن ! ! .

❖ رواتب الجند :

كانت رواتب الجند في عصور التفكك والانهيار أعلى من مثيلاتها في صدر الإسلام وفي العصرين الأموي والعباسي ، ويرجع سبب ذلك إلي رغبة الحكام في إغراء الجند حتى يقبلوا الاستمرار في الخدمة لتحقيق أهدافهم ، لأن معظم أفراد تلك الجيوش كانت من المرتزقة والمأجورين .

سادساً : تسليح وتدريب الجيوش الإسلامية وقيادتها وتشكيلها :

مما لا شك فيه أن العلاقة واضحة بين طبيعة الجيوش وبين أهدافها ومقاصدها وكذا تسليحها وتدريبها وتشكيلها وقيادتها . فالجيوش في صدر الإسلام كانت أهدافها ومقاصدها واضحة ومحددة ، وانعكس ذلك على تدريبها وتشكيلها وقيادتها . كما أن تسليحها لم يكن محل مبالغة أو تهويل لأن العقيدة والإيمان كانا يملئان النفوس ويشحذا العزائم ، وفي فترة التفكك والانهيار اختلفت الأوضاع ، فالجيوش في معظمها قوامها المرتزقة والمأجورون . وأهدافها إدارة الصراع العضوي بين التحزبات الداخلية أو بين الولايات ، وقليل منها ما استهدف الجهاد ومدافعة المعتدين على الدين والحمى ، وسلاحها لم يكن إلا السلاح المادي . أما العقيدة والإيمان فلم يكن يُعوّل عليهما ولا يُستحضرا إلا عند الصراعات مع غير المسلمين ، وفي عجالة نقف على تسليح الجيوش الإسلامية وتدريبها وقيادتها في فترة التفكك والانهيار :

❖ تسليح الجيوش الإسلامية :

تطورت أسلحة الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار نتيجة صراعاتها الداخلية ، وكذا صراعاتها بين الولايات ، ثم الصراعات مع الجيوش ذات الطبيعة الأممية مثل الجيوش البيزنطية والصليبية والمغولية ، ومن ثم يمكن الخلوص إلي أن أسلحة الجيوش

الإسلاميـة قد مرت بتطـورين : الأول ، تطوير الأسلحة التقليدية المتعـارف عليهـا لزيـادة فعاليتها وتحسين نتائجها ، الثاني ، ادخل أسلحة جديدة ، وبصفة خاصـة فيمـا يتعلـق بأسلحة الاستخدام الجماعي ، سواء أكانت الهجومية منها أو الدفاعية ، والتطور الأخـير قد أدخلته الجيوش الإسلامية نتيجة احتكاكها بالجيوش غير الإسلامية .

وتم إنفاذ هذين التطورين عبر إقامة عملية تصنيع للسلاح واسـعة النطـاق ، عمـت معظـم الـدويلات الإسـلامية في مـصر والـشام والمغـرب والأنـدلس وكـذا في المـشرق الإسـلامي ، فانتشرت مصانع السلاح بكافة أنواعه المخصص لجيوش البر وجيـوش البحـر ، والفرديـة والجماعية ، والدفاعية والهجومية ، وابتكرت أنواع جديـدة مـن الأسـلحة مثـل الأسـلحة الكيميائية .

### ❖ تدريب الجيش وقيادته :

أما عن تدريب الجيوش الإسلامية وتشكيلها وقيادتها ، فقد شهدت هي الأخرى تطورات حاسمة ، وبصفة خاصة فيما يتعلق بالصراعات ذات الطبيعة الأممية الـتي خاضـتها تلـك الجيوش مع البيزنطيين والصليبيين والمغول ، ونتناول ذلك فيما يلي :

- تدريب الجيش :

في عصور التفكك والانهيار شهدت عملية تدريب الجيـوش تطـوراً غـير مـسبـوق ، حيـث خُصصت معسكرات للتدريب ، وأوقات محددة لذلك ، وأسُتجلب المـدربون علـى الأنـواع المختلفة للأسلحة وفنون القتال وأساليبه ، وبرز اهتمام غير معتاد بالخطة العامـة للمعركـة أو ما يعرف بالاستراتيجية ، وكذا إدارة العمليات الحربية الميدانية أو ما يعرف بالتكتيـك ، وأيضاً عمليات الإمداد والتموين أو مـا يعـرف باللوجـستيك ، ووضـع كـل هـذا موضـع التطبيق في معارك حربية ومواقع صراعية مشهورة مثل حطين ومعركة عين جالوت .

- تشكيل الجيوش :

تعددت تشكيلات الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار واختلفت من جيش لآخر ، فمثلاً قسم الفاطميون جيشهم كالتالي : رتبة المطوق وهو قائد لألف جندي ، ثم رتبة أمير القضيب ويقود مائة جندي ، أما المماليك فقد قسموا جيشهم إلي أربعة تشكيلات ورتب : التشكيل الأول : المئين أو مقدمو الألوف وهي رتبة يتبعها تشكيل مكون من مائة فارس ، التشكيل الثاني : أمراء الأربعين أو الطبلخانات وهي رتبة يتبعها تشكيل مكون من أربعين مقاتل ، التشكيل الثالث : أمراء العشرات وهي رتبة يتبعها تشكيل مكون من عشر فرسان ، التشكيل الرابع : أمراء الخمساوات وهي رتبة يتبعها تشكيل مكون من خمس رجال .. وهكذا اختلفت الرتب وكذا التشكيلات التابعة لها من جيش لآخر .

- قيادة الجيوش الإسلامية :

عهدت فترة التفكك والانهيار ظهور قيادات عسكرية نادرة قادت الجيوش الإسلامية إلي النصر . واحتكمت على أدمغة فذة في فنون القتال واستراتيجيات الحرب ، وما أُلف عن الصراعات العضوية والمواقع الحربية المشهورة في تلك الفترة أن الولاة كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم . ويكونون في مقدمة الجيش وهم فرسان من الطراز الأول ، وكان ذلك هو دأب الناصر صلاح الدين الأيوبي وسيف الدين قطز والظاهر بيبرس في أعنف وأكثر المعارك التي خاضتها الجيوش الإسلامية ذيوعاً في التاريخ .

وكانت القيادة في تلك الجيوش وبالذات التي كانت تحت إمرة القواد المذكورين تعد المثال والنموذج ، فكانت القيادة تبدأ من الاهتمام بأول مراحل وخطوات تأسيس الجيش ، وهي مرحلة استنفار أو استجلاب المقاتلين وانتقائهم بعناية ، وتعيين الرتب والقيادات الفرعية ، ثم الإشراف على الإعداد والتدريب البدني ، والتوجيه المعنوي ، والشحن العقيدي

والنفسي. وتشكيل الجيش وتقسيمه . ويستتبع ذلك الاهتمام براحة المقاتل وتوفير احتياجاته وتلبية متطلباته المادية والمعنوية .

وكانت المرحلة الثانية في القيادة هي ترسيخ هدف الجيش من المعركة ومقصده من القتال في نفوس أفراده . وتزكية البعد العقيدي ونشر الحب والإخاء والتعاضد بين المقاتلين .

وكانت المرحلة الثالثة هي إشراك القيادات الوسطى أو التنفيذية في صياغة الخطة العامة للمعركة ، والاتفاق والتشاور بخصوصها والخلوص إلي اتفاق عام .

وكانت المرحلة الرابعة هي التواجد الفعلي في ميدان القتال ومباشرته كنموذج ومثال وقدوة للمقاتلين . والإشراف المباشر على المعركة وإدارتها وهو ما يعرف بفن إدارة المعارك أو التكتيك ، ومن ثم كتب لتلك القيادات أن تقود جيوشها إلي النصر .

## المبحث الثالث

## الجيوش الإسلامية والحضارة الإسلامية في فترة التفكك والانهيار

كان الجيش ولا يزال أحد أهم مقومات الحضارة الإنسانية ، وكان الجيش كذلك بالنسبة للحضارة الإسلامية في صدر الإسلام ، وكان قريباً من ذلك في العصر العباسي . وكان أكثر اقتراباً في العصر الأموي ، أما في عصور التفكك والانهيار فقد بات الجيش أكثر ابتعاداً من أن يكون أحد مقومات الحضارة الإسلامية .

لقد كان الجيش للحضارة الإسلامية في صدر الإسلام هو خط دفاعها الأول وخط هجومها الأخير ، لأنها لم تكن أبداً حضارة مهاجمة بل حضارة متحاورة تأخذ وتعطى ، لقد كان للجيش أهميته في الحضارة الإسلامية في صدر الإسلام كأداة فعالّة لحمل الدعوة ونقلها وتوصيلها إلي الأمم والشعوب ، والدعوة هي مخ الحضارة وأول منطلقاتها واهم مقوماتها . ولقد شهد ذلك الدور للجيش الإسلامي في صدر الإسلام وفي العصر الأموي ازدهاراً وإيناعاً لم يشهده بعد ذلك ، ثم انحسر وتراجع بحدة في العصر العباسي ، وانتهى في عصور التفكك والانهيار ، فلم يعد من المنطقي الحديث عن دور الجيش في حمل الدعوة ونقلها وتوصيلها في تلك العصور المظلمة من تاريخ الأمة الإسلامية ، ومن ثم يمكن الانتهاء إلي أن الجيش في عصور التفكك والانهيار قد فقد أهم عناصر وجوده ودوره في الحضارة الإسلامية .

إلي جانب ما تقدم كان الجيش هو المدافع الأساس عن الحضارة الإسلامية على مدى فترات التاريخ الإسلامي ، ابتداءً من نشأة دولة الرسول الكريم في المدينة المنورة وحتى نهاية العصر العباسي الأول . لقد أفلح الجيش طيلة هذا الزمن في الذود عن الحضارة الإسلامية بكافة أشكالها ونماذجها النظامية والتنظيمية ، إلا أنه مع مقدمات وبوادر

عصور التفكك والانهيار شرع في النكوص والتراجع عن القيام بهذا الدور كما كان عليه الحال من قبل ، وكان تجسيد ذلك في الحملات الصليبية التي شكلت أول الاختراقات والتعديات على حمى الأمة ، والتي تم دفعها وإبراء جسد الأمة منها بشق الأنفس ، ثم كان الانهيار النهائي عندما تخلى الجيش الإسلامي عن هذا الدور بشكل مهين أمام الجمع التتري الكاسح ، ولم يلبث أن تماسك الجيش الإسلامي ودحر ذلك المارد المدمر وأنهى وجوده النظامي في عين جالوت ، وظل الجيش الإسلامي يتمسك بذلك الدور ، إلا أنه أعلن عن إفلاسه وتراجعه مرة أخرى في مشهد دراماتيكي مأسوي عندما أسلم آخر مقاليد وجود الإسلام في أوربا الغربية . وقفل من حيث انبعث ، وانتهي وجود الإسلام والحضارة الإسلامية في الأندلس إلي الأبد .

صفوة القول أن ثمة محورين للعلاقة بين الحضارة الإسلامية والجيش . الأول يتمثل في حمل ونقل وتوصيل الدعوة وعلى هذا المحور لم يكن للجيش الإسلامي في عصور التفكك والانهيار أي إسهام يذكر ، الثاني يتجسد في الدفاع عن الحضارة الإسلامية وعلى هذا المحور تذبذب دور الجيش الإسلامي خلال تلك العصور بين المحاولات الجادة المستميتة في القيام بعمليات الدفاع وبين الإخفاق الذي أسفر عن نتائج مفزعة .

# الفصل الرابع

# الجيش في عصر الدولة العثمانية

ننتقل إلي مرحلة جديدة من مراحل تطور دور الجيش في الحضارة الإسلامية ، حيث يمكن القول بأن عصر التفكك والانهيار الذي بدأ فعلياً من بداية العصر العباسي الثاني ورسمياً بتدمير بغداد على أيدي المغول ، قد أتم إحدى المراحل ليبدأ مرحلة جديدة بسيطرة الأتراك العثمانيين على أجزاء الدولة الإسلامية وإخضاعها جميعاً باستثناء مراكش بقوة السلاح ، والمفارقة التي ينبغي أن نبتدر بها هذه الجزئية هي أن عصر الدولة العثمانية قد اتسم بنزعة عسكرية وقوة تنظيمية وقتالية للجيش العثماني وتوسعات في مساحة الدولة قادها ذلك الجيش ، إلا أن كل ذلك لم يترك إلا آثاراً سلبية على الدولة والحضارة الإسلامية ، انتهى بها إلي أشلاء تتقاسمها الدول الأوروبية !! .

ولعل تحليل وتفصيص هذه المفارقة يفرض علينا البحث والتنقيب في نشأة الجيش العثماني وتطوره عبر الأطوار والمراحل التي مرت بها الدولة ، ثم متابعة تحركاته في الغزو والفتح ، ورصد قدراته التي مكنته من تحقيق طموحات آل عثمان في إمبراطورية ضخمة ، وأخيراً كيف أضمحل ذلك الجيش ولم يقدر له — بالرغم مما أحرزه — أن يقدم للحضارة الإسلامية ما كان مأمولاً منه ، وانتهى به المآل إلي الإخفاق في الدفاع عن أجزاء الدولة ، وتركها نهباً للسيطرة الأوروبية التي خرجت في حملة مسعورة على أشلاء الدولة الإسلامية ، كل هذا وغيره من المسائل سنتناولها في هذا الفصل من خلال المباحث الخمسة التالية :

**المبحث الأول : النشأة العسكرية للدولة العثمانيــــة .**

**المبحث الثاني : تكييف الحروب والغزوات العثمانية .**

**المبحث الثالث : تأسيس الجيش الانكشاري .**

**المبحث الرابع : انهيار الجيش العثمـــاني .**

**المبحث الخامس : الجيش العثماني والحضارة الإسلامية**

**[ تحليل مقارن مع الجيش الأموي ] .**

## المبحث الأول

## النشأة العسكرية للدولة العثمانية

المتتبع لنشأة الدولة العثمانية يمكن أن يلحظ أن العسكرية الصارمة والتنظيم الدقيق كانا أهم أسس وسمات تلك النشأة ، وقد انسحب ذلك على تطور تلك الدولة وعلى تنظيماتها السياسية والإدارية ، وكذا على علاقاتها الخارجية إلي أن وهنت قواها وأثخن جسدها بحركات التمرد والخروج ، وهذه النشأة ذات الطبيعة العسكرية للدولة العثمانية أملت على أركانها الأُوَل إلي جانب المكر والدهاء والحنكة السياسية تأسيس جيش قوى ، أكسبته المعاناة التي تجشمها في سبيل بناء تلك الدولة وحمايتها وتوسعها تمرساً ومكنة ولكن ببطء وتؤدة ، وإلي التفضيل :

### أولاً : نشأة الدولة وطبيعتها العسكرية :

ينحدر العثمانيون من إحدى قبائل الغز . وقد استمدوا أسمهم من أحد أهم زعمائهم وهو عثمان ، ولم يفعل هذا الأخير إلا تجميع قوة أتباعه في إمارة بيليق في آسيا الصغرى ، أما انطلاقات الدولة العثمانية فقد تمت على أيدي خلفاء عثمان الذي توفى في الربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ، وكان خلفاء عثمان من المحنكين سياسياً ، ولعل أهمهم أورخان ومراد الأول وبايزيد الأول ، وقد تمكن هؤلاء من استثمار موقع عاصمتهم البروسة على شطآن بحر مرمرة في توسعاتهم بعد ذلك وبالذات داخل الأراضي الأوربية التي تبعد عنهم عدة أميال .

وبدأ العثمانيون في توسيع حدود دولتهم الصغيرة في كافة الاتجاهات ، وقد استلزم الأمر تأسيس جيش قادر على القيام بذلك ، ولكن العثمانيين في بداية عهدهم لم يعتمدوا على الجيش وحده في توسيع دولتهم ، بل استخدموا كذلك التحالفات والدهاء السياسي وكل

ما أتيح لهم من أجل إخضاع إرادة الآخر ، وبذلك سيطروا على الصرب والبوسنة وبلغاريا وجزء من اليونان وذلك حتى أواخر القرن الرابع عشر ، وفي عام ١٣٦٢ استولوا على أدرنة ، ولم يتم القرن الرابع عشر آخر سنواته حتى قُدّر للعثمانيين السيطرة على بلاد الأناضول بأسرها .

إن هذه اللمحة السريعة لترسم انطباعاً مبدئياً لطبيعة هذه الدولة التي نشأت في خضم الحروب والغزو والتحالفات والاستيلاء على المدن والإمارات الواحدة تلو الأخرى ، ومن شأن هذه الطبيعة أن تنبئ عن قيام دولة طامحة وعازمة على تكوين إمبراطورية عملاقة قوامها جيش قوى ومنظم ، ومن ثم كانت بداية الجيش العثماني الأول [ جيش الغز ] .

### ثانياً : تأسيس الجيش العثماني الأول [ جيش الغز ] :

يُنسب تأسيس الجيش العثماني الأول أو ما يعرف بجيش الغز إلي خلفاء عثمان مؤسس الدولة وهم أورخان ومراد الأول وبايزيد الأول ، وقد خاضوا بهذا الجيش حروباً شرسة وعديدة . إلا أن شوكة الجيش العثماني قد قويت منذ الاستيلاء على الأناضول بكاملها ، ومنذ ذلك التاريخ أهتم العثمانيون بالجيش اهتماماً بالغاً ، واعتنوا بأجهزته عناية فائقة ، ولم تترسخ قوة ومكنة الجيش العثماني بفعل ذلك الاهتمام وتلك العناية فقط ، بل أن التجارب القاسية التي وضع على محكها ذلك الجيش قد ساهمت بقسط وافر في ما تجمع لديه من خبرات وقدرات .

وكان أول تلك الاختبارات الجادة معركة أنقرة ، التي هزم فيها الجيش التركي أمام تيمورلنك وأسر بايزيد الأول ، وبعد خمسة وعشرين عاماً على هذه المعركة تم للعثمانيين السيطرة على النصف الغربي لآسيا الصغرى ، وتمكنوا في عام ١٤٤٤ من وقف الحملة

الصليبية ، كما سيطروا على شبه جزيرة المورة [ اليونان ] ، واخترقوا ألبانيا حتى وصلوا إلي بلغراد .

وخلال قرن من الزمان غدت الإمبراطورية العثمانية أكبر قوة في آسيا . وذلك بفضل أربعة من أفضل قادتها وهم محمد الثاني وبايزيد الثاني وسليم الأول وسليمان الأول الملقب بسليمان القانوني ، وخاض الجيش العثماني سلسلة طويلة من المعارك مع جيوش إسلامية بهدف إخضاعها . ولا يتسنى لأحد أن يضفي على حرب الجيش العثماني أي نوع من الشرعية ، وسنعود لتفصيل وتحليل ذلك بعد قليل .

لقد أصبح من الصعب الوقوف في وجه الجيش العثماني الذي اجتاح أقطار الدولة الإسلامية شمالاً وجنوباً ، أما في الشرق فقد توقف الجيش العثماني عند الحدود الجبلية لشرق فارس التي هزمها في معركة تسالديران سنة ١٥١٤ ، ثم سيطر على ما بين النهرين بسقوط بغداد ١٥٣٤ .

وفي شمال البحر المتوسط سقطت القسطنطينية في عام ١٤٥٣ وأصبحت العاصمة الجديدة للإمبراطورية ، تحت اسمها الجديد استانبول ، وفي عام ١٤٦٧ تمت السيطرة النهائية على ألبانيا، وفي عام ١٤٧٥ فرضت الحماية على القرم ، وفي عام ١٥٢١ سقطت بلغراد ، وفي عام ١٥٢٦ كانت معركة الموهاكس واحتل الجيش العثماني المجر لمدة قرن ونصف ، وفي عام ١٥٢٩ حاصر النمسا .

وفي الجنوب انتصر الجيش العثماني على المماليك في موقعة مرج دابق وسيطر على سوريا عام ١٥١٦ ، وبعد ذلك بعام دخل السلطان سليم الأول القاهرة ، وخلال نصف قرن انطلق العثمانيون بجيشهم الذي لا يقهر في اتجاه شمال أفريقيا ، حيث سيطروا على طرابلس وتونس والجزائر باستثناء مراكش .

وفي البحر تحرك العثمانيون بشكل جيد عبر أسطول بدا قوياً وفعالاً ، وكان البحر المتوسط يمثل المجال الحيوي لذلك الأسطول ، ففي عام ١٤٦٢ انتزع الأسطول العثماني جزيرة لزيوس ( موللى ) من سكان جنوة ، وفي عام ١٤٧٠ أنتزع جزيرة أبيه ( تجرونيت ) من سكان البندقية ، وفي عام ١٥٢٢ انتزع جزيرة رودس من فرسان القديس يوحنا ، ومن ثم صار بحر إيجه بحيرة عثمانية ، وفي عام ١٥٧٠ – ١٥٧١ سقطت جزيرة قبرص ، وتبعتها جزيرة كريت عام ١٦٤٥ ، ثم جزيرة أوترانت ، وكلها تابعة للبندقية ، كما غزت البحرية العثمانية مدينة نيس عام ١٥٤٣ .

## المبحث الثاني

## تكييف الحروب والغزوات العثمانية

هذا النشاط الهائل والقوة الدافعة للدولة الفتية لم تتحقق إلا بالاعتماد على جيش لديه القدرة والمكنة تنظيماً وتسليحاً وتخطيطاً ، وحتى تكتيكاً تدعمه سياسة تجمع بين الدهاء والحنكة والاستيعاب العميق والسريع لكافة التطورات الإقليمية والدولية .

لقد خاض الجيش العثماني منذ نهوض الدولة سلسلة طويلة من الحروب والغزوات الشرسة التي لم يُقهر في أيٍ منها باستثناء موقعة أنقره مع تيمورلنك – التي أشرنا إليها – ، ولابد من وقفه لامعان النظر في طبيعة ومقاصد تلك الحروب التي خاضها الجيش العثماني . فهل خاض ذلك الجيش تلك الحروب باسم الإسلام الذي ينتسب إليه ، أم باسم الدولة وحكامها الذين أسسوه وشكّلوا قوامه من الشعب التركي الغزى الذي لا يملك إلا قدراً متواضعاً بل هزيلاً من الموروث الثقافي والحضاري ذي الخصوصية ؟ .

لقد كان بوسع العثمانيين أن يطلقوا على حروبهم وغزواتهم الشرسة والكاسحة للمناطق غير الإسلامية بأنها فتوحات ، وأن مقصدهم كان نشر الإسلام وحمل الدعوة ونقلها إلي شعوب تلك المناطق ، ولكن ماذا كان يمكنهم أن يطلقوا على اجتياحاتهم الكاسحة لمناطق وأجزاء الدولة الإسلامية ، والتي لم يتورعوا أن يُعملوا فيها السيف والقتل ، بشكل أعاد للأذهان مذابح التتار المرعبة في الأماكن التي مروا عليها ؟! .

إن المحلل الإسلامي بالذات وهو بصدد الربط بين الجيش والحضارة الإسلامية لابد أن يتوقف مليّاً أمام هذه الإشكالية ، فالجيش كرمز وتعبير عن القوة لم يكن أبداً أداة من أدوات إيناع أو ازدهار الحضارة الإسلامية أو نشر نماذجها وأشكالها ، فدوره من هذه الناحية معروف — وقد سبق تفصيله – ، أما دور الجيش في الدفاع عن الحضارة فيقره

الشرع والطبع معاً ، فهل حمل الجيش العثماني الدعوة ونقلها وأوصلها إلي مناطق جديدة ضمن التي اكتسحها في أوربا ؟ وهل دافع ذلك الجيش عن الحضارة الإسلامية وكيانها النظامي باجتياحاته المدمرة في أوربا المسيحية وأجزاء الدولة الإسلامية في آسيا وأفريقيا ، إن ثمة سؤالاً محدداً أصبح الآن في شكله النهائي ، ربما تقدم الإجابة عليه علاجاً شافياً لتلك الإشكالية وهو : لمصلحة من كان يعمل الجيش العثماني وماذا كان مقصده النهائي ؟ :

## أولاً : جمع تراث ماضي شعب الغز وتمجيده :

سبق الإيضاح أن الأتراك العثمانيين ينحدرون من قبائل الغز في وسط آسيا ، ولم تكن هذه القبائل البدوية الزراعية الرعوية على قدر يعتد به من التحضر والمدنية قبل مجيء الإسلام ، إلاّ أنها قد ملكت بعض الخصوصية فيما يتعلق باللغة ، إلي جانب موروثات متناثرة من الأنماط والسلوكات المدنية التي لم تتميز كثيراً عن سواها من القبائل والشعوب التي وجدت معها في نفس البيئة المكانية والزمانية وحتى الفكرية . وبعد مجيء الإسلام ذابت هذه الخصوصية المحدودة لقبائل الغز في بوتقة الإسلام مع غيرها من الكيانات والتكوينات الأخرى . ولم يبق إلا اللغة وما يتعلق بها من الرموز والتعبيرات الفكرية والعقلية ، والتي حدّت من حماسها وفتّرت من همتها اللغة العربية لغة القرآن والإسلام ، وبالرغم من أن اللغة العربية لم تصبح اللغة الرسمية لتلك القبائل ، إلا أن تأثيرها كان قوياً على اللغة التركية ، كما أن الثقافة الإسلامية هذّبت كثيراً من جموح ثقافات تلك القبائل ، ومنعتها من أن تفرط في التعبير عن نفسها ، واستعراض ماضيها أيام الكفر والوثنية .

وعندما قدّر لقبائل الغز أن تقيم دولة بني عثمان بالشكل الذي أوضحناه ، واستفحل أمر هذه الدولة ، وأوشكت على أن تتحول إلي إمبراطورية لعلها الأقوى والأعظم في زمانها ، واكب ذلك النمو السريع والغير معهود في كافة أركان تلك الإمبراطورية من سياسة واقتصاد

وإدارة وجيش سياسة حاذقة وحصيفة من سياسي هذه الدولة الذين اشتُهروا بالحنكة والدهاء والحزم، مؤداها جمع تراث ماضي شعب الغز وتمجيده ، وجاءت تلك السياسة في منطلقات على النحو التالي :

### ❖ إحياء اللغة التركية وتفعيلها :

تعد إمارة العثمانيين في الأناضول هي بداية تركيا الحديثة ، وقد توسع العثمانيون — كما سبق وأوضحنا — على شواطئ بحر مرمرة وأزمير واسكيشهر التي أصبحت العاصمة ، واستمر العثمانيون في توسعهم حتى سيطروا على الأناضول ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت تتشكل دولة موحدة ذات تراث وطني في هذه المناطق ، وتمثل أهم عناصر ذلك التراث في اللغة التركية التي استخدمت في الإدارة الداخلية لإمارات تلك الدولة ، وظهرت إلي جانب التركية الفارسية والعربية ، فاللغة العربية كانت لغة الدين وبعض العلاقات الدبلوماسية ، في حين استخدمت التركية في الأدب بكافة أشكاله مثل القصص الغنائية أو الشعر الأصيل .

لقد حدث في القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري نوع من التوحد والاندماج بين الشعب التركي ولغته ، واستطاعت اللغة التركية أن تجد أدواتها الفنية للتحدث والكتابة بالشكل والذوق اللذين أرادهما العثمانيون مؤسسو تركيا الحديثة ، ومن ثم يمكن القول أن الأدب العثماني بدأ يبحث عن أصله في هذا القرن الثالث عشر الذي منه بدأت بداياته المتواضعة .

### ❖ البحث عن موروثات حضارية وسلوكات مدنية :

كذلك شرع العثمانيون يبحثون عن موروثات حضارية خاصة بهم وسلوكات مدنية تميزهم ، وكان ذلك البحث الدائم والدائب عن الذات يوحي بأن هؤلاء العثمانيين يؤهلون أنفسهم

للقيام بدور بطولي في صناعة تاريخ وأحداث العالم في فترة من فتراته ، وبالرغم من الجهد الذي بذله العثمانيون في هذا الصدد ، إلا أنهم لم يفلحوا في رصد قدر مقنع من الموروثات والسلوكات يشفع لهم ارتياد ذلك الدور .

❖ من البحث عن الموروثات إلي التفرد في السياسات والنظم والتنظيمات :

كان العثمانيون يدركون ضآلة رصيدهم الحضاري وخفة وزنه في ميزان الترجيح مع العناصر الإسلامية الأخرى مثل العرب والفرس ، ومن ثم انطلقوا إلي صياغة سياسات صارمة ونظم وتنظيمات محكمة سياسية واقتصادية وإدارية ..الخ ، ظهرت في دولتهم المركزية ثم شوهدت بعد ذلك في الدويلات الإسلامية التي أصبحت ولايات في الإمبراطورية العثمانية ، ولكن هذه النظم والتنظيمات لم تتفاعل مع البيئات التي نقلت إليها .

❖ تصوير العثمانيين لأنفسهم على أنهم الباعثون الجدد للدين :

تعامل العثمانيون مع الواقع الذي واجهوه بمنطق المبعوث رحمة للدين الذي كان قد أوشك على التفتت والتمزق والضياع بين أبنائه الذين أساءوا فهمه بل وأساءوا إليه ، وبرز ذلك المنطق واضحاً في سياساتهم وفي نظمهم وتنظيماتهم وحتى في علاقاتهم الأممية التي كانت في معظمها مرتكنة إلي الصراع العضوي الشرس أو الخداع والدهاء السياسي ، ولعل ذلك المنطق قد اقتنع به الكثيرون من أبناء العالم الإسلامي على مستوى الحكام والعامة وحتى على مستوى المفكرين ، فهاك بن خلدون يقول في كتاب العبر " ففي الوقت الذي أصبحت الخلافة ضعيفة خائرة القوى وغير قادرة على الدفاع عن نفسها ضد الهجمات ، فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الإيمان بإحياء رمقه ، وتلاقي شمل المسلمين الديار المصرية يحفظ نظامه وحماية سياجه بأن بعث لهم من هذه الطائفة الشركسية وقبائلها الغزيرة المتوافرة أمراء حامية وأنصار متوافية ... فيسترشح من يسترشح منهم لإقتعاد كرسي السلطان والقيام بأمور المسلمين عناية من الله تعالى سابقة ولطائف في خلقه سارية " .

## ❖ تمجيد التراث المتواضع وتضخيم الذات البسيطة :

كان للانتصارات التي حققها العثمانيون وإخضاعهم لدويلات العالم الإسلامي والأجزاء المتاخمة من العالم المسيحي في أوربا وآسيا مفعول السحر ، فقد انتشوا بتلك الانتصارات وراحوا يبالغون في تمجيد تراثهم المتواضع ويضخمون ذاتهم البسيطة ، وقد تبدى ذلك في سياساتهم تجاه العالم المسيحي ، في علاقاتهم به ، وكذا تجاه العالم الإسلامي ذاته الذي بات ولايات عثمانية في إمبراطوريتهم المترامية ، لقد تعامل الباب العالي بفوقية فظة مع غير الأتراك، فسفراء الغرب المسيحي يُقرعون بالعصي في الأستانة ، وأفراد الشعوب الإسلامية يصبحون ملكية خاصة للسلطان أي عبيداً له ، والمسلم لا يُستعبد ، فكيف لدولة يقال أنها إسلامية وتحمى الإسلام وتدافع عنه وتتحرك باسمه تعيش على استعباد المسلمين ؟ ! .

## ثانياً : الفتح كان لمصلحة الدولة ولمصلحة مجد الشعب التركي وإثراء تاريخه المتواضع :

الحديث عن ما يسمى بفتوحات وحروب الجيش العثماني ذو شجون ! . فلقد كانت تلك الفتوحات في المناطق غير الإسلامية في أوربا وآسيا مبررة ومقبولة على أنها لمصلحة الإسلام. وبهدف حمل وتوصيل الدعوة الإسلامية . ولكن ماذا يمكن أن نطلق على الحروب الكاسحة والمدمرة التي خاضها الجيش العثماني ضد الدويلات والشعوب الإسلامية ! .

لقد كانت علاقات الدولة العثمانية مع الغرب علاقة غريبة ومعقدة ، فلقد كان هناك ميل لمؤسسي الدولة العثمانية الأوائل نحو الغرب المسيحي ، وربما استمر ذلك الميل واكتسب أبعاداً أخرى بعد استقرار الإمبراطورية ، لقد كان الميل نحو الغرب المسيحي هو نتاج

لحنكة سياسية ودراية بالأوضاع الدولية والإقليمية السائدة آنذاك من قبل أوائل السلاطين العثمانيين ، وقد تطور ذلك الميل إلي ما يشبه التحالف .

وعلى جانب آخر لتلك العلاقة الغريبة والمعقدة كان العثمانيون يقومون باختطاف الأطفال المسيحيين من المقاطعات لتجنيدهم وتغيير دينهم قهراً وفقاً لعادة الغز . أو أن تتم تربيتهم ليخدموا في البلاط كعبيد لدى السلطان .

في ذات الوقت وضمن تلك العلاقة المركبة والمعقدة مع غير المسلمين نلاحظ أن الإدارة العثمانية الجديدة للبلاد التي دخلوها كانت تبتعد تماماً عن التنظيمات السياسية والطائفية القائمة . وأمكن للمسيحيين أن يحصلوا على مراكز وظيفية مرموقة في المكاتب والدوائر العثمانية . وأمكن لغيرهم الحصول على مقاطعات ! و إقطاعيات ! إذ كان من المتعين على أولئك وهؤلاء تبعيتهم وإخلاصهم للدولة لا للدين الإسلامي . كما حدثت كذلك استثناءات وتسامحات عديدة في أوربا . فقد سمح العثمانيون للأمراء المحليين حق إدارة مقاطعاتهم كيفما شاءوا شريطة خضوعهم للدولة ودفع الجزية . ومن ثم يمكن إلحاق هذه السلوكات والسياسات الإدارية في سياق السياسة العامة للدولة القائمة على الخبرة والحنكة السياسية أكثر من أي شيء آخر .

ووصل التسامح العثماني قمته عندما قدم استانبول ملجأً لليهود الأوربيين الهاربين من مذابح القياصرة ، فوصل إليها يهود بوهيميا الهاربين . ثم القادمون من النمسا وبولندا ، وبعد عام ١٤٩٢ جاء الهاربون من أسبانيا الكاثوليكية شديدة التعصب ، عندئذ أصبح كل يهود الإمبراطورية العثمانية خاضعين للحاخام باشي المقيم في استانبول . والذي يعتبر شخصية رسمية في الدولة .

وبالنسبة للمسيحيين فقد كان وضعهم أكثر تقديراً ، فالطائفة الأرثوذكسية كانت خاضعة للبطريرك اليوناني للقسطنطينية ، أما الطائفة الأرمنية فلم تكن أقل مكانة إذ أن بطريركها

كان له نفوذ على الكاثوليك والنسطوريين واليعقوبيين وعموماً كان له نفوذ على جميع الطوائف المسيحية غير الأرثوذكس ، وحدث في بعض الظروف أن احتفظت هذه الطوائف بجنسيتها وبتبعيتها الطائفية .

وعلى مستوى الحياة الاجتماعية والاقتصادية كان العثمانيون يفرضون النظام في كل مكان تقريباً ، مما ساعد على تنشيط وتفعيل الاقتصاد والمجتمع معاً ، وفي هذا السياق أحرز اليونانيون سبقاً في مجال التجارة ، وكذلك اليهود والأرمن في الأعمال التجارية والمالية ، والأقباط في الحياة الاقتصادية والإدارية في مصر .

إن ما يمكن استخلاصه مما تقدم أن العثمانيين قد ركزوا على إبراز وجه الدولة وتكثيف الضوء على سياستها وإدارتها ، في الوقت الذي تم تهميش الدعوة في هذه المناطق من أوربا وآسيا ، والحق الذي لا مراء فيه أنه باستثناء عمليات اختطاف وإعداد الأطفال المسيحيين وتحويلهم إلي انكشارية ، لم يحدث في أي مكان في الإمبراطورية إدخال أي شخص في الإسلام بالإكراه ! .

إن العثمانيين إذا كانوا قد برعوا عسكرياً في غزو مناطق واسعة من أوربا وآسيا ، ثم نجحوا سياسياً وإدارياً في إدارة وسياسة هذه المناطق بشكل جيد ، فإن ذلك قد جاء لمصلحة الدولة التركية ولمصلحة مجد الشعب التركي وإثراءً لتاريخه المتواضع . أما الدعوة فلم تحظ بالاهتمام الذي كان ينبغي أن يتواءم مع جملة الانتصارات التي تم إحرازها على الأصعدة العسكرية والسياسية والإدارية . وبالنسبة إلي تحول بعض المناطق في أوربا إلي الإسلام فقد كان مثلما حدث على امتداد تاريخ الإسلام نتيجة عوامل اجتماعية صرفة مثل : الرغبة في الانتماء إلي الطبقة الحاكمة ، أو رد فعل انتقامي ضد الاضطهادات الكاثوليكية مثلما حدث في البوسنة . أو هرباً من ثقل جباية الضرائب التي تجبيها الكنيسة الأرثوذكسية ، ولم تكن هذه التحولات الجماعية إلي الإسلام نتيجة حركات

دعوية نظمتها الدولة العثمانية كدولة داعية ، إذ أن السؤال ، لماذا دخل الأتراك إلي هذه الأراضي ؟ المفترض أن الهدف الأساسي هو حمل وتوصيل الدعوة وتبليغها ، إلاّ أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وتحول الأمر إلي مجرد غزو ، ثم احتلال ظاهره باسم دولة إسلامية ترفع شعار الإسلام ، وباطنه إمبراطورية تسعى إلي المجد والسلطان .

لم تحاول السياسة العثمانية المساس بالمؤسسات والتنظيمات الأساسية في المناطق التي احتلوها في آسيا وأوربا إلا في أضيق نطاق ، وقد اكتفت تلك السياسة بفرض سلطة مركزية قُدّر لها جمع تراكمات الماضي الإسلامي والبيزنطي معاً ، ومن شأن الماضي الإسلامي أن يمثل الأغلبية العظمى ، وبداخل هذا الميراث الإسلامي وفي ثناياه يتم البحث عن بعض الأصداء أو الانعكاسات للعادات التركية وإن كانت بشكل نادر ! .

لقد حاول الساسة في الأستانة بمكر ودهاء تبرير تصرفاتهم وسلوكاتهم باسم الإسلام ، فمنذ ولاية سليمان القانوني تم وضع مفتى استانبول الكبير الذي يعرف بشيخ الإسلام ، الذي يمثل الضمير الديني للأمة في أعلى قائمة جميع رجال القضاء والفقهاء ، تالياً في الترتيب لرئيس الوزراء ، أي الشخصية الثانية في قمة الهرم الإداري للدولة ، وكان ذلك بهدف واضح وصريح هو أن يمنح شيخ الإسلام الصفة الشرعية لأعمال السلطة ، وباتت كل تصرفاتها مبررة شرعاً .

إن الإسلام لم يتمكن من كبح جماح العثمانيين ، وتكييف تصرفاتهم وسلوكاتهم وسياساتهم وفق قيمه ومبادئه ، ولكنهم طوّعوا الإسلام وحوّروه بما يخدم مصالحهم ، ففي ظل الإسلام والدولة الداعية تم قتل الأشقاء حتى ينفرد القتلة بالحكم ! ، لقد خنقت الإمبراطورية العثمانية الإسلام عندما استغلته لمصلحة شعبها ومجد حكامها .

وإذا تحولنا إلي المعاملة التي لقيها المسلمون في الدويلات الإسلامية من العثمانيين عندما دخلوا هذه البلاد بعد معارك طاحنة نجد أننا أمام إشكالية غريبة ، فالحروب التي خاضها العثمانيون مع جيوش الولايات الإسلامية في الشام ومصر وشمال أفريقيا ، كيف يمكن تكييفها ؟ هل هي حروب بغي وعدوان ؟ وهل لها تكييف آخر غير ذلك ؟ إنها أذن حرب غير شرعية من وجهة نظر الإسلام ! ! .

وعندما دخل العثمانيون إلي هذه البلاد بعد تلك الحرب التي لا مبرر لها من شرع أو دين ، فقد تحوّل أفراد تلك الشعوب إلي عبيد للسلطان العثماني ، حيث أنه يملكهم ملكية خاصة ، وهل يُستعبد المسلم في شرع الإسلام ؟ إن الحقائق تشهد بواقع العثمانيين ، وهو واقع غريب ومليء بالمتناقضات ، بين رغبة جامحة في إثبات الذات وطموح في تمثيل الإسلام .

**ثالثاً : حدوث هوة سحيقة بين الرغبة الجامحة في إثبات الذات والطموح في تمثيل الإسلام :**

لقد كان إثبات الذات يعني بالنسبة للعثمانيين البحث عن مقوماتها وعناصر وجودها ، وكانت جميعها متواضعة ، فكان لا مناص من إثبات الذات عن طريق التحرك باسم الإسلام. ومنذ البداية حدث انفصال بين مكونات الذات المتواضعة بطبيعتها والطموح في تمثيل الإسلام، الذي كان يحتاج إلي التجرد من أية أهداف أو مقاصد أخرى ، ويظل الإسلام بمفرده هو الغاية والمقصد ، ولم يفهم العثمانيون هذه العلاقة الدقيقة والحاسمة ، فإلمامهم بالإسلام كان لا يتجاوز إلمامهم به كدين يريدون نشره وجني ثمار ذلك لأنفسهم . فهم لم يفهموا الدين الإسلامي على حقيقته كحياة وحضارة وثقافة وشرائع قبل أن يكون شعائر ونسك وعبادات .

## المبحث الثالث

## تأسيس الجيش الإنكشاري

كان الجيش دوماً مفردة أساسية من مفردات تكوين السلطة العثمانية الصارم في بداية تاريخه ، كما كان محور اهتمام الدولة ، فهي دولة عسكرية ، وقد عمد العثمانيون إلي تغيير تشكيل الجيش من شكله الأول — الذي سبق الحديث عنه — وهو المكون من الأتراك الغز بشكله الصاخب الشبيه بجيش التتار إلي شكل جديد أكثر تنظيماً ودقة وإتقان ، وقد أكتمل تشكيل الجيش الجديد المعروف بالجيش الإنكشاري في القرن السادس عشر . ونظراً لأهمية هذا الجيش في تكوين هذه الإمبراطورية . ومن موقعه في تطور الجيش الإسلامي عبر التاريخ ، سنفرد هذه الجزئية لدراسة الجيش الإنكشاري :

### أولاً : تشكيل الجيش الإنكشاري :

الجيش الإنكشاري هو جيش خاص في كل شيء ، ابتداءً من تكوينه وحتى زيه الرسمي ، مروراً بتنظيمه ومهامه وعلاقته بالسلطان الذي يتبعه مباشرة . وقوام هذا الجيش هو الأطفال المسيحيون الذين يجلبون بالخطف على حد بعض الروايات أو برغبة وقبول ذويهم . وكان هذا الإمداد بهذه النوعية من الأطفال يتم بانتظام مما يجعل رواية الخطف مشكوكاً في صحتها. أو على الأقل في اعتمادها سياسة ثابتة .

وعلى كل الأحوال فإن الأطفال المسيحيين نواة الجيش الإنكشاري يتم تنشئتهم وتعليمهم وتربيتهم في معسكرات خاصة على تعاليم الإسلام والعادات التركية . ومن ثم يصيرون أفضل جنود الإمبراطورية عندما يتم تدريبهم وإيداعهم الثكنات .

والجدير بالتبيان في هذا الصدد أن الجيش العثماني لم يكن كله من الإنكشارية ، بل كانت هناك الفرق المتخصصة ، وهذه الفرق كان يتم تعيينها عن طريق وكلاء متخصصين

بإدارة جباية الضرائب في المقاطعات والولايات ، والفرق كبير بين طبيعة وأهمية كل من الفرق التخصصية والإنكشارية ، فالأخيرة هي أفضل جنود الإمبراطورية وهم تابعون مباشرة لشخص السلطان ، كما أنهم يمثلون حرس الفرق التخصصية ، حيث أنهم أكثر قوة وتنظيماً وجلداً انطلاقاً من إعدادهم الخاص .

## ثانياً : الأبعاد التنظيمية والعقيدية والنفسية للجيش الإنكشاري :

بالفعل لعبت الأبعاد التنظيمية والعقيدية والنفسية دوراً مهماً في حركة الجيش الإنكشاري نحو تحقيق أهدافه وقيامه بمهامه . فهذه المؤسسة العسكرية تخضع بصرامة ودقة لتعاليم الدين وأخلاقه . فالإنكشارية كتنظيم أو فرقة عسكرية كانوا تابعين لطائفة الدراويش البكتاشية ذات الصلة الوثيقة بالدين الإسلامي وتعاليمه . كما كان الجيش ممثلاً في مجلس السلطان عن طريق اثنين من القضاة هما قاضيا الجيش ومكانتهما مرموقة ومحل اعتبار .

من هذا التنظيم ببعديه الديني الأخلاقي والإداري الوظيفي . كانت فرقة الإنكشارية كتشكيل عسكري على قدر عظيم من القوة والتنظيم والشجاعة والإقدام . يقوى من ذلك نمط الحياة الذي فُرض على تلك الفرقة الذي كان ذو خصوصية ، فلم يكن بإمكان الجنود الإنكشاريين الزواج ، ومن ثم فلا مكان للاجتماعيات لدى هؤلاء ، وكل حياتهم للجندية وخدمة السلطان قبل أي شيء آخر ! .

## ثالثاً : إدارة الجيش الإنكشاري وترتيبه :

بلغ عدد الجيش الإنكشاري العثماني وفق أكثر الإحصاءات دقة حوالي عشرين ألف رجل، وهو عدد كبير حسب إحصاءات القرن السادس عشر ، وقد كان ذلك الجيش متطوراً بكافة المقاييس التنظيمية والفنية والتكتيكية وحتى اللوجستية ، وتمتع هذا الجيش

بإدارة صارمة ودقيقة ، تناولت كل شيء خاص بهذا التنظيم العسكري الرفيع بالترتيب ، ابتداءً من الرواتب والترقيات ، ثم التزويد بالمعدات والأسلحة ، وكذا التحركات وطرق القتال ، وحتى الزي الإنكشاري المميز .

أما عن تسليح الجيش الإنكشاري والجيش العثماني عموماً فقد كان تسليحاً هو الأحدث من نوعه في العالم آنذاك ، إذ ربما تفوق في أسلحته على الجيوش المسيحية في أوربا وآسيا ، كما كانت مصانع الأسلحة العثمانية هي الأشهر كذلك دون منازع .

## المبحث الرابع

## انهيار الجيش العثماني

لقد بدأت هذه الآلة الحربية الرهيبة في الاضمحلال والوهن بعد أن حققت أهداف العثمانيين في إقامة إمبراطورية ضخمة ، شملت أجزاءً كبيرة من أوربا ومعظم قارتي آسيا وأفريقيا ، لقد سيطر العثمانيون على كل هذه المناطق وأخضعوها باسم الإسلام . وشرع الدهر يُجري سنته التي خلت في الأمم الماضية ، ولم يفلت ذلك الجيش المخيف ودولته العاتية من صروف الزمن ونوائب الأيام ، وليس أصعب على المحلل من أن يتابع الانهيار . ويرصد التردي للكيانات العملاقة والمؤسسات ذات الجبروت في التاريخ . فرثاؤها أشد وقعاً على النفس وأبلغ أثراً من رثاء البشر . إن اضمحلال الجيش العثماني وانهياره يرتبط عضوياً بانهيار الإمبراطورية الشاسعة. بل إنه جزء مهم ومرحلة حاسمة من الانهيار الأشمل والأعم لمنظومة كلية من الكيانات والأنظمة والتنظيمات والأفكار وحتى القيم والمبادئ . لقد أخذ كل شيء في التهاوي والتردي ، إن ما تقدم يجعل من غير المنطقي والمقبول علمياً الفصل بين انهيار الجيش العثماني واضمحلال الإمبراطورية . فكلاهما تعاطى مع الآخر في تناغم بديع ولكنه حزين حتى في السقوط والانتهاء ! يمكننا متابعة العوامل التي تكاتفت وتحالفت على الجيش العثماني وإمبراطوريته فيما يلي :

**أولاً** : إن انهيار الجيش العثماني قد ترتب على انهيار الجهاز السياسي والإداري للإمبراطورية . الذي بدأ منذ القرن السابع عشر ، وانهار كلياً في القرن الثامن عشر ، وانهيار الجهاز السياسي نعني به تحديداً انهيار السلطة ، سدة الحكم في الإمبراطورية العثمانية حامية حمى الإسلام والمطّبقة لشرع الله والعاملة بكتابه والداعية لدينه . هل يعلم المسلمون ما كان يدور في كواليس الحكم في إمبراطورية الإسلام ؟! هل يعلمون أن

الاحتفاظ بالسلطة يستوجب اغتيال جميع الأقارب الذكور الذين قد يمثلون تهديداً لسلطة الحاكم أو الوريث المحدد مسبقاً . ثم استبدلت عمليات الاغتيال بعمليات السجن مدى الحياة لأشقاء السلطان المتوفى ، حتى يموتوا في سجنهم . أما عبيدهم فتجرى لهم عمليات جراحية كفيلة بمنعهم من النسل ما داموا أحياء، وإذا اقتضت الظروف فقد يعتلى سدة الحكم في هذه الإمبراطورية العملاقة حكام لم يهيئوا لذلك أبداً . وهل يعلم المسلمون أن كل هذه الأمور كانت تدبر بين السلطان وكبير الوزراء . إذن فأمور المسلمين العامة التي ترتبط بصميم حياتهم تديرها امرأة من وراء حجاب. هكذا كانت تُمارس السياسة في الإمبراطورية العثمانية إلي أن انحدرت وآلت إلي ما آلت إليه .

**ثانياً** : الإشكالية التالية هي إشكالية دقيقة ومعقدة بل ومتشابكة . شقها الأول يتمثل في إيال السلطة المدنية إلي الحرس الإنكشاري ، الذي بدأ بدوره يتدخل في السياسة بتدرجية انتهت به إلي أن يكون محركها الأساسي كما سنرى . وشقها الثاني يتحدد في إهتراء التنظيم الإنكشاري الذي كان يتسم بالدقة والصرامة . وكانت بداية ذلك في القرن السادس عشر عندما سُمح للإنكشارية بالزواج ! . ثم عندما انفتح الجهاز على مصراعية أمام العامة دون اختيار أو تدقيق أو إعداد وتربية كما كان آنفاً . ومن ثم صار أبسط الأشخاص يُعين عشوائياً ضمن هذه النخبة الممتازة المختارة . ثم عند هذه اللحظة التاريخية يبرز الشق الثالث من هذه المشكلة المتداخلة . فمن تربوا على الطاعة والنظام الصارم أصبحوا خليطاً من ذوى المشارب والأهواء المتباينة . فتحولت الطاعة إلي رغبة دائمة في التمرد ، والنظام إلي ارتجالية وفوضى . وبات الإنكشارية في حالة ثورة مستمرة . وتضخم نفوذهم وامتد عنيفاً عاتياً لينال السلاطين والوزراء فيوليهم ويقيلهم . ولم يفلت أفراد المجتمع من الطغاة الجدد الإنكشارية الذين أصبحوا يشكلون مصدر رعب وإرهاب دون نصير أو مغيث ، وهكذا تحول الجيش الإنكشاري الممتاز إلي معول هدم وتخريب في صرح الإمبراطورية ، بدأ من السلطة وامتد إلي المجتمع .

**ثالثاً** : منذ القرن السابع عشر بدأ الجيش العثماني المتفوق تنظيمياً وتقنياً وبسالة يعاني من انحدار مستوى تنظيمه وتقنياته وبسالته ، وبالرغم من أنه ظل صامداً أمام القوى الأوربية التي شكلت ألد أعدائه ، إلا أنه بدأ يعاني من تفوق الأوربيين عليه . وبصفة خاصة في الأسلحة وبالذات المدفعية . ثم في التكتيك الذي لم يعد يواكب تطور العقائد القتالية التي أصبحت أكثر ابتكاراً وإبداعاً .

إن العجز العسكري والتخلف الحربي الذي ألّم بالجيش العثماني انعكسا مباشرة في شكل تراجعات وانحسارات عثمانية أمام امتدادات جريئة للأوربيين ، فتنازل الأتراك عن أكبر جزء من المجر في عام ١٦٩٩ بموجب معاهدة كارلوفيتش . ثم انسحبوا تحت نيران المدفعية الروسية الكثيفة والحديثة إلي الشواطئ الجنوبية للبحر الأسود بموجب معاهدة كوشوك كاينارجي الموقعة في عام ١٨٨٤ . وهكذا بدأ العد التنازلي للجيش العثماني المنحدر نحو الهاوية ، وهكذا دار الزمن دورته وكانت المدفعية التي تفوق فيها العثمانيون عند بدايتهم . وكانت أداة من أدوات التمكين السياسي والاستراتيجي لإمبراطوريتهم . كانت هي نفسها أداة من أدوات انكسارهم وانحسار نفوذهم .

**رابعاً** : إلي جانب ما تقدم كان هناك الاستبداد التركي والقمع المرعب للشعوب التي وقعت تحت سيطرتهم . وقد بدأت هذه السمة المخيفة التي ميزت السيطرة العثمانية تعتمل ببطء إلي أن أفرزت نتائجها المدمرة وأفصحت عنها في سفور ، فلقد أدى إنهيار السلطة المركزية – كما سبق وأوضحنا – إلي تراخي الرقابة على أصحاب الإقطاعيات . حيث عتوا في الأرض فساداً . واعتصروا طبقة الفلاحين . وتفاقم وضع هذه الطبقة . واكب ذلك تلف النظام العقاري ، إلي جانب إنهيار النظام النقدي .

أيضاً أدى الاستبداد التركي إلي آثار ضارة بالنسبة للعلاقات الداخلية بين طوائف الشعوب الخاضعة ، وخاصة أن ذلك الاستبداد جاء بشكل انتقائي ، حيث رفعت الإدارة العثمانية من شأن بعض الطوائف على حساب الأخرى ، مما أدى إلي التذمر والسخط وبالذات في البلقان ، كذلك استيقظت بعض القوميات القديمة في ألبانيا بين الكاثوليك ، وفي لبنان بين الدروز والأرمن التي ثارت ضد السيطرة التركية .

**رابعاً** : وأخيراً ولتكتمل الصورة نجد أن الإمبراطورية العثمانية تختنق ويتم الإطباق عليها من الشمال إلي الجنوب في ضغط خانق ، من أوربا الغربية ممثلة في البرتغال وهولندا ثم في فرنسا وإنجلترا ، وكذا من روسيا التي بدأت التحرك نحو المياه الدافئة في الجنوب ، لقد تحركت هذه الضغوط في وقت واحد وبدأ التدخل في الشئون الداخلية للدولة العثمانية بشكل مباشر أو من خلال المسيحيين المقيمين على أراضيها . وقد تم في ذات الوقت السيطرة على التجارة الخارجية والداخلية للإمبراطورية عن طريق الاتفاقيات ، وفي القرن الثامن عشر بدأ الانهيار النهائي بسبب الانحسار القاري والاختناق البحري الذي بدأت تعاني منهما الدولة العثمانية ، وتكشفت المؤامرة التي حاكها سفراء وممثلو وتجار الغرب بمعاونة شركائهم ومعاونيهم المحليين. وهكذا كانت الإمبراطورية تتهاوى ومعها جيشها المجيد .

## المبحث الخامس

## الجيش العثماني والحضارة الإسلامية

## [ تحليل مقارن مع الجيش الأموي ]

لعل ثمة تجانساً بين الجيش العثماني ونظيره الأموي تجعل من الممكن إجراء تحليل مقارن بين الجيشين نضبط سلوكهما من خلال مجموعة معايير ومقاييس ذات صبغة نموذجية تتعلق بالأهداف والمقاصد ذات الخصوصية بالحضارة الإسلامية والإسلام الأكثر شمولية وعمومية ، ونشرع في هذا التحليل من خلال ما يلي :

### أولاً : العصبية القبلية في مقابل العنصرية القومية :

كلٌ من الجيشين الأموي والعثماني أبتلى بنقيصة تخلّفت به عن اللحاق بركب السمو والرقى اللتين اتسم بهما نموذج الجيش الإسلامي في عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، أما نقيصة الجيش الأموي فكانت في العصبية القبلية التي ميزت بنى أمية والقبائل الشامية الموالية لها على بقية العرب ، إلا أن هذه النقيصة أخذت في التلاشي التدريجي بسبب العناصر التي دخلت إلي الإسلام . وانضمت إلي الجيش الأموي وشاركت في الفتوحات وأبلت بلاءً حسناً ، وما يمكن أن يقال أنه بالرغم من أن الأمويين اعتمدوا في بداية قيام دولتهم ومن ثم جيشهم على العصبية القبلية ، إلا أنهم لم يقفوا جامدين في وجه المتغيرات والمستجدات ، بل تواءموا معها، واستجابوا لها ، فخففوا من فرط اعتمادهم على تلك العصبية القبلية حتى تلاشت في أواخر حكمهم .

وأما نقيصة الجيش العثماني فكانت في العنصرية القومية ، حيث تم تأسيس الجيش العثماني من البداية على العنصر التركي فقط دون العناصر الأخرى ، بل وتنشئة أفراد

الجيش وتربيتهم وتدريبهم على العادات والموروثات التركية التي بدت هزيلة وباهتة ، فكان أفراد الجيش العثماني ليسوا مقاتلي جيش الإسلام ، ولكنهم مقاتلو جيش تركي دينه الإسلام .

## ثانياً : البعد العقيدي والنفسي في كل من الجيشين :

بالرغم من وجود العصبية القبلية في الجيش الأموي بالشكل الذي وصفنا . إلا أنها لم تتسرب إلي عقيدة المقاتلين ونفسياتهم المهيأة للجهاد في سبيل الله ونشر الدعوة الإسلامية في بقاع الأرض ، فجيش الفتح الأموي لم يكن يعوّل على العصبية القبلية . وبالذات عندما تعددت العناصر التي انضوت تحت لوائه وشاركت في فتح المغرب والأندلس ، وكانت قوة العقيدة والروح العالية للمقاتلين هي الدافع وراء التقدم في المناطق التي وصل إليها الجيش في كافة الاتجاهات . ولعل الموقف الاستراتيجي الصعب الذي خرج منه الجيش الإسلامي أثناء تقدمه صوب المغرب والأندلس تحت إمرة طارق بن زياد وموسى بن نصير ، بسبب مضاء العزيمة وقوة العقيدة والروح العالية لذي دلالة في هذا السياق ، يضاف إلي ذلك وفي نفس الخصوص تقدم الجيش الإسلامي تلقاء موسكو وسط ظروف مناخية قاسية ومحاصرتها والاقتراب من فتحها لولا إنهيار الدولة الأموية بشكلها النهائي .

وفي المقابل كان من الصعب التنقيب عن البعد العقيدي في كيان المقاتل في الجيش العثماني ، ليس لأنه لا وجود له فقط ، ولكن لأنه غير محسوب من البداية ضمن المنظومة الفكرية والمعنوية المعتمدة رسمياً من الباب العالي لتربية وتنشئة الأطفال المسيحيين المختطفين . تلك المنظومة التي كان قوامها العادات التركية وتعاليم الدين الإسلامي الشكلية وليست الروحية . ومن ثم فلم يكن ثمة أي صدى للعقيدة الإسلامية في سلوك المقاتل التركي أو في

وجدانه ، أما روحه المعنوية فقد اكتسبت صلابتها قبل الاقتراب من مرحلة الاضمحلال من النزعة العنصرية القومية التي تم شحنه بها ، والتي صورته بشكله وهيئته على أنه أقوى مقاتل في العالم لأنه تركي عثماني إنكشاري .

لقد بات القياس ممكناً ، إذا ما ارتددنا بالنموذجين الأموي والعثماني إلي نموذج الجيش الإسلامي في عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة . وليتبين لنا بسرعة وسهولة أن النموذج الأموي كان الأقرب إلي النموذج والمثال .

**ثالثاً : هوية الفتح :**

إن نظرة فاحصة إلي انطلاقة الجيشين الأموي والعثماني نحو فتح مناطق جديدة ، وأضافتها إلي حمى الإسلام ، وحمل وتوصيل وتبليغ الدعوة إليها . لتفضي بنا إلي تحديد هوية ذلك الفتح ، ورسم معالم مقاصده وغاياته .

فالجيش الأموي منذ انطلاقته الأولى نحو الفتوحات الإسلامية لم يتحرك إلا باسم الإسلام مستهدفاً الدعوة إليه في المشارق والمغارب ، ولم يتم أي فتح أو دعوة إلي الإسلام باسم الأمويين أو باسم الدولة المنسوبة إليهم ، وإنما كان الفتح يتم باسم الإسلام وباسم دولة الإسلام . وكان ذلك هو النهج الذي اتبع في عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة . وترتيباً على ما تقدم فكافة الممارسات التي تمت خلال عمليات الفتح من حمل الدعوة وتوصيلها وتبليغها ، كانت تتم باسم الإسلام ووفقاً لمنهجه في التعاملات القائمة على إنسانية الدعوة وعالميتها . وسماحة الإسلام ورحابته .

أما الجيش العثماني فقد بدأ انطلاقته باسم العثمانيين كقومية وعنصرية ، ثم باسم الإسلام بوصفه دين الأتراك ، ولم تتم الغزوات وإخضاع المناطق التي سيطروا عليها إلا باسم القومية التركية ، ورغبة في تحقيق أمجاد وبطولات لتلك القومية ثم للسلاطين والحكام

العثمانيين ، ولم يتعامل العثمانيون مع أنفسهم كجنود مسخرين لخدمة الإسلام ، ومقيضين لنصرته والدفاع عن حماه ونشر دعوته كما ادعى ابن خلدون ، ولكنهم كانوا يمررون كل ذلك عبر القومية التركية وخصوصيتها الثقافية وربما ينتهون به كذلك إليها .

كما أن إطلالة على علاقات الدولة العثمانية بالمناطق التي تم إخضاعها لتوضح أن المساومات التي تمت مع أهل تلك المناطق إن هي إلا ترضيات ومساومات سياسية تمت باسم الدولة وأدارها الساسة والحكام لتحقيق أهداف وطموحات معينة ، ولم تكن باسم الإسلام وضمن سماحته المنسوبة إليه وإلي خصائصه الأصيلة .

**رابعاً : مآل الفتح :**

من المفارقات الغريبة في هذا التحليل المقارن بين طبيعة الجيشين الأموي والعثماني والجديرة بالذكر والتبيان هي مآل الفتح ، فالفتوحات الإسلامية التي تمت في عهد الأمويين كانت في امتداد مستمر وتواصل دائم حتى انهيار الدولة ، ومعنى ذلك أن الفتح والدعوة إلي الإسلام لم يفترا في يوم ما في العصر الأموي ، ولم يحدث أن تنازلت الدولة أو تراجعت عن أي جزء من الأجزاء التي فتحتها وحملت الإسلام وأوصلته إليها ، ولقد انقضى نحبها وهي عاكفة على الجهاد في سبيل الله قائمة عليه بكل ما أوتيت من قوة ، ولم ينحسر الإسلام عن المناطق التي فتحها الأمويون إلا بعد رحيل دولتهم بزمان ، فلم يُقّدر لمن جاء بعدهم الحفاظ على تلك الفتوحات وأن يحميها .

في حين كان الوضع في الدولة العثمانية جد مختلف ، فالمناطق التي سيطر عليها العثمانيون في أوربا وآسيا وأدخلوها إلي نطاق الدولة الإسلامية لم تدم طويلاً تحت تلك السيطرة ، إذ سرعان ما بدأ العثمانيون في الانسحاب ، وبدأ نفوذهم في الانحسار ، وتقلصت دولتهم أمام الضغوط الأوربية القادمة من الشمال ، ليس هذا فقط بل كانت هناك

تنازلات عن أراضٍ دخلها الإسلام قبل مجيء العثمانيين ، إلي أن أصبح جسد الدولة العثمانية بالكامل محل تقسيم وتوزيع بين القوي الأوربية ، حينما لقبوها بالرجل المريض ، وانتهى الأمر بسيطرة أوربية على الدويلات الإسلامية !! .

**خامساً : الدفاع عن الحضارة الإسلامية ضد الاعتداءات الخارجية :**

نتحول إلي مهمة أخرى من مهامات الجيش الإسلامي وهي المتعلقة بالدفاع عن الحضارة الإسلامية ضد الاعتداءات الأجنبية . وربما كان للتطور التاريخي دوره الحاسم في خلق وتطوير هذه المهمة أمام كل من الجيشين الأموي والعثماني ، فالجيش الأموي دافع بقوة وحيوية عن الحضارة الإسلامية في كافة ربوع الدولة ، وقلل بشكل ملموس من تلك التعديات الخارجية حيث اقتصرت على العدو التقليدي في ذلك الوقت وهو الدولة البيزنطية التي كانت ترهب الجانب الإسلامي وتحسب حسابه .

أما الجيش العثماني فقد فعل التطور التاريخي فعله معه ، حيث تطورت القوى الأوربية بسرعة، وبدأت في تشكيل خطورة على كيان الدولة العثمانية ، وشرعت الأخيرة في الانحسار والتقلص التدريجي إلي أن أسلمت زمام أمورها بالكامل للدول الأوربية التي كانت تمثل قوة صاعدة في ذلك الوقت ، وهنا اخفق الجيش العثماني نهائياً في الدفاع عن الحضارة الإسلامية أمام الزحف الأوربي بحضارته المادية التقنية الجارفة ، وكانت مواجهة غير متوازنة بين التقدم المادي والتطور التقني الذي مثله الأوربيون ، وبين الركود والتخلف المادي وضياع الذات وتبددها الذي مثله العثمانيون والمسلمون معاً .

**سادساً : تفعيل الحضارة الإسلامية داخل أجزاء الدولة :**

إن دور الدولة الأموية بكامل مؤسساتها وبصفة خاصة المؤسسة العسكرية في تفعيل وازدهار الحضارة الإسلامية أوضح من أن يشار إليه أو يذكر ، فقد انتشرت الدعوة الإسلامية

ووصلت إلي مناطق لم تصلها من قبل وربما لم تصلها فيما بعد ، ومع الدعوة انتشرت الحضارة بتنظيماتها السياسية والإدارية والاقتصادية والنظام الاجتماعي ، وكذا فنون العمارة والتشكيل والتخطيط العمراني والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، أما في العصر العثماني وبالرغم من طول مدة هذا العصر إلا أن الحضارة الإسلامية لم تشهد جديداً إلا فيما ندر ، وكانت هذه بالفعل مرحلة تقشف وشظف في تاريخ الحضارة الإسلامية .

**سابعاً : لمن كان العطاء ! :**

أخيراً نأتي إلي أخر بنود كشف الحساب في تحليلنا المقارن بين الجيشين الأموي والعثماني ، وهو المتعلق بالمستهدف بالعطاء ، فالجيش الأموي أعطى جهده للإسلام وللحضارة الإسلامية وأخيراً للدولة الأموية ، أما الجيش العثماني فقد أعطى الدولة العثمانية ممثلة في حكامها ، ثم للثقافة التركية التي جاهد من أجل تضخيمها وترقية شأنها . وأخيراً للإسلام الذي كان ينتسب إليه . ولا يمكنه الادعاء بأنه أعطى ما يذكر للحضارة الإسلامية .

# الفصل الخامس

# الجيش الوطني العنصري

لقد رأينا أن نفرد هذه الجزئية البسيطة في عجالة ، لتناول وضعية الجيش بعد إنهيار الجيش العثماني بشكله التقليدي ، وقبل أن ننتقل إلي مرحلة الجيوش الإسلامية تحت السيطرة الأوروبية، وذلك لأن هذه الفترة البسيطة تاريخياً كانت بمثابة فترة انتقالية من انهيار الجيش العثماني بشكله التقليدي إلي الجيوش الإسلامية تحت السيطرة الأوروبية ، وقد برز في هذه الفترة جيشان إسلاميان كان لهما أهمية ملموسة في صناعة الأحداث في العالم الإسلامي ، وبينه وبين القوى الأوروبية التي بدأت تتدخل بشكل سافر في شئونه ، هما الجيش العثماني بعد الإصلاح ، والجيش المصري في عهد محمد علي . وسوف نتابع تطور الجيشين ودورهما من خلال المبحثين التاليين :

**المبحث الأول : الجيش العثماني بعد الإصلاح .**

**المبحث الثاني : الجيش المصري في عهد محمد علي .**

## المبحث الأول

## الجيش العثماني بعد الإصلاح

لقد بدأت عملية إصلاح واسعة في الإمبراطورية العثمانية تطلبت جهوداً جبارة بدأت مع عهد سليم الثالث ١٧٨٩ – ١٨٠٧ ومحمود الثاني ١٨٠٨ – ١٨٣٩ وعبد المجيد ١٨٣٩ – ١٨٦١ وعبد العزيز ١٨٦١ – ١٨٧٦ ، ولعل ذروة تلك الإصلاحات تمت في عهد عبد المجيد وقد أطلق عليها فترة التنظيمات ، وتطرق ذلك الإصلاح إلي كل شيء تقريباً ، وكانت البداية من الجيش ، حيث تم التخلص من الإنكشارية التي كانت عقبة في وجه الإصلاح ، ولم يكن التخلص بأية وسيلة من وسائل الإبعاد ولكنه كان بالإعدام !! في عام ١٨٢٩ ، وأعقب ذلك إعادة تنظيم الجيش على أيدي خبراء أوربيين ، حيث صدر قانون جديد للتجنيد في عام ١٨٤٣ وترتيباً على ذلك تم تشكيل جيش عصري لعله كان أقوى الجيوش المعروفة في ذلك الوقت بعد الجيش البروسي ، وكان تعداد ذلك الجيش ٣٠٠,٠٠٠ جندياً عاملاً ، وكانت مدة الخدمة الإلزامية في الجيش خمس سنوات ، بالإضافة إلي ذلك كان هناك ١٥٠,٠٠٠ جندياً احتياطياً ، ومدة الخدمة الاحتياطية سبعة أعوام مع تدريب لمدة شهر في كل سنة .

وفي حقيقة الأمر لم يكن لذلك الجيش الذي سرعان ما تهاوى أو على الأقل ذهب بريق تقدمه وتطوره مع اندثار عصر التنظيمات الذي مر كلمح البرق وانتهى بتركيا إلي أزمة اقتصادية مزقته ، وكان سبب ذلك أن التنظيمات لم تتعرض على الإطلاق للوضع الاقتصادي ، لم يكن لذلك الجيش أي أثر فعّال يمكن أن يذكر للدولة الإسلامية لا على المستوى الداخلي أو على المستوى الإقليمي أو على المستوى الخارجي .

فعلى المستوى الداخلي ساند الجيش على استحياء حركة الإصلاح ، ثم في مفارقة عجيبة أرتد وساند استبداد السلطان عبد الحميد الثاني الذي اعتلى العرش عام ١٨٧٦ ، ولعب بورقة الإسلام ضد الأحرار الذين ينادون بالإصلاحات ، وضد القوميين ، وأوقف تطبيق الدستور، وطارد مدحت باشا رائد الإصلاح الذي نفاه ثم اغتاله عام ١٨٨٣ ؛ وعليه فقد أغلقت دكتاتورية عبد الحميد الثاني فترة التنظيمات عام ١٨٧٩ ، وكان الجيش في ظلال الأحداث خيالاً لا جسد له .

وعلى المستوى الإقليمي لم يكن للجيش نشاط ملحوظ ، إذ أن القوميات التي انضوت تحت لواء الإسلام ، ومنها القومية التركية ذاتها والقومية العربية والفارسية والبربرية وغيرها . كانت في مرحلة التبلور والتشكل ، وتستعد لأن تحدد لنفسها حَيزات مكانية جغرافية يتسنى لها ممارسة خصوصياتها الحضارية والثقافية فوق ترابها .

كذلك نرى الجيش العثماني لم يحرك ساكناً إزاء سقوط أجزاء الدولة الإسلامية كالفراشات الواحدة تلو الأخرى في أتون السيطرة الأوربية ، فكانت البداية من الجزائر ثم تونس ثم مصر ثم بلاد الشام والعراق ، وتم تقسيم أشلاء الرجل المريض بين ضباع أوربا الجائعة .

وعلى المستوى العالمي والعلاقات التركية الأوربية ، فبالإضافة إلي ما قدمنا أعلاه ، لم تكن ثمة مواجهة على المستويين الاستراتيجي أو العسكري بين الأتراك وأوربا ، فقد أدت الأزمة الاقتصادية المزمنة — التي سبق ونوهنا عنها — والتي لم تمسها الإصلاحات إلي تسليم اقتصاديات تركيا المفلسة إلي أوربا ، وتم تأسيس صندوق الدين العام العثماني عام ١٨٨١ بإدارة فرنسية إنجليزية ، ثم مُنحت إنجلترا وفرنسا وغيرها من الدول الأوربية امتيازات مطلقة في المجالات التعدينية وغيرها ، وظلت التدخلات الغربية التجارية تعبث في اقتصاديات الإمبراطورية حتى الحرب العالمية الأولى .

## المبحث الثاني

## الجيش المصري في عهد محمد علي

تقاسم الجيش المصري الذي أنشأه محمد علي مع الجيش العثماني الأحداث على مستوى العالم الإسلامي من حيث الترتيب والصناعة ، ومن ثم كان دور الجيش المصري الذي بدأ في البروز بفعالية منذ العقد الثاني من القرن التاسع عشر جديراً بالمتابعة والدراسة .

لقد أوكل محمد علي مثله في ذلك مثل العثمانيين مهمة تنظيم الجيش المصري وإعادة تشكيله إلي الفرنسيين دى سيف [ سليمان باشا ] وسيزرى . وكان الجيش المصري يتكون من ١٣٠,٠٠٠ جندياً نظامياً و ٤١,٠٠٠ بحاراً عاملاً في الترسانات البحرية ، أما قطع الأسطول المصري فكانت تتكون من ١١ بارجة و ٣ بواخر بخارية و ١٨ سفينة مختلفة الحجم . وقد تم إعداد عدة مصانع متطورة لإمداد هذا الجيش بالسلاح .

أراد محمد علي من وراء هذا الجيش الكبير والمتطور العظمة والنفوذ ، وقد ساعده على ذلك المساعدات التي تلقاها من فرنسا ، والمجهودات التي قام بها أبناؤه طوسون وإسماعيل وإبراهيم ، وتم تحريك هذا الجيش الفتى في اتجاهات عدة استهدفت جميعها خدمة ذلك النفوذ وبناء تلك العظمة ، فلم يحرز هذا الجيش أية إنجازات لمصلحة الإسلام دعوةً أو حضارةً ، وتوضيح ذلك فيما يلي :

**أولاً :** كان التحرك الأول بموافقة الباب العالي في فترة الوفاق المصري التركي فيما بين عامي ١٨١١ إلي ١٨١٨ للتدخل في شئون شبه الجزيرة العربية ضد السعوديين الوهابيين ، ثم تكرر ذلك التدخل عدة مرات في ما بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٣٨ ليصل الجيش المصري حتى اليمن .

**ثانياً** : كان التحرك الثاني في اتجاه الجنوب ناحية أعالي النيل والبحر الأحمر واحتلال أرض السودان وتأسيس عاصمة جديدة في الخرطوم في عام ١٨٣٢ والوصول إلي أرتيريا .

**ثالثاً** : وكان التحرك الثالث في البحر المتوسط فقد أخمدت مصر عن طريق جيشها المتصاعد القوة ثورة اليونان لمصلحة الباب العالي وكوفئت على ذلك بجزيرة كريت .

**رابعاً** : حلمت مصر بإخضاع كل من طرابلس الغرب وتونس والجزائر بالتحالف مع فرنسا ، ولكن القطيعة التركية المصرية بددت ذلك الحلم ، عندما فكرت مصر في السيطرة على سوريا .

**خامساً** : تصاعدت حدة القطيعة المصرية التركية إلي حد الحرب ، ودخل إبراهيم بن محمد على الحرب ضد ، تركيا ونجح في منطقة سان جان داكر في ١٨٣٢ ، وعقد صلح كوتاهية بين الدولتين بأن تنازلت تركيا لمصر عن كل سوريا ومقاطعة أطنة .

**سادساً** : وبدأ الأوربيون يتحركون بقلق ضد قوة مصر المتصاعدة وبدأ التحرك من روسيا ، حيث تم توقيع تحالف مشترك روسي تركي في معاهدة هنكار أسكله سي في يوليو ١٨٣٣ ، حققت روسيا بموجبه بعض الامتيازات في المضايق ، وامتعضت كل من فرنسا وإنجلترا .

**سابعاً** : ثارت أزمة ثانية في سماء العلاقات المصرية التركية ، تطورت سريعاً إلي حرب بين تركيا وجيش إبراهيم بن محمد على ، وهُزم الأتراك في شمال سوريا في معركة نصيبين في عام ١٨٣٩ ، وكان هذا النصر المصري بداية أفول نجم مصر وسياسة محمد علي ومعهما الجيش المصري !! .

**ثامناً** : ولكن كيف تحول النصر إلي بداية أفول ؟ كان ذلك عندما استشعرت كل من فرنسا وبريطانيا خطورة مصر وجيشها وسياسة محمد علي على سياستهما في الشرق عموماً

، وتم التخطيط لمعاهدة لندن المشئومة في عام ١٨٤٠ ، ونتائجها المأساوية ، إذ بموجب هذه المعاهدة اعترف محمد علي بالسيادة المطلقة للسلطان العثماني ، واحتفظ بمصر بصفة وراثية والسودان طوال حياته ، وتحطم الحلم الكبير في العظمة والنفوذ ، ولم يفد الإسلام أو حضارته من ذلك شيئاً .

# الفصل السادس

# الجيوش الإسلامية في عهد السيطرة الأوروبية

كما أشرنا تحولت معظم الدويلات الإسلامية مع بداية العقد الثالث من القرن التاسع عشر إلي مناطق للنفوذ ، ثم سيطرة مباشرة للدول الأوروبية ، وتلاشت نهائياً هيبة الدولة العثمانية وسيطرتها الفعلية على أجزائها السابقة ، وفي هذا الجو العام المفعم بالأسى والتردي ، وحيث انهارت القيم ، وتبددت العلاقة بين الإسلام والحياة ، ولم يعد يتجاوز الشعيرة والنسك ، كان دور الجيش محل تساؤل ومثار جدل ، فهل يُنتظر من الجيش أن يكون فاعلاً في تلك الظروف ؟ ولمصلحة من تكون تلك الفاعلية ؟ في هذه الجزئية نبحث في وجود الجيش في الدويلات الإسلامية ، وننقب عن دوره ، وعن الخيط الرفيع الذي يربطه بالفكرة الإسلامية من خلال المباحث الثلاثة التالية :

**المبحث الأول : الجيوش التي كانت قبل السيطرة الأوروبية .**

**المبحث الثاني : الجيوش الإسلامية والسيطرة الأوروبية .**

**المبحث الثالث : الخيط الرفيع بين الجيوش الإسلامية في ظل السيطرة الأجنبية والفكرة الإسلامية .**

## المبحث الأول

## الجيوش التي كانت قبل السيطرة الأوروبية

قبل أن تبسط الدول الأوروبية سيطرتها على الدول الإسلامية بالكامل خلال القرن التاسع عشر والعقدين الأول والثاني من القرن العشرين ، كان ثمة جيوش قائمة ولها دورها الذي تواءم مع طبيعة الظروف الداخلية والإقليمية والدولية آنذاك ، وسنشير في لمحات سريعة إلي تلك الجيوش كما يلي :

### أولاً : الجيش التركي :

بالرغم من أن تركيا في شكلها النظامي كدولة بحدودها المتعارف عليها ، لم تخضع للسيطرة الأوروبية المباشرة ، كما حدث للدويلات الإسلامية مثل مصر والشام والعراق وغيرها ، إلا أن الجيش التركي قد تأثر كثيراً بالتطورات التي سبقت تلك السيطرة ، وقد فت في عضده وأوهن من قوته المؤامرات والحروب التي حاكتها له القوى الأوروبية التي كانت قد بدأت هجمتها الثانية ، وخروجها المندفع خارج نطاق القارة العجوز نحو العالم الإسلامي والمناطق الجديدة ، كما أثر على ذلك الجيش كذلك التساقط المتتابع والضياع النهائي للولايات الإسلامية التي كان يعتبرها ضمن نفوذه وسيطرته ، يضاف إلي ما تقدم التخلف الذي حل بالجيش التركي مجتاحاً كافة أجهزته وتجهيزاته واستراتيجياته وتكتيكاته ، ليتحول إلي جيش من الدرجة الثانية .

لقد تعرض الجيش التركي لإهانات متعمدة من القوى الأوروبية ، حتى يستقر لدى الباب العالي أن الجيش التركي لم يعد يمثل ركيزة أساسية في سياسة الإمبراطورية المهترأة ، وتتهاوى بشكل نهائي آخر معاقل الوهم التركي في البحث عن الذات وتضخيمها دون داعٍ .

**ثانياً : الجيش المصري :**

كان مؤتمر لندن الذي عقد في ١٨٤٠ بمثابة المؤشر النهائي لصعود نجم الجيش المصري وبداية مرحلة النكوص والانحدار ، وتحول الجيش المصري بعد ذلك من قوة ذات طموحات إقليمية بل وعالمية إلي قوة محدودة بالحدود الجغرافية التي سيّجته بها القوى الأوروبية في مصر والسودان، ولم يعد يُخشى من مصر على جيرانها في الشام أو في الغرب الأفريقي .

لقد تعرض الجيش المصري لنفس ما تعرضت له الدولة من تطورات وتغييرات كانت جميعها في اتجاه التخلف والتدهور ، حيث لم يكن خلفاء محمد على يتمتعون بنفس حنكة ودهاء سلفهم الذي استغل كافة المواقف والتطورات الداخلية والإقليمية والعالمية لصالحه ولمصلحة نفوذه وطموحاته الشخصية ، ولم يكن يعلم أن نفس هذه الظروف والمواقف ستعيده تارة أخرى من حيث بدأ .

منذ منتصف القرن التاسع عشر لم يعد الجيش المصري جيشاً طموحاً وحيوياً . بل انحصر داخل حدود دولته ، وانتهت مهامه الخارجية التي كانت قد جعلت منه قوة عالمية مرهوبة الجانب ، هزمت الأتراك في معركتين متتاليتين ، وأرهبت فرنسا وإنجلترا المتربصتين ، واللتين بذلتا ما في وسعهما من أجل تثبيط ذلك الجيش وتقليم أظافره خلال العقود الأربعة من القرن التاسع عشر من ١٨٤٠ وحتى ١٨٨٠ ، حيث عاثتا في السياسية المصرية فساداً خلال تلك الفترة التي انتهت بالاحتلال العسكري في عام ١٨٨٢ م .

بالفعل كانت العقود الأربعة التي أعقبت مؤتمر لندن فترة تحول محورية في تاريخ الجيش المصري الحديث الذي أنشأه محمد على ، فقد عمدت إنجلترا وفرنسا من خلال نفوذهما المتزايد في السياسة المصرية إلي إضعاف الجيش المصري من خلال التدخل المباشر في شئونه، وجعلتا منه مسخاً هزيلاً في عدده وعدته وحتى في هيئته .

والمتأمل للسياسة الإنجليزية والفرنسية ومعها بقية الدول الأوروبية مثل الروسية والإيطالية يلحظ أنها عمدت إلي إضعاف قوة الجيشين التركي والمصري في آن واحد ، فاستخدمت مع الأول سياسة المحاور والتحالفات والحروب والمؤامرات ، ومع الثاني سياسة التدخل المباشر عن طريق خلفاء محمد على مرة ، وعن طريق الحيل والألاعيب السياسية مرة أخرى .

## ثالثاً : الجيش الإيراني :

في الحيز الأرضي الذي استقر فيه أبناء فارس ، بعد أن حدد الأتراك العثمانيون إقامتهم عقب الصراع المرير والدامي الذي تأجج بينهما ، سعى الصفويون ومن جاء بعدهم إلي إقامة كيان نظامي ، بدت عليه أمارات الدعة التي انعكست على الجهود الكثيفة النظامية والشعبية من أجل إحياء التراث الفارسي الحضاري والثقافي ، ووضع أصول ومعالم الذات الخاصة بالأمة الفارسية ، وكان ذلك في سياق الجهود المبكرة الرامية إلي وضع اللبنات الأولى للتكوينات القومية العنصرية ، التي بدأت في البحث عن ائتلاف مبهم ومبتكر تلتقي فيه كلية الفكرة الإسلامية مع خصوصية النزعة القومية .

وظل الفرس في مجالهم الأرضي يرقبون عن كثب ما يحدث من تطورات وتداعيات إقليمية وعالمية غير عابئين أو مشاركين ، إلا في بعض التطورات المتعلقة بوضع الأشكال النهائية لحدودهم الشمالية مع روسيا وأفغانستان وحتى مع تركيا ، وهذا ما قام به أحد القادة الصفويين ويسمى نادر ، فقد أقر الموقف على كل الحدود ، فانتزع أفغانستان بأكملها من أيدي مغول الهند ، وواصل سيره حتى دلهي في عام ١٧٣٩ ، ثم تحررت أفغانستان من السيطرة الفارسية فور اغتيال نادر في عام ١٧٤٧ ، واستتب الأمر لإيران الفارسية ، وأيضاً لأفغانستان وتبلورت البذور المبكرة للقوميتين الفارسية والأفغانية ، ولم تلبث أن نمت وشبت عن الطوق .

لقد أقام الصفويون جيشاً مكنهم من السيطرة على الأحداث والتطورات التي كانت تمسهم وتمس كيانهم الأرضي والقومي ، وبعد أفول نجم الصفويين في إيران ابتداءً من منتصف القرن الثامن عشر توالت على إيران حكومات مختلفة وأسر حاكمة ، جعلت مهمتها الأساسية الحفاظ على ذلك الكيان الجغرافي ، وما عليه من تكوينات بشرية تجمعها منظومة من المشاعر والطموحات والإرث الثقافي والحضاري ، أُطلق له العنان لكي يظهر ويلقي بظلاله في تعبيرات ثقافية وحضارية أقامت مزجاً بين الفكرة الإسلامية في عمومها وشموليتها والخصوصية القومية في تفردها وذاتيتها .

لقد أقام الإيرانيون جيشاً لم تتجاوز مهمته مراقبة حدود الدولة ، والحفاظ على الوضع القائم، وضمان عدم المساس بما اتفقت عليه القوى الأوربية من أوضاع إقليمية تم تشكيلها على أسس اقتصادية وجيوستراتيجية وحتى سياسية جديدة ، ومن ثم فلم تكن إيران بالقوة الفاعلة في أحداث وتطورات المسألة الشرقية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، إلا فيما يتعلق بترتيب بعض الأوضاع في الخليج المشترك بينها وبين العرب ومضيق هرمز وجزره الاستراتيجية .

وابتداءً من عام ١٩٠٦ حلت على إيران تغيرات كبرى ، حيث أعلن الدستور وكان أول اجتماع لمجلس الأمة ، ومع نهاية الحرب العالمية الأولى استقرت أوضاع إيران الداخلية والخارجية . فقد تأكد الاستقلال السياسي للدولة ، وقُبلت عضواً في عصبة الأمم ، وانتهت التدخلات الروسية والهندية ، وتمت الموافقة على إنشاء جيش وطني يتمشى مع الأوضاع المستجدة . وينهي كذلك فترة حكم أسرة قادجار . وفي عام ١٩٢٦ وفي خضم هذه الأحداث تولى العرش أول ممثل لأسرة آل بهلوي ، الذي قام بتجديدات لعل ما يهمنا منها هو تقوية الجيش الذي طمح في أن يكون الأقوى في منطقة الخليج العربي الفارسي والجزيرة العربية ، ولكن على أسس سياسية ، ولم يكن أبداً على ثوابت ذات نزعة إسلامية .

## المبحث الثاني

## الجيوش الإسلامية والسيطرة الأوروبية

إن على الجيوش الإسلامية القائمة أن تجد نفسها وجهاً لوجه مع السيطرة الأوروبية ، وأخذت تلك المواجهة أشكالاً ثلاثة : الشكل الأول : المواجهة الصريحة والمباشرة بين الجيوش الإسلامية القائمة والدول الأوروبية التي فرضت سيطرتها على الشعوب الإسلامية ، الشكل الثاني : تشكيل تنظيمات سرية داخل الجيوش لمواجهة السيطرة الأوروبية ، الشكل الثالث : تشكيل تنظيمات مسلحة للمقاومة وهي التي عرفت بجيوش التحرير ، وسوف نعمد إلي تفصيل هذه الأشكال الثلاثة للمواجهة بين الجيوش الإسلامية والسيطرة الأوروبية ، من خلال ما يلي :

### أولاً : المواجهة المباشرة بين الجيوش الإسلامية والسيطرة الأوروبية :

كان الجيش المصري هو الأول وربما الأوحد في الجيوش الإسلامية القائمة الذي واجه الغزو الأوربي لبسط السيطرة بشكل صريح ومباشر عام ١٨٨٢ في التل الكبير بقيادة أحمد عرابي ، لقد تقلد العميد أحمد عرابي في فبراير ١٨٨٢ منصب وزير الحربية ، وخاض عرابي منذ توليه ذلك المنصب صراعاً ذا شقين : شقه الأول مع الجنود الأتراك في الجيش ثم ضد الخديوي وأسرته ، وشقه الثاني مع إنجلترا ، وأثار عرابي الشعب المصري وكذلك الجيش الذي كان تحت إمرته ، وعلى اثر ذلك هاجمت بريطانيا الإسكندرية بالقنابل مما دعا عرابي إلي إعلان الحرب عليها ، ودخلت الجيوش الإنجليزية مصر وضربت الجيش المصري في التل الكبير، وانتهت المواجهة باحتلال مصر . بعد ذلك خضع الجيش المصري للاحتلال الإنجليزي مثله في ذلك مثل مصر بكاملها ، وكان لا مناص من البحث عن وسائل أخرى للمقاومة والتعبير عن رفض الاحتلال ، وبالرغم من تعدد أشكال ذلك التعبير

التي تمثلت في المقاومة عن طريق قوى سياسية رسمية مثل الأحزاب التي كان باكورتها حزب الوفد بقيادة سعد زغلول ، والمقاومة الشعبية السلمية التي انخرط فيها الشعب المصري بكافة طوائفه وفئاته عبر المظاهرات العارمة ، والمقاومة المسلحة وفصائل الفدائيين ، بالرغم من كل ذلك إلا أن ما يهمنا هو الجيش لأنه محور التحليل وأساسه ، فقد ظهرت التنظيمات السرية في الجيش ، والتي قدّر لها أن تنقلب على نظام الحكم وتصحح الأوضاع ، وتنهي وجود السيطرة الأجنبية ، ومن ثم فإن الجيش في نهاية المطاف كان له القول الفصل في إنهاء الأحداث لصالحه .

**ثانياً : ظهور تنظيمات المقاومة المسلحة [ الفدائيين ] جيوش التحرير :**

حديثنا الآن عن مقتربات من الجيوش ، فهي ليست جيوشاً بمعناها المتعارف عليه والدقيق، ولكنها اكتسبت التنظيم والقوة المسلحة والهدف الذي وضعها في موضع قريب من الجيش تلك كانت تنظيمات المقاومة المسلحة . والذي سماها البعض الفدائيين ، وسمّاها آخرون جيوش التحرير ، هذه التنظيمات المسلحة ذات التسميات المتعددة والشكل والهدف الواحد ظهرت كردة فعل عنيفة وقوية على رفض الشعوب الإسلامية للسيطرة الأوروبية . ونثير هنا سؤالاً ربما يحرك ذهن القارئ ويستنفر فضوله ، وهو لماذا لم تُقابل السيطرة العثمانية على أجزاء العالم الإسلامي بثورات عارمة لا تهدأ ومقاومات مسلحة مثلما حدث مع السيطرة الأوروبية ؟! هل سبب ذلك تخلف الوعي والإدراك لدى الشعوب الإسلامية في حالة العثمانيين عنه في حالة الأوروبيين ، أم أن ذلك يكمن في الإسلام . لنفكر !! .

على أية حال لقد تبلورت سريعاً تنظيمات المقاومة المسلحة أو جيوش التحرير ، وهي تختلف في طبيعتها عن الثورات الشعبية التي تشتعل كردود أفعال لتصرفات استفزازية من

الدول المسيطرة ، أما الأولى فهي تنظيمات شبيهة إلي حد كبير بالجيوش ، فتتسم بالثبات والتنظيم والهدف الواضح المحدد في رفض الاحتلال والمطالبة برحيله ، وهذه التنظيمات تظهر مستقلة عن الجيوش النظامية التي كانت موجودة وقائمة قبل الاحتلال ، ولا علاقة لها كذلك بالتنظيمات السرية التي تتشكل داخل تلك الجيوش والتي سنتناولها بعد قليل .

لقد رأينا ذلك بوضوح في الجزائر بقيادة عبد القادر الثوري الشهير ثم بقيادة القراني ، وهناك جيش التحرير الذي قاده بومامة في جنوب وهران ، وفي تونس حيث ظهر تنظيم للمقاومة المسلحة التونسية عقب توقيع معاهدة باردو في ١٢ مايو ١٨٨١ م ، وفي المغرب كان عبد الكريم الخطابي يقود تنظيماً قوياً يتحرك ضد الفرنسيين ، وفي ليبيا تصدت التنظيمات المسلحة للغزو الإيطالي بقوة وشراسة وقاد عمر المختار ملحمة شهيرة في هذا السياق ، وفي مصر كان الأمر مختلفاً فقد تبلورت جماعات وخلايا سرية [ عرفت بالفدائيين ] كانت أقل وضوحاً وأبسط من أن يطلق عليها جيش تحرير ، ولكنها كانت ذات دلالة على عدم استسلام الشعب ورفض الاحتلال ، وفي سوريا كان استشهاد يوسف العظمة في ميسلون بداية تحرك شعبي ثوري في وجه الفرنسيين تبلور في تنظيم للمقاومة باشر انطلاقته من جبل الدروز ، وفي العراق شهد يوم ٣٠ يونيو عام ١٩٢٠ ثورة عارمة ضد إنجلترا تشكلت على أثرها تنظيمات مسلحة للمقاومة . وفي شبه الجزيرة العربية سقط الشريف حسين عام ١٩٢٤ الذي كان يحميه الإنجليز ويحمل لقب شريف مكة ، وذلك في مواجهة إسلام الوهابيين الصارم ، وأسس الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود مملكة نجد والحجاز .

لقد كان الإسلام وراء كافة النماذج والأشكال التي قدمناها للمقاومة المسلحة والتصدي للسيطرة الأوروبية ، كان وراءها إما بشكل واضح وصريح ، كما في ثورات الحركات

الوهابية في الجزيرة العربية والسنوسية في شمال أفريقيا ، أو بإلقاء ظله على تطلعات وتوجهات جديدة كانت هي عينها الوطنية القومية في مرحلة التجدد والتبلور ، منذ ذلك الحين تشكلت الحركات الإسلامية في توجهات عقائدية ذات أبعاد فكرية ، بينما تركت الدور الأساسي للجماعات السياسية ولزعمائها الذين نشأوا على الطريقة الأوروبية .

وعندئذ انبثقت الحركات السياسية من طبقات اجتماعية جديدة مثل الموظفين الإداريين في الصناعة والبنوك ، والموظفون في دوائر الدولة ، والمثقفون وأصحاب المهن الحرة . وقد تكون من هؤلاء الأحزاب السياسية التي ظهرت آنذاك مثل حزب الدستور الذي ولد في تونس في عام ١٩٢٠ ، وحزب الوفد المصري الذي تكون عام ١٩١٨ ، وشرعت هذه القوى تباشر دورها في النضال ضد الاحتلال الأوروبي .

## ثالثاً : ظهور التنظيمات السرية داخل الجيوش :

ننتقل إلي الشكل الثالث من أشكال التصدي المسلح من قبل الشعوب الإسلامية للسيطرة الأوروبية ، وتمثل في التنظيمات السرية داخل الجيوش النظامية التي خضعت لتلك السيطرة ، وقد عرفت هذه التنظيمات طريقها إلي الجيوش المصرية والعراقية والسورية والليبية ، وقد كان هناك اتجاه عام إسلامي يغذي وجود واستمرار هذه التنظيمات ، ويقوى عزمها على تحقيق طموحاتها ، ولكن الهدفين الوطني ثم القومي كانا هما الطاغيان الباديان للمحلل ، وتمكنت هذه التنظيمات من تحقيق ما رمت إليه من التحرر من السيطرة الأجنبية والتخلص من الأنظمة الموالية لها والمتواطئة معها .

## المبحث الثالث

## الخيط الرفيع بين الجيوش الإسلامية

## في ظل السيطرة الأجنبية والفكرة الإسلامية

باستقراء هذه المحصلة القاسية من تاريخ العالم الإسلامي ، ومحاولة التقاط ما يتعلق منها بالجيوش الإسلامية ودورها كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية ، يمكننا أن نقف على جملة من الحقائق نرصدها فيما يلي :

**أولاً** : بالرغم من صعوبة التلاقي بين أجزاء الدولة الإسلامية وتقطيع أوصالها بشكل قاسٍ ، إلا أن الرابطة الإسلامية بما كانت تعنيه من أداة الخلاص من ذلك التردي ظلت هي الرباط الوثيق الجامع والمغذي لكافة التحركات التي خاضتها الجيوش الإسلامية بكافة أشكالها ، والتي حددت الغاية والهدف في التحرر من السيطرة الأجنبية ، ولو أن غاية الوحدة الإسلامية كانت هدفاً يبدو بعيد المنال .

**ثانياً** : لم يقدم الطرح الإسلامي المعاصر لتلك الآونة أدوات الحركة بشكل فعّال وواقعي وسط التغييرات الصاخبة التي أحدثها التدخل الأجنبي في البنية الاجتماعية والفكرية للمجتمعات الإسلامية ، التي بدا أنها مُقْدِمة على تغييرات غامضة ومجهولة العواقب .

**ثالثاً** : لقد أوكلت مهمة الحركة السياسية لقوى جديدة ، كانت نتاجاً لطبقات جديدة أحدثها التدخل الأجنبي في البنية الاجتماعية والفكرية في المجتمعات الإسلامية مثل الأحزاب والنقابات والنخبات النظامية والأرستقراطية والجماعات المصلحية المختلفة .. الخ ، وقد اتسمت هذه القوى بحرية حركة غير عادية وبأدوات عصرية مكنتها من مجابهة السيطرة الأجنبية .

**رابعاً** : تبلور بشكل نهائي معنى الوطن والوطنية وكذا القومية ، ومنها ما تغلف بغلاف إسلامي ، ومنها ما برز مجرداً نقياً ، وكان ذلك إيذاناً لبدء مرحلة جديدة من الجهد الشاق والمضني الذي بذله المثقفون في العالم الإسلامي من أجل البحث عن صيغ ائتلافية توفيقية بين الأفكار الثلاثة الوطنية والقومية والإسلام ، وإيذاناً كذلك بانتهاء الحديث الجاد عن الفكرة الإسلامية كرباط نظامي بين أجزاء العالم الإسلامي .

**خامساً** : لقد جاهدت الجيوش الإسلامية بجميع أشكالها التي قدمناها من أجل التحرر من الأجنبي ، وفي ظل زخم هذا الجهاد اختلطت مفاهيم الرغبة في التحرر " الوطني " أو " القومي " أو " الإسلامي " ، إلا أنه كان في النهاية تحرراً للكيانات الوطنية أو القومية أو الإسلامية من الأجنبي بممتلكاتها الحضارية والثقافية ، ومن ضمنها الذات الحضارية للإسلام ومنطقه الثقافي الخاص ، ولكن تلك الذات تم حجبها خلف توجهات جديدة تمثلت في القومية والوطنية .

# الفصل السابع

## الجيوش فيما بعد الاستقلال

## [ الجيوش الوطنية المتعددة ]

بتمام عقد الستينيات من القرن العشرين حصلت كل الدول الإسلامية التي خضعت للسيطرة الأجنبية على استقلالها السياسي ، وشرعت في تأسيس أركان ودعائم الدول الحديثة ، سواء أكانت وطنية في إطار قومية أشمل وأعم مثل الدول العربية ، أو قومية مستقلة مثل إيران وأفغانستان وتركيا ، مع مراعاة أن الأخيرة لم تخضع للسيطرة الأوروبية المباشرة مثل الدول العربية ، وكان من ضمن أركان الدول الحديثة التي شرعت تلك الدول في تثبيتها إقامة جيوش وطنية قوية وحديثة مختلفة الأهداف والمقاصد . فما هي الأسس التي قامت عليها تلك الجيوش ؟ . وهل ثمة تنسيق بين الجيوش في الدول الإسلامية ؟ ، هذا ما سوف نتعرض لبحثه في هذا الفصل من خلال المبحثين التاليين :

**المبحث الأول : الأسس التي قامت عليها جيوش ما بعد الاستقلال .**

**المبحث الثاني : خصائص الجيوش في الدول الإسلامية .**

## المبحث الأول

## الأسس التي قامت عليها جيوش ما بعد الاستقلال

كانت الجيوش الوطنية والقومية التي تأسست في الدول الإسلامية عقب الاستقلال عن السيطرة الأجنبية هي إحدى مستلزمات ومرتكزات الدولة الحديثة ، وقد عمدت تلك الدول إلي إقامة جيوشها على أسس معينة تشابهت فيما بينها إلي درجة التطابق ، ويمكن تناول تلك الأسس فيما يلي :

### أولاً : تأسيس الجيوش على توجهات وطنية أو قومية :

كان للانعتاق من نير السيطرة الأجنبية تأثير فعّال وحاسم في إزكاء النزعة الوطنية والقومية. التي أيقن الجميع أنها النتيجة العظيمة التي تم استخلاصها من فترات النضال ضد تلك السيطرة. ومكافأة عن المعاناة والتضحيات التي قدمتها الشعوب الخاضعة ، وأمام هذا الانبهار والإعجاب الشديد بالذات الوطنية المغلّفة بغلاف القومية ، لم يكن من المستساغ أو حتى المقبول الحديث عن توجهات تتجاوز نطاق هذين التوجهين اللذين ازدهرا وأينعا بشكل لم يسبق له مثيل ، ولا يمكن الحديث في هذا السياق عن صراع بين التوجه الإسلامي والتوجهين الوطني والقومي بالمعنى الدقيق للكلمة ، لأن التوجه الأول كان هو الجامع والمقوي بشكل أو بآخر للتوجهين الآخرين ، ولكن ما حدث كان نوعاً من ترتيب الأفضليات ، حيث بدا التوجهان الوطني والقومي أكثر عملية وتعبيراً عن الآمال والطموحات وامتلكا أدوات الحركة السياسية التي افتقدها في ذلك الوقت التوجه الإسلامي .

وبناء على ذلك كان الشروع في تأسيس أركان الدول فيما بعد الاستقلال بما يمجد ويقدس هاتين النزعتين ، وكان ذلك هو حال كافة الدول في العالم الإسلامي ، حتى تلك التي لم

تخضع ألبته للسيطرة الأجنبية ، أو خضعت لها بشكل غير مباشر ، والمتأمل بعمق في أحداث وتطورات هذه الآونة يلمس أن التوجه الإسلامي قد انشطر إلي شقين : الأول ذلك الذي اعتمد على الطروحات النظرية ، وأخذ يوائم التحركات السياسية وفقاً لها . والثاني ذلك الذي اعتمد على الحركة السياسية بشكل مباشر ، وطمح في المشاركة في الحكم ، وانخرط في نزاعات ومنافسات مع القائمين على الدول حديثة الاستقلال ، وتردد أعضاء الفريق الأول بين الصمت أو ممالأة الحكام الجدد في الدول حديثة الاستقلال . من خلال طروحات أو أدبيات توفيقية تنسيقية بين أفكار التوجهات الثلاث الوطنية والقومية والإسلامية . وقلة هي التي أعلنت ضرورة الالتزام بالتوجه الاسلامي وعاءً شاملاً وبوتقة تنصهر فيها كافة التوجهات الأخرى الوطنية والقومية . اما أعضاء فريق الحركة السياسية الإسلامية فلم يصمت أو يكف عن المطالبة بالمشاركة في الحكم والتوزيع العادل للغنيمة إلا قسراً وتحت رهبة السلاح .

في هذه الأثناء التي سادها جو معبق بالشحناء والتوجس بين كافة الفرقاء كان تأسيس الجيوش الوطنية . جيوش الوطن أو جيوش الأمة العربية أو الفارسية أو التركية أو .. الخ يسير على قدم وساق . ولم يكن ثمة ما يدعو إلي بث الفكرة الإسلامية في تشكيل تلك الجيوش ، إذا كان الحكام الجدد يرون في تلك الفكرة خطراً على كل شيء . بدءً من نظام الحكم وانتهاءً بالجيش ومروراً بالمجتمع . ولم يعمدوا إلي الاحتفاظ من هذه الفكرة إلا بشكلها الرمزي الضعيف الشاحب ، الذي يتمثل في العبادة والنسك ، حتى لا ينسى الناس أنهم مسلمون ! وسوف نوالي تفصيل ذلك .

## ثانياً : انتفاء التوجهات الإسلامية في تأسيس الجيوش :

أين نحن الآن مما كان عليه الحال في الأيام الخوالي عندما كانت دعـوة " **حي على الجهاد** " يجتمع لها المسلمون شيباً وشباباً ، الآن هناك التجنيد الإجباري للدفاع عن الوطن وعن حكامه الجدد ، أما الإسلام فله رب يحميه ، لله دَرُّ الأيام ! لقد سرت روح الوطنية والقومية بين الناس بحماس صاخب وانفعال متشنج ، ربما أنساهم حقيقة ما يتحمسون من أجله . وسار الجميع في هذا الركب الصاخب يردد هتافات الوطنية والقومية على أنغام الثورة على " الرجعية والاستعمار " وبالفعل كانت تلك النغمات أخاذة ومؤثرة أصابت أفراد الحشد بنوع من " الدروشة " والهوس جعلهم ينسون الله فأنساهم أنفسهم .

لم يكن حال الشعوب الإسلامية يحتاج إلي شحن أو توجيه فهم مهيئون بفعل هذا التنويم المغناطيسي لقبول أي شيء . فالجميع شرب كأس النصر على " الاستعمار " حتى الثمالة. وبات الفرسان أبطال النصر والتحرير يملكون الكلمة العليا والقول الفصل ، فإذا قالوا بالوطنية مجدّها الناس ، وإذا قالوا بالقومية قدّسها الناس ، وإذا طعمّوا هذه وتلك بالاشتراكية فلا بأس بل أنه عين الصواب ، وفرضت العقائد السياسية [ الأيديولوجيات ] جامعة في هجينة غريبة ولكنها مبهرة بين الوطنية والاشتراكية والقومية . فالأولى للتقوقع والتشرذم في أغلال الجغرافيا، والثانية لاعتناق الوافد الدخيل من إفرازات العقل البشري الشارد الذي سيعلن عن إفلاسه بعد حين ، والثالثة للعنصرية والعرقية وأغلال التاريخ من موروثات ثقافية وحضارية ، وهذا تهميش وتعتيم على الفكرة الإسلامية التي تجعل من ديار الإسلام وطناً لكل مسلم أو حتى غير مسلم فلا حكم للجغرافيا على ديار الإسلام ، وتجعل من الطروحات الإسلامية منهجاً وأداة حركة لكل نشاطات الإنسان وتعاملاته مع عناصر الوجود فلا حكم لأفكار بشرية مآلها السقوط والاندثار ، وتجعل من الإسلام أهم رباط يربط بين أفراده يسمو على رابطة الدم ، فالكل في الإسلام سواء ، وهو الوحيد الذي

يفرق بين العربي وغير العربي ، هكذا أريد للفكرة الخالدة الطمس والطمر ، ولكن هيهات ، فللإسلام رب يحميه .

وفي جموح وطموح بالغين أقدمت الدول حديثة الاستقلال في العالم الإسلامي على تأسيس جيوشها بعيداً عن التوجهات الإسلامية . وكان السؤال المطروح بإلحاح : لماذا تخشى الأنظمة السياسية في الدول حديثة الاستقلال على جيوشها من الفكرة الإسلامية ؟ .

إن الإجابة على ذلك التساؤل تدفعنا إلي الوقوف على حقيقة واقع الفكرة الإسلامية في تلك الآونة . حيث بدت ضعيفة وغير مجدية وغير فعّالة في مواجهة الأفكار الوطنية والقومية والسيادة الذاتية ، مع غياب أية محاولة لإحياء الترابط الإسلامي والتكتيل العقيدي .

ولا مانع في هذا السياق أن ندع الأمور تذهب إلي مداها الطبيعي . فلا يُستبعد أن تكون الأنظمة السياسية في العالم الإسلامي قد توخت جانب الحيطة والحذر من تأصل التوجهات الإسلامية في جيوشها . هذا في الوقت الذي لا تعمل وفق النهج الإسلامي ومن السهل أن تنقلب عليها تلك الجيوش لاستبدالها بأنظمة تطبق الشرع أو لإجبارها على تطبيق الشرع والحكم وفقاً لكتاب الله .

**ثالثاً : سيطرة الأنظمة السياسية على الجيوش :**

معظم الحكام الجدد الذين جيء بهم إلي سُدة الحكم في الدول الإسلامية حديثة الاستقلال من ذوى الخلفيات العسكرية ، وهم في ذات الوقت على علاقة وطيدة بقيادات الجيش ، بل أنهم يسيطرون بإحكام على تلك القيادات وعلى كافة مقدرات الجيش . وهذه السيطرة كفلت لهم كبح جماح الجيش بوصفه أقوى قوة منظمة يُخشى جانبها . كما ضمنت لهم عزل تلك المؤسسة الرهيبة والعنيفة عن كافة المؤثرات التي تجعل منها خطراً على نظام الحكم وبصفة خاصة التوجه الإسلامي .

**رابعاً : تأثير التوجهات الأيديولوجية للأنظمة السياسية على الجيوش :**

لم يكن من الصعب ، بل كان من المنطقي ، أن تسحب الأنظمة السياسية توجهاتها الأيديولوجية على جيوشها ، وقد تبدى ذلك في الاستراتيجيات والعقائد القتالية ، والتسليح وحتى التكتيكات ، وأصبحت الجيوش في الدول الإسلامية أسيرة الأيديولوجيات أو العقائد السياسية . وإذا كانت الأنظمة قد كبلت نفسها بتوجهات أيديولوجية فقد جرّت معها جيوشها ، وكان لذلك أثره الحاسم على حرية حركة تلك الجيوش فيما بعد .

**خامساً : اختلاف أهداف الجيوش من دولة إلي أخرى :**

لم تتفق الجيوش الإسلامية حول أهداف وجودها . فهناك من الجيوش ما جعل هدفه الأول مواجهة القوى الكبرى . والانخراط في الصراعات الدولية والمنافسات الأيديولوجية بين المعسكرين المتناحرين . وكانت مصر وإندونيسيا في مقدمة الدول الإسلامية التي تحمست لهذا الهدف . وهناك من الجيوش ما جعل هدفه خوض الصراعات الإقليمية ذات الطبيعة المزمنة مثل مصر وسوريا في الصراع العربي الإسرائيلي ، والباكستان في الصراع الهندي الباكستاني . والصومال وإريتريا في الصراع في القرن الأفريقي ، وهناك من الجيوش ما جعل هدفه في دعوى تعزيز السيادة الوطنية ! وكان ذلك هو هدف معظم الدول الإسلامية ، وحتى الآن لم ندر المضمون الحقيقي لهذا الهدف ! .

والمدقق في هذه الأهداف يستشف أنه بالإضافة إلي اختلافها من دولة إلي أخرى ، هناك تغييب متعمد لأية أهداف تمس صميم الفكرة الإسلامية ، أو تسعى إلي تكتيل الجيوش الإسلامية وراءها .

لقد سعت جميع النظم السياسية في الدول حديثة الاستقلال إلا اللمم من أجل تجريد جيوشها من الانتماء إلي الفكرة الإسلامية في أسسها أو محاور حركتها أو أهدافها ،

وبالرغم من ذلك ظلت تلك الجيوش تحتفظ داخل أفرادها بوازع ديني خفي ، كان يظهر على السطح في وقت الأزمات والشدائد ، فكم كانت عبارة " **الله أكبر** " الخالدة لها فعل السحر في اندفاعه الجيش المصري في حرب رمضان ، حيث لم تستطع إيقافها الجيوش التي لا تقهر ، أو الخطوط الدفاعية الحصينة ، إذن لا تزال للإسلام رواسخه التي لا يمكن طمرها ، حتى ولو سكنت في اللاوعي ! .

## المبحث الثاني

## خصائص الجيوش في الدول الإسلامية

اتسمت الجيوش في الدول الإسلامية بمجموعة من القواسم المشتركة تؤشر إلي تشابه أو تماثل البيئات الاجتماعية التي أفرزتها ، هذا على الرغم من الاختلاف في التوجهات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية للنظم السياسية ، وفي هذه الجزئية نحاول أن نلتقط اوجه الشبه والاختلاف بين تلك الجيوش ، ومن ثم البحث في أسباب تلك الاختلافات واستنباط نتائجها ، فإلي التفصيل :

### أولاً : التنظيم والتشكيل والحجم :

معظم الدول الإسلامية تمتلك جيوشاً نظامية حديثة تعتمد على التجنيد الإجباري ، وقلة قليلة من الدول تلك التي تعتمد على أسلوب التطوع الاختياري ، وهناك من الدول من يعتمد الأسلوبين معاً . ومدة التجنيد الإجباري محددة ، وتختلف وفق معايير معينة مثل شهادة المؤهل الدراسي أو السن ، ويدعم نظام التجنيد الإجباري التجنيد الاحتياطي ، ولا تعمل به كل الدول الإسلامية ، وتحدد مدته كذلك ، وبعد قضاء هذه المدة الاحتياطية ، يتم التسريح النهائي من الخدمة العسكرية .

وتتشكل معظم الجيوش في الدول الإسلامية وفق التشكيلات العصرية للجيوش حيث تنقسم في المعتاد إلي ثلاثة فروع : القوات البرية والقوات الجوية والقوات البحرية ، وقلة من الجيوش الإسلامية هي التي تقيم توازناً بين الأفرع الثلاثة ، فبعض الجيوش التي لا تمتلك دولها سواحل طويلة على البحار المفتوحة تقلل من شأن القوات البحرية ، وتركز على القوات البرية والجوية، وبعض الدول تقلل من شأن القوات الجوية لظروف خاصة بالكفاءة والعوامل الجيوستراتيجية ، وخلاصة القول أن القوات البرية هي دائماً قوام

الجيش واهم قطاعاته ، وإن كانت المعارك العصرية لا غنى فيها ألبته عن سلاح الجو الذي يحسمها بلا منازع .

فمثلاً دولة أندونيسيا التي تمثل أرخبيلاً من الجزر المتفاوتة الحجم ، ينبغي أن يكون سلاحها الأول هو سلاح البحرية ومنظومات الدفاع الجوي وصواريخ أرض بحر ضد القطع البحرية بكافة أنواعها ، ودولة مثل الباكستان تمتلك جيشاً برياً قوياً عدداً وعتاداً ، ليتناسب مع قوة الجيش الهندي العدو التقليدي الفائق العدد ، مع عدم وجود سلاح بحري ، واهتمام نسبي بسلاح الجو ، أما تركيا فهي تحاول إقامة نوع من التوازن بين جيشها البري القوي وسلاح الجو وسلاح البحرية المهم للسيطرة على المضايق التي تعتبر منفذ تركيا على العالم ، وبالنسبة لإيران فهي تملك جيشاً برياً قوياً أما سلاحها البحري فهو محل اهتمام دائم للسيطرة على مدخل الخليج العربي الفارسي ومضيق هرمز الاستراتيجي ، في حين يعاني سلاحها الجوي من توعكات أثبتت حرب السنوات الثماني مع العراق أنه غير فعّال ، وفي مصر فثمة جهود محسوسة من أجل تطوير جيشها بشكل متوازن ، ولو أن الجيش المصري لم يختبر بعد حرب رمضان المجيدة ، كما أن التشكيل الذي أرسل للمشاركة في تحرير الكويت لم يقدم دليلاً كافياً على كفاءة الجيش المصري الذي يبدو أنه استرخى بفعل معاهدة الصلح مع إسرائيل . وتم مَدْيَنَة بعض قطاعاته لتشارك في عمليات الإنماء والإحداث ، إلا أن ما يتوافر من معلومات يكفي لتكوين انطباع مفاده أن الجيش المصري يتطور في سلاحه البري والجوي أكثر من سلاحه البحري . رغم عراقة الجيوش المصرية منذ معاوية بن أبي سفيان في الاهتمام بالأسطول .

وأحجام الجيوش في الدول الإسلامية تختلف من الجيوش الكبيرة الحجم مثل جيوش باكستان وتركيا وإندونيسيا ومصر وإيران ونيجريا . إلي الجيوش المتوسطة الحجم مثل جيوش ماليزيا والسعودية وسوريا والجزائر والمغرب ، إلي الجيوش صغيرة الحجم وتشمل جيوش بقية الدول الإسلامية .

وعدد الجيش أو حجمه قد يتناسب مع عدد سكان الدولة وقد لا يتناسب ، وتتحكم في هذه العلاقة معايير كثيرة ، مثل ظروف الدولة الاستراتيجية والأمنية ، وكذلك التطلع إلي الزعامة والسيادة الإقليمية ، فالجيش السوري مثلاً يقترب من تعداد الجيش الإندونيسي مع الفارق الشاسع في عدد سكان الدولتين لصالح إندونيسيا ، وجيش العراق كان يفوق الجيش المصري من حيث العدد إبان وبعد حربه مع إيران ، وهكذا لا تثبت العلاقة بين حجم الجيش وعدد سكان الدولة على وضعها الطردي ، إذ أن المتغيرات سابقة الذكر تكسر وتيرة هذه الطردية .

## ثانياً : التدريب والجاهزية :

الظروف الأمنية والاستراتيجية سواء أكانت على المستوى الإقليمي أو العالمي تقف وراء اهتمام الجيوش بالتدريب واستحضار الجاهزية ، والجيوش في الدول الإسلامية لا تشذ عن هذه القاعدة ، وتسعى جميعها من أجل الوصول بجاهزيتها إلي أعلى درجة .

وتدريب الجيوش مسألة روتينية من صميم مقومات المؤسسة العسكرية وأساس جاهزيتها للقيام بالمهام المنوطة بها ، وبالإضافة إلي التدريب هناك الاتفاقات الاستراتيجية أو التحالفات العسكرية الإقليمية والعالمية ، وهذه تهم الوحدات النظامية أي الدول ومؤسساتها العسكرية، وتتخذ قرارات الانضمام إليها بما يحقق المصالح العليا والأهداف الاستراتيجية لتلك الوحدات، وإذا كانت هذه الاتفاقيات أو التحالفات تضيف مزايا إلي الجيوش ذات أبعاد استراتيجية وأمنية وعسكرية . فإن لها كذلك تبعات تحد ولاشك من حرية الحركة وتزيد من التوترات .

وترتبط تركيا من العالم الإسلامي بالتحالفات الغربية منذ زمن طويل ، وهذا التحالف يعد تحالفاً استراتيجياً يساند المصالح والوجود الغربي عموماً والأمريكي خصوصاً في مناطق

العالم الإسلامي ، وهذا هو التحالف الوحيد ذو الطبيعة الرسمية ، والذي تعتبره تركيا مدخلها الوحيد إلي العالم الغربي المتطور ، والذي بدونه ستظل محرومة من الانضمام إلي الاتحاد الأوربي، وستبقى كذلك موصومة بالتخلف في نطاق العالم الإسلامي ! ! .

أما الباكستان فإن وضعها يختلف عن تركيا فارتباطها الاستراتيجي العسكري بالولايات المتحدة جاء في سياق صراعها التقليدي مع الهند ، حيث لا مفر أمامها من ذلك الارتباط الذي جعلته الحرب الباردة أكثر جموداً وحتمية .

وعن بقية العلاقات الارتباطية بين الولايات المتحدة وبعض الدول الإسلامية في الخليج العربي أو في مصر أو في تونس والمغرب والأردن فهي علاقات تمليها المصالح المتبادلة ، حيث تسعى هذه الدول الإقليمية إلي طلب الحماية أو الحصول على ( عربون ) الصداقة في مقابل ضمان حصول أمريكا على مواطئ قدم ووجود دائم ومستقر في هذه المناطق ، يأخذ أشكالاً عديدة أهمها المصالح الاقتصادية والتواجد العسكري في مناطق استراتيجية متفرقة .

إن التحالفات والارتباطات — التي سبق الحديث عنها – قد منحت الولايات المتحدة التواجد العسكري والاستراتيجي من خلال قواعد عسكرية دائمة ، وهذه القواعد لا تؤدي أبداً إلي إضافة أية ميزات إلي جيوش الدول التي تقع على أراضيها ، بل إن كل ميزاتها تضاف إلي أصحابها .

كذلك يضاف إلي ما تقدم مسألة المناورات المشتركة التي تقوم بها جيوش الدول الإسلامية مع بعضها ، أو مع دول أجنبية مثل الولايات المتحدة أو بريطانيا أو فرنسا ، وهذه المناورات تساعد في اكتساب الجيوش الإقليمية للخبرة والدراية نتيجة الاحتكاك والدربة .

والسؤال الآن هل يؤدي كل ما سبق إلي زيادة خبرة الجيوش الإسلامية واستحضار جاهزيتها ؟ إن ما سبق عبارة عن مواءمات وحسابات استراتيجية ، تحقق مصالح

وأهداف واستراتيجيات القوى الكبرى بالأساس ، ثم النظم السياسية في الدول الإسلامية ، أما جيوش تلك الدول فينبغي أن تكون آخر من يمكن أن يستفيد ، ففي استفادتها ما يضير تلك المصالح والاستراتيجيات .

**ثالثاً : التسليح : [ إحالة ]**

يعد تسليح الجيوش في الدول الإسلامية من أخطر الإشكاليات التي تواجه تلك الدول – وقد سبق لنا – أن تناولنا طرفاً من تلك الإشكاليات في المبحث الأول من هذا الجزء .

**رابعاً : المعارك والخبرة القتالية :**

الحديث عن المعارك التي خاضتها جيوش الدول الإسلامية والخبرات التي اكتسبتها من تلك المعارك حديث ذو شجون ، ويعود بنا إلي استرجاع مآسي وأوجاع فترة التفكك والانهيار، الذي يُعتبر الواقع الإسلامي المعاصر امتداداً لها ، ولقد شهد هذا الامتداد الجغرافي العظيم والكتلة القارية الممتدة دون انقطاع من المحيط الأطلنطي غرباً حتى المحيط الهادي في أقصى الشرق ، ومن أواسط أسيا وسواحل البحر المتوسط الجنوبية شمالاً حتى المحيط الهندي وأواسط أفريقيا جنوباً ، شهدت هذه المساحة الأرضية الضخمة في الفترة منذ بداية النصف الثاني من القرن العشرين وحتى نهاية العقد الأول من القرن الواحد والعشرين صراعات انتهت بحروب مدمرة ، وتنوعت هذه الصراعات بين صراعات إقليمية أطرافها دول إقليمية ، وبين صراعات عالمية أطرافها دول إقليمية وأخرى غير إقليمية ، ومن خلال نظرة عابرة على خارطة الصراعات في منطقة العالم الإسلامي يمكننا رصد ما يلي :

**❖ الصراعات الإقليمية :**

الصراعات الإقليمية عبارة عن نزاعات بين دول داخل النطاق القاري الإسلامي ، أو بين دول من داخل ذلك النطاق وأخرى غير إسلامية متماسة معها ، وتوزعت على النحو التالي :

- صراعات إقليمية بين دول إسلامية وأخرى غير إسلامية :

السمة الأساسية لهذه النوعية من الصراعات ، أنها نشبت بين الدول الإسلامية التي تقع على أطراف العالم الإسلامي وبين الدول غير الإسلامية المتاخمة لها والمتماسة معها ، وهي في معظمها نزاعات حدود ومناطق نفوذ يغلب عليها الطابع التاريخي المزمن ، وذلك باستثناء الصراع العربي الإسرائيلي والتدخل العسكري السوفياتي في أفغانستان . فالأول ذو أبعاد مركبة ومتداخلة قومية ودينية وسياسية وزادته تعقيداً تدخلات القوى العالمية ، أما الثاني فهو تدخل عسكري ساذج من الاتحاد السوفياتي لفرض نظام سياسي موالٍ له أيديولوجياً ، ولنلقى نظرة سريعة على أهم تلك الصراعات :

* الصراع العربي الإسرائيلي :

من أقدم الصراعات في صميم العالم الإسلامي وأشدها حدة وشراسة ، بدأ بجهود مكثفة من القوى الأوربية المسيطرة على النظام الدولي ودول العالم الإسلامي في أواخر أربعينات القرن العشرين ومعهم الصهيونية العالمية . لإقامة إسرائيل ككيان نظامي وتعبير عن الوجود السياسي لمشروع القومية العبرية ، الذي شُرع في تنفيذه منذ مؤتمر بازل في فلسطين ، وقد قوبلت هذه الجهود المحمومة بمجابهة إسلامية واهنة قادتها تركية وإمبراطوريتها التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، ومقاومة عربية ركيكة من حكومات تخضع للسيطرة الأوربية ومنكفئة على تداعياتها وصراعاتها من أجل الانعتاق ، ومن شعوب غارقة في الجهل ونير الاحتلال ، وكانت موازين القوى راجحة لمصلحة الحركة الصهيونية التي كانت تعمل بدأب وتخطيط محكم مدعومة بقوى عالية صاعدة هي الولايات المتحدة الأمريكية ، التي كانت تأمل في أن يضيف إليها هذا المشروع الصهيوني مرونة في المعترك الدولي ، وبالذات في مجابهة القوة الصاعدة الأخرى المتمثلة في الاتحاد السوفياتي ، الذي بدا أنه سيأخذ جانب الطرف العربي في الصراع .

انتهت الجولة الأولى من الصراع العربي الصهيوني بإقامة دولة إسرائيل ، وتوالت بعد ذلك جولاته بتصادم متكرر بين الإرادتين العربية والإسرائيلية ، وقد بدأ العرب برفض مطلق لوجود إسرائيل فكرةً ونظاماً ، ومع مرور الزمن ، وتضاؤل الجهد العربي ، وغياب الدعم الإسلامي ، في مقابل تزايد قوة إسرائيل مادياً ومعنوياً ، وتفوق الدعم الأمريكي على أي دعم دولي قُدّم للعرب ، أفاق العرب من حلم تدمير إسرائيل وإنهاء وجودها على واقع مرير ، حاولوا التكيف مع تداعياته ، وقبلوا بل رحبوا بوجود إسرائيل مقابل موافقتها على مشروع التقسيم في عام ١٩٤٧ . ولما خابت آمالهم أخذوا يتعلقون ولو بقشة . موطئ قدم لإقامة دولة فلسطين ، وباتت إسرائيل هي التي ترفض الوجود العربي في فلسطين ، وكم في الأيام من عبر !! .

إن معضلة إسرائيل أنها لا تبحث عن الوجود فقط ، بل تبحث عن وجود سرطاني مدمر، يترسخ ويتوسع على حساب إنهاء وجود الآخر وإفنائه ، ولو عبر وسائل وأدوات تعمل ببطء وبشكل غير مباشر ، ولعل في الحدود الآمنة والسلام العبري ومشروع الشرق الأوسط الدلالة على ما تقدم ولعبرة لمن يعتبر ! .

* النزاع الهندي الباكستاني :

النزاع بين دولتي الهند وباكستان من النزاعات الطرفية التي أصابت أطراف العالم الإسلامي ، وهو من النزاعات المركبة التي يدخل في إذكائها عوامل عديدة ومتشابكة ، مثل العامل الديني والعامل السياسي والعامل الديموجرافي إضافةً إلي تدخل القوى العالمية ، وموضوع النزاع هو إقليم كشمير حيث تدعي كل من الدولتين أحقيتها في السيطرة عليه ، وتزداد حدة التوتر بين الدولتين من وقت لآخر ، ولعل الحل الأمثل في هذا النزاع يكمن في تخيير أفراد الإقليم إلي أي من الدولتين يريدون الانضمام أو في الاستقلال عنهما .

* النزاع بين الصومال وإثيوبيا :

كانت منطقة القرن الأفريقي موضع نزاع تطور إلي حرب مدمرة بين الصومال وإثيوبيا حول إقليم الأوجادين خلال عقد السبعينيات من القرن العشرين ، وانتهت تلك الحرب بتفكك النظام الصومالي وانهيار السلطة وقيام فرق سياسية متناحرة ، ولا يزال هذا البلد الفقير يعانيْ من أهوال الحرب الأهلية الطاحنة ، إضافةً إلي التخلف الذي يعيشه سكانه منذ استقلاله عن إيطاليا في الستينيات من القرن المنصرم .

* الاحتلال العسكري السوفياتي لأفغانستان :

على مدى التاريخ الإسلامي وأفغانستان تمثل دولة " مصد " بين العالم الإسلامي والخارجي ، ومنذ قيام الاتحاد السوفياتي وهو يعتبر المنطقة الممتدة من وسط أسيا حتى الخليج العربي الفارسي مجاله الحيوي ، الذي يشكل اقتراب أية قوة عالمية منه خطراً عليه . وفي فترة استعار الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبحث كل قوة عن أنصار لها ، عمد الاتحاد السوفياتي إلي إقامة نظام موالٍ له في أفغانستان ، للتقدم في العمق الأسيوي والاقتراب من منطقة الخليج العربي مصدر الطاقة الحيوي والاستراتيجي للغرب ، ودعم ذلك النظام بتدخل عسكري مباشر في أفغانستان ، وظل الشعب الأفغاني يجاهد الاحتلال السوفياتي لبلاده، حتى خرج منها ، وتركها فريسة للانقسام والحرب الأهلية ، ووكراً لأخلاط من المراهقين الذين قصدوا هذا البلد بدعوى جهاد السوفيات ، ثم ما لبثوا أن تحولوا إلي وعّاظ وشيوخ إسلام ، وكعادتها باتت أفغانستان المنكوبة على مر التاريخ الإسلامي حقل تجارب تُستنبت فيها الأفكار والأنظمة شديدة التناقض ، فمن أقصى اليسار حيث نظام بابراك كارميل الماركسي إلي أقصى اليمين حيث نظام طالبان الذي جاء بإسلام غريب على المسلمين، وعلى أثر الحدث الدراماتيكي الباهر ، الذي حاكه وأخرجه الموساد الإسرائيلي والصهيونية العالمية في أمريكا

في الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، على أثر ذلك الحدث دخلت أمريكا أفغانستان بلد الميثاق الغليظ مع النوائب ، ودمرت ما تبقى من مخلفات الحرب الأهلية تحت دعوى محاربة الإرهاب ، وسنتناول هذا الفاصل من مسرحية التدخل الأمريكي على طريقة رعاة البقر في موضع لاحق .

• النزاع بين ليبيا وتشاد :

منذ ثورتها في سبتمبر من عام ١٩٦٩ وليبيا تسعى إلي صياغة سياسة خارجية نشطة وفعّاله . وكان للعلاقات المصرية الليبية في العهد الناصري وللعلاقات الشخصية الحميمة بين ناصر والقذافي دورها المؤثر في أن تحدد القيادة الليبية لنفسها مسارات حركة تنطلق من توجهات راسخة ، تمثلت في استكمال دور مصر الناصرية في مساندة قوى التحرر الوطني ومناهضة السيطرة الأجنبية التي كان يحلو لزعيم ليبيا في عنفوان ثورته أن يسميها " الإمبريالية " كما كان عبد الناصر قد ابتكر لها سمة " الاستعمار " ، واختطت ثورة ليبيا لنفسها طريقاً ثالثاً لا غربي ولا شرقي ، طريقاً للحياة ، عقيدة شاملة للاقتصاد والسياسة والاجتماع وكل ما يتعلق بنشاط الإنسان حتى الفكر والثقافة ، وضمنها كتابة الأخضر ، وأُطلق عليها النظرية العالمية الثالثة ، وأصبحت ليبيا مثلها مثل كل من الولايات المتحدة والكتلة الغربية ، والاتحاد السوفياتي والكتلة الشيوعية ، تمتلك أيديولوجية تعمل على الترويج لها إقليمياً وعالمياً .

ولا يعنينا إلا المستوى الإقليمي الذي جعل ليبيا تصطدم بجميع جيرانها عندما تعمل على التبشير بالنظرية الجديدة وتدعو لها ، وترتبط ليبيا بجيرانها عبر علاقات وطيدة تتدخل فيها بشكل قوى العوامل الديموجرافية ، حيث تمتد التشعبات والتكوينات البشرية عبر كافة حدودها مع الدول المجاورة لها ، ناهيك عن الهجرات التي خرجت من ليبيا تاركةً إياها للاحتلال الإيطالي الدموي والفقر والقحط ، وقاصدةً دول الجوار في مصر وتونس

والسودان وتشاد ، وعاش الليبيون الأصل في تلك الدول ، وأصبحوا جزءاً من نسيجها الاجتماعي ، وعندما تبدلت الأحوال ، وأُكتشف النفط في ليبيا ، واتجه الاقتصاد الليبي نحو الإنماء والإحداث عقب ثورة سبتمبر ، تحركت مشاعر الليبيين في المهجر نحو وطنهم ، بدافع الحنين من ناحية ، وبدافع الرغبة في الحصول على حقهم في الثروة المستجدة من ناحية أخرى ، تلك الثروة التي سال لها لعابهم بالرغم من أنهم آثروا الفرار على التمسك بالوطن ومكابدة حياة الفقر والتخلف ومقاومة الاحتلال ، إلا أن العودة من المهجر ظلت وصمة يندى لها جبين العائدين دوماً ! .

وكانت تشاد من الدول التي قصدتها مجموعات كبيرة من سكان جنوب ليبيا ، عندما اشتد الاحتلال الإيطالي قسوة وشراسة ، وتوغل نحو الجنوب في الكفرة وسبها ، إضافةً إلي وعورة تلك المناطق وجدبها ، وسعت ليبيا في النصف الأول من الثمانينيات من القرن المنصرم إلي تغيير الخارطة السياسية في تشاد المجاورة وتحويلها إلي دولة تابعة من خلال إقامة نظام حكم يتلقى أوامره من طرابلس ، وظهرت معارضة قوية داخل تشاد لهذا التوجه ، استماتت السياسة الليبية وحاولت تحريك الجالية الليبية ، ونشبت الحرب بين أنصار ليبيا داخل تشاد وبين المعارضين لها ، وبعد حسابات دقيقة ومواءامات تدخلت فيها قوى دولية وضغوطات عالمية خانقة ، فضّل الليبيون تهدئة الأوضاع والتسليم بالأمر الواقع ! .

• النزاع بين أسبانيا ومراكش :

يميل أبناء الجزيرة الأيبيرية من وقت لآخر إلي تأكيد انتماءاتهم ، الدينية للمسيحية المتعصبة ، والحضارية لأوربا المستنيرة . والعصرية للوحدة الأوربية الناشطة من أجل القطبية الدولية ، ويدفعها ذلك الميل إلي الثورة على ماضيها الذي عاشت منه قروناً أزهى وأبهى مراكز الحضارة الإسلامية ، ولأسبانيا التي تفضل هذا الاسم اللاتيني ارتباطات

صراعية مع مراكش الجار الجنوبي ، الذي يفصله عن شبه الجزيرة مضيق جبل طارق ، الذي عبره الإسلام بحضارته وثقافته في الأيام الخوالي ، وكعادة التماسات الطرفية تطورت الارتباطات الصراعية بين أسبانيا ومراكش حول بعض المناطق والنقاط ، ولكنها كانت تفتر بفعل عوامل وتطورات منها المحلي ومنها الإقليمي ومنها العالمي .

وفي يوليو من عام ٢٠٠٢ م فوجئ العالم بتطور الصراع بين الدولتين إلي درجة قيام أسبانيا باحتلال عسكري لإحدى الجزر التي تقع تحت السيادة المغربية ، وبالرغم من أن جزيرة ليلا هي إحدى الجزر المتناهية الصغر إلا أن احتلالها عسكرياً ذو دلالة في هذا السياق ، حيث يؤشر إلي أن الصراع بين الدولتين هو صراع عميق ودفين وقابل للتأجج في أية لحظة ، ويؤشر كذلك إلي أن التماس الإسلامي مع شبه جزيرة أيبريا لا يُؤمن جانبه على الأجل الطويل .

– صراعات إقليمية بين أطراف إسلامية :

النوعية الثانية من الصراعات الإقليمية هي صراعات أو نزاعات متعددة الأسباب أغلبها على الحدود المشتركة بين أطراف إسلامية ، والملاحظة الأولية أن تلك النزاعات بين دول إسلامية تنتمي إلي أكثر من قومية ، ومنها ما ينتمي إلي قومية واحدة ، كما يلاحظ كذلك أن هذه النزاعات تتسم بالشراسة والحدة ، ولا يخفف من ذلك كون طرفي الصراع ينتميان إلي الإسلام ! ، وسوف نلقي نظرة سريعة على أهم تلك النزاعات فيما يلي :

ه النزاع بين الجزائر ومراكش :

النزاع بين الجزائر ومراكش فيما يتعلق بإقليم الصحراء هو نزاع طويل وممتد وأدى إلي سوء العلاقات بشكل شبه مستديم بين الجارتين العربيتين المسلمتين ، وتطور هذا النزاع إلي حد الاشتباكات المسلحة ، تعددت الوساطات التي بذلت مساعيها من أجل تسوية

النزاع ، كما أدرجت جامعة الدول العربية النزاع في جدول أعمالها مراراً ولكنه لم ينته بعد ، ومن المفارقات أن الدولتين عضوان في الاتحاد المغاربي وجامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الأفريقية ورابطة الدول الناطقة بالفرنسية [ الفرانكفونية ] ومنظمة الأمم المتحدة ، ناهيك عن منظمة المؤتمر الإسلامي ورابطة الدول الإسلامية ! .

* الصراع العراقي الإيراني :

من الصراعات الدامية التي تحولت إلي حرب مستعرة لمدة ثماني سنوات متواصلة كان الصراع بين العراق وإيران الجارتين المسلمتين ، ويبدو أن الصراع كان إفرازاً لإرسابات متراكمة منذ فترة طويلة ، تداخلت في تشكيلها عوامل قومية وسياسية وربما دولية ، ومثلما نشب هذا الصراع الشرس دون أسباب واضحة ، انفض دون أن يؤدي إلي نتائج ملموسة لأي من الطرفين لقد أدت الحرب بين العراق وإيران إلي إعياء شبه كامل للدولتين عسكرياً واقتصادياً، وربما كان ذلك وراء قبولهما لإيقاف الحرب ! .

* نزاعات الحدود بين دول شبه الجزيرة العربية :

ثارت في شبه الجزيرة العربية عدة نزاعات حول الحدود المشتركة بين الوحدات السياسية في هذه المنطقة ، وبالرغم من قدمها إلا أنها كانت تتطور من وقت لآخر ، وتصل إلي حد المناوشات والاشتباكات المسلحة ، وقد تم استيعاب العديد من تلك النزاعات بفعل الجهود السياسية والدبلوماسية التي بُذلت من خلال مجلس التعاون لدول الخليج العربية .

* نزاعات حدود وأقليات بين تركيا والعراق :

تسببت الأقلية الكردية التي تتداخل في كل من تركيا وإيران والعراق في حدوث نزاعات بين الدول الثلاث ، وقد اكتنف الصراع العراقي الإيراني هذه الإشكالية ضمن أبعاده المتعددة ، أما فيما يتعلق بتركيا والعراق فلا تزال هذه المسألة محل خلاف ، ولم تتفق

الأطراف الإقليمية على صيغة ملائمة لحلها ، ويبدو أنهم في انتظار فرض هذه الصيغة جبراً من الولايات المتحدة، التي قفزت إلي المنطقة لنشر القيم على النسق الأمريكي ، وفرض النظام باستعمال القوة ، التي لم تعد في حوزة غير الأمريكيين ! ! .

* الاستيلاء العراقي على دولة الكويت :

في سابقة هي الأولى من نوعها في التاريخ المعاصر فيما بعد الحرب العالمية الثانية تقوم دولة بالاستيلاء على دولة أخرى وابتلاعها وتحويلها إلي إحدى محافظاتها ، تلك كانت واقعة استيلاء العراق على الكويت ، والتي درج على تسميتها بأزمة الخليج الثانية ، على اعتبار أن الحرب بين العراق وإيران كانت هي الأزمة الأولى ، وتمييزاً للاثنتين عن الطامة التي سترد فيما بعد ، وبالرغم مما ورد من اجتهادات وتحليلات حول هذه الواقعة ، للبحث في أسبابها ودوافعها الحقيقية ، وللكشف عن الفاعلين الحقيقيين لمجرياتها ، وللتوصل إلي المقصد النهائي من ورائها ، إلا أننا لازلنا نطمح في أن نسمع إلي كل ذلك من البطل المطلق لهذه المسرحية، وهو الرئيس العراقي صدام حسين سواء أكان في مخبئه أو في منفاه ، فهو مدين للبشرية بما ارتكبه في حقها ممثلة في الشعب العراقي ، ومدين للتاريخ بما سطره في صفحاته من بشاعة وهوان ، أما عن العروبة والإسلام فلا يدين لهما بشيء لأنهما منه بريئان .

إن النتائج الملموسة والمعاشة لاستيلاء العراق على الكويت قد قصمت ظهر العروبة التي يحلو للكثيرين التغني بها والذوبان في هواها ، كما أصابت الإسلام في مقتل ، لقد نال العروبة والإسلام أذىً كثيراً من المحسوبين عليهما والمنتسبين إليهما ، ولا نملك إلا أن نوكل للزمن مهمة تضميد الجراح وتفعيل خاصية النسيان ، ولكن ذاكرة الأمة أقوى من النسيان ! .

* النـزاع بـين إيـران واتحـاد الإمـارات العربيـة حـول جـزر طنـب الكـبرى والـصغرى وأبي موسى :

تكاتفت عوامل عديـدة منهـا الجيوسـتراتيجي والاقتـصادي ، وكـذا القـومي والـسياسي ، وأيضاً الديموجرافي والاجتماعي في إثارة النزاع بين إيران ودولة الإمـارات العربيـة المتحـدة حول الجزر الثلاث الواقعة في مدخل الخليج العربي الفارسي ، وهي طنب الكبرى وطنـب الصغرى وأبو موسى . ويعد هـذا النـزاع مـن النزاعـات الهادئـة الـذي وصـل إلـي أقـصى درجات حدتـه باسـتيلاء إيـران علـى الجـزر الـثلاث ، ثـم اخـذ بعـد ذلـك طريقـه نحـو المساجلات ذات الطبيعة القانونية والبحث عن الأسانيد والحجج الـتي يـرتكن إليهـا كـل طـرف ، حتـى يـتمكن مـن إقنـاع الآخـر والعـالم بأحقيتـه في المطالبـة بتلـك الجـزر ، وبصفة خاصة أن النزاع يوشك أن يدرج في ساحات القضاء الدولي .

❖ الصراعات الدولية :

نقصد بالصراعات الدولية في هذا التحليل تلك الـصراعات الـتي يكـون أحـد أطرافهـا قـوة كبرى ليست من العالم الإسلامي ، أو من الدول المتاخمة أو المتماسـة معـه ، أمـا الطـرف الآخر فيكون دولة إسلامية ، ولدينا في هذا الخصوص ثلاث حالات نتناولها في الآتي :

– الاعتداء الإنجليزي الفرنسي على مصر في عام ١٩٥٦ م :

كان المعترك الدولي خلال الخمسينيات من القرن المنصرم مشحوناً بالانفعـالات والتـوترات الإقليمية والدولية ، فأوربا الجريحة كانـت لا تـزال تلعـق جراحهـا ، ولم تـبرأ بعـد مـن الهزال الذي أصابها على أثـر دمـار الحـرب العالميـة الثانيـة ، والـذي كـان دواء مـشروع مارشال لم يؤت مفعوله الشافي إزاءه بعد ، كما أن القوى الأوربية صاحبة الهيمنة القديمـة قد فقدت كثيراً من هيمنتها عندما ذاقت مـرارة الانكـسار والـدمار ، وأفلتـت مـن قبـضتها

كثير من توابعها الآنفة ، فهي في حاجة إلي إعادة الهيبة وتأكيد السيطرة كقوى دولية ذات ثقل في النظام الدولي الذي كانت معالمه قد بانت في الأفق ، وتنبئ بأن حظ بريطانيا وفرنسا سيكون فيه قليلاً .

هذا في الوقت الذي كانت التوابع قد حصلت على استقلالها رغم أنف الدولتين الأوربيتين، وكانت مصر من أهم التوابع التي استقلت ، ولم تكتف بذلك بل راحت في تحدٍ سافر تمعن في الكيد لبريطانيا وفرنسا ، فأعلنت عن مساندتها اللامحدودة للقوى المناضلة من أجل التحرر من السيطرة الأوربية في كل أنحاء العالم ، كما أخذت تباهي بصداقتها السياسية والاقتصادية والعسكرية وحتى الأيديولوجية للاتحاد السوفياتي العملاق القادم إلي النظام الدولي بخطى ثابتة وتصميم أكيد على اقتسام زعامة العالم ، واستغلت مصر بقيادة ناصر هذه الظروف المواتية، وأعلنت عن تأمين شركة قناة السويس . وعلى أثر هذا الإجراء الظاهري انجرفت بريطانيا وفرنسا في تصرف أحمق إلي الاعتداء على مصر ، وجاءت نتائج ذلك على عكس حسابات المعتدين ، ولمصلحة مصر وقيادتها ، التي لم تكن تتوقع أن تجنى مثل هذا الثراء من التأييد والسمعة الدولية ، فقد أدان العالم أجمع العدوان حتى الولايات المتحدة ، وتحولت الإدانة الصاخبة إلي تأييد مدوي لمصر وقيادتها . وزادت مكانة مصر الإقليمية والدولية ، وعلا صوتها في المحافل الدولية إلي جانب قوى التحرر الوطني ، وتعمقت الصداقة المصرية السوفياتية، وبدأت تأخذ أشكالاً رسمية ، حيث وقعت اتفاقية الصداقة والتعاون المصرية السوفياتية ، وهكذا جلب العدوان خيبة أمل للمعتدي وتعاطفاً مع الضحية ! .

– الاحتلال الأمريكي لأفغانستان ٢٠٠٢ :

في هذه اللمحة والتي تليها نتعرض لحالتين من حالات الاحتلال العسكري لأراضي إسلامية، لعلها هي الأخطر والأكثر حساسية وإثارة خلال النصف الثاني من القرن

العشرين وحتى كتابة هذه السطور ، وسوف لا نهتم بسرد الوقائع والتطورات ، فمعظمها قد تم على مرأى ومسمع من العالم أجمع ، ولكننا سنعمد إلي تناول عدة قضايا وإشكاليات ، تكمن وراء نعت هاتين الحالتين بالخطورة والإثارة والحساسية .

كانت أفغانستان على مر التاريخ الإسلامي دولة مصد ، وحاجزاً بين تكوينات بشرية وتجمعات عرقية ، بما تحمله من موروثات حضارية وثقافية ، وكان ذلك من أهم الأسباب التي وقفت وراء عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي وحتى الثقافي والفكري ، الذي اتسمت به هذه الدولة ، إضافةً إلي طبيعتها الجغرافية الوعرة والمعقدة ، وظلت سمة عدم الاستقرار تصاحب هذه الدولة في تاريخها الحديث والمعاصر ، وكان الاحتلال السوفياتي لدولة أفغانستان قد أثار الحماس الديني لدى الدول الإسلامية ، وقد جاء ذلك الحماس معتدلاً لدى الحكومات والأنظمة وجارفاً لدى الشعوب ، مما جعل كثيراً من الحكومات تعطي الضوء الأخضر للشعوب ، للتعبير عن ذلك الحماس ، وبصفة خاصة أنه كان قد توافق مع ضوء اخضر أكثر بريقاً ولمعاناً من الولايات المتحدة ، العدو اللدود للاتحاد السوفياتي ، والمنزعج من اقترابه من الخليج ، والتي دعمت المقاومة الأفغانية بلا حدود .

أما عن التعبيرات الشعبية الإسلامية عن الحماس الديني ضد الاحتلال السوفياتي ، فكان أهمها ما أعلنته التنظيمات الإسلامية في كثير من الدول الإسلامية من دعوة للجهاد في مواجهة ذلك الاحتلال ، ووجدت تلك التنظيمات مبرراً وجيهاً وشرعياً لوجودها ، ويبرز دورها كقوة سياسية فاعلة في المجتمعات الإسلامية ، تستقطب أنظار الناس وتستحوذ على تأييدهم ، وللحصول على فترة راحة مؤقتة من المواجهات المتكررة مع حكومات الدول التي توجد بها ، وكان ذلك بمثابة فرصة سانحة أهتبلتها تلك الحكومات ،

للتخلص من تلك التنظيمات المزعجة ، فسهلت لها مهمة الانتقال إلي أرض الجهاد ضد دولة الكفر ! .

وتجمع على أرض أفغانستان شتات من المراهقين ، الذين تراكم لديهم مزيج من الأفكار المشوشة والمتداخلة ، عن المعرفة السطحية بالدين ، والحماس للجهاد في سبيل الله ، وحداثة السن ، ومحدودية الفهم والإدراك ، وظن هؤلاء المتآلفون من الدول الإسلامية المختلفة . أنهم على حق ، فقد ساعدتهم بعض الأجهزة الإعلامية الرسمية ، وسكتت عنهم معظم الأنظمة السياسية ، وزاد الطين بلة الدعم والمعونة التي تلقوها من الولايات المتحدة ، وقد أشعرهم كل ذلك بأنهم على الطريق المستقيم ، وبأنهم يد الله التي امتدت لإصلاح الكون ، وتنظيم شئونه ، فشرعوا في تشكيل تنظيمهم الذي سيكون له شأن فيما بعد خروج السوفيات .

تفنن أولئك الغرباء على أرض أفغانستان في ابتكار الرؤى والتوجهات ، وابتداع الفتاوى والتصورات عن الإسلام وعلاقاته بأمور الحياة . وأردفوا ذلك بإحداث النظم والتنظيمات التي تنقل تلك الأفكار إلي الواقع العملي . ومن ثم فقد زاوجوا بين الفكر الإسلامي المشوش والقاصر والصادر عن عقول لا تعرف عن الإسلام إلا ما يسيء إليه ، والحركة الصاخبة التي تعتنق منطق القوة والعنف الذي ينبذه الإسلام من حيث المبدأ ، ظهر ذلك المركّب في شكل نظام سياسي لم يكتب له الاستقرار إلا بالقوة وسط الفصائل المتقاتلة .

إن الحديث عن النظام السياسي في أفغانستان والذي عُرف بنظام طالبان وتداخله مع تنظيم القاعدة . حديث متشعب وذو شجون ، ولا يهمنا منه إلا ما يتعلق بامتدادات أفكار وحركة قيادات النظام والتنظيم إلي النطاقين الإقليمي والعالمي ، فقد أعطى خروج السوفيات من أفغانستان الذي تم بفعل عوامل كثيرة من ضمنها المقاومة الأفغانية ، أعطى ذلك دفعة قوية للكيانين ، لأن يتوهما أنهما المثال والنموذج ، والأداة الفعالة ،

التي سيتمكن من خلالها الإسلام من أن يسود العالم فكراً وعملاً ، وأن يغير الأنظمة الإسلامية وغير الإسلامية على شاكلة النموذج والمثال ، وبدأ صدام الكيانين بالعالم الخارجي ، وليته كان صداماً بين هذين الكيانين والعالم بواقعهما المجرد ، ولكنه جاء صداماً بين الكيانين بوصفهما منتسبين إلي الإسلام ، بل ويمثلان النموذج والمثال وكانت تلك هي الطامة الكبرى ! .

لقد قُدّر للنظام الأفغاني وتنظيم القاعدة أن يؤججا الكثير من الصراعات ويثيرا الفتن والقلاقل في كثير من المناطق في العالم الإسلامي وغير الإسلامي ، وكان ذلك للأسف يلقى رواجاً لدى بعض السذج في العالم الإسلامي ، والمكرة والمرجفين في العالم غير الإسلامي ، فالأولون فد انساقوا وراء أفكار حماسية مشوشة بعيدة عن الإسلام ، تُشبع لديهم الرغبة في التشفي والنكاية بالأنظمة السياسية الإسلامية وما بها من فساد وطغيان ، والآخرون اهتبلوا هذه الفرصة لينسبوا إلي الكيانين كل القلاقل والفتن ويحملونهما كافة ما يجرى في العالم من عدم استقرار وتخريب ، وبالفعل وقع الكيانان في المحظور ، وكانا ضحية غرة لعملية تخريب قذرة أحكمتها أجهزة مخابرات نشطة ونافذة ، وعلى أثر تلك العملية التي طالت قلب الولايات المتحدة النابض بالحركة والنشاط وبعض الدوائر ذات الصفة السيادية في الإدارة الأمريكية ، تحركت الولايات المتحدة للثأر لهيبتها ، واستنفرت كافة القوى الدولية التي واستها واستنكرت الحدث ، لمحاربة الإرهاب الذي حددته للوهلة الأولى بشكل نهائي بأنه نظام طالبان وتنظيم القاعدة . وبحملة عسكرية أضخم وأعنف بكثير من دولة أفغانستان الفقيرة في كل شيء إلا في المشاكل ، احتلت الولايات المتحدة تلك الدولة وفرضت بها حكومة تحميها قواتها ، وبذا تكون الولايات المتحدة قد أعلنت الحرب على الإرهاب ، وشرعت توزع شهادات التقدير على من حالفها وساندها ، ونذر الوعيد والتحقير على من خالفها أو تباطأ في تأييدها .

تزامن مع هذه الأحداث الدراماتيكية حملة دعائية سوداء ضد الإسلام ، تناغم فيها الساسة والحكومات والشعوب في أوربا وأمريكا ، فالساسة بادر منهم الجهلة وذوو العقول السقيمة والأفكار المعتلة بأن لفقوا بين الإسلام وبين الإرهاب نسباً ، والحكومات شرعت في إحكام الاحتياطات الأمنية ضد المسلمين ، وشرّعت القوانين التي تحظر دخولهم وخروجهم وتنقلاتهم، وحتى الشعوب سرعان ما تمكنت الدعاية الصهيونية البارعة من استعدائها في كل أوربا وأمريكا الشمالية ضد الإسلام والمسلمين ، وبدأت عمليات الاضطهاد ، وحاق بالإسلام ما أريد به !! .

- الاحتلال الأمريكي للعراق ٢٠٠٣ :

اللمحة الثانية التي جاءت على وتيرة اللمحة الأولى مع الاختلاف في التفاصيل والدقائق هي الحرب الأمريكية على العراق واحتلال أراضيه وإسقاط النظام السياسي ، وهذه الواقعة كذلك تتداخل تفاصيلها ودقائقها ، إلا أن أهم ما في تلك التفاصيل هو أن الولايات المتحدة الأمريكية ومن خلال استراتيجيتها العالمية الطموحة والعاتية ، ترسخت لديها قناعة بأن العراق يشكل منذ بداية الثمانينيات من القرن المنصرم أحد عوامل عدم الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط ، مما يقلق تلك الاستراتيجية . فكان القرار بالقضاء عليه ، ولكن بالطريقة الأمريكية التي تهيئ الأجواء وتحرك الوقائع والأحداث في اتجاه ما يحقق أهدافها ، ولا بأس من التدخل المباشر إذا اقتضى الأمر ، وهذا ما تم مع العراق بنظامه الرهيب .

على شاكلة غيره من النظم السياسية في العالم الإسلامي . كان النظام السياسي العراقي نظاماً ديكتاتورياً مرعباً ، يرتكز على القمع والكبت ، انتزع من الشعب العراقي كرامته دون رحمة، وسلب آدميته بمنتهى القسوة ، ولم يكن الشعب العراقي يمثل لنظامه السياسي أية قيمة أو معنى، وعندما فرغ من تحويل الشعب إلي مسخ لا وزن له ولا اعتبار ، تحول إلي النظام الإقليمي ، حيث مارس نوعاً من البلطجة الدولية متدرعاً بقوته التي

جند لها أبناء الشعب العراقي جبراً ، وسلّط بعضهم على بعض في أسلوب بوليسي مخيف ، يقوده حزب متسلط على العقول والرقاب ، انجرف إلي حرب طويلة ومرهقة مع الجارة المسلمة ، التي تشبثت بسياسة شرطي الخليج التي اعتنقتها الإمبراطورية الإيرانية البائدة ، ولم يكن العراق قد فرغ من إحصاء عدد قتلاه وجرحاه ومفقوديه ومشوهيه في الحرب مع إيران ، حتى أنساق إلي مغامرة خرقاء زينتها له السياسة الأمريكية في إحكام وإبداع ، ليستولي على دولة الكويت ، ويعلنها المحافظة رقم ١٩ ، ومنذ دحر الجيش العراقي في الكويت في واقعة أم المهالك التي قادها صدام حسين والاستراتيجية الأمريكية قد بدأت العد التنازلي للإجهاز النهائي على النظام في العراق، وكانت تلك الاستراتيجية قد اختارت أسلوب العمل الجماعي في العراق تحت شعار ما يسمى " بالشرعية الدولية " ، فاخترعت ذريعة أسلحة الدمار الشامل والأسلحة الكيماوية ، وسُيّرت فرق التفتيش الدولية في فاصل مسرحي سخيف ، وعندما أيقن الأمريكيون أن العد التنازلي قد أقترب من الرمز صفر ، أعلنوا عن عزمهم على استخدام القوة ، ووجهوا الدعوة للحلفاء والأصدقاء للسير معهم في " قافلة التأديب وحماية القيم على طريقة رعاة البقر " الميممة شطر العراق الضحية الساذجة ، التي لم تكن تعلم يقيناً بأن الأمور جادة ولا تحتمل المزاح ، ولم يجد الأمريكيون من تحمس لمشروعهم الدموي المدمر سوى التابع الوفي بريطانيا العظمى ، وبعض الذين أعلنوا على استحياء تأييدهم للعنجهية الأمريكية لمآرب تُرتجى ، وأقدم الأمريكيون ومعهم الإنجليز على غزو العراق ، وقبل انقضاء شهر على بداية الحملة العسكرية وفي مشهد أيضاً دراماتيكي ، ولكنه لا يخلو من غموض الأفلام البوليسية ، تحلل وذاب النظام العراقي ، وباتت العراق دولة ينقصها النظام السياسي ، ومن عجيب المفارقات أن الأمريكيين يعكفون في جدية وحزم على هندسة وتصميم النظام السياسي في العراق وفق أنظمة الشركات الأمريكية العملاقة في مجال الحاسب الآلي ! ! .

لقد حاولنا إجمال الأحداث وفذلكة الوقائع والتفاصيل والتحليلات في تلك السطور المقتضبة لننصرف سريعاً إلي ما هو أهم ، فقد انتهى الأمر بكل من أفغانستان والعراق إلي الوقوع في قبضة الاحتلال الأمريكي ، الذي لا يمكن لأحد أساطين اللغة وجهابذة الكلام أن يجد له لفظة أخرى غير ذلك ، وعلينا الآن أن نكيف هذين الحدثين مع الإدراك والوعي الإسلامي .

إن ما حدث يشكل خطورة بالغة على كل دول العالم وعلى نسق توزيع القوة بين الكبار ، فلقد استباحت الولايات المتحدة التدخل المنفرد في شئون الآخرين ، ونصبت من نفسها حكماً وجلاداً في آن واحد ، وأعرب العالم الإسلامي عن عجزه وإفلاسه عن تقويم النظم السياسية في الدول المنسوبة إليه ، وصار ينتظر تقويمها بالقوة عن طريق التدخل الأجنبي الذي أوشك أن يصبح سلوكاً نمطياً في العلاقات الدولية .

بالرغم من فظائع النظام العراقي ، ومن استكانة الشعب العراقي لدعاوى الاحتلال القائلة بسمو الهدف من التدخل ، الذي حدده الأمريكيون في تخليص الشعب من النظام المستبد ، إلا أن الغزو الأمريكي والاحتلال والتواجد فوق التراب العراقي قد استنفر مشاعر العالم والمسلمين منه خاصة ، ولو أن ثمة همساً يتردد بين المسلمين ، بما مفاده أن الأنظمة السياسية في العالم الإسلامي قد انتابتها حالة من الرعب على وجودها الذي بات مهدداً ، وشرعت في تزيين نفسها وتحسين واقعها ! .

يضاف إلي ما تقدم أن التدخل الأمريكي والاحتلال لدولتين إسلاميتين هما أفغانستان والعراق ربما يثير مسألة ذات حساسية ، وهي أن ذلك يمثل مقدمة لتصادم عنيف ومدمر بين التعبيرات النظامية للأديان ، أي بين الدول الإسلامية والدول المسيحية ، وعليه فالدعوة للجهاد التي أطلقتها جهات ذات اعتبار ورمزية لدى المسلمين مثل الأزهر في مصر ، والفتاوى التي صدرت عن رجال الدين في كثير من الدول الإسلامية ، وتجيز محاربة

التدخل الأجنبي في العراق ، تعد ذات دلالة في هذا السياق ، وتمثل ضغوطاً على الحكومات والأنظمة للتحرك في اتجاه الصدام ولو إرضاءً للرأي العام .

وبالعودة إلي الجذور الغائرة للواقع المتردي في العالم الإسلامي ، والذي يعد ما حدث في أفغانستان والعراق جزءً منه ، لأمكننا القول أنه لو تم العمل وفق الطرح الإسلامي فكراً ونظاماً منهجاً وحركةً ، لما أمكن لأية قوي خارجية أن تتدخل في شئون دولة إسلامية تحت أي شعار . لأنها ستفتقد الحجة والذريعة التي ستتدخل تحت ستارها .

لقد ثبت بالدليل القاطع أن البعد القومي لا يجمع المسلمين ، ولا يكفل تضافرهم ، أما الوازع الديني فهو الكفيل بتحقيق ذلك ، وبمنع أية قوة مهما كانت من التجرؤ على العالم الإسلامي، فمتى يفيق المسلمون من سباتهم ! .

إن نموذجية ومثالية النظام الإسلامي الصحيح ، ستفرض على الجميع احترامه وتقديره ، فالنظام في أفغانستان والعراق لم يكن إسلامياً ، ففي الأولى طبق ما يسيء إلي الإسلام دون علم أو وعي ، وفي الثانية طبق أسلوباً دموياً بشعاً ، وكان من شأن هذا وذاك أن يفتح الباب للتدخل بحجة التقويم وفرض القيم ! .

إن النظام الإسلامي لو طُبق بحق في بلاد الإسلام لما أمكن لأمريكا أن تنصب من نفسها وصياً لترتيب شئون المسلمين في بلادهم ، وتجبرهم على الالتزام بالقيم ، كيف وهم أصحاب القيم ومنبع المثل ؟ هذا لأنهم تخلوا عن الإسلام ، فلننظر إلي ما يقود إليه التخلي عن الإسلام ؟ إلي الهوان والضياع ! ! .

إن ما حاق بالإسلام والمسلمين إن هو إلا فتنة ، ليمحص الله قلوب الذين آمنوا ، ويثوب الذين مرقوا إلي رشدهم . لقد خالف المسلمون عن أمر الله عندما عتوا عن منهجه وجعلوه وراء ظهورهم ، فأذلهم الله وأذاقهم بأس عدوهم ، فعلى المسلمين أن يستدركوا ويستعصموا بحبل الله وعروته الوثقى ، فلا مناص ولا ملجأ أمامهم إلا ذلك .

قـــال تعـــالى ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1] .

وقـــال تعـــالى ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] .

**خامساً : أهداف الجيوش في الدول الإسلامية في الوقت الراهن :**

بعد هذا الاستعراض السريع والمقتضب للصراعات والنزاعات والحروب والتداعيات التي يغص بها العالم الإسلامي يعن السؤال التالي ، ما هي فائدة الجيوش الإسلامية الموجودة الآن في الدول الإسلامية ؟ لا تتعدى مهام الجيوش في الدول الإسلامية ما يلي :

❖ **خوض الصراعات الإقليمية :**

من استعراضنا السابق لجملة الصراعات والنزاعات والحروب في منطقة العالم الإسلامي ، يمكننا أن نلحظ أن معظم الجيوش في الدول الإسلامية قد انخرطت في تلك الصراعات والنزاعات والحروب ، وهي نزاعات وحروب بينية تدور رحاها بين الدول الإسلامية ، وقليل منها ما يدور بين دول إسلامية وأخرى غير إسلامية ، وكأن تلك الجيوش قد أعدت وهُيئت لكي تقاتل بعضها بعضاً ، فمثلاً الجيش العراقي حارب إيران واحتل الكويت . والجيش الإيراني حارب العراق ، ويتحرش بجيرانه العرب في البحرين ، واحتل جزر الإمارات المتحدة السابق الإشارة إليها . إذن فالجيوش في الدول الإسلامية قد أعدت لتواجه بعضها بعضاً ، وليس لمواجهة عدو مشترك .

[1] . سورة الأنفال : ٢٥ .
[2] . سورة النور : ٦٣ .

❖ **السيادة الوطنية والسيطرة الإقليمية :**

كذلك تعمد الدول الإسلامية إلي تأسيس الجيوش وتجهيزها والإنفاق عليها من أقوات الشعوب ، لتأكيد ما تسميه بالسيادة الوطنية ، وذلك إمعاناً في ترسيخ وتوطيد الأفكار الانعزالية الإقليمية ، وقتل روح التضامن والتكاتف الإسلامي ، الذي يشمل الأمة الإسلامية، فهي الآن فعلياً الأمة التي لا تغرب عنها الشمس ، من إندونيسيا في أقصى الشرق حتى مراكش في أقصى الغرب .

وإلي جانب هدف ما يسمى بالسيادة الوطنية ، هناك أهداف أخرى مثل السيطرة الإقليمية، والقيام بأدوار الزعامة ، والسيطرة على الدول الأخرى ، الأقل مقدرة مادية وعسكرية ، وذلك ما فعله العراق وإيران ، ومثل العمل لمصلحة تحالفات وسياسات القوى الكبرى مثل الجيش التركي .

❖ **قمع محاولات الخروج على النظم السياسية :**

في الهدفين السابقين يختلف الجيش الإسلامي في الوقت الراهن عن الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين ، وكذلك في الهدف المتعلق بقمع محاولات الخروج على النظم السياسية ، فهناك أيضاً اختلاف بين الجيوش الإسلامية الراهنة وبين الجيش في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، فالجيش الإسلامي في العهدين الأزهرين كان يتصدى لمحاولات الخروج على الشرع والدين . وهي ارتداد عن الإسلام ، وفي ذلك هدم لأركانه وتقويض لبنيانه . فكان من المحتم التصدي لتلك المحاولات وتبديدها .

أما في الوقت الراهن فإن جيوش الدول الإسلامية تقوم بقمع محاولات الخروج على النظم السياسية الراهنة ، وهي قد تكون بعيدة عن الدين ، ولا تطبق المنهاج الإسلامي ، ومن ثم فإن الصراع بين الحركات الخارجة والنظم السياسية هو صراع سياسي مصلحي ، قد يكون هدفه الوصول إلي الحكم . ولا يتعلق بالدين والشرع من قريب أو بعيد ، وشتان بين وضعية الجيش الإسلامي في العهدين الأنورين ووضعيته في الوقت الراهن في هذا الخصوص .

# الفصل الثامن

# الجيش ومستقبل الحضارة الإسلامية

ثم تهفو نفوسنا إلي الأمل الذي يراود كل مسلم ويؤرقه في ذات الوقت وهو مستقبل الحضارة الإسلامية من خلال تفعيل مقوماتها ، فكيف يمكن تفعيل المؤسسة العسكرية أو الجيش في الدول الإسلامية ليقوم بدوره المعهود من أجل مستقبل الحضارة الإسلامية ، يمكن الحديث عن تفعيل دور الجيش في الحضارة الإسلامية من خلال عرض جملة من الرؤى من خلال المباحث الثلاثة التالية :

**المبحث الأول : أوجه الشبه بين الواقـــع الإسلامي المعـاش وفترة التفكك والانهيار .**

**المبحث الثاني : فجـــوة الأمـن المفقود في العـالم الإســلامي .**

**المبحث الثالث : نحو إطار عام للتلاقي بين الجيوش الإسلامية .**

## المبحث لأول

## أوجه الشبه بين الواقع الإسلامي المعاش وفترة التفكك والانهيار

ما أشبه اليوم بالأمس ، فالواقع الإسلامي المعاش هو امتداد الفترة التفكك والانهيار ، فعوامل الوهن التي حلت بالأمة توطدت وترسخت جذورها ، وازدادت مع الأيام ثباتاً ، إلي أن باتت واقعاً ألفه الجميع وعهده الأجيال جيل بعد آخر ، ويمكن تناول تلك العوامل التي تقوي أوجه الشبه بين الواقع الإسلامي وفترة التفكك والانهيار فيما يلي :

**أولاً : التفكك وافتقاد أدوات التكتيل الإسلامي الرسمي والشعبي :**

يعاني الواقع الإسلامي ، وكامتداد للتردي الناتج عن فترة التفكك والانهيار من حالة من الهوان والضياع ، كان سببها ونتيجتها في نفس الوقت افتقاد وغياب أدوات التكتيل الإسلامي الرسمي والشعبي ، والثابت أن أدوات التكتيل الشعبي بين أبناء العالم الإسلامي هي الأكثر فعالية وتأثيراً ، ولكنها محدودة ومرتبطة بأدوات التكتيل الرسمي التي تمنع السماح بتمريرها وإقرار شرعيتها . وتتعدد أشكال التكتيل الإسلامي الشعبي ، ولكنها جميعها تفتقد الديناميكية والسيولة التلقائية التي توطد علاقات أبناء الشعوب الإسلامية بكافة شرائحها وفئاتها ، ولن يُقدّر لأدوات التكتيل الإسلامي الشعبي أن تأتي أكلها وتباشر فعاليتها إلا إذا عادت لوضعيتها التي كانت قبل ظهور الوحدات النظامية بشكلها السياسي المتمثل في الدولة. حيث كانت حرية حركة أبناء الشعوب الإسلامية مكفولة وانتقالهم من مكان لآخر لا تحده حدود ولا تمنعه حواجز . ويتطلب ذلك تحركاً جاداً على المستوى الرسمي الذي بيده مقاليد الأمور في هذا الصدد .

**ثانياً : التسليم بالأمر الواقع وتبدد آمال التلاقي أو العناق :**

لقد بات من المستغرب الحديث عن إمكانيات السعي نحو إقامة نوع من التلاقي أو العناق بين أبناء الشعوب الإسلامية ، حيث ترسخ الأمر الواقع وسلم الجميع باستحالة اجتماع شمل الأمة، ويقتضي الواقع الإسلامي القبول والتسليم بضرورة تفعيل النموذج الجزئي للممارسة والتحرك على مستوى الوحدة السياسية [ الدولة ] إلا أن ذلك لا يمنع من ضرورة تفعيل إمكانيات التلاقي والعناق بين الشعوب الإسلامية .

ويوحي الواقع الإسلامي بصعوبة مجرد التفكير في لَم الشمل وتحقيق التلاقي أو العناق ، إلا أنه يتعين على المخلصين من أبناء هذه الأمة ألاّ يملّوا من الإلحاح في طلب أقل درجات التلاقي والانطلاق منها نحو العناق الذي سيتحقق حتى ولو طال الأمر .

**ثالثاً : وهن أداة التلاقي الرسمي الحالية [ منظمة المؤتمر الإسلامي ] :**

لا تحتاج أداة التلاقي الرسمي الحالية بين أبناء العالم الإسلامي إلي حديث مطول أو تحليل مفصل فوضعها بادي للعيان . فهي أداة رسمية بحتة بين حكومات يغلب عليها الطابع الشكلي، ولعل المتابعة التاريخية لفعاليات تلك الأداة منذ قيامها وحتى الآن تنتهي بالمتابع إلي نتيجة مؤداها أنها لم تحرز أي نجاح فيما يتعلق بتحقيق التكتيل الإسلامي الخاص بمسألة الوحدة الإسلامية أو حتى بتحقيق أي مقترب من مقترباتها .

**رابعاً : الصراعات بين الدول الإسلامية :**

ألمحنا في مواضع شتى إلي الصراعات التي نشبت بين النظم السياسية في الدول الإسلامية . وقد تنوعت تلك الصراعات بين سياسية ومذهبية وعسكرية وأيديولوجية . وثبطت هذه الصراعات من همة الاتجاه نحو تحقيق أي شكل ذي فعالية من أشكال الترابط الإسلامي .

لقد تناثرت الصراعات السياسية على سائر صعيد العالم الإسلامي بين الوحدات النظامية التي تحاول أن تنفرد بالزعامة ويشار لها بالبنان ، ولا تدري أن الأجدر والأمثل أن توزع الأدوار وتؤدي كل وحدة في هذا الإقليم المترامي الأطراف دورها الذي أُهّلت وهُيئت له طبيعياً وبشرياً واقتصادياً وفكرياً .. الخ دون تكلف أو مزايدة .

وكذا في مناطق العالم الإسلامي المختلفة سادت المنافسات السياسية بين الدول الإسلامية رغبة في السيادة والزعامة ، وتعمقت تلك المنافسات ، وتطورت إلي صراعات أخذت في بعض مراحلها وتطوراتها صراعات ذات طبيعة عنيفة .

وإذا كانت الصراعات السياسية بين دول العالم الإسلامي تتسم بالجدة والحداثة ، فإن الصراعات المذهبية ذات الطبيعة الدينية تتسم بالعمق والغور في جسد الأمة ، فهي أول بوادر الانقسام والتمزق ، وبداية التآلف مع الفرقة والاختلاف حول القليل من الأصول والأسس والكثير من الفروع والثانويات ، ولكنه الاختلاف الذي يلعب بالرؤوس ، وقد يطول العقول والقلوب ، ولعل أهم وأشهر الخلافات المذهبية في العالم الإسلامي تمثلت في الخلاف بين السنة والشيعة ، وبالرغم من أن هناك من أبناء الأمة من لا يعولون على هذه التشققات ولا يعيرونها أية اهتمامات . إلا أن الكثيرين ينظرون إليها على أنها حدود فاصلة وحواجز لابد أن تراعى عند عبور الصعيد الإسلامي الواسع ، والممتد من مراكش غرباً حتى إندونيسيا في أقصى الشرق ! ، والأغرب والأعجب هو الاختلاف وربما الصراع الأيديولوجي المرتبط بالعقائد السياسية التي استنبتها الآخرون من الغرب والشرق ، وراعاها أبناء الأمة الإسلامية ، وتحزّبوا لها وتصارعوا لنصرتها ، وكانوا في ذلك أكثر حماساً وتفانياً من أهلها ، فالفردية والشمولية قفزت إلي التراب الإسلامي ليخوضا صراعاً عنيفاً خارج وطنيهما ، ليس صراعاً مع الإسلام فهو غير معني بالأمر ، ولكن صراعاً بينهما حول ديار الإسلام ، فكل يستميل تلك الديار بكافة الوسائل والسبل ،

ويغازل أهلها بعرض المفاتن والمغريات ، وظلت الحرب دائرة حتى الساعة والإسلام لا يمل التفرُّج والتسلّي لطرح الغم ، فقد عطّله أبناؤه وحوّلوه إلي نسك وعبادة ، واكتفوا بأن دعوا له ترحماً على أيامه الخوالي التي كان فيها حياة قبل أن يكون نسكاً وعبادة ، ثم انهمكوا في شغلٍ لا يعبئون ! ! .

احتدمت تلك الصراعات بكافة أشكالها ونماذجها التي قدمنا ، ثم تطورت إلي صراعات عسكرية كانت في بعضها مدمرة ، وأضيفت إليها نزاعات أخرى حول الحدود والمناطق الفاصلة بين الدول الإسلامية ، وباتت سمة الخلافات والصراعات الأكثر إلافاً بين المسلمين في حين أصبحت الوفاقات الأشد ندرة فيما بينهم ! ! .

## خامساً : سيطرة النزاعات القومية العنصرية :

الدين والعنصر ، علاقتهما حساسة ودقيقة ، الدين بما لديه من أصول وأسس وقيم يهذب العنصر ويشذب خصوصيته ، ويقلل من تفرده ، ويخفف من حدة جموحه وعنفوانه ، ولا يمكن أن يلغيه أو يغيبه تماماً ، بل يحوّله إلي قوة دافعة دون صخب أو ضوضاء ، وهذه العلاقة بدقتها وحساسيتها لمسناها في فجر الإسلام وضحاه ، علاقة تفاعل وتعاطى بديع ومزدان ، اتسع الإسلام رحباً سمحاً ليستوعب كافة العناصر التي اندمجت ثم انصهرت في بوتقته لتستمد منه العزة والمنعة وتعطيه الجهد والإخلاص والتفاني والولاء والإيثار . وبدت كل العناصر التي صهرتها البوتقة عنصراً واحداً يعمل في اتجاه معين وينشد هدفاً محدداً . عندئذ برز الإسلام وقدم أروع ما لديه من حضارة وثقافة . وجاءت علاقة الدين بالعنصر علاقة مثالية وضعت كلاً منهما في نصابه الصحيح ، وحددت موقعه من الآخر في دقة ووضوح . وجعلت كافة العناصر أمام الدين سواء ، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح والعطاء للإسلام .

وفي مرحلة تالية بدأ الخلل ينتاب تلك العلاقة بين الدين والعنصر ، وذلك عندما آثرت بعض العنصريات غيرها على الآخرين ، وتغنت بأفضالها ومآثرها على الإسلام والجميع ، فأوغر ذلك الصدور ، وقال الآخرون ياليت لنا مثل ما أوتي الأفضلون ، وحل الحقد والحسد محل الإيثار والإخاء ، وتناوبت العنصريات السيادة والريادة على أهل الإسلام ، فاستهلها العرب ثم الفرس ثم الأتراك ، ثم انفرط العقد إلي عنصريات وقوميات متناحرة ثم متفرقة ، ولا يزال هذا واقعها .

**سادساً : تدخلات القوى الخارجية :**

لعل وضعية التفكك والانهيار التي عمت العالم الإسلامي كانت بمثابة الإغراء الذي جعل القصعة يسيل لها لعاب الآكلة فيتداعون عليها ، وبالرغم من أن القوى الخارجية التي دخلت إلي العالم الإسلامي قد اجتذبها إليه وهن قوته وقلة حيلته وهوانه ، إلا أن ذلك التدخل قد سحب على تلك الوضعية صفتي الدوام والأبدية ، ولم يعد في استطاعة دول الإسلام الفكاك منه ، وأصبحت العلاقة تبادلية بين تفكك وانهيار الأمة وتواصل التدخل الأجنبي في شئونها ، وتدافعت القوى الخارجية إلي العالم الإسلامي في أشكال شتى منها السياسي والأيديولوجي والاقتصادي والعسكري والاستراتيجي ، وتحول إلي علاقة تبعية كاملة .

## المبحث الثاني

## فجوة الأمن المفقود في العالم الإسلامي

بعد أن بسطنا لواقع العالم الإسلامي ننطلق إلي إشكالية أكثر تماساً مع مسألة الجيوش وهي المتعلقة بفجوة الأمن المفقود في بلاد المسلمين ، وهذه الإشكالية من أهم المعضلات التي ينبغي أن تجذب الانتباه بل وتسيطر على أفكار المسلمين ، ويمكن التطرق إلي فجوة الأمن المفقود في العالم الإسلامي من خلال الآتي :

### أولاً : في معنى الأمن العقيدي الإسلامي أو أمن الأمة الإسلامية :

بقليل من الإمعان والتمحيص ندرك أن أخطر ما يمكن أن يحيق بالإسلام وبكافة المنتمين إليه والمنضوين في إطاره هو تهديد أمنه كمعتقد ، ثم كطرح يحمل منطقاً خاصاً ومتفرداً للتعامل مع عناصر الوجود وترتيب علاقة الإنسان بتلك العناصر ونشاطاته في الكون عموماً .

إن الأمن العقيدي الإسلامي يعنى الحفاظ على الإسلام كعقيدة توحيدية كلية تحمل صفتي الشمول والعمومية ، ثم كطرح عقلاني رشيد يتسم هو الآخر بسمتي العمومية والشمول وتفصيل ذلك فيما يلي :

### ❖ الإسلام عقيدة التوحيد الكلية السامية :

ينفرد الإسلام بكونه يمثل عقيدة التوحيد الكلية السامية التي تتسم بسمتي العمومية والشمول وتنبعث منها كافة الأسس والأصول ، فهي محور الكون وقوام الخلق ، قام الملكوت من أجلها. وخُلق الخلق للتسليم والإيمان بها ، إن أمن الإسلام في الحفاظ على عقيدة التوحيد بشمولها وعموميتها . وصونها من التعدي والتعرض ، وتهديده في إفراغ

عقيدته من محتواها أو تجريدها من سمتي العمومية والشمول ، حيث لا تعد تمثل مصدراً للأصول والأسس ، حاشى وكلا ففي ذلك الخطر الداهم .

❖ **الإسلام طرح عقلاني رشيد :**

من عقيدة التوحيد الكلية السامية خرجت الطروحات الإسلامية ، تضبط سلوك الإنسان في الكون . وتنظم نشاطه وحركته في الحياة ، وتحدد علاقته بعناصر الوجود ، وهنا يتمثل أمن الإسلام في الحفاظ على طروحاته ، وإفساح المجال لها لوضعها على ارض الواقع ، وتفعيلها، وعدم استبدالها بغيرها من الأفكار البشرية الدخيلة المستوردة ، ويتشكل تهديد ذلك الأمن في تجاهل الطرح الإسلامي أو تهميشه ، وتفضيل الفكر البشري عليه تحت دعوى أنه غير واقعي أو غير ملائم للعصر ، هذا هو التهديد الحقيقي لأمن الإنسان المسلم ، يتهدد أمن المسلم بل يتحطم ذلك الأمن ويُستباح الحمى عندما يقنعنا الآخرون ونردد خلفهم أننا لا نملك ما ينظم ويرتب حياتنا ، ثم يسعفوننا بأفكارهم لتأخذ بأيدينا نحو التقدم والرقي . ونحن نتبعهم دون أن ندري ، بل ربما ندري ولكن نتجاهل ونكابر ، هكذا صرنا تبعاً ، وصار الإسلام القدوة مجهولاً ، ولم يعد إلا نُسكاً وشعيرة تُؤدّى ، ولا تُذكر إلا عندما ينادى لها .

إن تهديد الأمن العقيدي الإسلامي يكمن في التخلي عن أي شق من شقي الإسلام : الإسلام عقيدة التوحيد الكلية السامية ، والإسلام الطرح العقلاني الرشيد ، والتخلي قرين التبعية للآخر ، والتبعية تعني إفراغنا من محتوانا وتحويلنا إلي مسخ ، عندئذ يفترسنا الآخرون الذين تداعوا علينا حيث لم يعد لنا وجود ، وبات من اليسير تدميرنا سياسياً ، حيث لا نظام لنا، واقتصادياً فلا اقتصاد لنا ، وعسكرياً فلا جيش لنا ، وفكرياً فلا عقل لنا ، إذن فلابد من البحث عن ذاتنا وكياننا ! ! .

**ثانياً : ترسيخ الآمان بين المسلمين أولاً :**

إن المسلمين مطالبون بالتصالح مع النفس ، ومكاشفة الذات في شفافية ودقة ووضوح ، إن الأمان بين المسلمين مطلوب ، لماذا ؟ وكيف ؟ .

إن بأسنا بيننا شديد وخطير ، فهو أول معول يهدم كياننا من داخلنا ، ومن ثم يفتح الثغرات والفجوات لتسلل الأعداء ، ولعل أول وأخطر معاول التخريب هي معاول التخريب العقيدي التي منها تخرج كافة المخاطر والويلات ، فالتخريب العقيدي يعنى تخريب الإسلام وإفراغه من محتوياته ومقوماته ، ويتم ذلك عبر مجموعة هجمات متتالية خاطفة ومدمرة جاءت كالآتي :

❖ **الهجمة الأولى** : أوعزت بأن الإسلام وطروحاته ليست إلا تنظيرات ورؤى ، ينقصها حِراكية الواقع وديناميكية العمل والفعل .

❖ **الهجمة الثانية** : أوحت بأن الإسلام عبادة فقط ، ولا ينبغي الدفع بالإسلام في مجريات الحياة ودقائقها الدائبة الحركية .

❖ **الهجمة الثالثة** : خُلصت إلي أن الإسلام يعنى التخلف ، وأنه سبب تخلف المجتمعات الإسلامية ، والتمسك به سيُركِس تلك المجتمعات في التخلف والجهل .

❖ **الهجمة الرابعة** : انتهت إلي أن المجتمعات الإسلامية لابد لها من الأخذ بسبيل الرشاد والتقدم الذي سارت عليه المجتمعات المتقدمة !! .

لقد كان من شأن هذه الهجمات المخيفة أن تحدث تشققات وتصدعات بين المسلمين ، بين متأثر منجذب مأخوذ بفعل تلك الهجمات ، وبين كيس فطن لم تنطل عليه تلك الأراجيف ونشب الصراع حاداً بين الفصيلين .

إذا كان الأمر كذلك فكيف نأمن بأس أنفسنا ؟ ، الأمان بين المسلمين يعني جب الخلاف ، وجب الخلاف في توحيد الطريق ، والإسلام لا يعرف إلا طريقاً واحداً هو طريق الله ، يتفق عليه الجميع فيأمنوا الاختلاف ، وطريق الله هو أن يكون الإسلام شريعة وشعيرة في آن واحد، عبادة وحياة ، هنا يأمن المسلمون أنفسهم ، وإذا أمن المسلمون أنفسهم انتبهوا لعدوهم وتفرغوا للقائه .

## ثالثاً : أمن الأمة الإسلامية في مواجهة الآخرين :

أمن ذات البين يفرغ الذهن ويوجه العناية إلي أمن الآخرين ، فلكي نأمن الآخرين لابد أن نأمن أنفسنا أولاً ، والأمن في مواجهة الآخر . يأتي من ضمان الأمن للأمة الإسلامية على ثلاث ثوابت :

### ❖ الثابت الأول : ضمان أمن العقيدة :

يتحقق ضمان أمن العقيدة من خلال قناعتنا وإقرار الآخرين بأن عقيدة التوحيد هي الأصل والجوهر . الذي تنبعث منه كافة الأسس والأصول التي ترتكن عليها شريعة الإسلام ، وتحدد الإطار العام والشامل لضبط حركة الإنسان وترتيب تفاعلاته مع عناصر الوجود .

### ❖ الثابت الثاني : ضمان أمن الحضارة الإسلامية :

يتحقق ضمان أمن الحضارة الإسلامية بالحفاظ على تراثها وتمجيده ، والسعي من أجل تحقيق التواصل الحضاري لربط الماضي بالحاضر تمهيداً لصناعة المستقبل .

### ❖ الثابت الثالث : ضمان أمن الثقافة الإسلامية :

يتحقق ضمان أمن الثقافة الإسلامية بالبحث عن الثقافة الإسلامية الخالصة ، التي تعتمد على طروحات إسلامية أصيلة ، وتعميق وتوسيع المعارف الإسلامية لتعم كافة مجالات ومناحي الحياة . والتعامل مع كافة الحقول العلمية بالمنطق الثقافي الإسلامي .

## المبحث الثالث

## نحو إطار عام للتلاقي بين الجيوش الإسلامية فكراً وحركةً

من السهل سرد ما كان ، ووصف ما هو كائن ، ولكن من الصعوبة بمكان الحديث عما سيكون ، فما سيكون دوماً محجوباً ، ولكن الأمل يستدعيه حسب الطلب والمرغوب ، ومن حقنا أن نعرب عن آمالنا ، ولكن لا ينبغي أن تجاوز الواقع وتحلّق في أجواز الخيال ، فتجاوز الواقع افتئات على الحقائق ، أما التعامل معه فهو المنطق الذي يقود فعلاً إلي تطوير الواقع وتجاوزه إلي طور جديد قد يقترب من المأمول .

فهل نطلب تحقيق وحدة إسلامية وجيش إسلامي موحد !! ، إن المطالبة السابقة لا تستوي مع الواقع ولا تستقيم مع المنطق ، ومن ثم فمآلها الأمنيات والأماني ، أما الواقع الإسلامي الراهن فيحتاج إلي نظرة تعمق وتمحيص للتعامل معه بواقعية وجدية ، إن ثمة بداية فكرية ضرورية للتعامل مع الواقع الإسلامي ، أساسها التسليم بضرورة الاعتماد على الوحدة السياسية [ تفعيل النموذج الجزئي ] كمنطلق للحركة والعمل ، أي أنه لابد من الانطلاق من واقع التجزئة القائم الآن في العالم الإسلامي ، وتفعيل حركة الدولة كأداة للتكتيل خلف الفكرة الإسلامية ، ويتطلب ذلك تنشيط العمل الإسلامي على مستوى النظم السياسية التي تحرك الدول ، والنظم السياسية لا تتحرك ولا تنطلق نحو العمل الجاد إلا بفعل قوة محركة ضاغطة ودافعة نظنها التيار الرشيد المستنير الذي يشكل قوام هيئة كوكبة علماء الأمة . ومن هنا يبدأ التعامل مع الواقع بكافة خصوصياته وتفريعاته .

فعلى المستوى العسكري شُغلُنا في هذا الموضع ، يمكن التنقيب عن إطار عام للتلاقي بين الجيوش الإسلامية في الفكر والحركة ، ويمكن تجميع تقاطيع وملامح ذلك الإطار في الآتي :

### أولاً : توقيع اتفاقية فعالّة للدفاع المشترك بين الدول الإسلامية :

اتفاقية الدفاع المشترك تجعل من جيوش الدول الإسلامية أداة فعالة وحقيقية للدفاع عن أمن تلك الدول وسلامتها ، وهذا يضع الأسس المتينة للأمن العقيدي الإسلامي — الذي سبق الحديث عنه – ، ويرتبط اتفاق الدفاع المشترك بين الدول الإسلامية بفكرة الردع الإسلامي الشامل التي نحيل إليها في المجلد الحادى عشر .

والاتفاقية المقترحة لا تُغري بتكثيف الجهود للاعتداء أو التعدي ، ولكنها للدفاع عن عقيدة الأمة وتوابعها من حضارة وثقافة ، وتأمين الأجواء المناسبة لبدء عملية التواصل الحضاري الذي ينبغي أن يستقطب اهتمام الجميع .

### ثانياً : الاتفاق حول قواسم مشتركة للعقيدة القتالية :

يستتبع توقيع اتفاق الدفاع المشترك الاتفاق حول قواسم مشتركة للعقيدة القتالية للجيوش الإسلامية ، ويتم ذلك عبر مسلكين :

- **المسلك الأول** : يتمثل في توحيد التخطيط الاستراتيجي على مستوى القيادات العامة المشتركة للجيوش الإسلامية ، ومحاولة وضع الأسس لصياغات إسلامية في إطار الاستراتيجية العامة، وهذا المسلك الفكري يتم عبر لقاءات دورية وندوات فكرية يتم تنسيقها في إطار اتفاقية الدفاع المشترك المشار إليها .

- **المسلك الثاني** : تشكيل الجيوش وتنظيمها حسب خطط متفق عليها ، على أن يشمل ذلك التشكيل كافة العمليات ابتداءً من تشكيل الأسلحة وحتى قيادة العمليات وحركة الجيوش في الميدان ، وهذا يسهل عمليات الالتحام والتنسيق المباشر والسريع أثناء العمليات الحربية المشتركة .

**ثالثاً : التدريبات والمناورات المشتركة :**

التدريبات والمناورات المشتركة لها أهميتها في توثيق عرى التلاحم بين الجيوش الإسلامية ، فهي تعمق القواسم المشتركة للعقيدة القتالية ، وتستحضر جاهزية تلك الجيوش واستعدادها الدائم للتصدي لأية اعتداءات على تراب الأمة ، وتتم هذه التدريبات والمناورات بشكل دوري ، وقد تتم بشكل استثنائي ، وتشمل التدريب على القتال في أجواء وبيئات متباينة ، كما تتضمن التطبيق العملي للأطر الاستراتيجية الفكرية .

**رابعاً : التصنيع العسكري [ إحالة ] :**

يدخل التصنيع العسكري ضمن أوجه التلاقي التي يُسعى لإحرازها بين الجيوش الإسلامية، والتصنيع العسكري من الموضوعات ذات الاهتمام الخاص ، والتي تتسم بالتعقيد والتشابك مع قضايا أخرى ، كما تحتاج إلي تنسيق على قدر عال من التخصص والحساسية ، وقد سبق وتناولنا عدة قضايا خاصة بالتصنيع العسكري في الفصل الأول من هذا الجزء .

**والله من وراء القصد**

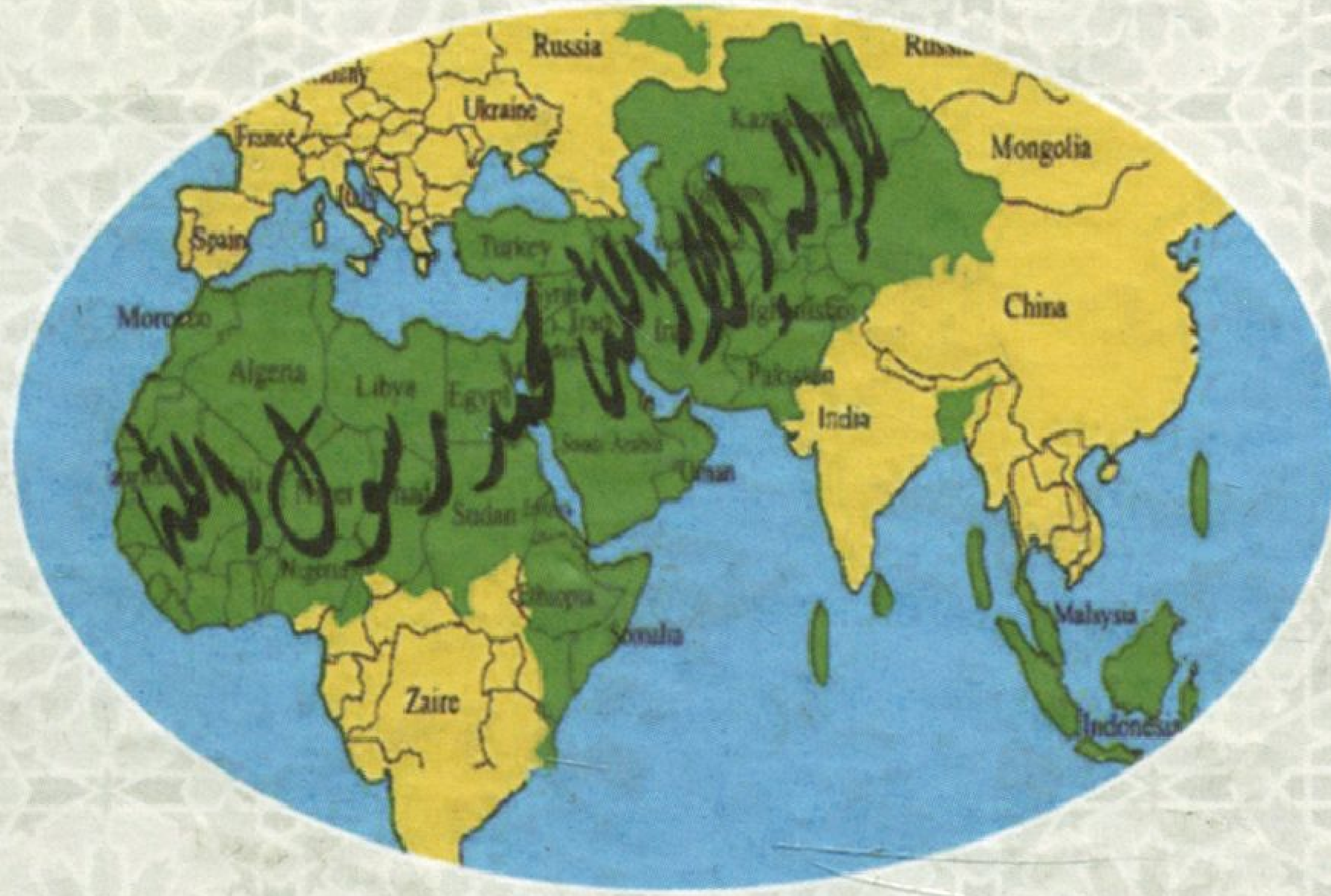


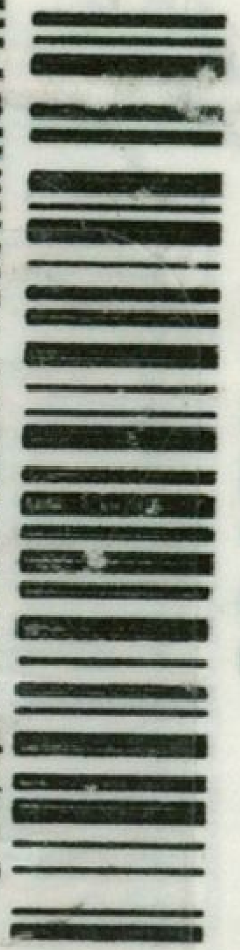



**البريد الإليكتروني**

ALDORAR_ALZAHERA@YAHOO.COM

من أجل
منهج إلهي محقق
وعالم إسلامي موحد
وحياة اجتماعية طيبة
ومسلم صالح حصيف
وخاتمة سعيدة




نهدي هذا
الجهد المتواضع
العبد الفقير إلى عون ربه